ألا يا مستعيرا الكتب عني ... فإن عارتي للكتب عارُ
فمحبوبي من الدنيا كتابي ... وهل أبصرت محبوباً يُعار

دار إحياء الكتب العربية

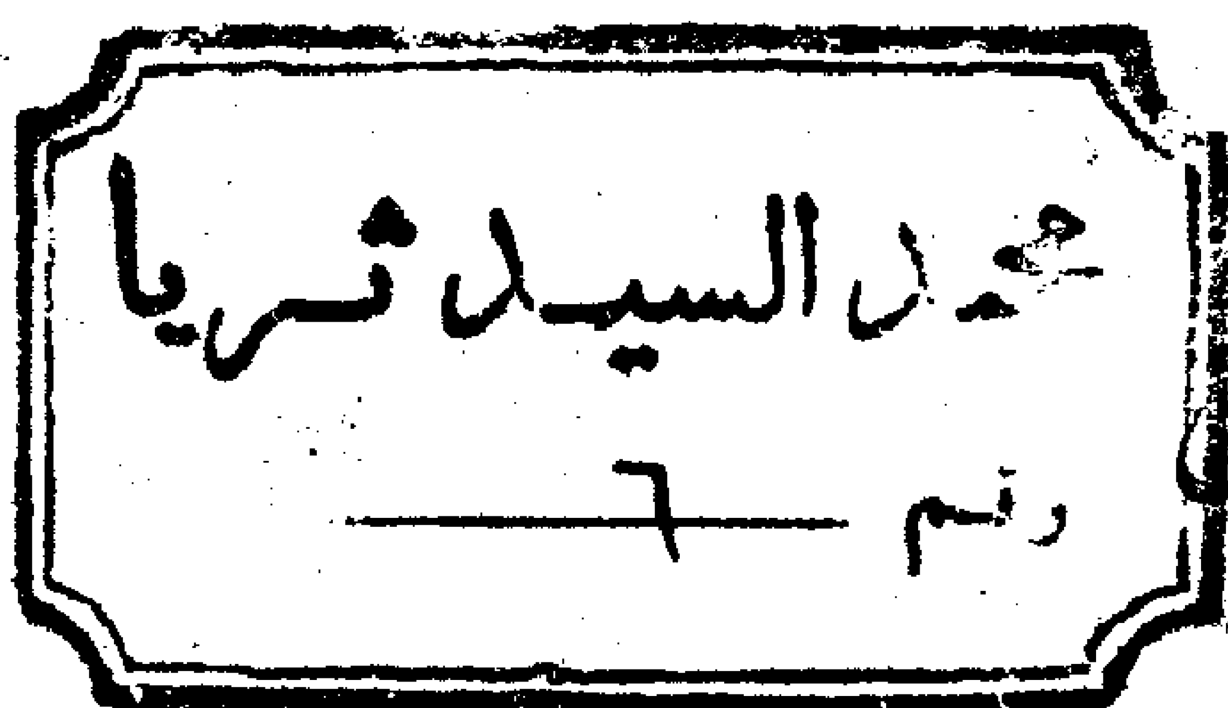
روح التربية والتعليم

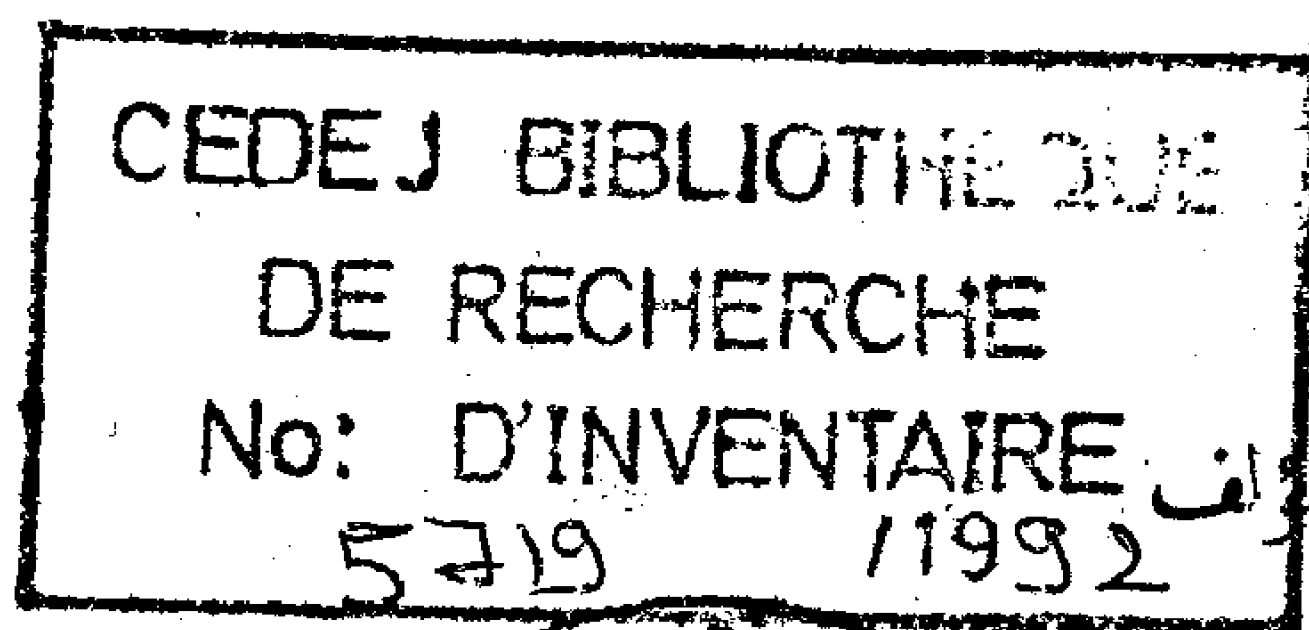
تأليف

محمد عطية الابراشي

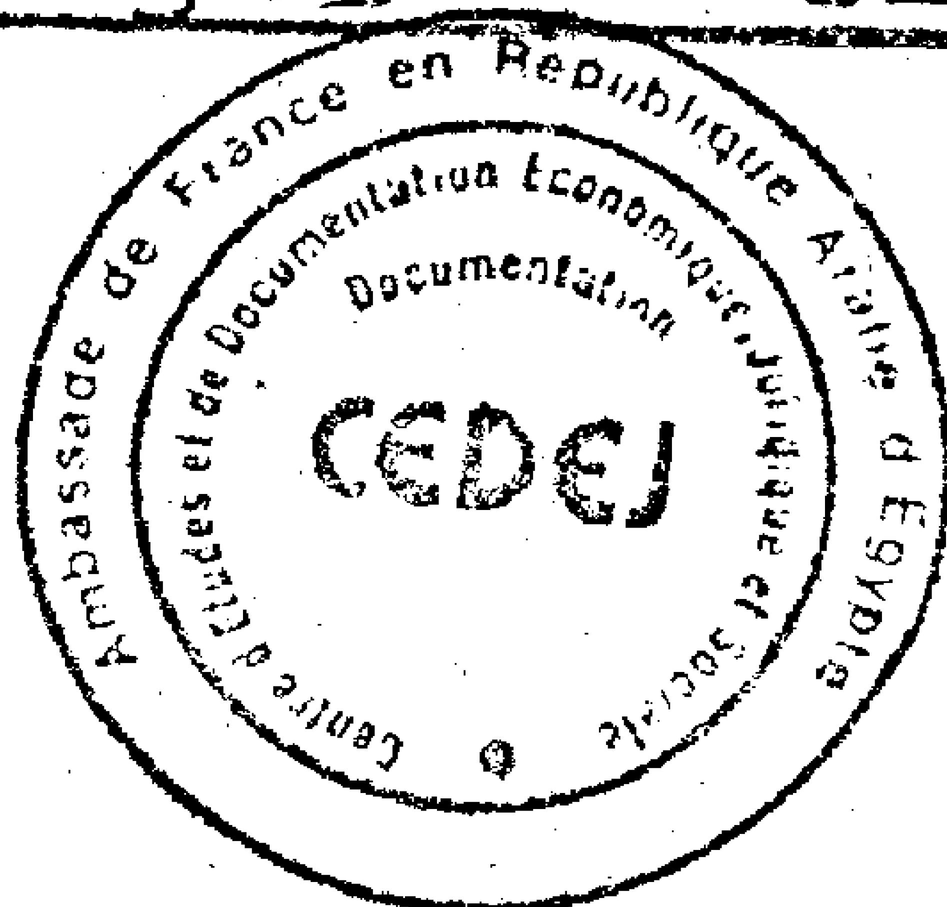
خريج جامعتي اكستر ولندن

والأستاذ بدار العلوم





حقوق الطبع محفوظة للمؤلف



الطبعة الثانية منقحة ومزيدة

١٣٦٢ هـ - ١٩٤٣ م

عُنيت بنشره مكتبة ومطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين . وبعد فإن مشاكل التربية من قديم الزمان كثيرة معقدة ، وكلما وصل العلماء إلى حل طائفة منها حلاً مرضيا نشأت مشاكل أخرى تتطلب الحل السريع ، والتفكير السديد ، ولكن هممهم العالية ، ، وغاياتهم السامية كانت تذلل العقبات ، حتى كللت جهود أولئكم المربين بالنجاح الباهر ، والتقدم العظيم .

واليوم أتقدّم إلى المثقفين عامة ، والمشتغلين بشئون التربية والتعليم خاصة ، بكتاب هو ثمرة كثير من التجارب التى لمستها فى أثناء قيامى بالتفتيش ، وما شاهدته فى دروس التربية العملية ، وما قرأته من كتب ، وما انتفعت به من آراء كبار المربين والمصلحين .

وقد كان رائدى فى عرض بحوث هذا الكتاب : « روح التربية والتعليم » أن أختار أحدث الآراء والنظريات التى يمكن الانتفاع بها ، ويسهل تطبيقها فى مدارسنا المصرية ، فشرحتها بإسهاب ، ثم وضَّحتها بكثير من الأمثلة ؛ لينتفع بذلك المربون والمربيات انتفاعاً يمهد أمامهم سبل النجاح فى مهنة التدريس .

ولقد وجَّهتُ عنايتى إلى بسط كثير من التجارب العملية التى تتجدد كل يوم بين جدران المدارس ؛ ليتخذ منها المدرسون ورجال التربية ما يسهل الكثير من شئون مهمتهم فى الحياة . فتجعلهم أكثر إفادة ، وأقرب إلى الصواب فى العمل .

وكنت أود مخلصاً أن تكثر كتب التربية باللغة العربية ؛ لأننا ما زلنا فى حاجة إلى كثير من الكتب التى تعالج شئون التربية قديماً وحديثاً ، وتبحث فى كثير من نواحيها المتشعبة، ليسترشد بذلك المعلمون والمعلمات، ولتكون نبراساً يهتدون بهديه، ولينتفعوا بها فى تقويم المعوج ، وإصلاح الخطأ . وسيجد هؤلاء وكثير غيرهم أن هذا الكتاب قد بحث كثيراً من الموضوعات الحديثة فى التربية التى لم تكتب بالعربية قبل اليوم .

وقد راعيت فى أسلوب الكتاب السهولة والوضوح ؛ كى لا أكلف القارئ عناء فى الفهم ، أو كدًّا فى التحصيل .

وقد كان لزاماً بعد أن انتشر التعليم فى هذه النهضة المباركة فى مصر ، وما نالته البلاد من الحرية فى مفتتح عصر مليكنا الشاب أن تكون هناك حركة تأليف فى عالم التربية تساعد فى تأثيل هذه النهضة وتقدمها ؛ فكان هذا فى مقدمة البواعث التى دفعتنى إلى أن أضيف إلى تراث التربية باللغة العربية هذا الكتاب .

ولست أدعى الكمال فيما وصلت إليه ؛ فالكمال لله وحده ، غير أنى بذلت كثيراً من الجهد فى تصوير المثل العليا التى تشغل بال المفكرين والمربين فى العصر الحاضر . والله أسأل أن يجعل الانتفاع بهذا الكتاب كِفاء ما بذل فيه من وقت ومجهود ، إنه سميع مجيب ؟

القاهرة فى { أول محرم سنة ١٣٦٢ هـ
٧ من يناير سنة ١٩٤٣ م }

محمد عطية الابراشى

الفَصْلُ الأوّل

التربية ومعناها

قد حاول كثير من المربين أن يعرفوا التربيـة واختلفوا كثيراً فى تعريفها اختلافهم فى الغرض منهـا . ولنذكر هنا بعض التعريفات التى تستحق الذكر بالإجمال :

١ — التربية : إعطاء الجسم والروح كل ما يمكن من الجمال ، وكل ما يمكن من الـكمال ـ (أفلاطون[١]) .

٢ — التربية هى الطريقة التى بها يُـكوِّن العقل عقلا آخر ، ويكوِّن القلب قلباً آخر ـ (جُولْز سيمون[٢]) .

٣ — إن الغرض من التربية إعداد العقل لـكسب العـلم ، كما تعد الأرض للنبات والزرع ـ (أرسطو[٣]) .

---

١ — Plato : هو فيلسوف من فلاسفة الإغريق القدماء ، ولد سنة ٤٢٧ ق. م. وتوفى سنة ٣٤٦ ق . م . ومن تلاميذه أرسطو . ومن آراء أفلاطون العناية بتربية أبناء الأغنياء ليحكموا ، وتربية أبناء الفقراء ليعملوا ويشتغلوا بالصناعة .

٢ — Jules Simon : (١٨١٤ ـ ١٨٩٦ م) : فيلسوف من فلاسفة الفرنسيين وساستهم. وله كثير من المؤلفات، منها : « المدرسة » و « تاريخ مدرسة الإسكندرية » .

٣ — Aristotle : هو من أكبر فلاسفة الإغريق ، كان مربياً للإسكندر المقدونى، وقد تتلمذ على أفلاطون ، ولد سنة ٣٨٤ ق. م . وله مؤلفات ثمينة فى العلوم والفنون.

٤ — التربية الكاملة هي التي تجعل الإنسان صالحاً لأداء أي عمل ، عامًّا كان أو خاصًّا ، بدقة وأمانة ومهارة ، في السلم والحرب — (جون ملتون[1]) .

٥ — التربية تنمية كل قوى الطفل تنمية كاملة متلائمة — (بستالوتزى[2])

٦ — التربية إعداد الإنسان ليحيا حياة كاملة — (هربرت سبنسر[3]) .

٧ — التربية تهذيب القوى الطبعية للطفل ؛ كي يكون قادراً على أن يقود حيـاة خلقية صحية سعيدة — (صَلِي[4]) .

٨ — الغرض من التربية أن نصل بالإنسان إلى الكمال الممكن — (كانت[5])

٩ — التربية إعداد الفرد إعداداً يمكنه من مساعدة أبناء أمتـه . وفي نظير تلك المساعدة يجد مساعدة منهم — (و . ت . هاريس)

١٠ — التربية إعداد الفرد ليسعد نفسه أولاً ، وغيره ثانياً — (جيمز مل[6]) .

١١ — التربية الكاملة هي تلك التي تحفظ الصحة البدنية ، والقوة الجسمية للتلميذ ، وتمكنه من السيطرة على قواه العقليـة والجسمية ، وتزيد في سرعة إدراكه وحدة ذكائه ، وتعوده سرعة الحكم ودقته ، وتقوده إلى أن يكون رقيق الشعور ، يؤدي واجباته بذمة وضمير — (هِيل)

---

١ — John Milton : (١٦٠٨ — ١٦٧٤ م .) من أكبر شعراء الإنكليز وأئمتهم في التربية ، وله رسالة ثمينة في التربية . ويعد أشعر شعراء الإنكليز بعد شكسبير .

٢ — Pestalozzi : هو (يوحنا هنري بستالوتزى) من قادة التربية ، ولد بسويسرة سنة ١٧٤٦ وتوفي سنة ١٨٢٧ م ، وعمل على تحسين أحوال الفقراء بتعليمهم ، وله كتابان من أثمن الكتب في التربية .

٣ — Herbert Spencer : هو فيلسوف من فلاسفة التربية الإنكليز (١٨٢٠ — ١٩٠٣ م) ، وله كتب قيمة ، وآراء سديدة في التربية والتعليم .

٤ — Sully : فيلسوف إنكليزى من فلاسفة التربية وعلم النفس .

٥ — Immanuel Kant : هو فيلسوف ألماني (١٧٢٤ — ١٨٠٤ م) ، له ثلاث رسائل عن العقل والفكر ، والأطفال وطبائعهم .

٦ — Jemes Mill : فيلسوف من فلاسفة الإنكليز (١٧٧٣ — ١٨٣٦ م) .

والحق أن كل تعريف من هـذه التعريفات[١] يحمل فى ثناياه مثلا من المثل العليا التى يبغى المربون تحقيقها والوصول إليها . وفى نظرنا أن التربية هى إعداد المرء ليحيا حياة كاملة ، ويعيش سعيداً ، محبًّا لوطنه ، قويًّا فى جسمه ، كاملا فى خلقه ، منظماً فى تفكيره ، رقيقاً فى شعوره ، ماهراً فى عمله ، متعاوناً مع غيره ، يحسن التعبير بقلمه ولسانه ، ويجيد العمل بيده . فإذا استطعنا أن نصل إلى تحقيق هـذه الأغراض بالتربية والتعليم ـ وهذا كل ما نرجو ـ وصلنا إلى التربية الوطنية، والجسمية والخلقية ، والعقلية ، والوجدانية ، والعملية ، والاجتماعية، والجمالية ، واللغوية ، وإلى المثل الأعلى من الإنسان الكامل .

---

(١) قد اعتمدنا فى معظم ما ذكر من خلاصة هـذه التعريفات على ما كتب فى الفصل الثامن ص ١٠٢ ـ ١٠٣ من كتاب :

The Teacher And The School, By C. P. Colgrove.

أهمية التربية للفرد والجماعة

إن التربيــة أساس النجاح للفرد والمجتمع ، لذلك تنفق الحكومات فى الأمم المتمدينة بسخاء على التعليم ، موقنة أن فى التعليم قوة ، وقوة كبيرة ، فى ترقية الفرد والنهوض بالمجتمع إلى حياة راقية ، وعيشة راضية . والتاريخ خير دليل على أن بالتربية والتعليم تحيا الشعوب من موتها ، وتستيقظ من سباتها ، وتنتبه من غفلتها ، وتقلل سجونهــا . لقد دافع (بستالوتزى) عن تعليم الشعب فى سويسرة ، ونادى به بأعلى صوته، فكان له ذكر حسن فى حياته وبعد ممــاته ، لا فى سويسرة فحسب ، بل فى العالم أجمع . وسويسرة الحالية أثر حسن من آثار (بستالوتزى) ، ورقيها فى التعليم ينسب إليه .

هَزم نابليونُ (بروسيا) فى موقعة « چينا » هزيمة كبيرة ، فحطم قوتها ، ولم يرفع الأمة المهزومة من الحضيض إلا مدارس الشعب وتعميم التعليم . قال (بسمارك) بعد الحرب السبعينية : (لقد غلبنا جارتنا بمعلم المدرسة) .

ويعتقد (اللورد ماكولى) ـوهو أديب وقاض إنكليزى من القرن التاسع عشرـ أنه قبل نشر التعليم باسكوتلندة كان الشقاء كثيراً، والجهل سائداً، والكسل عامًّا ، والإخلال بالقانون منتشراً بها . وكان المجرمون يخلون دائماً بالأمن العام ، ويكدرون صفو كثير من السكان فى كل جزء من أجزائها . وكان اسم (اسكوتلندى) يُعد معرّة وعيباً ، فكان إذا ذُكر ذُكر باحتقار وعدم اكتراث ، لكن حينما نفذ قانون التعليم العام ، وابتدأ الأميون يتعلمون ، وأخذ الأطفال الذين بلغوا سن التعليم يذهبون جميعاً إلى المدارس ، حدث تحسن كبير فى اسكوتلندة ، تحسن لم ير العالم مثله ، وظهر رقى فى الأخلاق والآداب والتفكير .

لا يزال الهواء فى اسكوتلندة بارداً كما كان ، ولا تزال الصخور الاسكوتلندية عارية جرداء كما كانت من قبل ، ولا تزال مناظرها الطبعية كما كانت فى غابر الأزمان ، ولكن الشعب قد تغير ؛ تغير بالتعليم حتى أصبح أعظم شعب فى العالم ؛ فى الجلد والخشونة ، والذكاء والمثابرة ، والاقتصاد والصناعة . والآن فقط قد اعترف بفضلهم ، وعرفت فضائلهم ؛ فعلى أكتاف الأسكوتلنديين بُنِيَت الإمبراطورية الإنكليزية .

وفى القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر كان الحكام المستبدون فى أوروبا - وبخاصة روسيا - يخافون دائماً تعليم الجمهور، وكانوا يعتقدون أن العلم كالملح يعد مصلحاً إذا أخذ منه مقدار قليل ، ومفسداً إذا أكثر منه ؛ كأن العلم مادة سامة . ومن كلماتهم المأثورة : «علم الفقراء اليوم وغداً سيكونون ضدك ». أما اليوم فقد برهنت التجربة وأثبت التاريخ فساد الوهم السابق ، وشعر العالم بأن التعليم هو خير وسيلة للتفاهم مع العامة . فبالتعليم يستنير فكر الجمهور ، فيسير فى الطريق المستقيم، ويحكم عقله، ويميز الحسن من القبيح ، والغث من السمين. أما الجاهل فمن الممكن التأثير فيه بسهولة ؛ لأنه لا يستطيع أن يسترشد بعقله ؛ فهو دائماً يميل كلما أمالته الرياح والعواصف ، كالريشة يطيرها الهواء كيف يشاء ؛ لأنه يعتمد على العاطفة أكثر من اعتماده على العقل .

فى سنة ١٩٢٠ م . رأت الحكومة الإنكليزية أنها مثقلة بالديون بعد الحرب ، ففكرت فى اقتصاد بضعة (ملايين) من الجنيهات ، فلجأت إلى ميزانية التربية والتعليم لتنقصها شيئاً مّا ، فكانت النتيجة الإخفاق ؛ لأنها قوبلت بمعارضة شديدة من جميع المفكرين من كل طبقة من الأمة الإنكليزية . وكان الجواب : « اقتصدوا فى كل شىء ، ومن كل شىء إلا من مالية التعليم ». ومن هذا يتبين مقدار ثقة الشعب الإنكليزى بالتعليم وأثره ، واستعداده لتقديم أية تضحية فى سبيله .

وهنا نسأل: ما النتيجة التى حصلت عليها تلك الأمة من تعميم التعليم؟ إن نظرة واحدة إلى عدد المجرمين قبل تعميم التعليم وبعده تبين بوضوح أثر التربية والتعليم فى الشعوب، وفى النفوس، فى الفرد والمجتمع، وتدل على صدق كلمة (فكتور هوجو): « من فتح مدرسة فقد أغلق سجناً » ، تلك الكلمة التى ينبغى أن تكتب بقلم من النور على باب كل مدرسة ، وفى كل ميدان عام .

ولاغرابة؛ ففى انجلترة يلتقط الأذكياء كالزهرة، ويوضعون فى المكان اللائق بهم، وتفتح السبل فى وجوههم ، كى تنتفع الأمة بذكائهم . فبعد التعلم الابتدائى بالمجان قد يحصلون على جائزة للمجانية فى المدارس الثانوية . وبعد الانتهاء من التعليم الثانوى قد ينالون جائزة للتعلم بالجامعة . وهنا أضرب مثلا (باللورد بركنهد) الذى كان من أكبر الوزراء العاملين فى وزارة المحافظين سنة ١٩٢٩ ؛ فإنه كان من أسرة فقيرة ، مات أبوه وهو طفل ، فعنيت والدته بتربيته وتربية إخوته بقدر ما استطاعت . عرفت ما خلق فى ابنها من الذكاء ، فتعهدته بالعناية ، وسارت به إلى الأمام . ذهب إلى (أكسفورد) ليمتحن امتحاناً يفوز الناجح فيه بالمجانية فى أكسفورد . ولم يكن معه إذ ذاك من النقود ما يكفى رجوعه إلى بلدته . ولقد نجح فى الامتحان ، ونال الجائزة الأولى التى كان يتوقف عليها مصيره ومستقبله . وتعلم فى (أكسفورد) مع أبناء الطبقة الخاصة من الأمة . وظهرت عليه علامات النبوغ والقدرة الخطابية، وقوة الحجة ، والتأثير فى السامع بطريقة منطقية فى محفل انتخابات كان يحضره الراحل « يوسف تشمبرلين » ، فأعجب به كل الإعجاب ، وسأله أن يقابله بعد الانتهاء من حياته الجامعية . ثم قابله بعد سنين ، فعرض عليه اللحاق بحزب المحافظين ففعل ، وثابر حتى وصل بعلمه وعمله إلى الدرجة التى كان يتمناها . ولو لم يعط « اللورد بركنهد » فرصة التعليم لقبر ذكاؤه حياً[١] .

---

(١) ارجع إلى كتاب «التربية الإنكليزية» وكتاب «التربية ضرورية للحياة» للمؤلف .

فالتعليم الحق هو الوسيلة الوحيدة لإغلاق السجون ، والسبيل الوحيد لرقى الفرد والجماعة . وهو سر عظمة الأمم . وقد خرج النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم فرأى مجلسين : أحدهما فيه قوم يدعون الله عز وجل ويرغبون إليه ، وفى الثانى جماعة يعلّمون الناس، فقال : « أما هؤلاء فيسألون الله ، فإن شاء أعطاهم ، وإن شاء منعهم، وأما هؤلاء فيعلّمون الناس ، وإنما بُعثت معلماً » . ثم عدل إليهم وجلس معهم . وبذلك ضرب النبي الكريم لنا خير مثل فى تشجيع التربية والتعليم ، والاعتراف بفضل مهنة التعليم .

وقال عبد الملك بن مروان لبنيه : يابنيّ ، تعلموا العلم ؛ فإن كنتم سادة فقتم ، وإن كنتم وسطاً سدتم ، وإن كنتم سوقة عشتم » . وقال مصعب بن الزبير لابنه : « تعلم العلم ؛ فإن لم يكن لك جمال كان لك جمالاً ، وإن لم يكن لك مال كان لك مالا » . فالعلم زينة من لا زينة له ، ومال من لا مال له .

وقال (شكسبير) : العلم هو الجناح الذى نستطيع أن نطير به إلى السماء . وقد صرح أحد الكتاب الفرنسيين بقوله : « إن العالم سائر بنجاح نحو التفكير فى الإنسانية . ومن المحال أن ترقى أمة من الأمم إلا بتعميم التعليم . ولا وسيلة لإنقاذ الناس من شر الجهل والرذيلة إلا بالعلم » . فالمدنية والحضارة ، والتقدم فى العلم والاختراع ، والإبداع الذى نراه بأعيننا فى الأمم المتمدينة نتيجة التربية العامة ، والتعليم المنتشر بين جميع الطبقات .

قال (چورج واشنطون[1]) محرر أمريكا : « العلم هو السبيل الوحيد ، والأساس المتين لسعادة الجمهور » . وإن كل أمريكى حتى اليوم يقدر هذه الحكم البليغة ، والجواهر الثمينة التى فاه بها (واشنطون) فى خطبة الوداع : « إن أول أمر هام هو أن تنهضوا بالمدارس لنشر التعليم العام » ؛ فلا سبيل لرقى أمة إلا بالعلم .

---

(١) ارجع إلى ما كتبناه عنه فى كتاب « قصص فى البطولة والوطنية . »

ولم يكتب (توماس چيفرسون[1]) ثالث رؤساء الولايات المتحدة بأمريكا أنبل من هذه الكلمات : « لو ينتظر شعب أن يكون حرًّا وجاهلا فى الوقت نفسه فإنه ينتظر ما لم يحدث ولن يحدث » .

فبالتربية يستطيع الإنسان أن يعرف ما يجب عليه نحو نفسه وغيره ، وبها ترقى الأفراد ، وبرقى الأفراد يرقى المجتمع ، وبعبارة أخرى ترقى الأمة .

ولقد قاسى (هوريس مان ، ومارى ليون ، وفرنسيس پارْكر) من المربين الأمريكيين كثيراً فى سبيل تعميم التعليم بالولايات المتحدة بأمريكا . ومدارس العامة بها اليوم ، هى الروضة الغناء للأطفال ، يتعلمون فيها الإخلاص لبلادهم ، والحب لوطنهم ؛ بها تحفظ حقوقهم ، وتصان حريتهم . تلك المدارس بأمريكا هى الوسيلة الكبيرة للتوحيد بين السكان الكثيرين من الأجانب فيها ، على اختلاف نزعاتهم وميولهم ، وعاداتهم وأخلاقهم وأنظمتهم ؛ فقد استوطنها كثيرون من اسكوتلندة وويلز وانجلترة وإرلندة وفرنسا وألمانيا وروسيا وإيطاليا وسورية . وليس التوحيد بين هؤلاء السكان بالأمر السهل ، ولكن مدارس الشعب قد وحدت بينهم ، وجعلتهم أمريكيين ، وبثّت فى نفوس أبنائهم حب بلد اتخذوه بلداً لهم ، والإخلاص لوطن جعلوه وطناً لهم . وهم الآن يعدون أمريكيين ، لهم ما للأمريكيين، وعليهم ما عليهم. والفضل كله لمدارس الشعب التى يتقابل الناس فيها من كل جنسية ودين وطبقة ، على أرض واحدة ، وتحت سقف واحد ، من غير ما تفريق أو تمييز .

وللمدارس العامة فى أمريكا مكان كبير فى قلوب الشعب ، والشعب ينظر إليها نظرة من يقدرها . ويعتقد الأمريكيون أن بالتربية والتعليم تستطيع الولايات المتحدة الأمريكية أن تقود العالم فى الأفكار والاختراعات والصناعات ؛ لذلك تجدهم يدفعون

---

(١) ولد سنة ١٧٤٣ م . ، وقد انتخب للرياسة سنة ١٨٠١ م . وكان أديباً عالماً ، وسياسياً يميل إلى التربية والتعليم .

ضرائب التعليم بقلوب راضية، ونفوس مطمئنة ، ولا يعدونها حملا ثقيلا على أكتافهم، بل يعدونها واجباً عليهم نحو أمتهم ، نحو أمة يفخرون بالانتساب إليها ، ويعملون لإسعادها وترقيتها .

وفى تلك الولايات الأمريكية لا ينظر دافعو الضرائب إليها نظرتهم إلى صدقة من الصدقات ، بل يعدونها ضرورية لرقى الأمة وسعادة المجتمع ، ويثقون بأن سعادة الشعب تتوقف على ذكائه ، وتربيته تربية حقة ، ويعتقدون أن النفقة على تعليمه هى وسيلة للغنى والثروة . فالعمل المصحوب بالجهل ليس بالرخيص ، بل هو غال دائماً ؛ فكثيراً ما يتلف العامل الجاهل الآلة التى فى يده لجهله . وهو على الدوام فى حاجة إلى من يراقبه ويلاحظه ويبين له طريقة العمل . وهو فى الغالب لا ذمة له ولا ضمير ؛ قد يوعز إليه غيره بإبادة العمل فيبيده ، وما أسهل التأثير فى العامة . إنه لجهله لا يعرف كيف يستعمل أوقات فراغه فى أمور نافعة ، من إصلاح نفس ، وجلب مسرة ، ورياضة بدنية ، وقراءة كتب أدبية ، واستماع محاضرات ومناظرات ، فيعتاد السكر والميسر ، والعنف والإخلال بالقانون ، حتى يصبح خطراً كبيراً على أى مجتمع .

أما العمل الذى يصحبه العلم والذكاء وحسن التصرف فى أمريكا فقد أوجد المصانع بها، وجعلها تنتفع بغاباتها ، وأخضع براريها، وفتح مناجمها ، وأنشأ الترع بها، ونظم سككها الحديدية ، وأوجد لها فرصاً كبيرة للحصول على الأموال واستثمارها ، حتى أصبحت الولايات المتحدة أغنى أمم العالم ثروة ، وأحسنها علماً وصناعة وزراعة وتجارة . ومن أراد الاستزادة فى هذا الموضوع فليرجع إلى ما كتبناه فى موضوع « مصر وتعميم التعليم » فى كتابنا : « التربية ضرورية للحياة » .

الفرق بين التربية والتعليم

هناك فرق كبير بين التربيـة والتعليم ؛ فالتربية إعداد الفرد بكل وسيلة من الوسائل المختلفة؛ كى ينتفع بمواهبه وميوله ، ويحيا حياة كاملة فى المجتمع الذى يعيش فيه. وتشمل التربية الوطنية، والجسمية، والعقلية، والخلقية، والاجتماعية، والوجدانية والجمالية. أما التعليم فهو ناحية من تلك النواحى المختلفة للتربية؛ فالتربية أعم من التعليم، بها نحيي المواهب الفطرية لدى الشخص، ونوجهها توجيهاً صالحاً حتى تصل إلى النهاية المقدرة لها من الـكمال ، وتتطلب عملاً منظماً ، ونشاطاً دائماً ، وتقدماً مستمرًّا ، وعناية تامة بتفـكير الطفل ، ووجدانه وعاطفته وإرادته ، وجسمه ، وعقـله ، ولسانه ، ويده .

ولا يتطلب التعليم أكثر من معلم يقوم بتعليم غيره وتلقينه ما يشاء من المعلومات والآراء والأفـكار بالطريقة التى يختارها ، ومتعلم يصغى لما يلقى ، وينتبه لمـا يسمع . ففى التربيـة بحث واطلاع ، واعتماد على النفس ، وتفـكير فى الصعوبة والوسائل للتخلص منها . وفى التعليم إصغاء وتلق لما يجود به المدرس. فالطفل فى التربية يعمل، وفى التعليم يصغى ويستمع ، فالتعليم جزء من التربية العقلية ، والغرض منـه كسب المعرفة وكسب المهارة ، والدراية بعلم من العلوم، أو فن من الفنون ، أو حرفة من الحرف .

أما التربية فهى إعداد الفرد للحيـاة علميًّا وعمليًّا ، جسميًّا وعقليًّا ، خلقيًّا واجتماعيًّا .

لهذا الفرق الكبير بين التربية والتعليم نتطلب من المدرسين دائماً أن يكونوا مربين لا معلمين ، بحيث يفكرون فى تربية النشء تربية كاملة من كل ناحية من النواحى ، ولا يقتصرون على ما يلقونه من المواد ، وما يعلمونه من الدروس ؛ فإن حاجتنا إلى التربيـة أكثر من حاجتنا إلى التعليم . وإذا كان هناك نقد يوجه إلى التعليم فى مصر فهذا النقد هو أن لدينا كثيرين من المعلمين ، وقليلين من المربين ، وأن لدينا تعليما لا تربية بالمعنى الكامل .

فالمدرس لدينا لا يفكر إلا فى مادته ونجاح التلاميذ فيها ، أما التربية الجسمية والتربيـة الخلقية ، والتربية الوجدانية ، والتربية العقلية ، والتربيـة الوطنية ، والتربية الدينية فمهملة الإهمال كله ؛ فلا عجب إذا وجدنا الشكوى عامة من سوء التربيـة الخلقية ، وإهمال التربية الجسمية ، وتناسى التربية الوطنية ، ونسيان التربية الوجدانية ، وإغفال التربية الاجتماعية ، ونقص التربية العملية : الصناعية والزراعية والتجارية والفنية .

فالإصلاح الذى ننشده ونرجوه هو أن يكون المعلم مربياً ، ومربياً كاملاً ، يبغى الكمال والعمل للوصول إليـه فى كل ناحية من نواحى التربية . ولو استطعنا أن نصل إلى هـذا المربى الكامل فى كل مرحلة من مراحل التعليم الابتدائى والثانوى والعالى لوصلنا إلى الدرجة التى نبتغيها من التربية الحقة ، والتعليم المثمر ، وأعددنا النشء للحياة الكاملة التى نرجوها ، ولا نفكر فى سواها .

التربيـــــة الحقة

إن تربية الطفل فى الصغر لها أثر فى حياته فى الكبر ، لهذا ينصح المربون بالعناية بتربيته تربية حقة من الصغر بحيث لا يستطيع أن يفارقها فى الكبر ؛ لأنه إذا اعتاد أحسن العادات وهو صغير كانت له كالمواهب الفطرية وهو كبير . ولا عجب؛ فالعادة طبيعة ثانية تُكَوَّن بالتكرار والمران بعد الإرشاد من المربى الحازم . فالتربية الحقة تتطلب إرشاداً من المربى ، وتمرناً وتدربًا من المتعلم ، حتى يعتاد أحسن العادات الجسمية والعقلية والخلقية والصحية والاجتماعية . وإننا ننتظر من المدرس أن يراعى ناحية التربية الحقة لا الناحية العلمية وحدها ، ويعنى بتربية الحواس والعقل والجسم والإرادة والذوق والوجدان والخلق عنايته بالمعلومات المدرسية والوجهة العلمية .

ولا تقتضى التربية الحقة أن نكون على علم بالشىء فحسب، بل أن نعمل بما نعلم ، ونفكر فى تكوين الأخلاق وبث العادات الصالحة فى نفوس المتعلمين ، لا بالكتب وحدها، بل بالقدوة الحسنة ، وتشجيعهم على العمل ، وتكرار الأمور النافعة ، حتى تصبح عادة من العادات . وقد نادى بذلك جميع المصلحين من رجال التربية والتعليم. لهذا وضع (كومنيوس[1]) فى مناهجه ما يساعد على تربية الحواس ، والتربية البدنية ، وزاد الغناء والرسم والأشغال اليدوية بجانب التربية العقلية . وقد نادى (روسو) بأن المعلم الأول للطفل رجلاه ويداه وعيناه . وصرح (بستالوتزى) بأنه لا فائدة من العلم إلا إذا كان أساسا للعمل . وما الثمرة من أن يتعلم الطفل بعض

---

(١) هو (جون إيموس كومنيوس) (١٥٩٢ — ١٦٧١م.) من كبار المربين من الألمان، وممن نادوا بالعناية بتربية الحواس من فلاسفة التربية . ومن كتبه القيمة : «المرشد الأكبر فى التعليم» .

القواعد الصحية أو الرياضية أو اللغوية إذا لم ينتفع بها فى حياته العملية ؟ وما الفائدة من معرفة طرق وقاية العين إذا أهمل الطفل عينيه ؟ أو معرفة فوائد النظافة إذا كان لا يتحلى بها ؟ وما فائدة معرفة قواعد النحو والصرف وعلوم البلاغة إذا لم يستطع الطالب أن يقرأ قراءة صحيحة ، ويكتب كتابة صحيحة ، ويتكلم لغة عربية خالية من الخطأ ؟ وهل هناك فائدة من معرفة الجمع والطرح والضرب والقسمة إذا لم يستطع التلميذ أن يعرف ما يتبقى له من جنيه إذا اشترى شيئاً بعشرة قروش من تاجر ؟

وقد أسس (فروبل) طريقته فى التربية والتعليم على استغلال النشاط الذاتى للتلميذ مع حسن الإرشاد والقيادة ، والانتفاع بمواهبه . وصرح (هوريس مان) المربى الأمريكى بأن التربية الحقة مهملة ؛ لأن المدارس لسوء الحظ لا تعنى إلا بحشو الذاكرة ، والمدرسين لا يفكرون إلا فى كثرة الإخبار والتكلم ، وليست كثرة الكلام بالتربية والتعليم . وليست وظيفة المدرس تلقين المعلومات فحسب ، ولكن وظيفته العناية بالتربية الحقة من جميع النواحى. وينبغى أن يكون المعلم مربياً وأن يصحب التعليم بالتربية .

وفى التربية الحقة لا نتطلب من مدرس الجغرافيا أن يعلمها من الكتب والمصورات الجغرافية وحدها ، ولكننا نتطلب منه الاتصال بالبيئة الجغرافية الحقيقية ، فيدرس منها الأطفال الأنهار والتلال ، والمدن والشعوب . ولا ننتظر من مدرس الحساب العمل على أن يستظهر التلاميذ القواعد الحسابية ، بل ننتظر تفهيمها لهم بطريقة حسية عملية كى ينتفعوا بها فى حياتهم اليومية . ولا نود من مدرس القواعد حث التلاميذ على حفظ التعريفات والأحكام العامة ، بل نود منه أن يسير معهم بالتدريج خطوة خطوة حتى يفهموها من الأمثلة ، فيمرنهم عليها ، ويكثر التطبيق حتى تثبت فى أذهانهم ، ويستفيدوا منها فى كتابتهم وقراءتهم وحديثهم .

وإننا اليوم لا نسأل عن مقدار ما حفظه التلميذ ، ولكننا نسأل ماذا يستطيع أن يفعل ؟ ألديه قوة فى الحكم ، وحسن فى المعاملة ؟ وما العادات الصالحة التى اعتادها ؟ أهو نشيط مثابر أمين يستطيع الاعتماد على نفسه فى العمل ، والمحافظة على صحته ، والتغلب على الصعوبات التى تعترضه ؟ أيطيع ما يؤمر به ، ويؤدى ما عليه من واجب ، أم يعصى ويهرب من أداء الواجب ؟

فالتربية الحقة تتطلب القدرة على العمل ، وقوة فى الحكم ، وحسن البصيرة ، وبعد النظر ، والتحلى بالعادات الصالحة ، والأخلاق الفاضلة : من النشاط والمثابرة ، والأمانة ، والاعتماد على النفس ، والعناية بالصحة ، والطاعة المعقولة ، وأداء الواجب ، وإرضاء الضمير فى السر والعلانية . وبهذه التربية يستطيع المتعلم أن ينتفع بعلمه فى حياته العملية ، ويستفيد مما درس من العلوم والتجارب والنظريات والحقائق العلمية . ولكى يصل المربى إلى هذه التربية الحقة يجب أن يفكر فى الطفل وتربية حواسه ، وذاكرته المنطقية ، وتهذيب خياله ، وتقوية إرادته ، وتربية عواطفه ، وعقله ، وتهذيب أخلاقه ، وتعويده أحسن العادات ، وتربية وجدانه وذوقه ويده ولسانه وشخصيته .

المبادئ التى تتطلبها التربية الحقة :

تتطلب التربية الحقة :

١ — العمل للوصول إلى الكمال أو ما يقرب منه .

٢ — الانتفاع بالمواهب الفطرية التى لدى الطفل ، وتوجيهها توجيهاً صالحاً ؛ فإن إهمالها يضعفها ويضعف قوتها .

٣ — تربية الغرائز وإعلاءها بتشجيع الصالح ، وتهذيب ما ينبغى تهذيبه منها .

٤ — العناية بالحواس والجسم والعقل والعاطفة والوجدان والإرادة والناحية العملية .

٥ — استغلال النشاط الذاتى للطفل حتى ينتفع بما وهب له الله من مواهب ، وما ورثه من ميول صالحة .

٦ — إعطاء الطفل الفرصة فى التمرن والتدرب حتى يكتسب أحسن العادات والأخلاق .

فللوصول إلى التربيــة الحقة يجب أن ننتفع بمواهب الأطفال ، ونعنى بتربيتهم جسمياً وعقلياً ، وخلقياً واجتماعياً ووجدانياً وعملياً ونستغل نشاطهم ، ونعودهم كثيراً من العادات الصالحة ، حتى يستطيعوا الانتفاع بها مدى الحياة . ومن السهل تكوين هذه العادات بالأعمال والتــكرار والمرانة ، حتى يعتادوا ما نريد أن يعتادوه . وليس فى الاستطاعة أن نعلم الأطفال ونربيهم تربية خلقية بمــا نذكره لهم من حكم وأمثال ومواعظ كل يوم ، ولــكننا نستطيع أن نربيهم هذه التربية التى نودها بالعمل والمرانة والقدوة الحســنة ، حتى يمكنهم أن يعيشوا فى مجتمع متمدين ، ويتحلوا بحسن الحديث ، وقوة الجسم ، والنظام والنظافة ، والأدب ، والدقة فى العمــل ، والطاعة السريعة ، والشفقة والأمانة ، وأداء الواجب ، وقوة الإرادة والشخصية .

هــذه المثل العليا يجب أن نعمل للوصول إليها ، وتعمل المدرسة والمدرسون لتحقيقها ، لتعويد التلاميذ العادات الصالحة من الصغر ، أما التفــكير فى العلم والعلم وحده فلا يكفى للتربية الحقة .

ولا نبالغ إذا قلنا إن التربية الحقة هى العمل على تكوين عادات صالحة فى نفوس التلاميذ ، والاستعانة بالغرائز والميول على تكوين هذه العادات . وليس الغرض أن نعلمهم فحسب ، ولــكن الغرض أن نشجعهم على أن يعملوا بما يعلمون ، فالعمل خير من العلم ، ولا فائدة من علم بلا عمل .

وبتــكوين هذه العادات الصالحة بالقيادة ، والإرشاد والتمرين ، والعناية ، نساعد الأطفال فى تكوين أخلاقهم ، وتربيتهم تربية حقة .

وسائل التربية

وقد عنيت الأمم الراقية بأمر التربية عناية لم يسبق لها مثيل فى جميع العصور ، وأصبحت مسائلها هى الشغل الشاغل للمصلحين من المربين ؛ لأنها أثبت الدعائم التى تبنى عليها أسباب الرقى والفلاح ، فلا يطمح مصلح فى النهوض بأمة إلى الرقى والكمال من غير أن يجعل للتربية المكانة الأولى من بين الوسائل التى يتخذها لرفع شأن أمته . ولقد أحس الأفراد أثر التربية العظيم فأصبحوا يفكرون فيها ؛ فالأب يفكر فى تثقيف ولده ، والمعلم يعمل على تهذيب تلميذه ، والأم تجهد نفسها فى أن تأخذ ابنها أو ابنتها بأحسن وسائل التربية ، وهكذا نرى الكل يتكلمون عن التربية ، ويبحثون عن المدرسة والتعليم ، ويعملون لرفع المستوى فيهما .

وقد يختلف هذا المربى عن ذاك فى رأيهما فى التربية ، ولكن المربين جميعاً يرمون إلى غرض واحد هو تربية كل طفل وطفلة ، وبعبارة أخرى تربية الشعب تربية كاملة .

وليست وسائل التربية مقصورة على عمل الآباء والمدرسين ، بل هناك من الوسائل ما هو خارج عن سيطرة الإنسان ، كالمؤثرات الطبعية ـ فإن لها عظيم الأثر فى التربية ، وكثيراً ما نادى بها روسو ـ وما يرثه الإنسان عن آبائه وأجداده ، وما يكسبه من اطلاعه وتجاربه الخاصة فى أثناء عمله ، أو قيامه بالرحلات فى البلاد الأجنبية ، وما يستفيده من الاتصال بغيره من الأصدقاء والرفقاء ، وما يلاحظه من القوانين والعادات والنظم ، وما يمر به فى أثناء اشتراكه فى الجماعات والأندية ، كل أولئك له أثره العظيم فى الوصول إلى الغرض المقصود وهو التربية .

فالتربية كما قلنا هى الوسائل المختلفة التى يمر بها الإنسان بالتدريج حتى يرقى من

من حالة الطفولة إلى حالة الـكمال ، من النواحى البدنية والاجتماعية والروحية والعقلية والوطنية والوجدانية .

والتربية كما يقول (فروبل) ينبغى أن تقود الإنسان وترشده إلى معرفة نفسه الداخلية ، وتقدير الطبيعة، والثقة بوحدانية الله ، ويجب أن ترفع الإنسان إلى الحياة الطاهرة المقدسة الناشئة عن معرفة الله والطبيعة والنفس الإنسانية .

والتربية أمر عام كالحيـاة نفسها . وتبتدئ تربية الطفل من وقت ولادته وقبل ولادته . وكل لحظة بعد ولادته تؤثر فى تكوين خلقه وفى حيـاته العقلية . فالمربى هو الشخص الذى يعمل وسيطاً بين الحياة والطفل ، فيختار له البيئة التى تلائمه ، والأمور التى تساعده فى الانتفاع بقواه التى ورثها عن آبائه وأجداده ، وفى معرفة تلك القوى وفهمها . وعمل المربى يُشبه عمل الطبيب الذى لا يستطيع أن يعطى الحياة أو يزيدها ، ولـكنه يستطيع أن يرشد الإنسان إلى الوسائل التى تساعد فى كماله من الناحية الجسمية والصحية . وأما الأم فتتمنى أن تكون قادرة على منح أطفالها أكبر وقت لتعليمهم، مع أن لديها كثيراً من الواجبات المنزلية، وهى لا تذكر أن اجتهادها وأمانتها وبشاشتها وشجاعتها وإيمانها وأملها وبرها وشفقتها وأدبها ، تؤثر فى عقول أطفالها من حيث لا تشعر ، فهذه التربيـة تربية بناء وتـكوين ، وتقويم وتهذيب ، تؤدى إلى الصحة والنشاط والقوة والـكمال .

التربية الحديثة قيادة ومراقبة وإرشاد

تتطلب التربية الحديثة أن تقود الأطفال وتساعدهم بطريق التعاون معهم فى تنمية المواهب الوراثيـة التى ورثوها عن آبائهم وأجدادهم ، وأن تراقبهم لتوجيههم دائماً إلى الطريق المستقيم حينما تراهم يضلون الطريق ، وتوجه قواهم إلى الاستمرار فى عمل خاص لأداء واجب معين . ويقتضى الإرشاد مساعدة التلميذ فى معرفة الأمور الغامضة عليه فقط ، وفهم ما يجب أن يقوم به من عمل ، من غير أمر أو نهى ، أو ضغط أو إجبار .

ويميل الأطفال إلى الاشتراك فى أعمال غيرهم؛ فاشترك معهم فى ألعابهم ، وتعاون معهم على أعمالهم ، وساعدهم من حيث لا يشعرون ، من غير أن تضايقهم أو تتغلب على إرادتهم ؛ بأن تتركهم يعملون العمل حتى يخطئوا فيه ويشعروا بحاجتهم إليك ، ويطلبوا منك المساعدة . وهنا يقدرون تدخلك فى أمورهم ، وينظرون إليك نظرة الشاكر لمساعدتهم .

تتطلب التربية الحديثة إرشاد الطفل حينما تشعر بحاجته إلى الإرشاد ، ويشعر بحاجته إليك . وبذلك تساعده فى أداء عمل بعد آخر للوصول إلى غرض خاص ؛ فقد يجد الطفل أحياناً صعوبة فى لعبة من اللعب ، فيركب جزءاً منها تركيباً خطأً ويضعه فى غير موضعه ، ثم يحاول إصلاحه فلا يستطيع . هنا يمكنك أن تبين له الخطأ حتى يتداركه ، فيستمر فى عمله حتى ينتهى من عمل النموذج . دعه يحاول حل مسألة حسابية أو تمرين هندسى ، ثم افتح له الطريق إذا نظر إليك يستعين بك على فتحه . اتركه يستمر فى عمـله حتى يقف أو يضل السبيل ، وهنا أرشده إلى خطئه ودعه يستمر . وبذلك تساعده ويقدر مساعدتك ، وتعوده الاعتماد على النفس ،

وترشده من حيث لا تضره ، وتعوده التفكير والمثابرة على العمل حتى ينجح فيه . فالطفل يحب معاونتك ، ولكنه لا يحب أن تأخذ مكانه وتقوم أنت بالعمل كله . ويشعر بلذة حينما يجد نفسه قادراً على العمل بنفسه ، فلا تساعده إلا حينما يشعر بأن العمل فوق طاقته .

وعلى حسب التربية يكون المربى ، وكما تكون المقدمات تكون النتائج ؛ فإذا كانت التربية حقة كونت رجالا قادرين أكفاء . وإذا كانت غير حقة أنتجت أنصاف متعلمين ، وآلات لا تستطيع أن تقرأ أو تكتب إلا الضرورى . فإذا أرادت الأمة تربية رجال عاملين وجب عليها أن تفكر فى المدرسين وتكوينهم ، وفى المدارس والمناهج ، وفى الكتب وطرق التربية للوصول إلى الغرض الذى تنشده .

وازن مثلاً بين شخص بدأ يتعلم ركوب الدراجة ، وآخر له دراية بركوبها ، فالثانى يستطيع أن يرشد الأول إلى الحركة التى يجب أن يتخذها ، ويوجهه إلى الجهة التى ينبغى أن يسير فيها ، وإلى الحركات التى لا ضرورة لها ، حتى يستطيع بالتمرين والإرشاد أن يجيد ركوبها . فالتعاون وتنفيذ الإرشادات مما يسهل النجاح فى العمل .

ويحتاج الإرشاد إلى أمرين : توجيه النظر إلى النقطة الهامة المطلوبة ، وترتيب العمل ترتيباً يؤدى إلى تلك النقطة . فيجب أن ينظم العمل ويعد بحيث إذا انتهى التلميذ من نقطة بدأ بأخرى ، وهكذا حتى النهاية ، باستمالته إلى الاستمرار فى العمل .

ومن الحزم أن يفكر المربى فى الغرائز التى لدى الطفل ، فيهذب ما يجب تهذيبه منها ، ويشجع ما يجب تشجيعه حتى يقود الطفل إلى السبيل السوى ، ولا يضحى به بحال من الأحوال ؛ فإن الطفل جوهرة ثمينة يجب أن تصان من أى شىء يضرها ؛ لأن الشعوب بالأفراد ، وبالمحافظة على هؤلاء الأفراد تحيا الشعوب .

وبالقدوة الحسنة ، والمراقبة الحكيمة ، والإرشاد الحسن ، يربى الطفل أحسن

تربية ، ويعتاد أحسن العادات ، ويفكر فى نتيجة ما يعمله ، ويصيب فى تقديره النتائج ، ويقوم بالواجب حباً للواجب من غير أن ينتظر جزاء ولا شكورا ، ويراقب الله فى كل عمل يعمله ، وينظر إلى علاقته فى عمله بغيره ، وعلاقة غيره به ، فيفكر فى المجتمع ، ويعمل لصالح المجتمع كما يعمل لنفسه .

وحينما يذهب الأطفال إلى المدرسة يذهبون بعقولهم ومعلوماتهم التى اكتسبوها قبل مجيئهم إلى المدرسة ، يذهبون غير ناضجين ، ووظيفتنا أن نتعهدهم حتى ينضجوا بطريقة الفهم المتبادل ، واللغة والتعاون ، والتمرن على العمل ، والمساعدة والتجارب ، والاستمالة والإيحاء ، والمحاكاة . فإنهم يميلون بطبيعتهم ونزعتهم إلى محاكاة غيرهم فى أعمالهم واعتقاداتهم ، وحركاتهم وسكناتهم ، ومحادثاتهم وآرائهم وأغراضهم . ويعد هؤلاء المقلَّدون نماذج لهم ، يتشبهون بهم فى أحوالهم ، ويقلدونهم تقليداً لا كتقليد الببغاء أو القرد ، بل تقليداً مقصوداً مصحوباً بالتفكير والذكاء والملاحظة .

وليست التربية الحديثة أخباراً مجردة ، وكتباً تحفظ ، ولكنها تربية عملية حية تعطى التلميذ كثيراً من الحرية ، وتعوده الاعتماد على النفس ، والمثابرة على العمل ، وتعمل على تقوية ملكة التفكير لديه ، كما تعمل على التقدم المستمر من حسن إلى أحسن ، وتفكر فى الحياة الاجتماعية للأمة ، وتحسين المجتمع فى كل ناحية من النواحى . ولا عجب ؛ فالمدرسة ينبغى أن تمثل الحياة الخارجية العملية كل التمثيل ؛ حتى لا تكون بعيدة عن تلك الحياة ، بل تكون متصلة بها كل الاتصال ، أو تكون هى الحياة بالفعل . ينبغى أن تعمل المدرسة للوصول إلى الإنسان الكامل ، بحيث يكون قويًّا فى جسمه ، منظماً فى تفكيره ، سامياً فى خلقه ، قويًّا فى إرادته وشخصيته ، مخلصاً لوطنه ، ماهراً فى عمله ، قادراً على التعبير بلسانه وقلمه ، يتعاون مع غيره ، ويشعر بشعور سواه ، يقدر ما فى الطبيعة من جمال ، فيرى بعينيه ، ويسمع بأذنيه .

التربية واجب اجتماعى

قبل أن نتكلم عن البيئة الاجتماعية وأثرها فى التربيــة نعرض للمجتمع أولاً فنذكر نبذة قصيرة عنه فنقول :

المجتمع مجموعة من الأفراد يتصل بعضهم ببعض ، ويعملون جميعاً للوصول إلى غاية خاصة . فالأسرة ومن يتصل بها من الأصدقاء والخدم ، وفرق الألعاب الرياضية ، ورابطة الأطباء أو المدرسين ، ونقابات العمال وغيرها من النقابات ، كل هذه جماعات تجمعها رابطة العمل والوظيفة ، والجنسية والتقاليد ، وتتــكون منها الأمة أو الدولة.

ولــكل جماعة من هــذه الجماعات تأثير خاص فى أعضائها من الوجهة الخلقية والعلمية والاجتماعية . انظر إلى جماعة المسجونين فى أحد السجون ، أو إلى جماعة من اللصوص فى مدينــة من المدن كجماعة « فَاجِن » فى رواية « أولفر تويسْت » (لشارلز دكنز[1]) تجد أعضاء هذه الجماعة قد تأثروا بعاداتها وأخلاقها ، ومبادئها وحياتها ، ونزعاتها ورغباتها ، تأثراً فعليًّا تامًّا . وإننا لنجد تلك النزعة واضحة جلية بين ظهرانينا فيمن ينتمون إلى حزب من الأحزاب السياســية ، أو إلى نقابة من النقابات، فإن كل عضو سرعان ما يتأثر بآراء حزبه ، ويعمل على نصرة مبادئ نقابته، ويتأثر بها كما يتأثر الإنسان بأسرته أو حكومته .

على أنه لا يشترط فى تلك الجمــاعات اتصال أعضائها اتصالا مباشراً حتى تعد مجتمعاً ، بل هناك كثير من الجماعات الدينية أو الفنية أو العلمية أو الأدبية أو الطبية التى ينتشر أعضاؤها فى جميع أرجاء العــالم . ومع هذا فــكل عضو يقوم بواجبه نحو الغاية التى أنشئت من أجلها الجماعة كالنهوض بالدين أو الفن أو العــلم أو الأدب .

(١) ارجع إلى كتاب « أروع القصص » لشارلز دكنز وهو لمؤلف هذا الــكتاب .

ولا صلة بينهم إلا ما ينشرونه فى المجلات مما تجود به قرائحهم من بحوث واختراعات ، وما يذيعونه من نظريات حديثة ، أو تجارب جديدة ، وبذلك يكون كل عضو على صلة تامة بما يعمله أبناء طائفته أو جماعته ، وذلك عامل كبير فى ترقية الفكر ، وحافز للإنسان على النهوض والرقى والعمل لتحسين المستقبل ، وبذلك يسير الكل إلى الأمام ويرقى المجتمع الإنسانى .

ومن أقوى العوامل فى رقى المجتمع وتقدمه التربية ؛ أى تربية الصغار من النشء فى ذلك المجتمع ، تربية تبنى على الماضى ، وتعمل لتحسين المستقبل . فالتربية هى الوسيلة الفذة فى تهذيب الإنسان وترقية مستواه الاجتماعى والخلقى والصحى والعلمى والفنى ، وتحويله من حالة الوحشية إلى المدنية ، ومن ظلمة الجهل إلى نور العلم ، ومن عالم ضيق إلى عالم فسيح الأرجاء ، هو عالم التفكير والاختراع .

التربية وسيلة لترقية الإنسان وتصويره بالصورة التى يقصدها المجتمع ، ووسيلة لرفع درجته وتحسين حياته ومعيشته .

البيئة الاجتماعية :

وخير عون يساعد المربين فى رقى المجتمع وتربية النشء ، إنما هو البيئة التى يربى فيها ذلك النشء ، فإن لها أعظم الأثر فى التربية . والمراد بالبيئة تلك العوامل التى من شأنها أن تؤثر فى قوى الطفل وميوله كالمنزل الذى يعيش فيه ، والمدرسة التى يتعلم فيها ، والملعب الذى يلعب فيه ، والمجتمع الذى ينتسب إليه . فالبيئة التى يعيش فيها الإنسان تقوده إلى أن يرى هذا الشىء ولا يرى ذاك ، وتشجعه على أن يعتقد اعتقادات معينة ولا يعتقد أخرى . وبهذه الوسيلة تبث فى نفسه بالتدريج طريقة خاصة يسير بها فى آدابه ومعاملاته ومحادثاته ، وعمله ونظامه ، ووظيفته وبحثه .

تبث فى نفسه كيف يعامل غيره ، وكيف يتحادث معه ، وكيف يقوم بعمله حتى ينجح فيه .

وتشمل البيئة كل ما له علاقة بالإنسان وميوله وعواطفه ، فالمنظار يعد بيئة لعالم الهيئة ، وحياة القدماء وما تركوه من ذخائر ونقوش بيئة لرجل الآثار ، والماء بيئة للسمك لأنه ضرورى لحياته ، والقطب الشمالى عنصر هام فى بيئة المستكشف سواء أنجح فى الوصول إليه أم لم ينجح . فالبيئة تحتوى الشروط التى ترقى الكائن الحى أو تؤخره ، والتى تدعوه إلى العمل أو تنهاه عنه ، وتساعد فى تشجيع بعض الصفات وعدم تشجيع بعضها الآخر .

ولما كان الإنسان لا يستطيع أن يعيش منفرداً بل لا بد له من الاتصال بغيره وجب عليه أن يعمل لسعادة المجتمع الذى يتصل به ، من غير نظر لمصلحته الخاصة ؛ فالمربى مثلاً فى مصر لا ينظر إلى التربية من الوجهة التى تتطلبها انجلترة أو أمريكا أو ألمانيا أو اليابان ، بل من الوجهة التى يراها ملاءمة لمصر فى الوقت الحاضر ، فالمناداة بتعميم التعليم ملاءمة لمصر اليوم ، وقد مر ذلك الدور على انجلترة قبل سنة ١٨٧٠ م ، ولكن ذلك لا يمنع المربى من اتخاذ أحسن الوسائل والنظم والطرق التى برهنت تجارب الأمم الراقية على صحتها ، وتسير بها بنجاح ، فينتفع بتجارب غيره ويأخذها ناضجة .

وللبيئة الاجتماعية أثر كبير فى تربية النشء ، وليس من الصعب أن يحس الإنسان أو يلمس هذا التأثير فى مظاهر الإنسان الخارجية ، وعاداته الاجتماعية . وإذا كان الحيوان كالكلب والحصان والقرد يتأثر بالبيئة الخاصة التى تحيط به ، فالإنسان من باب أولى يتأثر بالبيئة التى يربى فيها كل التأثر . وإذا أردت أن تعرف أثر البيئة فى التربية فانظر إلى الفرق بين من تربى فى أمة حرة ، جوها مملوء

بالحرية فى الكتابة ، والصحافة ، والخطابة ، والاجتماع ، والنقد ، وبين آخر قد تربى فى أمة مستعبدة ، فى عصر كله ضغط وتضييق على الحريات ، وتحريم للنقد ، وإغلاق للصحف ، ومنع للخطابة والاجتماعات ، تجد الفارق عظيما ؛ فبينما تجد الأول مرفوع الرأس ؛ لأنه يعرف الحرية ويقدرها ، ولديه فرصة كبيرة يقول فيها ما يعتقد ، ويفعل مايشاء — مادام فى حدود القانون — إذ تجد الثانى ذليلاً خاضعاً ؛ لأنه مستعبد ؛ يقول ما يملى عليه ، أو ما يراد منه ، وينطق بلسان غير لسانه ، وقلب غير قلبه ، يقول ما لا يعتقد ، ويعتقد ما لا يقول ، فهو يغالط نفسه ، ويخالف ضميره ، ويخدع غيره . وإذا كتب أو تكلم حاسب نفسه على كل كلمة يكتبها أو يفوه بها خشية العقاب . ولا شك أن بيئة هذه ظروفها ، وتلك حالها تقتل المواهب ، وتميت النفوس ، وتجعل القادر عاجزاً ، والخطيب صامتاً ، والكاتب خاملا ، والمبصر لايرى ، والسامع أصم ، ولها أثر سيئ فى التربية .

فللبيئة التى ينشأ فيها الإنسان أثر كبير فى حياته وسيره ، وتكوين خلقه وعاداته وميوله ؛ فإن كانت حسنة تشجع القادرين الأكفاء كان أثرها حسناً ، وإن كانت سيئة لا يجد فيها العلماء تشجيعاً ولا نصيراً كان أثرها سيئاً ، وقبر فيها النبوغ ، واختفت الكفايات . وإن ذلك ليذكرنا بالمرحوم الشيخ حسن توفيق العدل ؛ فقد كان مضطهداً لسبب لا نعرفه ، مع أنه كان من العلماء النابهين الأذكياء فى مصر . ولسوء حظ مصر لم يعمر طويلا ، ولم يستكشف أن المرحوم كان كنزاً مهملاً إلا أحد الأجانب . وفى ذلك قال المرحوم المؤرخ المحقق إسماعيل رأفت بك ، أستاذنا بدار العلوم فى حفل أقيم للأستاذ العدل : « إن فى مصر كنوزاً لا تخرجها إلا أيد أجنبية » . فالبيئة تنفع وتضر ، وأثرها لا ينكر .

وللتربية الخاصة والتجارب أثر كبير فى سلوك الطفل ؛ إذ بهما يكتسب عادات نافعة ، وميولا صالحة . فالطفل يتأثر بالتربية ، ويفزع لرؤية النار ، ويتجنبها إذا

اكتوى بها من قبل ، وتهذب غرائزه بما يجد من السرور أو الألم . والتلميذ فى فريق لعب الكرة يجهد نفسه ويعمل لتفوز فرقته على الفرق الأخرى، فهو يعد نفسه عضواً فى تلك الفرقة ، له ما لها ، وعليه ما عليها ، يفرح لفوزها ، ويتألم لإخفاقها . لذلك تجده يعمل لنصرتها خوفاً من التأنيب والعار فى الهزيمة . وما ذلك إلا لشعوره بأنه عضو من أعضائها ، يشقى بشقائها ، ويسعد بسعادتها ، وينتصر بانتصارها ، ويعمل للفوز لا لنفسه بل للجماعة التى هو منها ، حبًّا وإخلاصاً لها . وهو بتنفيذه لأغراضها وعمله بإرشاداتها ورغباتها وآرائها يكسب شيئاً من التجارب ، ويعتقد ما تعتقد ، ويتشبع بروحها ، ويتمسك بمبادئها ، ويصبح عالماً بطرقها وشئونها ، ويحصل على المهارة التى يحتاج إليها . ولذلك أثره الكبير فى تربية الطفل الاجتماعية ؛ إذ تجعله ينتصر للجماعة ، وينسى نفسه ويضحى بها فى سبيل إسعادها ، ويتغلب على عواطفه ، ويبتسم للصعاب ، ويصافح من غلبه مهنئاً إياه بالفوز . وفى ذلك ما فيه من الفوائد الخلقية والاجتماعية .

الفصل الثانى

الغاية من التربيــة

كل له غرضٌ يسعى ليدركه والحر يجعـل إدراك العلا غرضا

لقد حاول كثير من المربين تحديد الغرض من التربية ؛ فحدده كل منهم بحسب عقيدته الشخصية ، ومثله الأعلى ، ورأيه الفلسفى فى الحياة ؛ فمنهم من قال : إن الغرض الجوهرى من التربية تربية العقـل ، ومنهم من رأى أن الغرض من التربية تربية الشخصية، ومنهم من نادى بتربية الخلق أو بث الشعور الدينى أو تكوين عقيدة دينية خاصة ، ومنهم من اعتقد أن الغرض هو الـكمال المطلق ؛ بأن يكون الشخص عضواً كاملاً فى المجتمع ، ومنهم من رأى أن الغرض تعويد النشء الاعتماد على النفس والتربية الاستقلالية ، ومنهم من جعـل كسب العيش الغرض الأسمى من التربية ، ومنهم من فـكر فى كسب العلم للعلم ذاته ، وأهمـل ما دون ذلك من الأغراض ، والحق أن الأغراض تختلف باختلاف الأمم والعصور والبيئات ، وقد تختلف فى الأمة الواحدة ، كما حدث فى أثينا وإسبرطة من بلاد الإغريق ؛ فقد كانت أثينا تفـكر فى الحـكمة والفلسفة والأدب ، فى حين أن إسبرطة كانت تضحى بكل شىء فى سبيل التربية الجسمية والعسكرية . ولا يكفى أن يقصر المربى نفسه على غرض معين ويهمل غيره من الأغراض ، بل يجب أن يفـكر فى تـكوين المثـل الأعلى للإنسان المنظم التفـكير ، القوى الشخصية ، النافذ الإرادة ، الـكامل الخلق ، السليم الجسم ، المحب

للاطلاع ، المهذب الوجدان، الجميل الذوق، المخلص لوطنه ، الذى يستطيع أن يعتمد على نفسه فى كسب عيشه ، ويعيش لغيره كما يعيش لنفسه . وبعبارة موجزة يجب أن يُعنى المربى بتربية (اليد والرأس والقلب) فى الإنسان، وهذا ما يعبر عنه المربون فى اللغة الإنكليزية بالهاءات الثلاثة[١] . وفى تربيتها يمكننا أن نصل إلى كل غاية من التربية ، وكل ناحية من نواحيها المختلفة.

نواحى التربية المختلفة واقسامها

للتربية نواح مختلفة ؛ فمنها التربية الجسمية ، والعقلية ، والخلقية ، والتربية الاجتماعية ، والتربية الجمالية . وكما أن لكل درس من الدروس فى كل مادة من المواد غرضاً معيناً يجب أن يعمل المدرس للوصول إليه ، فللتربية نواح وأغراض عامة ، ومقاييس معينة يجب أن يعمل المدرس لتحقيقها فى أثناء الدراسة المدرسية باتباع أحسن الطرق فى التدريس ، واختيار أحسن الخطط والمناهج ، واستكمال الأدوات المدرسية ، واتخاذ كل وسيلة للنهوض بالمتعلمين جسميًّا ، وعقليًّا ، وخلقيًّا ، واجتماعيًّا وجماليًّا .

التربية والإعداد للحياة الكاملة :

يرى (هربرت سبنسر) الفيلسوف الإنكليزى أن الغرض من التربية والدراسة وطرق التدريس والمدارس إعداد الفرد لأن يعيش ويحيا حياة كاملة ، بحيث يكون

---

(١) وهى ثلاث كلمات مبدوءة بالهاء : Hand, Head, & Heart

قوى الجسم ، كامل الخلق ، مرتب الفكر ، يعرف كيف يتعاون مع غيره ، ويقدر الطبيعة وما فيها من جمال ، وكيف يدير شئونه بنفسه ، وكيف يقوم بواجبه نحو أمته ووطنه ، وكيف ينتفع بما وهبه الله من مواهب، وكيف يستخدم كل قواه بما ينفع نفسه وغيره ، وبعبارة موجزة يعرف كيف يحيا حياة كاملة ، فالإعداد للحياة الكاملة هو الغرض الذى ترمى إليه التربية فى نظر (سبنسر) .

وقد وضع (هربرت سبنسر) عوامل لتلك الحياة الإنسانية الكاملة ، ورتبها على حسب أهميتها هكذا :

١ — الأمور التى تستخدم مباشرة لحفظ النفس .

٢ — الأمور التى تستخدم عرضاً لحفظ النفس والحصول على ضروريات الحياة .

٣ — الأمور التى تؤدى إلى تربية النشء وتهذيبه .

٤ — الأمور التى تتضمن حفظ الصلات المتينة والعلاقات السياسية والاجتماعية .

٥ — الأمور التى تجعل وقت الفراغ جزءاً من الحياة ، وتخصصه بإرضاء حواس الإنسان وتهذيب عواطفه وأذواقه .

فإذا رضينا برأى (سبنسر) وجعلنا الإعداد للحياة الكاملة غرضاً عامًّا للتربية وجب على المدرس أن يسأل نفسه فى كل مادة ، وفى كل درس ، وفى كل طريقة يستخدمها فى تدريسه — كيف أصل إلى الحياة الكاملة ؟ وكيف أعمل لتنفيذ ذلك الغرض من التربية ؟ ولنتكلم عن كل ناحية من تلك النواحى المختلفة، وعن كل نوع من أنواع التربية فنقول :

(١) التربية الجسمية

لقد ذكر أحد الفلاسفة أن الأساس الأول للنجاح فى الحياة أن تكون حيوانًا قوى الجسم . ومن الحكم اليونانية المشهورة « العقل السليم فى الجسم السليم » . وقد صرح (چون لُوك[1]) المربى الإنكليزى بأن هذه الحكمة اليونانية تعريف موجز - إلا أنه تام - للسعادة فى هذه الحياة . فالسعادة فى نظر (لوك) فى سلامة الجسم والعقل . وقد كانت العناية فى مصر بالتربية الجسمية ضئيلة ، أما اليوم فقد أخذت المدارس تعنى بهذه الناحية كل العناية ، وبخاصة المدارس الابتدائية والثانوية ؛ أما المدارس الإلزامية فلا تزال التربية الجسمية فيها مهملة ، والتربية الصحية معدومة ، ولا عجب إذا وجدت مكاتب دراسية فى الريف لا يزيد المكتب أو الكتّاب فى القرية على حجرة واحدة مظلمة ، لا نوافذ فيها ولا نور ، ولا شمس ولا هواء ، فالتربية الصحية مهملة ، والتربية البدنية لا وجود لها .

ولقد شعرت أوروبة وأمريكا فى أوائل القرن العشرين بأهمية التربية الجسمية وأثرها ، فعنيت السلطات المدرسية بتلك الناحية من التربية ، ولا غرابة؛ فإن ضعف النظر ، ورداءة التهوية ، وإجهاد التلاميذ ، والمقاعد المتعبة ، وقلة الضوء ، تضر الأطفال ضرراً بليغاً من الناحيتين الجسمية والعقلية .

ولا يستطيع المدرس أن ينجح فى مهنته إذا لم يعرف النمو الجسمى للطفل ، وما يحتاج إليه جسمه ؛ فإن صحة الأطفال هامة جدًّا فى التربية . ومن المحال أن يصل

(١) (١٦٣٢ — ١٧٠٤ م .) : من أكبر فلاسفة التربية من الإنكليز، وله مؤلفات ثمينة فى التربية والفلسفة والدين ، منها رسالته عن « العقل الإنسانى » التى ترجمت إلى الفرنسية والألمانية .

المربى إلى أغراض التربية إلا إذا كان الطفل قوى الجسم ، حسن الصحة ؛ فجودة الصحة هى الغرض الجوهرى من كل تربية ، ولا سعادة بغير صحة . وتتطلب العناية بالصحة الهواء النقى ، وضوء الشمس ، والإنارة الكاملة ، والغذاء المفيد ، والعادات الصحية ، والحركات الجسمية الملائمة ، والدروس المناسبة ، والأدوات الصحية ، وعدم الإفراط فى العمل ، ومراعاة الناحية الصحية فى المبانى والأثاث ، بحيث تصل المدرسة إلى سلامة الجسم والعقل والروح .

فوظيفة المدرسة هى المحافظة على القوى الجسمية للتلميذ ، والعمل على تحسين صحته ، وتربية حواسه، وتربية يده حتى تصبح ماهرة ، ومعالجة ما به من أمراض ، ووقايته من العاهات ، بحيث تكون المدرسة خير وسيلة للتربية ؛ ليكون الطفل فى المستقبل قويًّا فى جسمه ، ماهرًا فى عمله ، مهذباً فى حركته ، خالياً من العيوب الجسمية والصحية .

وإننا لا ننتظر من المدرس أن يخلق من جميع التلاميذ مصارعين ، ولكننا ننتظر منه أن يعرف العاهات الجسمية فى الطفل إذا وجدت ، وأن يعرف شروط التهوية فى حجر الدراسة ، وأن يعنى كل العناية بجلسة التلاميذ فى أثناء الكتابة ؛ حتى لا تنحنى أكتافهم ، وتجوَّف صدورهم فى المستقبل ، وأن يعرف المريض منهم وغير المريض ؛ كى يبعد الأول عن الثانى ، بحيث يكون على دراية تامة بالصحة المدرسية ؛ ليستطيع أن يؤدى واجبه كما ينبغى.

وقد ثبت فى علم النفس أن هناك صلة كبيرة بين الجسم والعقل ؛ فما يؤثر فى الجسم يؤثر فى العقل ، وما يؤثر فى العقل يؤثر فى الجسم . فلكى يستطيع الإنسان القيام بأعباء الحياة يجب أن يكون قويًّا فى جسمه ، سليماً فى بدنه . وقد عنى الإسبرطيون قديماً بالناحية البدنية ، والقوة الجسمية كل العناية. قال أحد الحكماء :

« إن الحياة عدو لا يستطيع التغلب عليه إلا من كان قويًّا في جسمه ، شديداً في بأسه » . وهل في استطاعة الرجل الذكي أن ينتفع حقًّا بما أوتي من ذكاء إذا كان ضعيف الجسم ، معتل البدن ، خائر القوى ؟

لهذا يجب أن نعنى كثيراً بالتربية الصحية ، والرياضة البدنية ، والألعاب الحرة التي يرتاح إليها الأطفال بغريزتهم ، ويقدمون عليها برغبتهم وفطرتهم .

قال الإمام الغزالي[1] في كتاب الإحياء « وينبغي أن يؤذن للطفل بعد الانصراف من المكتب أن يلعب لعباً جميلا يستريح إليه من تعب التعلم ، بحيث لا يتعب في اللعب ؛ فإن منع الصبي من اللعب ، وإرهاقه العَسِرَ في التعلم دائماً يميت قلبه ، ويبطل ذكاءه ، وينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأساً » .

وكما يجب أن نعنى بالألعاب الحرة في البيت والمدرسة كذلك يجب أن نعنى بالألعاب الرياضية المنظمة ؛ ككرة القدم ، وكرة السلة ، وكرة المضرب ، وشد الحبل ، والجري والسباحة ، والتجديف والمصارعة ؛ كي تنمو أعضاء التلاميذ ، وتقوى أجسامهم .

وفي استطاعة المربي أن ينتهز الفرصة ويعمل على تقويم اعوجاجهم في أثناء لعبهم ، ويبث فيهم قوة الإرادة والعزيمة والمثابرة ، وقوة الملاحظة ، والعمل للجماعة ، والانتصار لها ، والتضحية في سبيلها بنفس راضية ، وروح صادقة .

ولا يمكننا أن ننسى التمرينات البدنية الشاقة التي يقوم بها التلاميذ بإشراف مدرب خاص ، وسيلة من الوسائل التي تساعد في تنمية العضلات ، وتقوية الأجسام ؛ حتى تصل إلى مستواها الممكن في النمو . وهي تكسب الأطفال قوة في أعصابهم ، واعتدالاً في قوامهم ، واتساعاً في صدورهم ، ونشاطاً في أعمالهم . ومتى قوي الجسم

(١) هو قدوة المربين ، وحجة المسلمين ، ولد سنة ٤٥٠ هـ . وتوفي سنة ٥٠٥ هـ . وفي كتابه : « إحياء علوم الدين » كثير من الآراء السديدة في التربية والتعليم .

استطاع العقل أن يقوم بوظيفته الإدراكية ، واستطعنا أن نكوّن رجالا أقوياء الإرادة ، سليمى الأجسام ، كاملى الأخلاق ، مهذبى العقول .

(٢) التربيـــــة العقلية

إن الغرض من التربية العقلية كسب المعرفة ، وتهذيب العقـل ، والمهارة فى استعمال ما يعرفه الإنسان. وهذه الأغراض الثلاثة متصل بعضها ببعض كل الاتصال. وليس الغرض من المعرفة العـلم بحقائق مجردة تعرف للنجاح فى الامتحان ، وتنسى بعد النجاح فى الامتحان، ولـكن الغرض العلم بالحقيقة وفهمها ، والانتفاع بها عمليًّا. ومن الخطأ أن نظن أن العـلم لا يؤخذ إلا من الـكتب ، وأن الحفظ هو الوسيلة لـكسب العلم والمعرفة ؛ فهناك أشياء كثيرة يمكنك أن تصل منهـا إلى كثير من الحقائق كالخبرة والتجربة ، ودراسة الطبيعة . وليست الوسيلة لـكسب المعرفة هى الحفظ والاستظهار ، ولـكن الوسيلة الفهم ؛ فهم الحقائق وهضمها ، والاستفادة منها . ومن المؤلم أننا لا نزال نجـد من يعتمدون على الحفظ فى مدارسنا يفوزون بالأولية فى الامتحان ؛ لأن الأسئلة تشجع على الحفظ ؛ فالطلبة يشجعون الذاكرة ويهملون العقـل . وقد تجد بعض الأغبياء أقوياء فى ذاكرتهم ، وبعض الأذكياء ضعيفى الذاكرة ، فمن الخطأ أن نهتم بحفظ الـكلمات والألفاظ ونهمل الأفـكار ، مع أنها جوهر المـادة، أو نهمل تربية الحواس ، وقوة الملاحظة، والحـكم والاستنباط والتعليل والتفـكير فى التلاميذ .

هل العلم قوة ؟

ليس كل العلم قوة ؛ فالعلم لا يتألف من حقائق مجردة يجمعها الإنسان ؛ فهناك حقائق لا يمكن تنفيذها ، وحقائق قليلة الفائدة . أما العلم الذى نعده قوة فهو العلم الذى يحتوى على حقائق هامة مرتبة ترتيباً منطقياً ؛ نستطيع أن نستخدمها وننتفع بها فى أعمالنا وحياتنا اليومية وسيلة لسعادتنا وسعادة غيرنا . ولا يمكن الوصول إلى هذا النوع من العلم إلا بالتفكير والنشاط العقلى ، ولا يستطيع المدرس أن يصبه فى عقول التلاميذ ، ولكنه يستطيع أن يشوقهم إليه ، ويرغبهم فيه حتى يصلوا إليه بتفكيرهم ومجهودهم .

لقد قيل إن تسعة أعشار المعلومات التى يكسبها الطفل فى المدرسة تنسى ، فإذا كانت المعلومات هى كل ما يجب أن يظهره التلاميذ نتيجة لوقتهم ونشاطهم ودراستهم فى المدرسة ، فمعنى هذا أن تسعة أعشار ذلك الوقت والنشاط والدراسة معرضة للضياع . فللمحافظة على وقتهم ونشاطهم يجب أن يصلوا إلى هذه المعلومات لا بطريق الحفظ ، بل بطريقة تهذب قوة إدراكهم ، وتنمى خيالهم ، وتقوى إرادتهم ، وتحيي شعورهم ، وتربى قوة الحكم فى نفوسهم ، وتكوّن فيهم عادات الانتباه ، والمواظبة ، والإخلاص فى العمل ، والمثابرة . ففى التعليم يجب ألا نعتمد على الذاكرة وحدها ، بل نعتمد على الإرشاد والتشويق والتربية العقلية ؛ بحيث نعوّد التلميذ الاعتماد على نفسه فى التفكير ، والدقة فى الحكم ، والتعبير عن أفكاره بوضوح وقوة وبلاغة ، والانتفاع بالمعلومات فى حياته اليومية . إذا استطعنا أن نصل إلى هذه الأشياء وصلنا إلى الغرض من التربية العقلية .

وليس الغرض من التربية العقلية تربية الفكر فحسب ، ولكن الغرض المهارة

فى الانتفاع بالأفكار التى نفهمها . ولكى نصل إلى تلك المهارة نحتاج إلى كثير من التمرن على العمل ، والدقة والسرعة ، والفراسة ، وحسن الحكم ، وسرعة الخاطر ، وحضور البديهة .

وقديماً بالغ المربون فى القرون الوسطى فى التربية العقلية ؛ فعنوا عناية كبيرة بدراسة اللغتين الإغريقية واللاتينية فى المدارس الثانوية ، ودراسة القواعد فى المدارس الابتدائية ؛ بحجة أنها تساعد التلميذ فى تربية العقل ، وتقوى قواه العقلية ، وتجعله قادراً على القيام بما يطالب به من أعمال . ولكنهم بالغوا فى تلك الناحية ، وعنوا بها كل العناية ، وأهملوا النواحى الأخرى من التربية . وفى ذلك يقول أحد المربين : « إن الذاكرة تهذّب بالتاريخ واللغات ، والذوق يربى بآداب اللغات ، والخيال يربى بالشعر الإغريقى واللاتينى . ولتعويد التلميذ التعبير عما فى نفسه يجب أن يعلم الإنشاء ، وحسن الإلقاء . ولتعليمه طريقة البرهنة يجب أن يتعلم علوم الرياضة من حساب وهندسة وجبر » . والحق أنه ليس الغرض من دراسة هذه المواد التربية العقلية فحسب ، ولكن الغرض معرفة تلك المواد معرفة جيدة تؤدى إلى الغرض المقصود من كل منها ، والاستفادة منها عمليًّا وعقليًّا ووجدانيًّا ولغويًّا .

فالذين ينادون بالتربية العقلية يرون أن العقل هو الوسيلة للتفكير وحل الصعاب ، ولكنهم يفكرون فى المادة من حيث هى ، فى المادة التى يُحشى بها العقل ، من غير تفكير فى الطريقة ، أو فى الطفل وميوله ، فيعنون بالمواد التى لها صلة كبيرة بالتربية العقلية ، ويخصصون حصصاً كثيرة بهذه المواد ، ظانّين أن إجادتها تمكّن التلميذ من التفكير فى المسائل الحيوية الأخرى ، ويثقلون كاهل الطفل فى الثامنة من عمره بالقواعد والأمور المعنوية ، وهم يحسبون أنها كالمنطق فى تربية قوة التفكير ، ويزعمون خطأ أن تربية العقل كحد السكين ، فحينما تكون السكين حادة يمكنك أن تقطع بها أى شىء من الأشياء التى يمكن قطعها بالسكين . وبالمثل يقولون إن العقل

حينما يعود التفكير فى الحساب ، أو الهندسة ، أو الجبر أو القواعد ، أو اللغات ، يمكنه أن يفكر تفكيراً سليماً كلما احتاج إلى التفكير . ولقد نسوا أن العقل يختلف عن السكين فى السلوك . ومن الواجب أن نخلص أنفسنا من تلك النظرية التى تضطرنا لتعليم هذه المواد ، ظنًّا أنها رياضة عقلية أو تمرين عقلى ؛ كى يسهل اختيار المواد من وجهة صحيحة سليمة ، بحيث تكون المواد حيّة متصلة بالحياة .

(٣) التربية الخلقية

إن الغرض الأسمى من التربية هو تربية الخلق ، وحسن السلوك ، وتهذيب الإرادة ، وتمييز الغث من السمين ، والحسن من القبيح ، واختيار الفضيلة ، وتجنب الرذيلة .

فالغرض من التربية الخلقية تكوين رجال كريمى الأخلاق ، أقوياء العزيمة ، مهذبين فى أقوالهم وأفعالهم ، نبلاء فى تصرفاتهم وخلقهم، ديدنهم الحكمة والفضيلة، والأدب والإخلاص والطهارة . فروح التربية والحياة، وروح المدنية ، وروح البيت والمدرسة ، ينبغى أن تكون التربية الخلقية . ولا نبالغ إذا قلنا إن التربية هى الوصول إلى المثل الأعلى من الخلق الكامل فى العادات والأحوال والآداب فى هذه الحياة . ولقد أجمع علماء التربية وفلاسفتها على أن الغرض الخلقى الذى يجب أن يرمى إليه المربى هو الغرض الحقيقى من التربية التى يصح أن نطلق عليها ذلك الاسم . وليس معنى هذا أن نقلل العناية بالتربية الجسمية أو العقلية ، بل معناه أن نعنى بالناحية

الخلقية وتكوين الخلق ، كما نعنى بالناحية الجسمية والناحية العقلية والعلمية ؛ فالطفل فى حاجة إلى قوة فى الجسم والعقل والخلق ، بحيث يعنى بجسمه ، ويفكر بنفسه ، ويبحث وراء الحقيقة ، ويقدر بحق جمال العالم الذى يحيط به ، ويقول الحق ، ويدافع عن الحق ، ويخلص فى عمله ، ويراقب الله وضميره ، ويضحى بمصلحته فى سبيل المصلحة العامة ، ويقوم بما يجب عليه نحو الوطن . ولله در شوقى حيث يقول :

وإنما الأممُ الأخلاقُ ما بَقِيَتْ فإن هُمُو ذهبتْ أخلاقُهُمْ ذَهَبُوا

ولا يمكننا أن ندعى أن المدرسة وحدها تستطيع أن تقوم بتربية الطفل تربية خلقية كاملة ؛ فهناك شركاء يشتركون مع المدرسة ، ولهم أثر كبير فى تربية الطفل ، كالبيت والمجتمع . فلكى نصل إلى المثل الأعلى من التربية الخلقية للرجل والمرأة يجب أن يقوم البيت بواجبه نحو هذا النوع من التربية ، ويجب أن يكون المجتمع كاملا لا يَهدم ما يؤسسه البيت ، أو تبنيه المدرسة . ولا نستطيع أن ننسى أن المدرسة قد أُنشئت لغرض خاص هو تربية النشء تربية حقة ؛ فهى تعمل باستمرار للوصول إلى هـذا الغرض المقدس ، وهو تربية الفرد بطريقة خاصة للوصول إلى غرض معين ، وهو تكوين الخلق ، وتقوية الجسم ، وتربية العقل ، وتهذيب (اليد والقلب) . أما البيت والبيئة فيؤثران عرضاً فى فترات خاصة فى تربية الطفل . وليس من السهل أن نتجاهل هذا الأثر ، وذاك التأثير ؛ فقد يكون حسناً ، وقد يكون سيئاً ، وقد يكون نافعاً ، وقد يكون ضارًّا ، ففى استطاعة المدرس أن يقوم بما يعجز الآباء عن القيام به ؛ فيساعد المتعلم فى معرفة نفسه ، وفهم العالَم وما فيه ، ويفتح الأبواب والآمال فى وجهه ، ويمكّنه من الانتفاع بمواهبه ، ويوحى إليه كثيراً من الأخلاق الفاضلة : كالصدق فى القول ، والأمانة فى العمل ، والعدالة فى الحكم ، والصراحة ، والشجاعة والإخلاص ، ويبث فى نفسه حب العظمة ، والبطولة ، والابتكار والاختراع .

والغرض من التربية الخلقية تكوين رجال مهذبين ، وسيدات مهذبات ، ذوى إرادة قوية ، وعزيمة صادقة ، يتحلون بالفضيلة حباً للفضيلة ، ويتجنبون الرذيلة لأنها رذيلة . ولكى نصل إلى هذا الغرض يجب أن يكون البيت مهذباً ، والمدرسة كاملة ، والمجتمع كاملاً .

---

(٤) التربية الاجتماعية

إن نظرة واحدة إلى الحياة المصرية تبين لنا أننا فى حاجة شديدة إلى التربية الاجتماعية فى البيت والمدرسة والمجتمع ؛ فالطفل يجب أن يُعوَّد من الصغر أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ويتعاون مع إخوته وأصدقائه منذ الطفولة فى بيته ومدرسته ، فلا يفكر فى نفسه فحسب، بل يفكر فى غيره كما يفكر فى نفسه. فإذا عوَّدناه من الصغر التفكير فى غيره، فى اللعب والطعام والشراب والتنزه شبَّ وقد تعود أن يعيش لغيره كما يعيش لنفسه. أما إهمال التربية الاجتماعية فى البيئة المنزلية والمدرسية والاجتماعية فقد أدى إلى ما نراه اليوم من الأثرة وحب النفس؛ فكل فرد يريد أن يعيش لنفسه، ويحيا لنفسه ، ولا يفكر إلا فى نفسه . فالطفل فى المنزل يريد أن يختصه أبواه بالعطف والعناية والهدايا من اللُّعب والكتب ، والتلميذ فى المدرسة يريد أن يكون صاحب الحظوة لدى المدرس فيقدمه على غيره ، ويفضله على سواه من غير مبرر ، فلا عجب إذا وجدنا داء الأثرة منتشراً بين المجتمع المصرى ؛ فهذا يريد أن يرقى قبل غيره من المستحقين ، وذاك يريد أن يركب السيارة العامة قبل أن ينزل الراكبون ، وذلك يود أن يتجاهل سواه من المنتظرين قبله فى مكتب البريد أو

فى المصرف أو عند جَوْسق التذاكر بمحطة السكة الحديدية ، وهذه تريد أن تتقدم سواها من السيدات فى الخيالة أو الملهى ، كل هذا ناشئ عن إهمال التربية الاجتماعية فى البيت والمدرسة والمجتمع .

وفى الوقت الذى ننتظر فيه أن يسير السائر على اليمين ، وفى الجهة اليمنى ، وعلى الطوار الأيمن دائماً ، نرى الفوضى فى السير ؛ فهذا سائر من الجهة اليمنى ، وذاك سائر من الجهة اليسرى ، وهذا يصدم ذاك ، وهذه تعترض تلك ، فتسود الفوضى ، وتكثر الحوادث ؛ لسوء النظام ، وإهمال التربية الاجتماعية .

وإن زيارة واحدة للمطعم المدرسى فى أية مدرسة من المدارس الابتدائية أو الثانوية تبرهن لك على أن التربية الاجتماعية لم تنل حظها من العناية ، والتلاميذ لم يعودوا النظام فى الأكل ، ولم يعرفوا آداب المائدة ؛ فقد تجد تلميذاً يأكل بيده وأمامه الشوكة والسكين والملعقة ، وقد تجد آخر لا يستعمل المشوش مع أنه أمامه ، وقد تجد اثنين يشربان من كوب واحد ، وقد يمسح التلميذ حذاءه بفوطته عند مغادرة المائدة .

كل هذا يدل على أن التلميذ لم يجد العناية بالآداب الاجتماعية فى البيت أو المدرسة أو المجتمع ؛ فالآباء والأمهات قد أهملوا أبناءهم وبناتهم من الناحية الاجتماعية ، والمدرسون والمدرسات لم يفكروا فى تلك الناحية . ولا تعجب إذا قلت لك : إننى فى يوم من الأيام زرت إحدى المدارس الكبيرة فى القاهرة والتلاميذ يتناولون طعام الغداء ، فوجدت الفوضى منتشرة ؛ هذا بغير كوب ، وذلك بغير فوطة ، وهذا يطالب بحقه من الطعام ، وذلك يريد أن يستأثر بما بقى من الطعام ، وذاك يأكل بأصابعه الخمس ، وفوطة هذا يستعملها ذاك ، فأرسل منشور إلى المدارس يستحث المدرسين على مشاركة التلاميذ فى الطعام لتعويدهم آداب الأكل ، فتذمر بعضهم

وأهمل آخرون ، وتجاهل الباقون آداب الأكل . وبدلاً من أن يكون المدرس خير قدوة لتلاميذه على المائدة كان مثلاً سيئاً لهم .

هذه أمثلة توضح لنا أننا فى حاجة ماسة إلى العناية بالتربية الاجتماعية فى البيت أولاً ، وفى المدرسة ثانياً ، وفى المجتمع ثالثاً . فكما يكون الطفل فى البيت يكون فى المدرسة. وكما يكون فى البيت والمدرسة يكون فى المجتمع. وكما يكون فى المجتمع يكون فى الحياة. فإذا عوّدناه النظام والآداب الاجتماعيـة ، وفهمناه ما يجب عليـه نحو نفسه وغيره ونحو المجتمع استطعنا أن نكوّن منه رجلاً كاملاً من الناحية الاجتماعية ، يفكّر فى المجتمع وحقوق الجماعة ، فيعمل للمجتمع ، ويتعاون مع الجماعة .

انظر إلى الشركات فى مصر تجدها كلها أجنبية تقريباً ، فشركة النور أجنبية ، وشركة المياه أجنبية ، وشركة « الترام » أجنبية ، ومعظم المؤسسات فيهـا أجنبى ، ولو ربينا تربية اجتماعيـة من الصغر ، وعرفنا معنى التعاون وأثره فى رقى المجتمع لكانت هذه الشركات كلها مصرية وللمصريين؛ فإننا لا ينقصنا المال، ولكن ينقصنا حب التعاون ، والثقة بأنفسنا وبغيرنا ، والمساعدة فى كل مشروع من المشروعات ، وفى كل مؤسسة من المؤسسات الاقتصادية والصناعية والزراعية والتجارية ؛ حتى تكون هذه الشركات بالإسهام فيهـا والإقبال عليها للمصريين فى يوم من الأيام . فنحن فى حاجة إلى العناية بالتربية الاجتماعية حتى تزول الأثرة ، والفوضى ، والتنابز والحقد ، ويعم النظام والتعاون ، ونحيا حياة اجتماعيـة كاملة فى كل ناحية من النواحى .

(٥) التربية الجمالية

يولد الطفل مزوّداً بغريزة حب الجمال وحب الاطلاع ؛ فالإنسان بفطرته يحب كل جميل ، وبطبيعته يميل إلى الاطّلاع على كل شيء غريب أو جميل أو غير مألوف لديه . فالغرض من التربية الجمالية أن نربى فى الطفل حب الجمال وتقديره والإعجاب به . وتتطلب هذه التربية العناية بالمواد والأشياء التى تؤدى إلى التربية الجمالية ؛ بأن يكون البيت جميلا فى موقعه وحديقته ، وأثاثه ، وصوره ، وألوانه ، وأن يكون هناك تناسبٌ بين أثاث الحجرة ولونها وما فيها من صور ورسوم ، وألا تخلو الحجر من أزهار جميلة بديعة التنسيق ، وأن تكون الحديقة مرتبة منظمة ، بها كثير من أنواع الأزهار فى مختلف الفصول ، وأن يوجه نظر الطفل إلى كل جميل . وكما يجب أن تراعى ناحية التربية الجمالية فى البيت يجب أن تراعى تلك التربية فى المدرسة ؛ فحجرة الدراسة يجب أن تكون بها صور مختارة جميلة ، تدل على الذوق السليم ، والفن الجميل . وبهو المدرسة يجب أن تكون به صور جميلة ، تمثل الطبيعة وما فيها من مظاهر ساحرة ، من حيوان أو نبات . وحجرة الرسم يجب أن تشتمل على كل رسم جميل من عمل التلاميذ وغيرهم . ومنهج الدراسة يجب أن تراعى فيه التربية الجمالية ؛ ففى دروس الموسيقا والأغانى والأناشيد والتمثيل يجب أن تراعى تلك التربية. وفى قطعة الشعر فى المطالعة والمحفوظات يجب أن يشعر التلميذ بجمال التعبير ، وجمال الأسلوب ، وحسن التوقيع ، وما فى الشعر من روعة وموسيقا . وفى دروس الخط يجب أن يراعى جمال الكتابة وحسنها . وفى كل مادة من المواد يجب أن يراعى النظام والدقة والترتيب .

ففى التربية الجمالية ننتظر من المدرس أن يبث فى نفس التلميذ حب الجمال والإعجاب به والميل إليه والإصغاء له ، بحيث يقدر ما يراه من رسم أو تصوير ، وما يسمعه من غناء أو موسيقا ، وما يشاهده من مناظر جميلة ، أو حركات منتظمة ، وما يلق عليه من قطع تمثيلية عذبة . ولا نبالغ إذا قلنا : إن الفنون الجميلة مهملة ، والتربية الجمالية منسية ، ولا يقدرها إلا من كان ذا ذوق سليم .

ولم تعن مدارس البنات بتلك التربية كل العناية مع أن البنت أكثر حاجة من الصبى إلى الذوق الجميل؛ فغداً ستكون أمًّا، وستسأل عن جمال بيتها، وتنظيم ما به من أثاث، واختيار ما فيه من صور ، وانتقاء الملابس لأبنائها وبناتها ، وكل هذا يتطلب تربية جمالية . فعلى المدرسة مسئولية كبيرة فى إعداد النشء لتقدير كل جميل وحبه . وإننا لا نقصد من التربية الجمالية أن يكون كل فتى من رجال الفن ، ولكننا نقصد تغذية الناشئين ، بالناحية الفنية الجميلة ، بحيث يستطيعون التعبير عن عاطفتهم وشعورهم بتصوير الأشياء تصويراً ملائماً ، وترقية أذواقهم بحيث يكون لديهم ذوق سليم فى حسن اختيار الأشياء ووضعها ، وترتيبها وتنظيمها ، فيقدرون كل جميل ، ويتذوقون ما فى الطبيعة من جمال .

وخلاصة القول أن التربية اليوم تخالف التربية بالأمس ؛ فبعد أن كانت أغراضها روحية أصبحت مادية ، وبعد أن كانت تميل إلى النظريات أصبحت تميل إلى الأمور العملية . ولم يهمل الدين الإسلامى ناحية من نواحى التربية ، فكما عنى بشئون الدنيا من النواحى الاقتصادية والمالية عنى بشئون الآخرة من النواحى الدينية والخلقية . قال تعالى : « وابتغ فيما آتاكَ اللهُ الدّارَ الآخرةَ ، ولا تَنْسَ نصيبكَ

من الدُّنيا » . وقال صلى الله عليه وسلم : « ليس خيركم مَنْ تركَ الدنيا للآخرة ، ولا الآخرة للدنيا ، ولـكن خيركم مَن أخَذَ من هـذه وهذه » . وفى الأثر « اعمل لدنياكَ كأنّكَ تعيشُ أبداً ، واعمل لآخرتكَ كأنك تموتُ غداً » .

ويجدر بنا ألاّ نغالى فى التمسك بغرض من الأغراض ، ونهمل البقية ؛ فلا نغلو فى التربية لـكسب العيش مثلاً ونسى الأغراض الأخرى من التربية ، بل يجب أن نفـكر فى كل نوع من أنواع التربيـة ؛ حتى نستطيع أن نكون شعباً قادراً على أن يحيا حيـاة سعيدة كاملة ، ونـكون أفراداً يتخذون الـكمال ديدناً لهم ، ويعيشون سعداء بقدر ما تسمح به مواهبهم وأحوالهم . ولنذكر بقية الأغراض فنقول :

فى أغراض التربية

يقول (چون رَسْكِن[1]) : « اسألوا أنفسـكم عن الباعث الرئيسى الذى يدفعكم ويسوقـكم إلى العمل حينما تعملون . ويختلف هذا الباعث باختلاف الأفراد ؛ فقد يكون لديكم أسر تعُولونها ، ووالدان تبرونهما ، وعرائس تفـكرون فيهن . قد يكون لديكم هذه البواعث النبيلة العظيمة ، أو بواعث أخرى تشبهها تضطركم إلى العمل صباحاً ، وتدعوكم إلى التفـكير مساء ، ولـكن حينما نعمل يجب أن نفـكر فى الباعث الذى يدعو إلى هـذا العمل » . فلا عجب إذا قلنا : يجب أن نبحث عن الباعث والغرض من التربية ، ذلك الغرض الفردى أو الاجتماعى الذى يجب أن يفـكر فيه كل منا قبل أن يدخل حجرة الدراسة ، بل قبل كل درس من الدروس .

(١) "John Ruskin" ولد سنة ١٨١٩ ، وتوفى سنة ١٩٠٠ م . وهو كاتب إنـكليزى ، ومصلح كبير ، ومحسن عظيم ، محب للطبيعة ، والفن الجميل .

وللبحث عن أغراض التربية قد نذهب بعيداً عن الحقائق الممكنة ، ولكن الأغراض أكبر من الحقائق ؛ فالغرض أو المثل الأعلى الذى يضعه الإنسان نصب عينيه يساعد فى الاستمرار والمثابرة على العمل ، واتباع أحسن الطرق للوصول إلى ذلك الغرض المعين . وما المدرس إلا أب يجب عليه أن يعمل بكل قواه لأداء ما ينتظر منه من أعمال وواجبات .

وإن التربية بالمحاولة والخطأ هى الطريقة التى كانت الشعوب تتعلم بها فيما مضى ، وهى طريقة بطيئة متعبة فى بعض الأحيان ، والغرض من التربية هو أن نقلل هذه الغلطات حتى نصل إلى الكمال فى الحياة ، ونعد التلاميذ للحياة الكاملة ، لا لمجرد الإجابة فى امتحانات النقل ، أو الامتحانات العامة ، أو الامتحانات العقلية ؛ وذلك ببث أحسن العادات فى نفوسهم من الرغبة فى العمل ، وحب الاستمرار فى التعلم ، والمثابرة والاعتماد على النفس .

***

وينادى (فروبل ، وستانلى هُول [١] ، وجون [٢] دِيوى ، وماريامُونتسُورى [٣] ، وهيلين بَارْكهِرسْت [٤]) من قادة التربية بأن الغرض من التربية المساعدة فى الوصول

(١) "Stanley Hall" : من كبار فلاسفة التربية وعلم النفس من الأمريكيين المعاصرين . ومن كتبه القيمة كتابه عن «البلوغ والمراهقة» : "The Adolescence"

(٢) "John Dewey" : فيلسوف أمريكى، من أكبر فلاسفة التربية فى العصر الحاضر. وله مؤلفات قيمة فى التربية والأخلاق وعلم النفس . وقد خلد اسمه فى عالم التربية . ومن كتبه : "Schools of To-Morrow", "How We Think", "Ethics", and "Democracy & Education".

(٣) "Maria Montessori" : هى طبيبة ومربية إيطالية كبيرة معاصرة ، ولها كثير من الكتب فى التربية ، وقد كتبنا بإسهاب عنها وعن طريقتها فى التربية فى كتابنا : « الاتجاهات الحديثة فى التربية . » بمطبعة عيسى البابى الحلبى بمصر .

(٤) "Miss Helen Parkhurst" : هى مربية أمريكية من مربيات العصر الحاضر ، وهى صاحبة « طريقة دلتون » ، وقد شرحنا طريقتها فى مؤلفنا السالف الذكر .

إلى الـكمال ، والثروة فى الحياة ، ومعرفة كيف يقابل الإنسان الأمور الحيوية فيها ، وأن التربية تبحث عن حياة الطفل بأجمعها ؛ أى تبحث فى تفـكيره وشعوره وعمله فى كل لحظة من حياته ، وأن الغرض الخلقى هو الغرض من التربية ، وقيام الطفل نفسه بالعمل هو الطريقة التى تدعو إليها التربية الحديثـة ، وحياة الطفل اليومية فى المنزل والأسرة والطبيعة والمجتمع هى البيئة الطبيعية للتربية ، ودراسة الطفل هى المفتاح الذى يدلنا على رغباته ونموه وطرقه فى التفـكير والعمل ، وبعبارة أخرى هى المفتاح لطرق التربية الحديثة . وإن الأساس الذى يجب أن يبنى عليه منهج الدراسة هو التفـكير فى الطفل ومنفعته ومستواه .

يجب أن تـكون التربية ملائمة لـكل طفل ؛ بحيث تلائم طبيعته وحاجاته وميوله .

وقبل أن نعرف الطريقة التى بها نربى يجب أن نعرف الغرض الذى نود أن نصل إليه من التربية؛ فأرسطو كان يرمى فى التربية إلى إيجاد رجل عظيم فى تفكيره، نبيل فى أفعاله. والدكتور « أرنولد » المربى الإنـكليزى الـكبير كان يريد من التربيـة اعتدالا فى التفـكير . وقد اختلف كثير من الفلاسفة والمربين فى الغرض من التربية ؛ فرب يقول بالشجاعة، وآخر ينادى بالعلم، وثالث يتطلب الشفقة ، ورابع يرجو الكمال، وهكذا. وقد نجد من المربين من يعد القيام بالواجب نحو الحـكومة قبل القيام بالواجب نحو الأسرة غرضاً من أغراض التربية . ومنهم من يقدم الواجب نحو الأسرة على القيام بالواجب نحو الحـكومة . كل هذه الأغراض المختلفة تؤدى إلى اختلاف فى التربية ؛ فيجب أن نعرف النوع الذى نريد أن نوجه الإنسان إليه قبل أن نضع فـكرة محدودة عما نراه من أفضل أنواع التربية .

ربما لا يستطيع المربى أن يصل إلى الغرض الذى نقصده ؛ فقد تعمل المدرسة على إذلال نفسـية التلميذ ، فيقف فى النهاية مطالباً بحقوقـه ، مدافعاً عنها ، ثائراً على المدرسة التى أذلته . والقدير من المربين هو الذى يستطيع النجاح فى الوصول إلى

غرضه ؛ فقادة الفكر من الصينيين واليابانيين واليسوعيين والإنكليز والأمريكيين قد نجحوا جميعا فى الحصول على أغراضهم المتنوعة بطرق مختلفة . وقبل أن نحاول تعيين الأغراض التى يجب أن نرمى إليها فى التربية ، نقول كلمة عن تلك الطرق المختلفة.

فالتربية العادية عند الصينيين كالتربية عند الأثينيين القدماء فى أزهى عصورها ؛ فكما كان التلاميذ من الأثينيين يكلفون حفظ (هُومَر) عن ظهر قَلْب من أوله إلى آخره كان التلاميذ الصينيون يكلفون حفظ الكتب الأدبية الثمينة حفظا جيدا . وكما كان الأثينيون يعلّمون احترام الآلهة مع الحرية فى التفكير كان الصينيون يعلّمون طقوسا دينية معينة ، خاصة بعبادة الآباء والأجداد ، ولكنهم لم يلزموا باعتقاد ماتتضمنه تلك الطقوس الدينية . يقول (توماس كارْليل[1]) الفيلسوف الإنكليزى : «إن الروح الأثينية التى كانت تتمثل فى أفلاطون تجدها ممثلة فى حكماء الصينيين» ؛ فالأثينيون والصينيون القدماء كانت نزعاتهم متشابهة فى حب التمتع بالحياة ، وفى تحديد معنى التمتع بالحياة ، والشعور بالجمال .

وليس معنى هذا أنه لا فرق بين المدنيتين : الأثينية والصينية القديمة ؛ فهناك فروق كبيرة بينهما ؛ فالأثينى مثلا من اليونان كان معروفا بالنشاط بخلاف الصينى فإنه كان معروفا بالكسل . وقد خصص الأثينى نشاطه بالعلوم والفنون ، فنجح نجاحا باهراً لم يسبقه فيه أحد . وكان السياسى من الأثينيين إذا نُفى قاد جماعة ليهجم على مواطنيه وعلى عاصمة بلاده ؛ أما الصينى فقد كان إذا نفى ذهب ليعيش فى الجبال راضياً مقتنعاً بقرض الشعر ، وكتابة القصائد فى مسرات الحياة بالريف . وعلى ذلك

(١) "Thomas Carlyle" (١٧٩٥ — ١٨٨١ م .) : كاتب إنكليزى ، ومصلح اجتماعى ، وفيلسوف ومؤرخ . وقد اعترف للرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم بالعظمة والبطولة ، والوفاء والإخلاص فى كتابه : « الأبطال وعبادتهم . » ومن كتبه الثمينة : « الثورة الفرنسية » .

فالمدنية اليونانية أبادت نفسها بنفسها ، ولكن المدنية الصينية لم تبد نفسها بنفسها ، بل أبادها الأجانب . وليست هذه الفروق كلها ناشئة عن التربية .

أما اليابان الحديثة فإن الغرض الأسمى من التربية لديها إيجاد شعب عظيم ؛ فالغرض من التربية اليابانية تكوين رجال مهذبين ، يحبون وطنهم ، ويخلصون لحكومتهم ، وينفعونها بما يكتسبونه من العلوم والمعارف . ولقد بنيت طريقة التربية اليابانية على نظم محدودة؛ فقد انتفع اليابانيون بتجارب غيرهم وبخاصة تجارب انجلترة، وأخذوا ينفذونها بسهولة فى مدارسهم، ولم يضيعوا وقتاً فى المحاولة والتجربة ، بل أخذوا كل ما أثبتته التجارب ونفذوه عمليًّا، وكان ذلك من أسباب نهضة اليابان. ويؤخذ على اليابانيين كثرة التحكم ، وكثرة الاستبداد والسيطرة فى التربية والتعليم. وهم يعتقدون أن العلم صعب ، ولكنه ليس بالمحال .

وأما التربية عند اليسوعيين فقد أخطأت — كما أخطأت اليابان — فى جعل التعليم خاضعاً للكنيسة ؛ فاليسوعيون لم يفكروا أولاً فى منفعة التلميذ ، ولكنهم كانوا يفكرون فى مصلحة الكنيسة، وقد ضحوا بالتلميذ فى سبيلها؛ أى ضحوا بالفرد فى سبيل المجتمع الدينى . ويرى المربون أن التربية اليسوعية كانت عقبة فى سبيل كل إصلاح دينى أو غير دينى فى فرنسا . وفى النهاية كان الفرنسيون فى حاجة إلى الثورة الفرنسية لإزالة المضار التى سببها (الجزويت) أو اليسوعيون قديماً.

أما التربية الإنكليزية — وتتمثل فى طريقة (الدكتور أرنولد فى رجبى[1]) التى استمرت فى المدارس الإنكليزية العامة إلى وقتنا هذا — فلها عيب آخر وهو أنها (أرستقراطية) للخاصة ؛ الغرض منها تربية رجال يتولون أكبر مراكز السلطة والحكم فى بلادهم ، وفى الأمم التابعة لهم[2] . ولكى تقوم المدرسة بتلك التربية (الأرستقراطية) التى تعمل على تكوين رجال ليحكموا ، يراعى فى التربية الإنكليزية

---

(١) Dr. Arnold of Rugby

(٢) ارجع إلى ما كتبناه عن مدارس الخاصة فى كتاب « التربية الإنكليزية » للمؤلف .

تعويد النشء النشاط والصبر وضبط النفس ، مع العناية بصحة الجسم ، والتمسك بمبادئ خاصة لا تتغير ، والسير على مستوى عال من التقاليد ، والثقة بأن هؤلاء التلاميذ أرسلوا إلى هذا العالم للقيام بعمل هام فى الحياة ؛ كتأدية رسالة وطنية ، أو إنسانية ، أو علمية . وقد نجحت هذه المدارس العامة ــ وهى مدارس الخاصة ــ نجاحاً كبيراً فى تحقيق هذه الأغراض ؛ فالإنكليز قد حكموا أكبر جزء من العالم بأفراد رُبُّوا هذه التربية ، ولكن هذه المدارس قد ضحت بالتربية العقْلية فى سبيل تلك التربية (الأرستقراطية) ؛ زاعمة أن العقل أو التفكير قد يؤدى إلى الشك ، والشك قد يؤدى إلى الاحجام وعدم التنفيذ إذا كانت الإرادة ضعيفة ، كما ضحت بذلك الخلُق الإنسانى وهو مشاركة الناس فى شعورهم ؛ خوفاً من أن يتعارض هذا الخلق مع حكم الشعوب أوالطبقات الضعيفة . وقد ضحت أيضا بخلق الشفقة والرحمة؛ لأن هذا الخلق لا يتفق مع الروح العسكرية ؛ روح السلطة والحكم ، ثم ضحت أخيرًا بقوة الخيال فى سبيل الثبات على المبدأ ، ولكن (الأرستقراطية) اليوم قد أصبحت من التقاليد العتيقة التى تُنافى روح العصر الحاضر . ولقد قامت الشعوب المستضعفة على بكرة أبيها معارضة هذه السيطرة ؛ سيطرة الحكام مهما أوتوا من عقل وحكمة وفضيلة . وقد اضطر هؤلاء الحكام بحكم سلطتهم إلى إخضاع تلك الشعوب بالقوة والغلظة والقسوة، فكانت النتيجة العصيان. وإن تعقد العالم الحديث اليوم يتطلب بقوة كثيرا من الذكاء ؛ فهو فى أمس الحاجة إلى التربية العقلية لا التربية العسكرية . وقد ضحى (الدكتور أرنولد) بالتربية العقلية فى سبيل التربية العسكرية ؛ فالعالم اليوم يتطلب نوعا آخر من التربية ؛ نوعا تربى على مشاركة الناس فى شعورهم ، والفرح لفرحهم ، والحزن لحزنهم ، نوعا تمرن من الوجهة العقلية ، يعتقد قليلا فى القوة الحيوانية والمادية ، ويثق كثيرا بالقوتين : العلمية والفنية. هذا

ما يراه (الدكتور برترَاندرَسِل)[1] الفيلسوف الإنكليزى، والمصلح الاجتماعى، كما يرى أن المدير الذى يصلح لأن يتولى الإدارة فى المستقبل يجب أن يعد نفسه خادماً لغيره من أبناء وطنه الأحرار ، ولا يعد نفسه صاحب الفضل والإحسان ، الحاكم بأمر الله ؛ فالتقاليد (الأرستقراطية) فى التربية الإنكليزية العالية هى عيبها الوحيد الذى يؤخذ عليها . ومن الممكن التخلص من تلك التقاليد بالتدريج . وربما تعجز المدارس القديمة مثل (إيتُون ، وهارُو ، ورَجْبِى) عن التخلص منها.

وأما مدارس الشعب فى الولايات المتحدة بأمريكا فتقوم بأداء واجب شاق بنجاح باهر ؛ ذلك الواجب هو تحويل مجموعة مختلفة من الجنسيات إلى شعب واحد هو الشعب الأمريكى ، وجنسية واحدة هى الجنسية الأمريكية . وللمربين من الأمريكيين الفضل الأكبر فى أداء ذلك الواجب ؛ فلأمريكا مركز خاص ، وما يصلح لها ربما لا يصلح لغيرها ، وهى متمتعة بمزايا خاصة كالثروة ، والغنى ، وعدم وجود تقاليد قديمة موروثة من القرون الوسطى تعوقها عن التقدم . ولقد وجد المهاجرون إلى أمريكا من الأقطار الأخرى شعورا كبيرا نحو (الديمقراطية) ، وتقدما عظيما فى الصناعة . ولهذين السببين وهما : انتشار (الديمقراطية) ، وتقدم الأعمال الصناعية نجد كل المهاجرين يفضلون أمريكا على بلادهم الأولى ، ولو أنهم يميلون من الوجهة الوطنية إلى شعوبهم الأصلية، أما أبناؤهم فيفقدون ولاءهم للبلاد التى أتى منها آباؤهم، ويصيرون أمريكيين حقًّا . فحالة الأطفال وحبهم لأمريكا وولاؤهم وإخلاصهم لها أثر من آثار التربية المدرسية ؛ فالمدرسة تصبغهم بالصبغة الأمريكية فى ميولهم ومبادئهم وأعمالهم وشعورهم ووطنيتهم وأخلاقهم وعاداتهم .

وينبغى أن يحب المدرس تلاميذه ، ويضحى بكل شىء فى سبيلهم ، ويشعر نحوهم

---

(١) "Dr. Bertrand Russell" : فيلسوف إنكليزى معاصر ، وعالم اجتماعى. ومن كتبه الثمينة فى التربية : كتابه : "On Education"

شعور الآباء نحو الأبناء ، أما المدرسون المجردون من ذلك الشعور الأبوى فلا يصلحون للتدريس أو لوضع مشروعات التربية والتعليم .

فبالرجوع إلى تاريخ الأمم المختلفة نجد أن الغرض من التربية يختلف باختلاف تلك الأمم ، ومراكزها فى العالم ، ونظرتها نحو الفرد ، وتفكيرها فيما تراه ضروريًّا لتحقيق سعادتها ، كما يختلف باختلاف آراء علماء التربية وفلاسفتها ؛ فمن أغراض التربية :

(١) كسب العيش :

يرى بعض الآباء —وبخاصة الصناع منهم— أن الغرض من التربية والتعليم المدرسى هو إعداد التلاميذ إعداداً يمكّنهم من كسب رزقهم فى المستقبل ، ويساعدهم فى تحسين العمل الذى يتخذونه مهنة لهم بعد حياتهم المدرسية . ولتحقيق تلك الغاية يجب اختيار المواد الدراسية التى لها اتصال كبير بالحياة العملية ، فتعلُّم الطهى فى نظرهم أنفع من تعلُّم الشعر ، ومعرفة إمساك الدفاتر أجدى من التاريخ . وربما بالغ بعض الآباء والمربين فى هذا الاعتقاد ، وادَّعوا أن الوقت الذى يقضيه التلميذ فيما لا علاقة له بحياته العملية ضائع ، ويجب أن يقضيه فى الحياكة أو تنظيم البساتين أو النجارة أو الحدادة .

قد يكون هذا الاعتقاد مقصوراً على كثير من أفراد الطبقات الفقيرة من الأمم ؛ فهم لا يفكرون فى العلم لذات العلم ، ولكنهم يفكرون فى تعلم المواد الضرورية كالقراءة ، والكتابة ، والحساب ، وفى التعليم الصناعى الذى يمكّن أبناءهم من كسب عيشهم فى حياتهم . وإننا لا نستطيع أن ننكر أن فى رأيهم شيئا من الصدق ، كما لا نستطيع أن ننكر أن كسب العيش بتعلم حرفة من الحرف أو مهنة من المهن

أمر ضرورى جدًّا يجب ألا يهمل فى مشروعات التعليم . ولكننا ننكر أن يكون هذا الغرض أسمى أغراض التربية ؛ إذ أننا لا نستطيع ولا يستطيع أحد أن يتنبأ تماماً بالعمل الخاص الذى يختار للطفل لكسب عيشه فى المستقبل . فالقول بأن الغرض من التربية تمكين الطفل من كسب عيشه فى الحياة فيه نظر ؛ فالعامل العادى يستطيع أداء عمله وكسب عيشه وهو لا يعرف القراءة والكتابة ، ولكن قدرته عليهما تسهل له العمل ، وتوسِّع تجاربه ومعلوماته عن الحياة ، وترفع مستواه العام فى معيشته . ولا غرو فمستوى العامل المتعلم اليوم فى الأمم الراقية لا يقل عن مستوى رجل من الطبقة المتوسطة فى القرن التاسع عشر ، وما ذلك إلا بفضل التعليم .

ومع أن كسب العيش عامل مهم فى حياة كل فرد ، فليس ذلك كل ما يحتاج إليه المرء فى حياته ، بل هناك أمور لا تقل أهمية عن كسب العيش؛ كقضاء وقت الفراغ ؛ فإنه أمر يجب التفكير فيه . فماذا يفعل العامل الأمىّ الذى لا يقرأ ولا يكتب إذا انتهى من عمله ، ووجد أمامه وقتاً طويلا خالياً من العمل ؟ إنه ليس أمامه إلا التجول فى الطرقات ، والجلوس فى الحانات . فمن الواجب أن يُعَلَّم هؤلاء العمال ، ويغرس فى نفوسهم حب القراءة المفيدة ، والألعاب الرياضية ، والاشتراك فى الشئون الاجتماعية ، ومعالجة الأمور التى تنفعهم كى تتسع تجاربهم ، وتقوى عقولهم، ويتحسن حالهم ، ويكون ذلك حافزاً لهم على إجادة أعمالهم . أضف إلى ذلك أن الحياة تستلزم فوق ما تقدم خلقاً مهذَّباً، وعقلاً سليماً ، وجسماً قويًّا ، وعادات حسنة، وحبًّا لأداء الواجب، والنظام ، والمواظبة على العمل والإخلاص فيه .

مما تقدم يتجلى خطأ هذا الغرض وقصوره عن الغاية المنشودة من التربية ؛ فلو أن عاملاً تعلم القراءة والكتابة، ثم صناعة لكسب العيش، وأهملت تربيته الخلقية ، فكان سيئ الخلق ، غير مخلص فى عمله ، يتأخر عن مواعيد حضوره ، أو أهملت تربيته العقلية فلم تَقْوَ فيه غريزة حب الاطلاع ، والاستزادة من المعلومات الحديثة ،

أو أننا لم نعن بصحته وتربيته الجسمية ، فأصبح ضعيف الجسم ، معتل الصحة ، فلا شك أن مثل هذا العامل لا يستطيع أن تثبت قدمه فى معترك الحياة العاملة ، بل يكون نصيبه الإخفاق، والعجز عن كسب العيش .

(٢) تحصيل العلوم :

يرى بعض المعلمين أن التربية مرادفة للتعليم ، وأن الغرض منها تحصيل العلوم وحفظ المذكرات ؛ كى يستطيع الطالب الحصول على أكبر الدرجات ، فيكون الأول فى الامتحان . ولكن التربية الحقة ليست كما زعموا . وما هذا الامتحان إلا اختبارٌ للذاكرة ومقدرتها على الحفظ والتذكر ، لا اختبارٌ للذكاء ، وقوة التفكير ، والحكم ، وقوة الإرادة ، وحسن الاختيار . وليست هذه المواد التى تشحن بها حوافظ التلاميذ بالتعليم الذى ينبغى أن يكون ؛ فقد دلت التجارب على أن هذا الإعداد ـ وإن ساعد الطالب فى النجاح فى الحياة المدرسية ـ لا يساعده فى النجاح فى حياته العملية .

ومن الخطأ أن تضع المدرسة النجاح فى الامتحان نصب عينيها ، وتجعله كل الغرض المقصود منها ؛ فإن ذلك لا يكفى لتخريج رجال أكفاء قادرين على القيام بما يعهد إليهم من أعمال ، يستطيعون تنظيم شئونهم بعقول راجحة ، وحكمة متزنة ؛ فالعلم شىء والعمل شىء آخر ؛ فقد يعرف الإنسان كل قواعد النحو والصرف والمعانى والبيان والبديع ، ولا يستطيع أن يكتب مقالة من المقالات ، أو موضوعاً من الموضوعات ، أو يحكم على كتاب حكماً علميًّا نقديًّا دقيقاً ، أو يؤلف كتاباً فى موضوع لم يسبقه إليه أحد .

ولا نريد بالتأليف أن نذهب مذهب بعض المؤلفين اليوم من السطو على الكتب

القديمة وإخراجها للناس فى ثوب قشيب ، مع مراعاة دقة الأمانة فى النقل ، وتحويل الورق الأصفر إلى أبيض ؛ فإنك إن فعلت ذلك لم تأت بجديد . وإنما نريد من المؤلف أن يعرض لأحد الشعراء أو الكتاب أو العلماء، فيقرأ ويدرس، ويبحث ما تركه من آثار أدبية أو علمية وما كتب عنه، ثم يظهر لنا كتاباً أو بحثاً يعطينا صورة واضحة تمثل حياته وبيئته وعصره، وأثر كل ذلك فى شعره أو كتابته، ويبين لنا آراءه وأفكاره، ثم يحكم عليه من غير محاباة أو مغالاة فى مدحه أو ذمه ، مع تبيين مواطن المدح والذم فيه ، ومواضع القوة والضعف فيه . ولا شك أن هذه المقدرة وقوة الحكم والتأليف لا تأتى من التعليم إذا كان الغرض منه التحصيل والنجاح فى الامتحان. وقد رأينا كثيرين من الشبان فى الأمم الراقية قادرين على التأليف معتمدين على أنفسهم ، وعلى ما أوتوا من قوة فى التفكير والخيال ، أما فى مصر فالذكاء كثير ولكنه مقبور ؛ لأننا لم نتعهده بالتربية الحقة، وقوة الحكم موجودة ولكنها لم تنم، وأهملت كل الإهمال، فضعفت كل الضعف . واقتصرنا على العناية بالذاكرة أملاً فى النجاح المدرسى . وكما تجب العناية بالذاكرة تجب العناية بالذكاء ، وقوة الحكم ، والتفكير ، والخيال والإرادة والانتباه ، والاهتمام بتكوين العادات الحسنة ، وتربية الشخصية القوية الكاملة . ولا يمكننا أن نقول : إن المدرسة قد قامت بواجبها خير قيام إلا إذا أعطت تلك النواحى حقها من العناية والتقدير .

(٣) الحياة الكاملة :

قد ذكرنا من قبل كلمة موجزة عن التربية والإعداد للحياة الكاملة ، ولأهمية الموضوع نعود إليه فنقول :

يرى (هربرت سبنسر) أن الغرض من التربية إعداد المرء للحياة الكاملة . ولإعداد المرء لهذه الحياة يجب تهذيب الطبيعة الإنسانية تهذيباً كاملاً من نواحيها

المختلفة : الجسم والعقل والخلق والقلب والذوق واليد واللسان ، فلا نعنى بناحية ونهمل أخرى فى تربية الطفل ، ولا نكتفى بتربيته الجسمية أو العقلية أو الخلقية أو الوجدانية أو الذوقية أو العملية أو الخطابية . ولكن ما الحياة الكاملة ؟ وما المواد التى يجب أن نعلمها كى نصل إلى تلك الحياة ؟ والجواب عن ذلك سهل يسير ؛ فليس الغرض من التربية قوة العضل ، أو حشو الذهن بالمعلومات ، أو ترقيق الشعور ، بل الغرض من التربية هو الفضيلة ، وبعبارة أخرى يجب أن يقدَّم الغرض الخلقى على جميع الأغراض الأخرى. وليس معنى ذلك إهمال الجسم ، أو العقل ، أو الذوق ، أو الوجدان ، أو اليد ، أو اللسان ؛ فمن السهل أن يعمل الإنسان لتهذيب الأخلاق وتزكيتها فى الوقت الذى يعمل فيه لتقوية جسمه ، وتربية عقله ، وتهذيب وجدانه ، وتربية ذوقه ويده ولسانه ، وتفهيمه ما صعب عليه من المواد ، وتعويده الاعتماد على نفسه . فالتربية الجسمية هامة ، وكذلك التربية العقلية والوجدانية والعملية واللغوية ، ولكن تهذيب الخلق هو الغرض الأسمى من التربية ، بل هو كل الحياة ؛ إذ به نضمن تكوين كثير من الصفات الحميدة فى التلميذ : من وفاء بالوعد ، وإخلاص فى العمل ، وحرص على أداء الواجب . وما هذه الخلال إلا أثر للعلم ، والعلم الذى لا يؤدى إلى الفضيلة والكمال لا يعد علماً ؛ فعمل الإنسان متوقف فى كثير من الأحيان على علمه ومعرفته ودرايته ، وهذه متوقفة على ميله ، فإذا وجد الميل إلى العلوم اتجه الشخص إليها ، وإذا كان محباً للفنون تغلب ميله إليها وهكذا . فإذا نجح المربى فى إذكاء هذا الميل فى التلميذ وتوجيهه إلى قراءة كتاب علمى أو أدبى فى أوقات فراغه ، وصرفه عن الكتب المملوءة بالرذائل فقد نجح فى بث الفضيلة فى نفس تلميذه فى حجرة الدراسة .

والمدرسة قد تنجح نجاحاً باهراً فى سبيل التربية الخلقية إذا حرص مدرسوها — فى أثناء تدريس المواد المختلفة — على تنبيه المسيئين من التلاميذ ؛ بذكر كلمة واحدة ، أو النظر نظرة واحدة ، نظرة موبخ متسائل مرشد . وتلك الطريقة أجدى من

الإكثار من الكلام أو التوبيخ ؛ إذ أن ذلك لا يفيد فى التربية الخلقية . ولو كان للوعظ أثر كبير ما كنت ترى فساد الأخلاق فى كل مكان ؛ فالوعاظ يعظون ، والرذائل منتشرة لا تنقص . إننا لا نريد أن نتبع طريقة القدامى من المربين من العناية بالتربية العقلية وإهمال التربية الخلقية فى وقت يرى فيه علماء النفس المحدثون أن العلم وسيلة للعمل ، وأن الإرادة لدى الإنسان تتسلط على كل من إدراكه وشعوره . ولا فائدة من وجود الشعور والإدراك إذا لم يكن لهما أثر حسن فى سلوك الإنسان . فعلى المربى الحديث أن يعوّد تلميذه التفكير فى النتائج ، والشعور بنتيجة أى عمل يعمله ، وأن ينمى قوة الإرادة لديه ؛ إذ بها يستطيع السير فى الطريق الذى يدرك منفعته ويشعر بفائدته ، ويتجنب الطريق المضر . وعلى المربى أيضاً أن يفكر دائماً فى أثر التعليم الذى يعلمه للطفل ، ويعمل على أن يكون العلم مؤدياً للفضيلة ، مؤثراً فى تحسين سلوك التلميذ ؛ فلا فائدة فى علم لا يستفيد منه الإنسان ولا يفيد الإنسانية. ولا خير فى علم نتيجته التخريب والتدمير ، وقتل الأرواح البريئة . فإذا استطاع المربى أن يرشد المربَّى ويقوده إلى السير فى الطريقة المثلى فى أثناء عمله ، ووقت فراغه فى المنزل وخارجه ، فى مكتبه ومصنعه ، وأن يراقب الله وضميره فى السر والعلانية فإنه يُعد ناجحاً كل النجاح فى عمله .

مما تقدم يتبين أن التربية هى إعداد الطفل للحياة الكاملة ، بحيث يعطى الجسم حقه من العناية ، والعقل نصيبه من التربية ، والخلق حظه من التهذيب ، فنعنى عناية كبيرة بتربية اليد والجسم والرأس والقلب والذوق واللسان ، ولا نهتم بناحية ونهمل أخرى ، بل نهتم بنواحى التربية المختلفة .

الفصل الثالث

التربية والإعداد للحياة العملية

إن أهم شيء ينبغي أن يفكر فيه المربون أن يوضع كل فرد من أفراد الشعب في المكان الذي يلائمه ويليق به[1] ، ويتفق مع رغباته وميوله ، بحيث يستطيع أن ينجح في عمله ، ويجد لذة فيه ، ويكون فاخراً به ، ولكن هل من السهل أن نوجه كل فرد إلى العمل الذي يلائم ميوله ، ونعده للحياة العملية التي تنتظره ؟ إنه ليس من السهل ، ولا ندعى أن من السهل توجيه كل فرد من المجتمع توجيهاً صحيحاً يتفق مع رغباته وميوله ، ومع مطالب الشعب وحاجاته .

ونظريًّا يقول المربون : « إن كل فرد يصلح لعمل من الأعمال » . وعمليًّا قد بذل كل مجهود لمعرفة ما يصلح له كل فرد من الأفراد ، ولكن لم يصل الباحثون إلى معرفة ما يصلح له كل طالب ؛ فقد تبقى مواهبه مختفية ، ولا يعرف المربى أين هى كى يوجهها . وقد تجد فى المدرسة تلاميذ ناجحين فى دروسهم ، مثابرين على أعمالهم ، معتمدين على أنفسهم ، يطيعون الأوامر ، وينتظرون أى إرشاد ، فإذا ما سألت أحدهم عما يريد أن يكون فى الحياة وهو فى نهاية مرحلة الثقافة ، أجابك بكل سذاجة وصراحة أنه لا يدرى شيئاً عما يريده فى تلك الحياة ، ولا يستطيع أن يظهر لك

(١) ارجع إلى كتاب : Cambridge Essays on Education, Ch X.

رغبته فى تفضيل عمـل على آخر ، أو ناحية على أخرى ؛ فهو لا يدرى أينتسب إلى القسم العلمى أو القسم الأدبى أو الرياضى ؟

وهناك طلبة يقدمون على هذا القسم أو ذاك ، وهذه الشعبة أو تلك، ويظهرون رغبة فى هذه الناحية أو تلك ، ولـكن تنقصهم الصفات الجوهرية للنجاح فى العمل الذى أقدموا عليه ، وانتسبوا إليه ، فيسيرون ضالين ، ويقضون وقتهم الثمين ؛ وقت الشباب ، فى عمل سيخفقون فيه لا محالة ؛ لعدم وجود الصفات الضرورية لنجاحهم فى هذا العمل ؛ فقد يذهبون إلى كلية الهندسة مع ضعفهم فى الرسم والرياضة ،وقوة الابتـكار، والقدرة على الاختراع . وقد ينتسبون إلى كلية الحقوق وهم لايستطيعون التعبير عما فى أنفسهم بألسنتهم وأقلامهم ، فيخطئون إذا كتبوا ، وتبدو لُـكْنَتُهم إذا تـكلموا . ولن ينتظر نجاح هؤلاء فى المحاماة ، ولا أولئك فى الهندسة إذا خرجوا إلى ميدان العمل فى الحياة .

وكثيراً ما يتقيد الابن بمهنة آبائه وأجداده ؛ فابن المحامى يريد أن يكون محامياً، وابن الطبيب يود أن يكون طبيباً ، وابن المهندس يرغب أن يكون مهندساً ، وابن العالم يحب أن يكون عالماً ؛ لأن الأسرة أسرة محامين ، أو أسرة أطباء ، أو أسرة مهندسين ، أو أسرة علماء .. ولـكن هل من الحكمة أن يقيد كل ابن ويطالب بأن يحذو حذو أبيه، ويخطو خطوات أسرته، ولو لم تسمح له ميوله واستعداده بأن يسير فى طريق المحاماة أو الطب أو الهندسة أو العلوم ؟

إننا لا ننكر أن للبيئة تأثيراً ، وأن للوراثة أثراً ، وأن الولد سر أبيه ، ولـكننا ننـكر أن نتجاهل ميول الفرد ورغباته ، وندفعه إلى السير فى طريق لا يرغب فيه ، ولا يميل إليه ؛ فقد يحب أن يسير فى غير الطريق الذى سار فيـه آباؤه وأجداده . حقًّا إن الأب قد يرغب فى أن ينتفع أبناؤه بثمار عمله ؛ فإذا كان صاحب مطبعة ، أو

مكتبة ، أو مزرعة ، أو مصنع ، أو تجـارة ـ أراد أن يخلفه أبناؤه فى الطباعة ، أو النشر ، أو الزراعة ، أو الصناعة ، أو التجارة حتى يخطوا خطواته ، ويبنوا على الأساس الذى وضعه أبوهم ، وينتفعوا بتجاربه وتقاليده ، فإذا ما اعتزل العمل حلّ الابن محله ، وقام بمـا كان يعمله أبوه . وكثيراً ما ينجح الابن إذا ما كانت لديه الرغبة فى ذلك العمل ، وسار على نظام أبيه ، وساعدته الفرصة فى النجاح . ولـكننا لا نستطيع أن ننكر أن هذه الطريقة قد تؤدى إلى وضع شبان فى غير مواضعهم ، وفى غير الأمـكنة اللائقة بهم . فإذا أظهر الشاب ميلاً لناحية خاصة ، فلم لا نوجهه إلى تلك الناحيـة ونترك التقيد بمهنة الآباء والأجداد ؟ فقد يكون الأب ناجحاً فى تجارته موفّقاً فيها ، فإذا توفى وحلّ ابنه محله على غير رغبة منه ، كسدت تجارته ، وأفلس بعدسنوات ؛ لأنه ليس لديه الاستعداد الذى كان لدى أبيه من قبـل ؛ فالأب قد يكون حريصاً على فتح متجره بنفسه، ومباشرة كل شئونه بنفسه ، والابن قد يكون كسلان لا يعتمد على نفسه ، فيترك العمل لغيره ، ويسير وراء شهواته ، فتنهب تجارته بالتدريج ، ويفقد رأس ماله ، ويكون مآله الخيبة والإخفاق .

وقد يكون لدى الناشئ رغبة فى مهنة من المهن ، وقد تساعده ميوله فى المهارة فيها ، ولـكن قلة ما تدره تلك المهنة من الربح والمال قد تصده عن مباشرتها والاحتراف بها ، فيختار مهنة أخرى كثيرة الربح والدخل ، ولـكنها تتعارض مع ميوله الطبعية ، فمثل هذا يصعب عليه أن يبرز ويمهر فى تلك الناحية .

وإذا نظرنا إلى المدرسين وجدنا كثيرا منهم لم يختاروا مهنة التعليم حبًّا لتلك المهنة ورغبة فيها ، ولـكنهم قد اضطروا إلى الالتجاء إليها لـكسب عيشهم ؛ لأنهم وجدوا صعوبة فى اللحاق بالهندسة ، أو الطب ، أو الحقوق . ومحال أن يوفق أمثال هؤلاء فى تأدية الرسالة التى تنتظر منهم ؛ لأنهم اتخذوا التعليم مهنة لهم مكرهين ، على غير رغبة منهم .

ولو أقدم كل شاب على الناحية التى يميل إليها ، وتؤهله لها صفاته الجسمية والعقلية والخلقية لوجدنا مهرة من الشباب فى كل ناحية من نواحى الحياة العملية . وإن نظرة واحدة إلى الحياة المصرية توضح لك أن الطلبة يكثر إقدامهم على المدارس إذا قلت مدة دراستها ، وضمن التوظف بعد التخرج فيها ، فمعظمهم الآن يريدون اللحاق بكلية الحربية ؛ لأن مدتها قصيرة ، ووظيفتها ثابتة ، ولو لم يكن لهم ميل إلى تلك الناحية من الحياة الحربية .

وقد يكون لدى الطالب استعداد وميل لأن يكون طبيباً ، ولكن طول مدة الدراسة وكثرة النفقات التى تتطلبها كلية الطب قد يحولان بينه وبين اللحاق بها ، فيضطر إلى الانتساب إلى كلية أخرى قصيرة المدة ، قليلة النفقات ، من غير نظر إلى استعداده وميله . فمثل هذا الطالب كان يجب أن يشجع على اللحاق بكلية الطب ، وتجعل نفقات الدراسة ديناً عليه يقوم بسداده بعد التخرج ؛ كى يمكن الانتفاع به وبمواهبه ، فإنه إذا استطاع السير فى الكلية الأخرى على غير رغبة منه ، فقد ينجح فى الدراسة ، ولكن لن يكون ماهراً فى حياته العملية . وما أكثر حدوث هذا بين شباننا اليوم . وربما كان ذلك سبباً فى قلة النبوغ والنابهين ، والعبقرية والعبقريين .

ولكى نصل إلى كثير من النابهين والعبقريين يجب أن نربى كل شاب تربية تتفق مع مزاجه ومواهبه ، واستعداده وميوله ، فتؤسس المعاهد المصرية والكليات على مبدأ الحرية الشخصية ، بحيث تفتح المعاهد والكليات لمن يشاء من الراغبين فيها ، مادامت دراستهم تؤهلهم لها ، من غير تقيد بقيود قد تكون بعيدة عن العقل والمنطق لا تتفق مع المصلحة العامة ؛ كى يجد الراغب فى الهندسة مكانه فى كلية الهندسة ، والمحب للزراعة مكانه فى كلية الزراعة ، وهكذا . وبهذه الوسيلة نعطى الشبان الحرية فى الاختيار المبنى على ميل حقيقى ، ورغبة طبيعية ، ونمنحهم الفرصة فى الانتفاع

بمواهبهم واستعدادهم . وقد أدى تجاهل رغبات الآباء والأبناء إلى وجود شبان متعطلين ، وآخرين مخفقين فى عملهم من خريجى الحقوق ، أو الزراعة ، أو التجارة، أو الهندسة ، أو الآداب ، أو العلوم ؛ لأنهم ألحقوا بهذه الكليات على غير رغبة منهم ، واضطروا إلى الانتساب إليها بعد أن أوصدت الكليات التى تلائمهم فى وجوههم . وربما كان هذا هو السبب فى أن معظم المتخرجين فى الكليات العملية كالزراعة ، والتجارة ، والهندسة ، والمدارس الصناعية يبحثون بعد التخرج عن وظائف كتابية ، ولا يفكرون فى الانتفاع بما درسوه فى كلياتهم ومدارسهم فى حياتهم العملية ؛ فكل شاب يريد أن يكون موظفا ، ويفضل أن يكون كاتباً على العمل بالمحاماة، أو الزراعة، أو التجارة، أو الصناعة من الأعمال الحرة التى أعدّ نفسه لها نظريًّا وعمليًّا ، ولكن دراسته فى معهده أو كليته كرهاً أدت إلى نفوره منها، وتجاهلها فى حياته العملية؛ فإذا أردنا تدارك هذا النقص وجب أن نعطى الطالب الفرصة فى أن يختار الكلية التى يرغب فيها ، ويدرس الدراسة التى يميل إليها ؛ كى يستطيع الانتفاع بتلك الدراسة فى العمل الحر بعيداً عن التوظف والوظيفة ، ويكسب عيشه بعرق جبينه . وإننا بهذا نريد أن نوجه الطلبة إلى حيث ينتفعون بميولهم ومواهبهم ، وتنتفع الأمة بمجهودهم ، ورائدنا فى ذلك الجامعات فى الأمم المتمدينة . فمادام الطالب ناجحاً فى دراسته العلمية ، أو الأدبية ، أو الرياضية ، فليوجه إلى كلية العلوم ، أو الآداب ، أو الهندسة من غير تقيد بخمسين فى المائة أو ستين أو أكثر أو أقل مما لم يقل به أحد من العلماء؛ لأن تقدير الدرجات ـ إذا وضع أساساً للاختيار ـ غير دقيق ؛ فقد يختلف فيه المصححون باختلاف أحوالهم ، وأمزجتهم وميولهم ، وتقدير كهذا لا يجوز أن يكون دعامة يبنى عليها القبول بكلية من الكليات أو عدمه .

وقد يكثر الإقبال على كلية من الكليات إلى درجة كبيرة ، وقد يقل ، ومع هذا فلا حق لنا فى أن نرفض قبول هذا الطالب فى هذه الكلية أو تلك مادامت

مؤهلاته لديه، ومادام استعداده متفقا مع هذا الاختيار. ومن المبادئ المسلم بها فى التربية : أن من مصلحة المجتمع أن يسمح للطالب بأن يدرس من المواد ما يشاء على حسب رغبته وميوله ؛ فإن كمال الشعب لا يمكن الوصول إليه إلا إذا أعطى الفرد حرية فى اختيار العمل الذى يرغب فيه. وإن مبدأ الحرية الشخصية يتضمن أقل تدخل من السلطة التنفيذية فى تلك الحرية . فينبغى أن يترك للفرد حرية الاختيار على حسب استعداده الفطرى ؛ كى نجد الطبيب الماهر ، والمحامى القدير ، والكاتب البليغ ، والعالم البحاثة ، والزارع الملم ، والتاجر الموفق ، والصانع المبتكر . أما التضييق على الطلبة والقيود التى يقيدون بها فكثيرا ما تقضى على مواهبهم ونبوغهم فى حياتهم العملية .

وتتوقف مصلحة الطالب — كما تتوقف مصلحة الشعب — على العلم الذى يصحب بالعمل ، أما العلم الذى لا يمكن تنفيذه عمليًا ، أو يتعارض مع الحياة العملية ، فهو علم لا فائدة فيه ، وبخاصة هذا العصر المادى .

لا يكفى أن يجبر الطفل على الالتحاق بالمدرسة ، بل يجب أن نبث فيه الرغبة فى العلم والتعلم ، والبحث والتنقيب . فإذا بلغ مرحلة المراهقة — وهى أشد مراحل الحياة خطراً — وجب ألا نتركه للحياة والظروف بغير قيادة أو إرشاد ، لا يجد نظاما يحتذيه ، أو مثلا عاليا يحاكيه ، ولا يرى فى نفسه رغبة فى تذكر ما درسه من مواد والانتفاع بها فى حياته العملية . وفى كل عام يتخرج فى المدارس الفنية والصناعية عدد كبير من الشبان كان من السهل إعدادهم للاعتماد عليهم فى الزراعة بطريقة علمية ، وفى التجارة بوسيلة منظمة ، وفى الصناعة بحذق ومهارة ، ولكن كثيرين منهم لا يقدمون على العمل الحر ، فيتجاهلون الدراسة التى أعدوا أنفسهم لها ، وينفرون من الناحية العملية ، فيفكرون فى وظائف بعيدة عن الدراسة التى درسوها ، وتخصصوا فيها ، فتقل معلوماتهم ، وتتعطل مواهبهم ، ويضيع ما أنفقته الأمة عليهم سدى ، ويصبحون

فى عداد المتعطلين . يسيرون على غير هدى فى طرق لم يعدوا أنفسهم لها ، ولا ينتظر تبريزهم فيها . وقد حان الوقت بعد هذه الحرب الطاحنة ليستيقظ الشبان من سباتهم، ويقدموا على الحياة العملية والعمل الحر بقلوبهم ؛ كى يسدوا الفراغ ، ويكملوا النقص الذى أظهرته الحرب لنا . فمن العار أن نقول : إننا لا نستطيع أن نصنع إبرة ، ومن المخجل ألا يكون لدينا من مصانع الغزل ، والنسج ، والورق ، والزجاج ، والمنتجات الزراعية، والأدوية الطبية ــ ما يغنينا عن البلاد الأجنبية . ولو تعلم الشبان تعلمًا حقًّا يعدهم للعمل الحر فى تلك الحياة لأغنوا مصر عن غيرها فى كثير من ضروريات الحياة.

إن المدارس لدينا كثيرة ولله الحمد ، وقد أصبحت أضعاف ما كانت عليه فى سنة ١٩٢٠ م ، ونرجو أن تطرد هذه الزيادة ، ويكثر الإقبال على العلم والتعليم ، ولكن يجب أن نتذكر أنه لا يكفى الإكثار من المدارس ؛ بل يجب أن تؤدى المدرسة رسالتها العلمية، أو الأدبية ، أو الهندسية ، أو الزراعية ، أو الصناعية ، أو التجارية ؛ فتعد الشباب للحياة العملية ، وتبث فيه روح المغامرة ، والشجاعة ، والحماسة، والإقدام، والمثابرة، والاعتماد على النفس فى أى عمل من الأعمال . يجب أن يفكر المربون فيما يلائم الشعب ، وما يحتاج إليه ؛ ليعدوا النشء إعداداً يوافق مطالب الشعب ورغباته. ويجب أن نذكر ماقاله (سولون[1]) : «ليست هذه القوانين أحسن ما أستطيع أن أعمل ، ولكنها أحسن القوانين التى تصلح لشعبى ويستعد لقبولها» . وليس فى استطاعة الحكومة أن تنشئ ما نحتاج إليه من معامل ومصانع، ولا يمكنها أن تتولى كل ما نحتاج إليه من منشآت زراعية أو تجارية أو اقتصادية ، ولكن يجب أن نلوم أنفسنا والأغنياء منا ؛ لعدم التعاون على إنشاء ما يحتاج إليه

(١) ''Solon'' : ولد حوالى سنة ٦٤٠ أو ٦٣٨ ق. م. وتوفى سنة ٥٥٨ أو سنة ٥٥٩ ق.م. وكان أستاذا للقانون بأثينا القديمة. وكان لرحلاته الكثيرة أثر كبير فى آرائه وشعره.

البلد من مؤسسات ، وشركات ، ومصانع يستطيع الشبان أن يقبلوا عليها بعد الانتهاء من دراستهم ؛ لكسب عيشهم من عرق جبينهم ، معتمدين على أنفسهم ، وكلهم ثقة بالله، وأمل فى النجاح فى حياتهم العملية :

منذ سنوات مضت أخذ أحد رؤساء الوزارة بانجلترة ينقد الأغنياء من الإنكليز فى إضاعة أوقاتهم ، وعدم الاستفادة من تعليمهم قائلا : « إن أجسامهم قوية ، وعقولهم منظمة مرتبة ، ومع هذا يقضون حياة كلها كسل ، ويضيعون أوقاتهم سدى . وبدلا من أن يقدموا للعالم عملا نافعاً يقتلون أوقاتهم فى ذهابهم وإيابهم ، ولا يفعلون ما ينبغى أن يفعل . وبمالهم يستطيعون أن يشتروا ما يشاءون[1] . »

فالأغنياء غالبا - فى نظر الناقد وفى نظرنا - متعطلون، ولا ينفعون العالم بمواهبهم وعقولهم، ولا يقومون فى الحياة بما يخلد ذكراهم، ينامون نهارا ويعبثون ليلا؛ اعتماداً على ما أوتوا من ثروة، ولا يعلمون أن أمتهم فى حاجة إلى ثقافتهم إن كانوا مثقفين، وإلى تفكيرهم إن كانوا مفكرين ، وإلى علمهم إن كانوا علماء ، وإلى أدبهم ومهارتهم إن كانوا أدباء ماهرين ؛ فالأمة تنتظر من كل فرد أن يؤدى رسالته ، ويقوم بواجبه فى الحياة العملية، فى الناحية التى أعد نفسه لها ، سواء أكان غنيًّا أم فقيراً ، رفيعاً أم وضيعاً . وقد نجد فى الشبان من الأغنياء بطولة مستترة تحتاج إلى من يبرزها ويوجهها لمصلحة الشعب؛ فقد تجد فيهم الشريف الصادق فى قوله، الأمين فى علمه وعمله، المعتز بنفسه؛ فالأمة فى حاجة إلى مواهب كل فرد من أبنائها ؛ لتنتفع بها فى السلم والحرب . وإذا كان للإنسان الحق فى أن يعمل ، فهل له الحق فى أن يقضى حياته بغير عمل ؟ إن كل إنسان مدين بحياته لبلاده ، فيجب أن تنتفع بلاده بتلك الحياة ، وأن يُفرض العمل على كل إنسان ؛ فلا يسمح لأحد بأن يكون متعطلا ولو كان غنيا . ولكى ننهض بالشعب يجب أن يعمل كل فرد من أفراده فيما خلق له ، ويشترك فى أى عمل زراعى

(١) ارجع إلى كتاب : "Cambridge Essays on Education"

أو صناعى أو تجارى أوعلمى أو فنى أو أدبى ؛ حتى نعيد مجد مصر القديم فى النواحى العلمية والعملية والفنية والأدبية .

ينبغى أن نتذكر أن من واجب المدرسة إعداد النشء للحياة العملية ، ولكن ليس معنى هذا أن نعده لحرفة معينة أو مهنة خاصة، وهو فى مرحلة الثقافة فى المدارس الابتدائية أو الثانوية ؛ فمن الخطأ أن يتخصص المتعلم قبل أن يقوى جسمه ، وينضج عقله، وأن يرهق الأطفال فى النواحى العملية التى لا تصلح إلا للكبار من التلاميذ. وفى الوقت الذى ينتهى فيه الطالب من مرحلة الثقافة ينتظر أن تكون قد وجدت فيه رغبة خاصة ، أو ميل معين لناحية علمية أو أدبية أو فنية ، فيختار الناحية التى يميل إليها ؛ كى يستطيع فى المستقبل أن يؤدى رسالته نحو وطنه والإنسانية والمعهد الذى ينتسب إليه . ولقد وصف أحد المربين من الفرنسيين التلميذ فى المدرسة الإنكليزية فقال : « فى فرنسا يذهب الغلام إلى المدرسة أو الكلية، وقد يؤدى واجبه المدرسى خير أداء ، ولكنه لا يغالى فى الإخلاص لمدرسته أو كليته ، وشرفها وصيتها والنهوض بها كما يغالى التلميذ الإنكليزى . »

والحق أن تلاميذ المدرسة الإنكليزية يخلصون لها الإخلاص كله ، ويفخرون بها ، ويعدونها قوة روحية للشعب ، يتطوع كل منهم بدافع من نفسه للقيام بواجبه نحو مدرسته وموطنه وشعبه والعالم الإنسانى .

ولكى نعد النشء للحياة العملية ، يجب أن نعودهم أحياناً أداء ما يكرهون من غير تذمر أو معارضة ؛ لنعدهم للحياة وما فيها ، من مشاق ومصاعب ومشكلات لا يمكن تجنبها . وليس الغرض من هذا إيلام الشخص ، ولكن الغرض تعويده القيام بكل شىء ولو كان مكروهاً لديه ؛ فهو جزء هام فى التربية .

وفى مرحلة الثقافة يجب أن نعمل على أن نعطى الشاب عقلاً يستطيع أن يؤدى به

أى عمل من الأعمال . فإذا استطعنا الوصول إلى هذا استطاع الشاب أن ينجح فى العمل الذى يوجه إليه وتميل إليه نفسه . ويجب أن تصحب الدراسة النظرية بالدراسة العملية ، ولا يكتفى بالنظريات ، ولا يقنع بالأعمال ، بحيث تطبق النظريات عمليا . أما الاكتفاء بالناحية العملية أو الناحية النظرية وحدها بعد مرحلة الثقافة فهذا ما نعترض عليه ، ولا نأخذ به . وإن كان هناك عيب فى مدارسنا الصناعية والزراعية والتجارية ، فهو العناية بالنظريات أكثر من العناية بالناحية العملية . وربما كان هذا أكبر سبب فى عدم إقبال المتخرجين فى تلك المدارس على العمل الحر فى الحياة العملية. ولكى نتقدم فى صناعتنا وزراعتنا وتجارتنا ودراستنا نحتاج إلى معامل للبحث العلمى والابتكار والاختراع ، ونختار لهذه المعامل خيرة الشبان الذين أخذوا نصيبهم من الدراسة الجامعية ، ولديهم رغبة فى البحث ، ومثابرة وصبر ومقدرة . وليس الغرض الأسمى من التربية أن نعلم الشباب كيف يكسب عيشه فحسب ، ولكن الغرض أن نعلمه كيف يتعلم ، وكيف يبحث ، وكيف يبتكر ، وكيف يعمل ، وكيف يعيش .

ينبغى أن يعلم التلميذ تعليماً عامًّا حتى السادسة عشرة أو السابعة عشرة ، وبعد هذه الثقافة العامة نبدأ بتوجيهه إلى التخصص بفرع من فروع الدراسة الأدبية أو العلمية أو الرياضية أو الفنية ، ونترك المظاهر ، ونفكر فى الحقائق من الناحية العملية.

كثيراً ما يولع الآباء بالتسرع فى الدراسة التى تؤدى إلى نتيجة قريبة من الجهة المالية ، وينسون أن التربية تحتاج إلى حرث الأرض ، وبذر البذور ، وإعدادها للزراعة إعداداً تامًّا ؛ كى تنمو البذور نموا طبعيا بعيداً عن الأمور السطحية .

وغريب أن تجد شبانا ينتهون من مرحلة الثقافة العامة ، فإذا ما أرادوا اللحاق بالسنة التوجيهية وجدتهم لا يظهرون ميلاً خاصًّا إلى دراسة معينة أو عمل معين ، ولا يعرفون شيئاً عن العمل الذى يريدون التخصص به . ومن الخطأ ألا تظهر ميول

الطالب ورغباته حتى هذه المرحلة . وفى هـذه السن يجدر أن يقدر ما يلائمه ومالا يلائمه من الدراسة ، فيتوجه إلى الناحية التى يرغب فيها بطبيعته ، وهنا تبدو فائدة التعاون بين الآباء والمدرسين على إرشاد التلاميـذ إلى الدراسة التى تناسبهم . ومن واجب ناظر المدرسة أن يلاحظ تلاميذه ملاحظة دقيقة ، ويعرف رغباتهم وميولهم، ويتصل بآبائهم ؛ كى تـكون الدراسة صحيحة لا تشوبها شائبة فى الحـكم على التلاميذ. وبالتعاون بين الآباء والنظار يمكن توجيه الطالب توجيهاً صحيحاً إلى الناحيـة التى ينجح فيها فى حياته العملية . ولـكى يستطيع الناظر أن يقدم نصيحته حقًّا يجب عليه الاتصال برجال الأعمال ، وكبار التجار ، وأصحاب المصانع ، والخبراء الزراعيين ، والمهندسين والأطباء ، والأدباء والعلماء ؛ حتى تـكون لديه دراية تامة بكل نوع من الأعمال ، فينقذ تلاميذه من الوقوع فى الخطأ ، ويرشدهم إلى ما يلائمهم ، ويوجههم توجيهاً سليما إلى الطب أو الهندسة أو القانون أو الآداب أو العلوم ، فييسر الطلبة فى طريقهم العلمى والعملى بنجاح .

وفى المنزل والمدرسة والمجتمع ننتظر أن يعود الطالب النظام ، وحسن المعـاملة ، وأداء الواجب ، والتعاون مع الجماعة ، وتحمل المشاق والمصاعب ، ومعرفة الواجب نحو الوطن ، والقدرة على تحمـل التبعة ، والاعتماد على النفس فى العمـل ، وترك الأثرة وحب النفس ؛ حتى يستطيع أن يكسب عيشه بعرق جبينه ، ويعمـل بعقله ويده ، فينجح فى حياته العملية ، ويقوم بواجبه نحو نفسه وأسرته ووطنه ، ويكون سديدا فى تفـكيره ، ماهراً فى عمـله ، يقدر الحرية وينتفع بها . ولـكى ننهض بكل ناحية من نواحى الحياة يجب أن ننهض بمن يقومون بتدريس كل مادة من المواد ؛ فالزراعة العلمية التى تبنى على علم وتجربة لا يمكن الوصول إليها إلا إذا كان الزارعون متعلمين تعلماً زراعيًّا علميًّا . والصناعة العلميـة لا يمكن الوصول إليها إلا إذا كان

الصانع قد نال ثقافته فى التعليم الصناعى . وكما يتوقف نجاح الشخص فى حياته العملية على إعداده المهنى يتوقف كذلك على حسن مزاجه ، ومتانة خلقه ، وسداد تفكيره ؛ بأن يصحب العلم بحسن الخلق ، وصواب الرأى ، فلا يترك عقله راكداً ، بل يفكر فيما يجب أن يفعل ، وما ينبغى أن يترك .

ومما يعوق الشعوب فى نجاحها هبوط مستوى المُثل العليا التى تحتذيها ، والاقتناع بما هو كائن ، وعدم التفكير فى الوصول إلى ما هو أفضل وأحسن . ولا يكفى لنجاح الشعب التفكير فى الناحية المالية والاقتصادية ؛ فإن الشعب لا يستطيع أن يعيش إذا احتقر الآداب وتهاون فى العلوم والفنون ، وأهمل الطبيعة والعاطفة ، وجعل يفكر فى المال ، وفى المال وحده .

الفصل الرابع

التربية الخلقية وعواملها

يقول «مارتن[1] لوثر» المصلح الألمانى الكبير : « إن سعادة الأمم لا تتوقف على كثرة دخلها ، ولا على قوة حصونها أو جمال مبانيها العامة ، ولكنها تتوقف على عدد المثقفين من أبنائها، وعلى رجال التربية والعلم والأخلاق فيها ». فهنا تكون سعادتها ، وقوتها العظيمة ، ومقدرتها الحقة .

ويرى « كانت[2] » الفيلسوف الألمانى أن هناك علاقة كبيرة بين الأخلاق والإرادة ؛ فإذا حسنت الإرادة حسنت الأخلاق ، وإذا ساءت الإرادة ساءت الأخلاق . وبذلك لا يفكر « كانت » فى أثر الشرور والعاطفة والإحساس والفكر فى الأخلاق، مع أنها -إذا صحبت بالإرادة- هى الأساس الذى تبنى عليه الأخلاق.

ومما لا ريب فيه أن الأطفال يختلفون فى الطباع والميول . وإن نظرة واحدة إلى أخلاقهم وما يظهر فى بعضهم من القحة والصفاقة ، وفى بعضهم من الحياء والخجل، وما ترى فيهم من الجود والبخل، والرحمة والقسوة، تبين لك أنهم يتفاوتون فى الطباع ، وأنهم ليسوا فى مرتبة واحدة ، وأن فيهم المتوانى العاجز ، والسهل

---

(١) Martin Luther: ولد سنة ١٤٨٣ م، وتوفى سنة ١٥٤٦ م ، وقد كان من زعماء الإصلاح الدينى فى القرن السادس عشر .

(٢) Immanuel Kant : فيلسوف ألمانى ، ويعد أعظم الفلاسفة المحدثين، ولد سنة ١٧٢٤ م ، وتوفى سنة ١٨٠٤ م . ويقال إنه كان من أصل اسكوتلندي .

الوديع ، والفظ الغليظ ، والخيِّر والشرِّير . وإذا أهملت تلك الطباع والميول من غير تأديب وتقويم وتهذيب بقى كل إنسان على الحال التى كان عليها فى أثناء الطفولة . فعلى المربين من آباء وأمهات أن يفكروا دائماً فى تربية أطفالهم تربية خلقية من الطفولة المبكرة كلما سنحت الفرصة ؛ كى يكونوا المثل الأعلى للأخلاق فى المستقبل ؛ فالأمم لاترقى بالمال أو الحصون ، ولكنها ترقى بالعلم والأخلاق. وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إنما بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مكارمَ الأخلاق » . ولله در المرحوم شوقى بك حيث يقول :

وليس بعامرٍ بنيانُ قومٍ إذا أخلاقُهم كانت خراباً

غاية التربية الخلقية :

إن الغرض الأسمى من التربية الخلقية حسن السلوك والأخلاق فى جميع شئون الحياة ؛ فى المنزل ، والمدرسة ، والمعمل ، والمجتمع ، والسلطة التنفيذية ؛ للوصول إلى الكمال أو مايقرب منه . ولتحقيق هذه الغاية يجب أن يعلم الطفل كيف يميز الطيب من الخبيث ، والحسن من القبيح ، ثم يختار الأول منهما ، وينبذ الثانى .

وقد اتفق كبار المربين على أن التعليم الذى لا يؤدى إلى الكمال لا يستحق أن يسمى تعليماً ، وأنه ليس الغرض من التعليم حشو أذهان التلاميذ بالمعلومات ، بل الغرض تهذيب الأخلاق ، مع العناية بالصحة والتربية البدنية ، والعقلية ، والوجدانية والعملية ، وإعداد الطفل للحياة الاجتماعية .

ومع عناية (چون لوك[1]) الفيلسوف الإنكليزى بالتربية البدنية رتب أغراض

---

(١) John Locke ولد سنة ١٦٣٢، وتوفى سنة ١٧٠٤ م . وقد كتب فى التربية والفلسفة والأخلاق والدين. وكان يدعو إلى التفكير واستعمال العقل، والانتفاع بالتجارب ، وعدم الخضوع لكل ما ذكره العلماء أو الأدباء .

التربية بحسب الأهمية : فذكر الفضيلة أولاً ، والحكمة ثانياً ، والعلم أخيراً ، فوضع العلم فى آخر أغراض التربية .

ولقد صرح (بستالوتزى[١]) بأن الطفل الذى تعلم الصلاة والتفكير والعمل هو أكثر من نصف متعلم ، وأنه لم يكن غرضه من تعليم الطفل أن يعلمه من العلم ما لم يعلم ، بل يعلمه الآداب والأخلاق وحسن المعاملة .

ويقول (فروبل) فى كتابه : « تربية الإنسان[٢] » : إن الغرض من التربية إيجاد حياة طاهرة مقدسة ، ملؤها الإخلاص والطهارة . ويرى (هربرت سبنسر[٣]) أن الغرض الجزئى والكلى من التربية يمكن أن يلخص فى فكرة واحدة ، وكلمة واحدة هى « الفضيلة » .

فالتربية الحديثة توجب على المدرس أن يذكر دائماً أننا لسنا فى حاجة إلى العلم فحسب ، ولكننا فى حاجة إلى كثير من الأخلاق الفاضلة ، كما يذكر أن تكوين العادات الخلقية الحسنة فى التلاميذ من الاعتماد على النفس ، والمثابرة على العمل ، ومراعاة العدالة فى كل أمر ، والتمرن على البر والتقوى ، والصدق فى القول ، والوفاء بالوعد ، والإخلاص فى العمل ، وأداء الواجب ، ومساعدة الضعيف ، والمحافظة على الوقت — أكثر فائدة للطفل من حشو ذهنه بمعلومات نظرية ربما لا يحتاج إليها فى الحياة العملية . وكما أن الوقاية خير من العلاج فى عالم الطب فالمحافظة على الأخلاق خير من إصلاحها فى عالم الأخلاق .

---

(١) Pestalozzi : ولد بمدينة زوريخ بسويسرة سنة ١٧٤٦ ، وتوفى سنة ١٨٢٧م. وله آثار خالدة فى عالم التربية.

(٢) "Education of Man"

(٣) Herbert Spencer : كان من أكبر فلاسفة التربية من الإنكليز ، ولد سنة ١٨٢٠ وتوفى سنة ١٩٠٣ م. وله كثير من الآراء الثمينة فى التربية ، وقد هذب رأى روسو فى العقوبة الطبيعية .

وتتطلب التربية الحديثة من المدرس أو المرشد أن يتخذ الدروس ونفوذ المدرسة وسائل نافعة فى تكوين العادات الحسنة لدى المتعلم ، وفى تهذيب أخلاقه ، وإحياء ضميره ، وتربية حواسه ، وتقوية إرادته ، وتوجيه غرائزه إلى الطريق الصالح ، وتعويده فعل الخير ، واجتناب الشر .

ولا نقصد بالتربية الخلقية أن نلقّن التلميذ الفضائل ومحاسنها ، والرذائل ومساويها ، بل نريد التفكير فى تهذيب أخلاق النشء ، حينما تبدو الفرصة عرضاً فى حجرة الدراسة ، أو فى فناء المدرسة ، أو فى ملعب الألعاب الرياضية . نود العمل على تقويم المعوج من الأخلاق بالقدوة الحسنة ، والتفاهم على انفراد . وإننا لا ننكر أن بعض الأطفال يخطئون أحياناً عن غير قصد ، فأمثال هؤلاء يسهل علاجهم بإخبارهم عما يجب فعله ، وما يجب تركه .

وقد سئل (أفلاطون[1]) ذات مرة : هل تُعَلَّمُ الفضيلة؟ فقال : لا ؛ يقصد بذلك أن دراسة الفضيلة لا تستلزم التمسك بها ، ولكنها تشجع على التزامها والتحلى بها إذا كانت النفس مستعدة لها ، وكانت الإرادة والعقل والعاطفة فى جانبها .

وقد سئل فيلسوف آخر هذا السؤال عينه فقال : نعم ، إن الفضيلة تُعَلَّم ؛ يريد بذلك أن بعض الناس يرتكبون الرذيلة أحياناً جهلاً منهم بأنها رذيلة . فأمثال هؤلاء لو عرفوا الفضيلة والرذيلة لساعدتهم هذه المعرفة فى التحلى بالأولى ، واجتناب الثانية ، وبخاصة إذا كانت النفس كريمة طاهرة ، تميل إلى الخير ، وتنفر من الشر ؛ إذ لا تنفع العظة فى أرض سبخة ، ونفوس شريرة ، ولا تحسن إلا بمناسبة ، وبطريقة غير مباشرة ، بحيث تنتهز فرصة الإصلاح فتستخدمها فى تقويم الأخلاق وتهذيبها

---

(١) ولد أفلاطون سنة ٤٢٧ ق . م . وقيل سنة ٤٢٨ ، وتوفى سنة ٣٤٧ ق . م . وقد عاش حتى بلغ من العمر إحدى وثمانين سنة ، وهو من تلاميذ سقراط . ومن كتبه النفيسة : كتاب الجمهورية ، وكتاب القوانين .

فى الوقت الملائم ، فيكون مثلك مثل الطبيب الذى لا يعطى الدواء إلا عند المرض ، والأم الحكيمة التى لا تقدم لابنها الغذاء إلا فى وقته حينما يشعر بالجوع .

والغرض من التربية الخلقية تكوين الأخلاق ، وتربية الروح . وتنادى التربية الحديثة بأن هذا الغرض يجب أن يضعه المدرس نصب عينيه دائماً ، أيًّا كانت المادة التى يقوم بتعليمها ؛ فكل درس يجب أن يكون درس أخلاق ، وكل مدرس يجب أن يكون مدرس أخلاق، وكل ناظر يجب أن يفكر فى الأخلاق قبل أى شىء آخر.

ولتربية الطفل خلقيًّا يجب أن يعرف المربى طبيعة الطفل ونفسيته ، وغرائزه وميوله ، ويكون المثل الأعلى للأخلاق ؛ كى تثمر العظة ، ويكون قدوة حسنة للتلاميذ . وينبغى أن تبتدئ التربية الخلقية فى المنزل أولاً ، وفى المدرسة ثانياً ؛ لكى تبنى المدرسة على أساس متين من الأخلاق . ولا يكفى أن تقوم المدرسة بهذا النوع من التربية منفردة ، بل يجب أن يتعاون هذان العاملان : المنزل والمدرسة معاً فى سبيل تربية الطفل تربية كاملة ، يشعر معها بأن الأخلاق عماد التربية ، وأن الغرض من الحياة هو الأخلاق . وعلى المربى من أب وأم ، ومدرس ومدرسة ، وناظر وناظرة أن يذكر دائماً أن الطفل يحاكى كل ما يراه وما يسمعه ، وما يفعل أمامه ، من تلقاء نفسه ؛ فواجب هؤلاء جميعاً أن يكونوا قدوة طيبة للطفل .

وإن المثل الأعلى فى التربية الإسلامية والتربية الحديثة وغيرهما هو تكوين رجال مهذبين ، ذوى شخصيات كبيرة ، ونفوس أبية ، وأخلاق عالية ، يعرفون معنى الواجب ، ويقدرون حقوق الإنسانية . ولما أراد الله أن يثنى على نبيه الكريم خاطبه بقوله : « وإنكَ لَعَلَى خُلُقٍ عظيم » . وقال صلوات الله عليه : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى ، وأمرنى بمكارم الأخلاق » . وإننا نعتقد أن أكبر أمر يجب أن نفكر فيه فى الوقت الحاضر هو إيجاد رجال مهذبين فضلاء ، وأنه يجب أن تكون غاية التربية تكوين شعب مثقف مهذب ، كريم الأخلاق .

الرجل المهذب[(١)] :

قد يسأل سائل من الرجل المهذب الفاضل ؟ وإجابة عن هـذا السؤال نقول : إنه الرجل الذى لا يبالى أبداً بالآلام ، ولا يمس شعور غيره ، ويجتهد كل الاجتهاد فى إراحة كل إنسان ، يصغى إلى من يكلمه ، ولا يتعب مَن يحادثه ، ولا يسىء إلى من يناقشه. إذا استشرته نصحك بكل إخلاص ، وهو الشريف الرقيق الإحساس ، الذى يأبى أن يتكلم عن نفسه ، أو يعلن عنهـا إلا للضرورة . ليس فضوليًّا ولا نمَّاماً[(٢)] .

الرجل المهذب هو من يجتهد فى أن يكون عادلاً فى حكمه ، لا يلمِّح إلى شر ، ولا يجسر على أن يظهره . لا يُفرط فى حبه ، ولا يغرق فى بغضه . محال أن يتذكر السيئة وينسى الحسنة . وهو الذى لا يحقد على أحد ، الصبور على تحمـل المشاق ، لا يبالى بالألم لأنه لا مفرَّ منه . يستسلم للموت لأنه مقدر ، كما يستسلم لفقدان الحبيب لأنه لا يعوَّض .

إذا ناظر أحداً صانه عقله من الخطأ فى الفـكر ، والفظاظة فى القول ، لن يخطئ النقطة التى يتناقش فيها ، ولن يسىء فهم مناظره . تراه يرجع إلى الحق ، ولا يتمادى فى الباطل ، سهل الخلق ، قوى العقل ، مخلصاً فى عمله ، حسن النية ، يرمى بنفسه فى عقول معارضيه ، ويعد غلطاتهم ، ويعرف مواطن الضعف والقوة وقت الحاجة .

لن يسمح له عقله الـكبير بالتعصب فى الدين أو بالـكفر . يحترم التقوى والتدين ،

---

(١) The Gentleman

(٢) ذلك النمام يبتسم للناس فى وجوههم ، فإذا ابتعدوا عنه ذكرهم بما ليس فيهم ؛ حطا من كرامتهم ، وحقداً عليهم . ومع الأسف نرى عادة النميمة منتشرة كل الانتشار حتى بين الأصدقاء . وربما لا يعرف الإنسان أحياناً عدوه من صديقه ؛ فالـكل يبتسم لك ، ويظهر لك أنه صديقك ، فإذا غبت عنه ابتدأ يذمك ، ويضع من منزلتك ، ولا يضع فى الحقيقة إلا من قدر نفسه .

ويعاون المدارس ويساعدها ، ويوقّر رؤساء الدين ويبجّلهم ، وينظر إليهم بعين كلها الإخلاص والإجلال .

الرجل المهذَّب هو رجل الحق والصدق والوفاء والعدالة ، المعتمد على نفسه ، المسيطر على أعماله، القوى فى إرادته ، الواثق بعمله، هو فاعل الخير، ذو الهمة العالية، والأخلاق السامية . فى تفكيره سداد ، وفى رأيه كل الصواب . هو الحسن فى معاملته ، الطاهر القلب ، لا يحب نفسه ، بل يفكر فى غيره ، كما يفكر فى نفسه .

فيجب أن نعد تلاميذنا وأبناءنا ليكونوا رجالاً مهذبين ؛ فإننا ـ وأيم الله ـ فى حاجة كبيرة إلى العناية بالتربية الخلقية ، والأخلاق الفاضلة ؛ للوصول بالمجتمع إلى الكمال الخلقى الذى نرجوه وننشده .

يقول الفيلسوف (جون ديوى[1]) فى كتابه : « الديموقراطية والتربية » :

«إننا لا يمكننا أن نغير الأخلاق والعقل بالإرشاد والوعظ مباشرة من غير أن نغير الأحوال الصناعية والسياسية». ويقول فى كتابه: « الأخلاق » : «إن الأخلاق مجموعة رغبات الفرد وميوله الفعّالة التى تجعله مستعداً دائماً للقيام ببعض الأفعال ، مولعاً ببعض النتائج ، كما تجعله فى الوقت نفسه كارهاً بعض الأفعال والنتائج الأخرى» . فالأخلاق ميول تعمل لتحسين أحوال المجتمع، وترمى إلى ترقيته. وبعبارة أخرى هى العلم الذى يبحث عن المثل الأعلى لسلوك الإنسان وطباعه ، ويحث على التحلى بالفضائل ، واجتناب الرذائل .

---

(١) "John Dewey" : فيلسوف أمريكى ، من أكبر فلاسفة التربية فى العصر الحاضر ، وله مؤلفات قيمة فى التربية وعلم النفس والأخلاق، منها : "Democracy & Education" و"Schools of To-Morrow" .

تكوين الخلق :

يتكون الخلق فى جميع مراحل الحياة من المهد إلى اللحد ، فى الطفولة والغلومة ، والشباب والرجولة ، والكهولة والشيخوخة . فالإنسان قابل للتعلم والتثقيف ما دام حيًّا . وأهم هذه المراحل مرحلتا الطفولة والغلومة ، حيث يسهل فيهما تكوين العادات الحسنة ، وبث الخصال الحميدة ، وتهذيب الغرائز والنزعات الفطرية بين الأطفال .

العوامل الأساسية للتربية الخلقية

للتربية الخلقية عوامل أساسية منها :

(١) المنزل :

ففيه تشيد أسس الأخلاق ؛ فإن كان الأساس متيناً كان البناء متيناً ، وإن كان من رمل انهار البناء . ولا تعجب إذا سمعت أن التربية الخلقية مهملة على العموم فى كثير من الأسر ، ولا يفكر أحد فى أن الطفل يحاكى ما يشاهده وما يسمعه ؛ فترى الآباء والأمهات ، والإخوة والأخوات والخدم يتفوّهون بألفاظ بذيئة أمام الأطفال ، ولا يشعرون بما يجنونه على الصغار بما يرتكبونه من الرذائل على مرأى ومسمع منهم ، من سباب وشتائم ومشاجرات ، وما دروا أنهم بذلك يلوثون أخلاق الأطفال ببذىء الألفاظ ، وقبيح العادات . ولو عمّت التربية الخلقية المنازل لتحسن المستوى الخلقى لدينا .

(٢) المدرسة :

يذهب الطفل إلى المدرسة وهو ملوث أحياناً بجراثيم خلقية ، فلا تفكر المدرسة فى معالجتها ؛ لأن المدرسين لا يفكرون إلا فى الامتحان والنجاح فيه ، أما الأخلاق فمهملة الإهمال كله ، ولا يفكر أحد فى تقويم المعوج منها متى ظهر. ولسنا ممن يقولون بوضع دروس للأخلاق ، ولكننا نعتقد أن الطريقة المثلى لتهذيب الأخلاق أن تكون الدروس كلها دروس أخلاق ؛ فى حصص الحساب والجغرافية والتاريخ واللغتين العربية والإنكليزية يجب على المدرس أن يفكر فى الأخلاق وتهذيبها، وينتهز الفرصة؛ فرصة التربية والتهذيب ، كلما أتيحت له بظهور خطأ خلقى من الطفل . ولا يمكننا أن نعود باللوم على المدرسة وحدها إذا قلنا إن الأخلاق فاسدة ، ولكننا نلوم المنزل أيضاً ؛ لأنه لم يقم بواجبه الأول نحو التربية الخلقية ؛ فالمدرسة تتسلم البضاعة الفاسدة ؛ تتسلم الطفل وقد اعتاد كثيراً من أقبح العادات . ولا ننكر أن فى قدرتها أن تقوم بكثير من التهذيب الخلقى إذا عملت على ذلك ، وفكرت دائماً فى التربية الخلقية .

(٣) الملعب الرياضى :

إننا نعتقد أن الألعاب الرياضية والرحلات المدرسية من أكبر الوسائل لتربية الأخلاق فى يد المدرس الماهر . ولا ينسى أحد منا أثر الألعاب الرياضية فى تقوية الجسم ، ولكن قد يشك بعض القراء فى أثر الألعاب فى تقويم المعوج من الأخلاق. ولهؤلاء نقول : إن الملعب خير وسيلة لتعويد الطفل المثابرة ، والصبر ، والجهاد فى سبيل النجاح ، وتحمل المشاق . وبالانضمام إلى فرقة من الفرق الرياضية نعوده العمل للجماعة ، والتفكير فى الجماعة ، والتعاون مع الجماعة لنصرتها ، واحترام قانونها ،

ونسيان النفس. وفى ذلك كله درس خلقى نحن أشد الناس حاجة إليه فى معالجة الأثرة وحب النفس؛ ذلك المرض الخلقى المنتشر بين كثير من طبقات الأمة . ولو لم يكن للملعب الرياضى إلا هذا الأثر لكفى . فالطفل فى الملعب يشعر بأن انتصار فرقته انتصار له ، وهزيمتها هزيمة له . لذلك يعمل لها أولاً ، ولنفسه ضمناً. وهذا هو المثل الأعلى فى الأخلاق التى يبنى عليها رقى الأمم والشعوب .

(٤) البيئة :

للبيئة والأصدقاء أثر كبير فى تكوين الأخلاق؛ فالبيئة الحسنة تنهض بالطفل خلقيًّا باشتراكه فيها ، والبيئة القبيحة تضر الطفل خلقيًّا ضرراً بليغاً . لذلك ننصح للمربين بالتفكير فى البيئة التى يتصل بها الحدث خارج المنزل ، وفى الأصدقاء الذين يتخذهم للسير والتحادث معهم؛ فإن لهم تأثيراً كبيراً فى خلقه، يحاكيهم فى أخلاقهم وأقوالهم وأفعالهم من حيث لا يشعرون .

ولتكوين الأخلاق الفاضلة تجب العناية بتربية الطفل تربية خلقية من الصغر؛ فإنه لو ترك إلى الكبر لتكوّنت لديه عادات قد تكون ذميمة يصعب التخلص منها ، وتقف عقبة فى سبيل الأخلاق . ويتكون الخلق بالتدريج بما يحدث يوميًّا فى المنزل والمدرسة والملعب والمجتمع . ولا يبنى فى يوم أو شهر أو سنة ، ولكنه يبنى فى جميع أدوار الحياة للإنسان . فيجب على المربى أن يسير بحكمة فى تكوين أخلاق الطفل ، فيرشده عند الحاجة ، ويقوده إلى الطريق المستقيم ، ويعوده الأخلاق الحسنة ، ويشجعه على القيام بمستحسن الأمور من غير أن يسخر منه إذا أخطأ ، أو يستهين برأيه إذا تكلم؛ لئلا يثبط همته ، ويضعف عزيمته . ويجب أن يشعر التلاميذ بأن حسن الخلق سبيل النجاح والسعادة ، وأن الغرض من الحياة تكوين الأخلاق الكاملة ، وأن التربية الخلقية أهم غرض من أغراض التربية .

فالغرض من التربيـة تـكوين الأخلاق ، وتربية الروح ، والجسم ، والعقل ، والذوق والوجدان والإرادة للاستفادة من كل منها .

السلوك تحت تأثير النزعات الفطرية والانفعالات

لقد قسم (ديكارت[1]) العالَم قسمين مختلفين هما : العالَم المـادى ، والعالَم الروحى . وقد أدى هـذا التقسيم إلى ظهور أشياء متناقضة ، كالغاية ، والوسيلة ، والبواعث والنتائج . وقد قال الفيلسوف (جون ديوى[2]) : (إن أول مايعرض لنا فى بحثنا هـذا هو الفضـيلة التى تقسم النشاط الإنسانى قسمين متضادين : القسم الداخلى وهو الروحى ، والقسم الخارجى وهو الجسدى . وفى الفضيلة تتطور هذه النظرية إلى عراك عنيف بين الباعث على العمل ونتيجته، أو بين الخلق والسلوك) .

فـكان يظن أن الخلق أمر نفسى داخلى ، وهو الباعث الذى يدفع الإنسان ويحركه نحو العمل ، وأما العمل نفسه فـكان يسمى سلوكاً ؛ فالخلق على هذا أمر باطنى فى الإنسان ، يتصل بالبيئة عن طريق السلوك . وإذا نظرت إلى الإنسان ، فلن ترى أخلاقه ، ولـكنك ترى ما يقوم به من عمـل ، وبعبارة أوضح : إن الخلق يؤثر فى السلوك ؛ فالأخلاق سبب ، والسلوك أو العمل مسبب أو نتيجة .

ويبدو لنا أن فى هـذا التقسيم نظراً ؛ فإنك إذا أردت القيام بأمر من الأمور

---

(١) (رينيه ديكارت) : "René Descartes" (١٥٩٦ — ١٦٥٠ م) : فيلسوف فرنسى من أكبر فلاسفة القرن السابع عشر ، وهو زعيم النهضة الفـكرية والفلسفة الحديثة .

(٢) فى كتابه : « الديمقراطية والتربية » : "Democracy & Education". ص ٤٠٢ .

فكرت فيه ، وبتجاربك السابقة تستطيع أن تقدر ما ينتج عن هذا الفعل ، ثم تشرع فى تنفيذ ما تريد تنفيذه . فالتفاعل النفسي المستتر يتحول إلى عمل ظاهر واضح . وقد استمرت هذه الصلة بين التفاعل النفسى والفعل الصريح ، ولم تنقطع تلك الصلة ، فالتفاعل والفعل ليسا بشيئين ، ولكنهما شيء واحد ابتدأ بالتفكير ، وانتهى بالعمل . فلا يجوز والحالة هذه تقسيم هذه العملية قسمين مختلفين ؛ فما هى إلا عملية واحدة ؛ هى التفاعل المستمر فى النفس .

فالسلوك جزء من الأخلاق ، أو هو الأخلاق فقط . وإن الأعمال تحدث — كما ذكرنا — بعملية واحدة يمكنك أن تسميها أخلاقاً ، ولك أن تدعوها سلوكاً . وليس لأحد أن يقطع الصلة بين جزئيات هذه العملية .

وقد يحدث من الطفل أشياء تحت تأثير النزعات الفطرية والانفعالات ؛ فقد يجرى خوفاً على نفسه ، وتبدو على وجهه علامات الغضب ، ويضرب غيره إذا منعه لعب الكرة — حينما يكون فى شدة الانفعال والتأثر — من غير تفكير فى العاقبة . وللنزعات الفطرية تأثير كبير فى سلوك الطفل وتكوين أخلاقه ؛ فإذا وجدت من المربين عناية بتربيتها وتهذيبها وتوجيهها إلى فعل الخير حتى يصير عادة له كان سلوكه حسناً .

وكثيراً ما يقوم الطفل بأشياء ضارة — فى نظرنا نحن الكبار — بدافع فطرى ، من غير أن يدرك النتيجة أو يفكر فيها ؛ فهو حسن النية ، ولا يحتاج إلا إلى من يرشده ويقوده إلى الطريق المستقيم .

والإنسان فى حالة انفعاله وتأثره قد يرتكب غلطات تؤدى إلى الندم فى كثير من الأحيان ؛ لأنه فى ذلك الوقت تحت تأثير العاطفة ، لا تحت تأثير الفكر ؛ فهو إذ ذاك يندفع إلى العمل قبل أن يفكر فى عاقبته . ولو استطاع أن يفكر قبل أن

يعمل ما ارتكب خطأ يندم عليه . ولو تعوّد الإنسان التفكير قبل العمل لتجنب كثيراً من الأمور الضارة .

وقد يغضب الإنسان إذا شعر بألم أو أصابته ضربة موجعة ، كالأسد المجروح فإنه يعض العصا والحجارة ، ويعض جروحه نفسها . والقطة تغضب إذا حاولت أن تضر قطيطاتها ، والكلب يغضب إذا أخذت العظم الذى أمامه ، والطفل يغضب إذا أخذت لعبته منه ، والمؤلف يغضب إذا نقدت كتابه نقداً يدل على الحقد والجهل .

تأثير الوجدان فى السلوك :

يرى بعض علماء النفس أن الوجدان هو الأساس الذى يبنى عليه السلوك ، وأن الشعور القوىّ هو الذى يدفع الإنسان نحو العمل ؛ وهم بذلك يتجاهلون تأثير الفكر والإرادة فى السلوك . والحق أن السلوك يستدعى تفكيرا من جهة ، وإرادةً من جهة أخرى ، ووجداناً يصل بين التفكير والإرادة . وإننا لا ننكر أن للوجدان تأثيرا فى السلوك ، ولكننا ننكر المذهب القائل بأن السلوك كله مبنى على الوجدان. وإن (مَكدُوجُل[١]) ـ الذى يعد الغريزة أصلاً لكل شىء تقريباً ـ يتحاشى أن يقول إنها الأساس الوحيد الذى يبنى عليه السلوك أو الأخلاق .

(١) "William Mc Dougall" : « وليام مكدوجل » من أكبر علماء النفس فى القرن العشرين ، وله مؤلفات ثمينة فى علم النفس والأخلاق ، أحسنها كتابه : « علم النفس الاجتماعى » : "Social Psychology" . وكان أستاذاً لعلم النفس بجامعة أكسفورد بانجلترة ، وهو الآن بالولايات المتحدة بأمريكا .

رأى «كانت[1]» فى السلوك :

يرى «كانت» الفيلسوف الألمانى أن أساس السلوك هو الإرادة ؛ فقد يعرض للإنسان أمران فى وقت من الأوقات فيفكر فى كل منهما ، وفى نتائجهما ، ثم يوازن بينهما ، ويختار فى النهاية أحدهما . وقد يفكر الشخص فى ترك التدخين حينما يرى تأثيره السيئ فى صحته، ويشعر بضرورة تجنبه. فهنا يكون للإرادة أثر كبير فى السلوك. وإننا لا نتجاهل ولا ننكر أثرها فيه ، ولكننا لا نقول إنها الأساس الوحيد الذى يبنى عليه السلوك كما رأى «كانت» ؛ فكما تؤثر الإرادة فى السلوك كذلك يؤثر فيه الفكر والوجدان .

ويرى «كانت» أن الكون لا يصلح إلا بالإرادة الصالحة . وإنه وإن كان فى مبدئه كثير من الحقيقة ولكنه ليس الحقيقة كلها ؛ فما الإرادة إلا وسيلة من وسائل السلوك والأخلاق . ونحن نقول إن حسن الأخلاق يستلزم حسن الإرادة، ولكن هل يستلزم حسن الإرادة حسن الأخلاق ؟ طبعاً لا ؛ فقد يرتكب الإنسان الجريمة خطأ عن حسن نية ؛ فربما لا يعلم أنها جريمة . فهل يعد السلوك هنا حسناً مع أن الإرادة حسنة ، والنية كذلك ؟ فنحن نخطئ مذهب (كانت) القائل بأن السلوك مبنى على الإرادة وحدها ، كما نخطئ مذهب من يقول إن الوجدان هو الأساس الوحيد الذى تبنى عليه الأخلاق . والحق أن الأخلاق تؤسس على كل من الفكر والوجدان والإرادة ، وهى المظاهر الثلاثة للحياة النفسية الإنسانية .

---

(١) هو : "Immanuel Kant" من أعظم الفلاسفة ، ولد فى ٢٢ من أبريل سنة ١٧٢٤ بمدينة كونجسبرج بألمانيا ، وتوفى فى ١٢ من فبراير سنة ١٨٠٤ وعمره ثمانون سنة ، وكان أستاذاً للفلسفة .

أساس السلوك هو الفكر :

رأى بعض الفلاسفة قديمًا أن الفضيلة هى العقل ، وأن الرذيلة هى الجهل ، وأن الإنسان يخطئ ويقع فى الرذيلة لأنه لا يعقل ؛ فيجعل العقل أساس السلوك والأخلاق. ويمثل هذا الرأى (سقراط) الفيلسوف اليونانى ؛ فقد كان يرى أن الإنسان يخطئ ويرتكب الرذيلة لا لسبب سوى الجهل . ويرى أحد الفلاسفة أن الفكر والذكاء والعقل تجعل الفضائل كاملة ؛ بمعنى أن الإنسان لا يتبع الرذيلة والشر إلا لأنه يطلق العَنان لطبيعته ، ويغض الطرف عن العقل والتفكير . وعلى هذا الرأى لا ينال أعلى درجة فى الخلق إلا من وُهب أوفر قسط من الذكاء والعقل . فأخلاق الفلاسفة على هذا الرأى خير الأخلاق ، وأخلاق الجهلة شر الأخلاق . ولكن هل هذا صحيح ؟ أحقًّا أن الأخلاق لا وجود لها إلا فى الطبقات الذكية المفكرة ؟ أحقًّا أن الرجل العادى الذى لا يعرف الفلسفة والطبيعة والكيمياء قليل الحظ من الأخلاق ؟ إننا لا ننكر أن العلم قد يؤدى إلى الفضيلة إذا كانت النفس تميل إليها بطبيعتها ، وأن العظة تؤثر فى النفس الصالحة ، وأن العالم المتحلى بالأخلاق الفاضلة خير من الجاهل المتصف بها ، ولكننا ننكر أن العلم يستلزم الفضيلة ، وأن الذكاء يستلزم حسن الخلق ، وأنه ليس من الضرورى لتكوين الأخلاق أن نصل إلى درجة الفلاسفة والعلماء والمناطقة فى الفلسفة والعلوم والمنطق ، ولا نقول إن السلوك يتوقف على الفلسفة والمعرفة فقط ، أو إن الفكر هو الأساس الوحيد للسلوك ؛ فلحسن السلوك والأخلاق يحتاج الإنسان كما قلنا إلى الفكر ، وإلى الوجدان ، والنزوع أو الإرادة . وهى المظاهر الثلاثة للحياة العقلية .

الفصل الخامس

وسائط التربية

أثر الأسرة والبيئة الاجتماعية فى التربية

البيت والمدرسة :

ذكرنا فيما تقدم[1] ما للبيئة الاجتماعية من الأثر فى خلق الإنسان وسلوكه وأفكاره؛ فهى التى توقظ فيه قوى خاصة، وتدعوه إلى القيام بأمور تقوده إلى أغراض معينة، ونتائج مقصودة؛ فالطفل الذى ينشأ فى أسرة موسيقية يكسب ميلا إلى الموسيقا أكثر من ميله الوراثى إليها. وإذا سألت ابن الطبيب عما يريد أن يكون فى حياته المقبلة أجاب: أريد أن أكون طبيبا. وابن القاضى يرغب أن يكون قاضياً، وهكذا. ولقد قرأت مرة فى صحيفة (الديلى ميل) بتاريخ ١٠ — ١٢ — ١٩٢٩ م. أن طالبة بجامعة (برمنجهام) قد فاقت جميع الطلبة من الرجال فى قسم الهندسة الكهربية بالجامعة ، ونالت جائزة تبيح لها الدراسة بالمجان فى قسم المباحث الهندسية . ولقد قال الأستاذ « كرامب » رئيس ذلك القسم : إنها تفوق جميع الطلبة فى الاستقلال الفكرى ، والمثابرة على العمل ، والصبر فى البحث . ويقال : إن أسرة أبيها أسرة هندسية . وغريب أن ينال ابن عم لها مثل هذه الجائزة فى المادة نفسها من جامعة أخرى فى الوقت نفسه ؛ فميلها إلى الهندسة كان نتيجة لأثر الأسرة؛ فالأسرة أسرة مهندسين ، والبيئة بيئة هندسية . فبيئة

(١) ارجع إلى ما كتبناه عن : المجتمع ، والبيئة الاجتماعية فى هذا الكتاب ص ٢٥ — ٢٩.

الأسرة تؤثر فى الإنسان كثيرا . والبيئة الاجتماعيـة التى يعيش فيها تحمله على الاشتراك فيها فيتأثر بها . فالبيئة الاجتماعية يتعلم منها الإنسان كثيرا ، وتؤثر فيه من حيث لا يشعر .

وإن الطفل الذى يجد نفسه محاطا بكل ما يساعده فى تربية الفـكر ، وتهذيب الذوق ، من مكتبة غنية ، وصور جميلة ، وحديقة يلعب فيها ، ومربى فيـه كل ما يمتلـكه من كتب ولُعَب وأدوات ، ومعزف يتعلم عليه العزف ، ومذياع يستمع به إلى الخطباء والمحاضرين والموسيقيين ، كما يجد فوق ذلك كله أُمًّا عالمة بتربية الأطفال ، تعنى به كل العناية ، وتقوم بتربيته خير قيام ؛ فتقرأ له من الحـكايات أحسنها ، وتعوده من العادات أجملها ، وتجيبه إذا سأل ، وترشده إلى الطريق السوى إذا كان فى حاجة إلى الإرشاد ، وتعطيه من الطعام ما يلائمه فى أوقات معينة ، وتعنى بنظافته وملابسه ، ويجد أباً يستطيع أن يشاركه فى كثير من أعماله فى أوقات فراغه ، ويعنى به وبتهذيبه ، وتعويده الاعتماد على نفسه فيما يحتاج إليه ، ويشترى له من الآلات واللُّعب والأجهزة ما يساعده فى تنمية غريزة الحل والتكوين ونزعة اللعب لديه . لاشك أن مثل هذا الطفل يجد فرصة للتعلم والأفـكار ، وسعة التجارب والمعلومات أكثر من طفل لا يجد من القوت إلا الضرورى ، ولا من اللباس إلا ما يستر به جسمه ، ولا من المدارس ما يتعلم فيها الحروف الأبجدية . ولا يجد فى الحياة أكثر من عطف آباء وأمهات ربمـا لا يعرفون عن الحياة شيئاً . والطفل الذى ينشأ فى مثل تلك البيئة الفقيرة محدود المعلومات . ومهما أوتى من الذكاء فذكاؤه مقبور لا يجد من البيئة ما يساعده فى الانتفاع به .

أهمية التربية المنزلية :

للبيت تأثير كبير فى الإنسان من حيث لا يشعر ؛ فكما يُؤثر فى خلقه وعقله يؤثر :

(١) فى لغته ولهجته فى المحادثة ؛ فالطفل يتكلم لغة أمه ؛ فإن كانت صحيحة فلغته صحيحة ، إلا إذا أفسدت بمؤثر آخر كلغة الخدم أو الأطفال الذين يلعب معهم. وهنا يحسن بالأم أن تقوم بإصلاح لغته؛ حتى يعتاد اللغة الصحيحة، ويتجنب العامية. واللغة ـ كما نعلم ـ وسيلة للتخاطب وأداة للتفاهم بين الناس ، ولها أهمية كبيرة فى نقل العلوم والمعارف من شخص إلى آخر ، وهى من أكبر الوسائل لتبادل الأفكار بالمخاطبة والمراسلة والمكاتبة .

(٢) فى أحواله وآدابه ومعاملاته ؛ فالآداب العاليـة أثر التربية المنزلية العالية . والإنسان مرآة لبيته وبيئته . والآداب أثر المثل الحسن والقدوة الحسنة ، والحكمة والحرص فى معاملة الأطفال وتربيتهم . وكثيرا ما يقوم الطفل بأعمال لا يشعر بضررها ، ويفوه بألفاظ لا يدرى لها معنى . وهنا يحسن بالأم أن تهديه سواء السبيل، وترشده إلى الطريق السوى ، وتفهمه ما يجب أن يفعل ، وما ينبغى أن يقال ؛ حتى يعتاد من العادات أحسنها ، ومن الأخلاق أسماها .

وليس البيت بالمؤثر الوحيد الذى يؤثر فى سلوك الإنسان ، ولكن الجو الخاقى الذى يحيط به هو العامل الهام فى تكوين خلقه ؛ فقد يكون الشاب طاهر الروح ، نقى السريرة ، طاهرا فى بيته وتربيته المنزلية ، ولكن بمعاشرته فى الخارج أقواماً لا نصيب لهم من حسن الأخلاق ، قد يضل السبيل ؛ فتفسد تلك الروح البريئة ، وتلوث تلك التربية المنزلية . فيجب على الآباء أن يفهموا أبناءهم أسرار العالم ومافيه، والوسط الاجتماعى وما يحويه من موبقات وأوباء . فهذا خير من أن يترك للابن الحبل على الغارب ، ويرسل إلى عالم لا يعرف عنه شيئا ، فيضل ويتردى فى عالم موبوء ، وبيئة

ملوثة . فالأب ينبغى أن يكون صديقاً مخلصاً لابنه، لا يحرمه تجاربه وآراءه عن العالم وما فيه ، والمجتمع وما به ؛ كى لا يضل فى بيئة غير بيئته ، فيتخذ لنفسه الحيطة من كل ما يودى بجسمه وعقله وخلقه . والأم يجب أن تكون صديقة وفيّة لابنتها ، تفهمها ما ينبغى أن يفعل ، وما ينبغى أن يترك ؛ كى لا يُضِلَّها أحد .

(٣) يُؤثر فى ذوقه الفنى وتقديره لجمال الطبيعة ؛ فالطفل الذى يمتع نظره بمناظر الطبيعة الفاتنة ، والصور الجميلة ، والتماثيل البديعة ، تتولد لديه ملكة الذوق والفن . وعلى العكس من ذلك الطفل الذى يعيش فى بيئة عارية مجردة بعيدة عن الذوق والفن ؛ فإن هذه البيئة تهمل غريزة حب الجمال لديه . وقد يضر الإفراط فى الزخرفة والتطرف بلا ذوق ولا نظام ملكة الذوق عند الطفل .

وجملة القول أن للبيت أثراً كبيراً فى تكوين خلق الإنسان وعاداته ولغته وذوقه، كما أن للبيئة الاجتماعية أثراً لا ينكر فى حياة الطفل وسلوكه ؛ فقد تهدم تلك البيئة ما بناه البيت من عادات وأخلاق ، وذوق ونظام .

ولما كان البيت لا يكفى لتربية الطفل تربية كاملة وجب إيجاد بيئة خاصة كاملة ، تعمل على تغذية مواهب الطفل بطريقة صالحة ، وتربيته تربية تلائم المجتمع الذى ينتسب إليه ، وتجتهد فى إيجاد مجتمع أرقى وأفضل من المجتمع الذى كان يتأثر به لو ترك ونفسه .

فالبيئة الصالحة تستطيع أن تقوم بأمور لا يستطيع البيت القيام بها ؛ إذ أنها تعطى المتعلم مجالاً منظماً، وفكرة عظيمة عن الحياة، بمعيشته مع غيره، واشتراكه مع إخوانه فى التعلم ، واللعب ، والعمل ، والرحلات . والمدرسة هى تلك البيئة الخاصة التى تستطيع أن تقوم بما لم يقم به المنزل .

المدرسة ووظيفتها

المدرسة معهد للتربية والتعليم ، لها قوانين خاصة ، وأنظمة معينة ، أنشئت لغرض حيوى هو أن تقود المجتمع إلى كل رقى . والغرض منها تحقيق مبدأ عظيم وفكرة سامية ؛ تلك الفكرة هى تربية كل طفل تربية حقة تجعله عضواً نافعاً فى المجتمع ، بما تقدمه له من إرشاد منظم ، وتعليم مستمر . وليست هذه الفكرة خاصة بالطفل وحده ، ولكنها تخص الشعب أيضاً . ولقد أخطأ (روسو) حينما قال : « إن الطفل يجب أن يعلَّم لمصلحة الطفل فقط » متجاهلا ما يتطلبه المجتمع ، وما يتطلبه الشعب ؛ فإن طفل اليوم سيصير فى الغد عضواً فى المجتمع ، وفرداً من أفراد الشعب ؛ فإذا كان هذا العضو ناقصا عاجزاً كان المجتمع كذلك فى نقصه وعجزه . وإذا كمل كل عضو كان المجتمع كاملا . وما الأمة إلا مجموع أفراد ، فنجاح الأمة يتوقف على مدارس الشعب . وستبقى المدرسة معهداً للتربية والتعليم ، مادامت تلك الفكرة الخالدة فى تربية الطفل تربيةمدرسية منظمة ــ حية باقية فى الأمة .

ومهما تغير المدرسون والنظار والتلاميذ فالمدرسة ثابتةالدعائم ؛ بروحها ومبادئها وتقاليدها . وأهم مبدأ يجب أن تعمل المدرسة لتحقيقه أن تتعاون مع الطبقات المتصلة بها على تربية الطفل تربية حقة كاملة ؛ تربية عقلية وروحية ووطنية وجسمية ووجدانية وخلقية واجتماعية ؛ حتى تؤدى وظيفتها ، وتقوم بواجبها خير قيام .

المدرسة صورة مكبرة للبيت حيث يجد فيه الطفل كثيراً من الإخوة والأخوات[1] ، يشاركهم فى أعمالهم وألعابهم وحياتهم المدرسية ، ويقاسمهم مسراتهم

---

(١) هذا فى رياض الأطفال وفى المدارس التى تسير على نظام التعليم المشترك بين البنين والبنات .

ورحلاتهم ، ومشروعاتهم ومناظراتهم واجتماعاتهم ، كما يجد مدرساً كالأب يشاركه في ألعابه ، ويرشده حيث يجب الإرشاد ، ويشجعه حيث يجب التشجيع ، ويعطف عليه حيث يجب العطف ، وينتهز كل فرصة ليعلمه ما ينفعه وما يضره ، ويقوده إلى الطريق المستقيم ، ويبين له ما صعب عليه حينما يشعر بالصعوبة ، ويجيبه إذا سأل ، ويصحح هفوته إذا أخطأ ، ويعظه حيث يجب الوعظ ، وينهض به إلى الأمام، فيفتح أمامه السبل ، ويشجع فيه حب البحث والعمل ، وأداء الواجب ، والصبر والمثابرة، والاعتماد على النفس ، والأمانة والإخلاص ، وبذلك يكون المدرس أباً شفيقاً ، وقائداً حكيما ، ومرشداً مخلصاً ، وصديقاً وفيًّا .

وليست وظيفة المدرسة تعليم النشء القراءة والكتابة والحساب فحسب ، ولكن وظيفتها إعداد الفرد لما يتطلبه المجتمع الذى يعيش فيه ، وللحياة الكاملة التى يجب أن تعمل المدرسة للوصول إليها ، وتوجيهه إلى العمل الذى يصلح له ؛ كي يسير بنجاح إلى النهاية .

ولا تستطيع المدرسة أن تقوم بالعمل الذى ننتظره وينتظره الشعب منها إلا إذا أعددنا لها مدرسين أكفاء قادرين ، لهم رغبة فى التدريس ، وميل لمهنة التعليم ، ودراية تامة بنفسية الأطفال والطرق الحديثة فى التربية . فليست وظيفة المدرسة التعليم فحسب ، ولكن وظيفتها التربية ، والقيام بما أهمله المنزل من أخلاق وعادات ضرورية للنجاح فى الحياة . من هنا تجد عمل المدرس شاقا إذا أخلص فى مهنته . فعليه أن يربى الجسم ليكون قويًّا سليما ، ويربى الأيدى لتعمل ، وتعمل بمهارة ، والعقل ليفكر تفكيراً صائباً ، ويحكم حكما سديداً ، والقلب ليجيب داعى الداعى المصيب ، والعين لترى ما فى الطبيعة من جمال فتقدره ، والأذن لتسمع الصوت الجميل فتعجب به . وليس هذا بسهل على المدرس والمدرسة ؛ فإنه يتطلب كثيراً من الدراسة، والإخلاص فى العمل ، والأمانة فى أداء الواجب ، والرغبة فى النهوض بالنشء .

التعاون حياة المدرسة :

بالتعاون تعيش المدرسة وتحيا ، وبه ترقى وتنهض، وبه تصل إلى تحقيق أغراضها في تربية الطفل ؛ تلك الأغراض التي من أجلها أنشئت ، ومن أجلها يجب التعاون بين الدولة والآباء والتلاميذ بالروح والقلب والمال ؛ كي تنجح المدرسة ، وتحقق الآمال التي ترجى منها ؛ فالتعاون ضروري للمدرسة كالماء للحيوان أو النبات .

وتتألف المدرسة من أعضاء ، ولكل عضو وظيفة خاصة يجب أن يقوم بها ، ويعمل لصالح المجتمع المدرسي . فالمدرسة جسم واحد له كثير من الأعضاء ؛ فالناظر عضو مسئول عن المدرسة ، والأب ينبغي أن يكون عضواً في المدرسة ، والمدرس عضو عامل ، ويشاركهم في العضوية التلميذ ، ودافعو الضرائب ، ورجال التربية والتعليم . فالمدرس لا يستطيع أن يقول للأب إني لست في حاجة إليك ، كما لا تستطيع وزارة التربية والتعليم أن تقول لدافعي الضرائب إني لست في حاجة إليكم. فالمدرسة مكونة من أعضاء ، إذا شكا عضو شكت معه بقية الأعضاء . وإذا فاز عضو فاز معه جميع الأعضاء . فإذا لم تنجح المدرسة في تحقيق الأغراض التي من إجلها أنشئت فقد يكون ذلك ناشئاً عن عدم التعاون بين هؤلاء الذين يمثلون المدرسة .

فالتعاون روح المدرسة وحياتها ؛ فإذا لم تتعاون العوامل المختلفة من البيت والمدرسة ، ووزارة التربية ، ووزارة المالية على النهوض بالمدرسة ، واختيار مكانها ، وتنظيم مبانيها ، واستكمال ما بها من أثاث وأدوات وكتب ، بحيث تكون المقاعد مريحة ، والتهوية صحية ، والحجرات متسعة ، والأدوات معدة ، والكتب متوافرة ، فإن المدرس ــ مهما أوتي من المهارة والإخلاص ــ لا يستطيع أن يؤدي واجبه كما ينبغي. وإذا لم يتعاون البيت مع المدرسة على العناية بمواظبة التلاميذ في الحضور إليها ،

وإطاعة قوانينها فمن الصعب على المدرسة أن تصل إلى ما تبغى من إصلاح ونهوض وتربية حقة .

فالتعاون روح المدرسة ، وهو المبدأ الجوهرى لحياتها ونظامها ، ونجاحها فى عملها. ولا تستطيع مدرسة أن تنجح فى عملها إذا عدم التعاون فيها ، ولم يستطع الناظر أن يوفق بين المؤثرات المختلفة: المنزلية والدينية والاجتماعية والحكومية للنهوض بالطفل وتربيته تربية كاملة . وكل شيء يتعارض مع مبدأ التعاون يكون سبباً فى إخفاق المدرسة . وبالتعاون والروح المدرسية تستطيع المدرسة أن تعود تلاميذها النظام ، والمواظبة على الحضور ، والطاعة ، وحب البحث ، والدقة فى العمل ، والمثابرة وأداء الواجب ، والإخلاص للجماعة ، وتكوّن منهم رجالاً ينجحون فى حياتهم العملية ؛ فإن نجاحهم فى المستقبل كثيراً ما يتوقف على العادات التى كسبوها فى طفولتهم ، وعلى العلوم والمعارف التى درسوها فى مدارسهم . فإذا اعتادوا فى البيت والمدرسة تلك العادات الصالحة استطاعوا أن يقدموا على أعمالهم ولديهم كل أمل فى النجاح .

المدرسة الحديثة وواجبها :

إن الأمم تعتمد على مدارسها فى تربية أبنائها وبناتها بكل الوسائل لتسد النقص الذى لا تستطيع الأسرة القيام به وحدها . ولما كانت الحياة المدنية معقدة تتطلب من النشء معرفة كثير من الأمور والتجارب العلمية والعملية والدينية والفنية والطبعية والقومية — وجب التعاون بين البيت والمدرسة والمجتمع للعناية بالنشء ، وقيادته قيادة صالحة ، حتى يعرف معنى الحياة الحقة التى تنتظره .

ومن واجب المدرسة أن تسهل الأمور المعقدة التى لاتستطيع الأسرة القيام بها؛ بأن تختار الأمور الجوهرية الملائمة للأطفال وتربيتهم ، وتتخذ معارفهم وتجاربهم قبل المدرسة أساساً تبنى عليه ، وتهذب منه ما يحتاج إلى التهذيب ، وتصقل ما يحتاج

إلى الصقل : من لغة عامية ، أو خلق سيء ، أو عادة قبيحة ، أو مظهر منفر ؛ كى تقوم بواجبها نحو التربية والتهذيب ، وتعمل لتحسين المجتمع فى الجيل الجديد ، فليست المدرسة مسئولة عن التعليم فحسب ، ولكنها مسئولة عن إصلاح المجتمع الإنسانى ، والحياة الإنسانية ، والمستوى الاجتماعى .

يجب أن تكون المدرسة منبعاً للفضيلة ، مصدراً للأخلاق الكريمة ، وسيلة للطهارة والكمال . وإن المدرسة التى لا تصل إلى الكمال علميًّا وعمليًّا ، وجسميًّا وعقليًّا ، وخلقيًّا واجتماعيًّا ، وروحيًّا ووجدانيًّا ، لا يمكننا أن نقول إنها قد أدَّت رسالتها وواجبها نحو العلم والتعليم . قد يأتى الطفل إلى المدرسة فاسد الأخلاق ، فإذا سألته عما اقترفه من الذنب أنكر ، وفضَّل الكذب على الصدق . وإذا أعرته كتاباً احتفظ به لنفسه ولم يردّه . فبدلاً من أن تحاول المدرسة إصلاحه وبث الفضيلة فى نفسه تهمله كل الإهمال . فمثل هذه المدرسة لم تقم بواجبها .

وخلاصة القول أن التربية من أرقى العوامل فى رقى المجتمع ، وأن الإنسان إذا اتصل بجماعة تشبع بروحها ، وعمل بمبادئها ، وأن البيئة لها أثر كبير فى تربية الشخص ، وأن للأسرة أثراً كبيراً فى خلق الإنسان ولغته وذوقه وتفكيره وميوله المكتسبة ، وأن الأسرة لا تستطيع أن تقوم وحدها بتهذيب قوى الطفل ومواهبه ، وأن المدرسة يجب أن تتعاون مع الأسرة على القيام بتربية الطفل تربية كاملة ؛ فتهذب ما يستحق التهذيب ، وتعدل ما هو جدير بالتعديل .

يجب أن تعمل التربية للوصول إلى كمال الفرد خلقيًّا واجتماعيًّا ، وعقليًّا وصحيًّا ، كما يجب أن يعمل الفرد لا لكمال نفسه فحسب ، بل لكمال المجتمع الذى هو جزء منه ؛ حتى لا يعد محبًّا لنفسه . ولا يعد الرجل سامياً فى أخلاقه إلا إذا نسى منفعة نفسه فى سبيل صالح المجموع ، وبذلك يعد عضواً حيًّا فى المجتمع ، يعرف الواجب فيقوم به ، والحقوق فيدافع عنها ويطالب بها .

وتتطلب المدرسة الحديثة تكوين رجل اجتماعى ، مهذب كامل، يتألم لألم الجماعة ، ويشعر بشعورها ، يحب الإنسانية عامة ، وأمته خاصة ، وتنادى بأن العالم لا يكمل، ومحال أن يكمل، إلا إذا نزعت من نفوس أبنائه النزعات الجنسية والتعصبية ، فينظر الغربى للشرقى ، والأبيض للأسود نظرة أخ مساوٍ له فى الإنسانية . ولكن أنّى لنا ذلك ، وكل أمة تعمل على خلق هذه النزعات ؛ فهى محبة لنفسها تعمل لمصلحتها ولا تفكر فى غيرها ؟ وخير دليل على تعصب الشعوب لنفسها ما ذكره (وِلْهِلْم) الثانى (غليوم) قيصر ألمانيا السابق سنة ١٨٩٠ م . فى اجتماع لكبار المدرسين ، خاص بالتعليم العالى ، فى قوله : « يجب أن يكون أساس التعليم وطنيًّا . يجب أن يكون أساس التعليم وطنيًّا . يجب أن يكون الأساس ألمانيًّا . إن واجبنا أن نعلّم الشبان ليصيروا ألمانيين لا إغريقيين أو رومانيين . يجب أن نترك القاعدة التى كانت متبعة منذ قرون مضت فى التربية الدينية بالقرون الوسطى ، يوم أن كان للّاتينية والإغريقية أكبر أهمية فى التعليم ؛ فإن هاتين اللغتين لا تصلحان لتكونا أمنيتنا اليوم . يجب أن نجعل اللغة الألمانية الأساس فى المدرسة ، ونجعل الأدب الألمانى مركزاً تدور حوله كل مادة أخرى » .

وإذا وافقنا (القيصر) الراحل على أن يكون أساس التعليم وطنيًّا وقوميًّا ، وعلى العناية بلغة البلاد وآدابها ، فلا نوافقه على روح التعصب ، والروح الحربية المؤسسة على حب السيطرة والأثرة . وفى الوقت الذى يجب أن يوضع المنهاج المدرسى بحيث تكون لغة الأمة وآدابها وتاريخها أساساً للتعليم يجب ألا نضحى بالطفل لأى غرض من الأغراض ، وألاّ يكون عالم التربية ضيق النظر والفكر ، وأن ندخل فى المنهج الدراسى ما نراه نافعاً للمجتمع من علوم ولغات وآداب .

المدرسة الحديثة وأثرها فى الحياة

هناك فرق كبير بين تربية الحياة - التى تحدث بالتجارب والمعيشة مع غيرك والاختلاط به والاشتراك معه فى العمل واللعب - والتربية المدرسية التى تقوم بها المدرسة نحو النشء الصغير ؛ ففى النوع الأول من التربية - وهو هام - تجد التربية طبيعية تحدث عرضاً من غير قصد ، فالإنسان بمعاشرته غيره يكتسب من تجاربه بالمحاكاة ، حتى ولو لم يقصد من تلك المعاشرة أن يكسب هذه التجارب ؛ ففى معاشرة الاقتصاديين أو السياسيين أو القانونيين أو الدينيين أثر فى توسيع تجارب الإنسان وتحسينها لكسب شىء من أفكارهم ومعلوماتهم وآرائهم . ولا يمكننا أن نقول : إنك قصدت بمصادقة رجل قانونى الاستفادة من تجاربه القانونية ؛ فقد تكون المصادقة للصداقة لا للمعرفة وكسب العلم ، فهى مجردة عن الغرض وهو الاستفادة . وللحياة الأسرة وحياة الجماعة أثر فى آراء الإنسان وتجاربه ، ومبادئه ونزعاته ،ورغباته وميوله من حيث لا يشعر . اتصل بجماعة من الجماعات ، أو انتسب إلى حزب من الأحزاب تجد نفسك قد تأثرت بمبادئ تلك الجماعة وهذا الحزب ، وأخذت تدافع عن جماعتك أو حزبك دفاعك عن نفسك وأسرتك . فلو كانت مبادئ الجماعة شريفة اكتسبت مبادئ شريفة ، وبالعكس . ولذا يجب على الإنسان الاحتراس فى اختيار الصديق الذى يعاشره ، والحيطة فى اختيار الحزب الذى ينتسب إليه ؛ فكل قرين بالمقارن يقتدى . ولكن إذا قلنا : إن الرجل يستطيع أن يحكّم عقله ونفسه فيختار الصالح ويترك الطالح ، فلا يمكننا أن نقول : إن لدى الطفل هذه القدرة على الحكم

السديد على الأمور ونتائجها ؛ فالطفل يحاكى ما يراه وما يسمعه من تلقاء نفسه ، من غير نظر إلى منفعة أو ضرر يعود عليه فى المستقبل .

ولكن هل يكفى الإنسان فى الحياة ما يكتسبه من التجارب التى تحدث عرضاً بمعاشرة غيره ؟ لا ، إن هذه التجارب ـ ولو أنها هامة فى الحياة العملية ـ لا تكفى ؛ بل لا بد أن تصحب بالنوع الثانى من التربية ، وهو التربية العلمية ، وبعبارة أخرى التربية المدرسية ؛ تلك التربيـة التى تعمل لتهذيب قوى الطفل ومداركه وحواسه ، وغرائزه وميوله ، وعاداته وأخلاقه ، تهذيباً علميًّا وخلقيًّا ، روحيًّا واجتماعيًّا ، بدنيًّا وعقليًّا ؛ فإن الطفل فى حاجة دائماً إلى من يلاحظه ويراقبه فى أقواله وأفعاله ، وحركاته وسكناته ، بعين البصيرة والحزم ، والشفقة والحلم ، فيريه مواطن الخطأ ، ويشجع الحسن من العادات ، ويجعله يشعر بضرر القبيح منها كى يتجنبه . لهذا كله يحتاج الطفل إلى التربية المدرسية ؛ إلى مدرس يرشده فى الوقت الملائم للإرشاد بطريقة صالحة ، وهذه روح التربية الحديثة .

ووظيفة المدرس الحديث أن ينتهز الفرصة الملائمة ، واللحظة المناسبة ، لإرشاد تلميذه إلى ما ينفعه فى الوقت الحاضر ، وفى حياته المقبلة ، وإلى الطرق التى بها ينفع الإنسانية والوطن فى المستقبل ، بأعماله ومجهوداته ، وتجاربه واختراعاته ، وآرائه ومشروعاته . وبهـذه الوسيلة يستطيع المدرس أن يقوم بخدمة جليلة نحو الإنسانية والوطن ، ونحو بنى جنسه وتلاميذه .

قلنا إن هناك فرقاً بين تربية الحياة العامة والتربية المدرسية الخاصة ، ونقول إن الأمم المتوحشـة لا تعنى بالتعليم ، ولا تهتم بالمدارس الاهتمام الواجب . أما الأمم المتمدينة فتعنى بالتعليم العناية كلها ، وتمنح المدارس قسطها من المال والعناية ، وتضعها

أمام عينيها ، وتنفق عليها بكل سخاء ؛ واثقة بأن التعليم من الضروريات للحياة ، لا غنى عنه ، كالماء والهواء للإنسان ؛ فالعلم هو الحياة ، والحياة مع الجهل موت .

وتعتمد الأمم المتوحشة فى حياتها على المعلومات الأولية التى ينقلها الأبناء عن الآباء ، ويكتسبونها بمعاشرتهم لأبناء جنسهم ، وهى لا تكفى للحياة الحقة . وإذا كنت فى شك فانظر إلى الفرق بين الرجل المتعلم المثقف والرجل الجاهل تجد بينهما فرقاً كبيراً ، وقد تضع الأول فى صف الإنسانية ، والثانى فى صف الحيوانية . فالطفل فى الأمم المتوحشة لا يجد مدرسة يتعلم بها ، وهو يعتمد فى معيشته على ما يتعلمه من عادات المجتمع الذى نشأ فيه ، ويحاكى الكبار فى أعمالهم وحرفهم الأولية ، ويحيا حياة همجية .

ولا تكفى المحاكاة لمعرفة العمل وإجادته ، بل لا بد من التعلم والتمرن والدراسة فى المدرسة والمعهد والحياة ؛ فلا بد من المدرسة ، ولا بد من رجال مختصين ذوى دراية بأعمالهم ، وخبرة بحرفهم ، ومهارة فى تعليمهم ؛ ليفهموا تلاميذهم العمل ، ويقوموا بإرشادهم عند الحاجة ، ويبينوا لهم الخطأ إذا ضلوا الصواب ، ويشجعوهم إذا كانوا فى حاجة إلى التشجيع .

ليس من السهل تعلم كل شىء يحتاج إليه المجتمع بغير المدرسة ؛ ففيها يمكن تعلم أشياء لا يستطيع الإنسان أن يتعلمها خارج المدرسة . ولا ننكر أن الصناعات الأولية والحرف السهلة يستطيع الشخص تعلمها فى غير المدرسة ، أما الصناعات الراقية والعلوم التى تحتاج إلى دراية وكتب ، وتجارب وبحوث ، فالمدرسة أحسن مكان لتعلمها ؛ حيث يجد الطالب البيئة المناسبة ، والاستعداد التام ، والأدوات الكاملة ، والمعلمين الأكفاء ؛ ففى المدرسة الحديثة يجد النشء فرصة للتعلم لا يجدها خارجها ، ويُعطى الطالب فرصة للتمرن والتجربة والبحث والتدريب على النظريات التى عرفها . أما إذا اكتفت المدرسة بحشو عقول التلاميذ بمعلومات لا يستفيدون منها فى الخارج ،

فإنها لا تكون قد قامت بواجبها خير قيام ؛ فإن واجب المدرسة الحديثة أن تعد الطفل للانتفاع بالتجارب المدرسية ، كما تعده للحياة العملية الحقة . وتنادى التربية الحديثة بأنه لا فائدة من النظريات إذا لم يمكن تنفيذها ، كما أن من واجب المدرسة الحديثة أن تعوّد الطالب المثابرة على العمل ، والصبر فى البحث والتنقيب ، والاطلاع ، والاستفادة من أوقات الفراغ ، والإخلاص فى العمل ، وإتقانه وإجادته ، ومراقبة الله والضمير فى كل أمر يعمله . وبذلك تقوم المدرسة بواجبها نحو المجتمع .

وتتطلب التربية الحديثة أن تكون التربية عملية لا سطحية ، وأن تكون المدرسة متصلة بالعالم والحياة العملية ، وتنادى بأن تكون المدرسة عالماً مصغّراً يمثل العالم الحقيقى والحياة الحقيقية خير تمثيل. وللوصول إلى ذلك يجب أن تكون المواد المدرسية هى المواد التى نحتاج إليها فى الحياة الاجتماعية ، وأن تكون عملية متصلة كل الاتصال بالحياة وتجاربها ، فتكون المدرسة عالماً صغيراً أو جزءاً من العالم الخارجى ؛ كى لا يفاجأ الطالب عند انتهائه من الحياة المدرسية بعالم يخالف العالَم الخيالى الذى كان يعيش فيه مخالفة كبيرة ، فيقف حائراً مكتوف اليدين ، لا يدرى ماذا يفعل . فالتربية الحديثة تستدعى جعل المواد المدرسية مناسبة لما يراه الطفل فى العالم خارج المدرسة ، وتنظر فيما يحتاج إليه المجتمع والحياة الإنسانية ، وتعمل للوصول إليه مع تنمية مواهب الطفل والتفكير فيه قبل أى شىء آخر ، والتضحية بكل ما يمكن فى سبيل النهوض به ، وإرشاده إلى أحسن الطرق فى الحياة ؛ حتى يصل إلى النهاية التى رسمت له ، ووضعناها نصب أعيننا ، كما تستدعى مساعدة كل تلميذ وتشجيعه ، وعدم تثبيط همته ، وترغيبه فى عمله ؛ حتى يصير قادراً على السير بنفسه إلى الأمام تحت إرشاد المربى أو المربية . وبذلك تؤدى المدرسة واجبها ، ويرضى المربون ضمائرهم .

وخلاصة القول أن طبيعة الحياة تستلزم العمل للمحافظة على الحياة . وإذا كان

الغذاء ضرورياً للحياة الإنسانية ، فالتربية ضرورية للحياة الاجتماعيــة . وكل فرد فى المجتمع يجب أن يعمل على النهوض به . ويجب أن تتصل المدرسة بالحياة ، وتكون عالماً صغيراً فى ذلك العالم الـكبير .

المدرسة مجتمع صغير

إن المدرسة مجتمع صغير فى ذاته ، وهى خير وسيلة لتربية التلاميذ تربية اجتماعية؛ فالحياة المدرسية هى الحلقة التى تصل المنزل بالمجتمع ، وتعد جميع الأفراد للمجتمع ، مهما اختلفت طبقاتهم وبيئاتهم المنزلية . وفى ذلك المجتمع المدرسى يعرف التلميذ كيف يعامل إخـوانه ، وكيف يعامل غيره ، وكيف يتعاون معه ، فيحب له ما يحب لنفسه ، وكيف يفـكر فى حقوق جاره ، وكيف يكون أميناً فى معاملته ، صادقاً فى قوله ، عادلا فى حُـكمه ، شفيقاً بغيره ، وكيف يُخلص فى عمله ويؤديه بذمة وضمير. فالمدرسة تعطى المتعلم فرصاً كثيرة فى كل يوم للتحلى بالفضائل الاجتماعية ، ولها تأثير كبير فى تـكوين أحسن الأخلاق والعادات فى نفوس التلاميذ ؛ فهم يتصلون فى أعمالهم بعضهم ببعض كل الاتصال ، يجدون من الأساتذة مراقبة دائمة ، وملاحظة وإرشاداً ؛ حتى يكون المستوى الاجتماعى فى المدرسة راقياً فى جميع مظاهره . ففى المدرسة ينتظر ألا يكون هناك ظلم فى المعاملة ، أو سوء فى الأدب ، أو كذب فى القول، أو دناءة أو فظاظة أو غلظة . فيها يعامل التلاميذ معاملة واحدة ، يتساوى فيها الفقير مع الغنى ، والقبيح مع الجميل ، والوضيع مع الرفيع ، يبث فيهم المدرس أن يعامل كل منهم الآخر بأدب واحترام ، وأن ينقدوا زملاءهم بروح بريئة كلها رقة وعطف ،

بروح خالية من الحقد أو العداء ، وأن يراعى كل منهم حقوق غيره ، وأن يضحى بمصلحته الشخصية فى سبيل المجتمع ، وأن يعاون من يحتاج إلى المعاونة . وبهذه الوسيلة تكون المدرسة مجتمعاً مهذباً تبث فيه روح التربية الاجتماعية الحقة ، والوطنية الصادقة ، والخلقية الكاملة ، والعقلية المنظمة ؛ روح الإخاء والمساواة ، روح العلم والعمل ، روح البحث والاطلاع ، روح النظام والكمال .

الحياة الاجتماعية فى المدرسة ونواحى النشاط فيها

إن المدرسة مجتمع صغير يمكن أن تكوّن فيه العادات الاجتماعية الحسنة بين الأطفال . وإن لدى الطفل الريفى استعداداً للانتفاع بالحياة الاجتماعية فى المدرسة كالمدنى من الأطفال إذا أعطى الفرصة التى تشجع على التربية الاجتماعية فى المدرسة ؛ فالمدرسة فى الوقت الحاضر خير مكان لبث الروح الاجتماعية فى نفوس النشء . ولا يطالب المدرس الآن بالتدريس وإعطاء الدروس فحسب ، بل يطالب كذلك بإعداد الأطفال لأن يعيشوا فى المجتمع الذى ينتظرهم ، ويتصلوا به ولا يكونوا غرباء عنه . ولا تستطيع المدرسة أن تقوم بهذه الرسالة إلا إذا اتصلت كل الاتصال بالحياة الاجتماعية خارج المدرسة .

ولا يكفى أن يتعلم الأطفال القراءة والكتابة والحساب والمواد المدرسية المختلفة ، بل يجب أن تتصل دراستهم بحوادث الحياة ، وبالحياة نفسها ؛ ليكونوا فى المستقبل أقوياء الأجسام ، سليمي العقول ، أمناء فى معاملاتهم ، صادقين فى أقوالهم ، أوفياء

بوعودهم ، قادرين على أن يكسبوا عيشهم بأنفسهم ، ويحيوا حياة هادئة مع جيرانهم. يعرفون ما عليهم من واجب نحو وطنهم فيؤدونه ، ويفهمون المجتمع الذى يعيشون فيه ، ويشعرون بشعوره ، ويقودون حياة سعيدة هانئة . يفكرون فى غيرهم كما يفكرون فى أنفسهم ، ويتعاونون مع مواطنيهم على الأعمال الإنسانية والقومية . هذه هى الدروس الحقة التى يجب أن يرمى إليها المدرسون ؛ كى تؤدى المدرسة واجبها نحو المجتمع .

إننا ننتظر من المدرسة اليوم أن تعود التلاميذ النظام فى الحياة ، والنظام فى العمل ، وتقسيم الأوقات بين اللعب والعمل ، وتعويدهم آداب المعاملة ، والتفكير فى المصلحة العامة ، والتضحية بالمصلحة الخاصة فى سبيلها ، فلا يترك التلميذ الكهربا مضاءة فى الحجر الدراسية الخالية من التلاميذ ، كما لا يتركها فى الحجر الخالية من منزله ، فينظر إلى المصلحة العامة كأنها مصلحته الخاصة .

يجب على المدرسة أن تزود التلاميذ بما فقدوه فى بيوتهم ، وبخاصة أبناء الطبقة الفقيرة التى لا تجد كل وسائل التربية والتهذيب فى البيت ، وتكمل هذا النقص ، وتسد هذا الفراغ ، وتعلمهم كيف يتحدثون مع غيرهم ، وكيف يتعاونون فى سبيل النهوض بالمدرسة وما فيها من فلاحة بساتين ، وتربية دواجن ، وإعداد حديقة ، وتمثيل رواية ، وتنظيم ملعب ، وترتيب محفل ، وإعداد مائدة ، واستقبال ضيوف ؛ لبث الروح الاجتماعية فى نفوسهم .

وفى دروس التربية الوطنية والمطالعة والإملاء والإنشاء ، يجب أن تكون الموضوعات مناسبة لحوادث الأيام ، وما يجرى خارج المدرسة ؛ بحيث يكون الجو المدرسى دروساً اجتماعية مستمرة ، وتكون الحوادث مادة للتربية الاجتماعية المدرسية. وبهذه الوسيلة تكون المدرسة متصلة بالحياة الاجتماعية والوطنية والاقتصادية. وهناك

مناسبات كثيرة يمكن الانتفاع بها لبث الروح الاجتماعية فى نفوس النشء ؛ ففى أول السنة الهجرية أو الميلادية ، وفى المولد النبوى ، وفى عيد الدستور ، وعيد الاستقلال ، وعيد الجهاد الوطنى ، وعيد الفطر والأضحى ، وفى الانتخابات ، وفى خطبة العرش — فرص كثيرة لإعطاء دروس عن الحياة القومية . وفى مثل هذه الموضوعات تجد من التلاميذ انتباهاً ورغبة وشوقاً إلى المعرفة .

وليست المدرسة بناء أعد للتعليم فحسب ، بل هى مجتمع الغرض منه تربية التلاميذ وإعدادهم للحياة ، وبث العادات الصالحة فى نفوسهم ، وتربيتهم تربية اجتماعية حرة تساعدهم فى تربية ميولهم ومواهبهم ، وتعودهم الإقدام ، والاعتماد على النفس ، والحياة الاجتماعية الكاملة .

ولكى تنجح الحياة الاجتماعية فى المدرسة يجب أن تتوافر فيها الملاعب المختلفة ، ونواحى النشاط المدرسى ، ويجب على الآباء أن يتعاونوا مع المدرسة على إشراك أبنائهم فى تلك الحياة كى ينتفعوا بها .

وفى المدارس الحديثة بأوروبة وأمريكا تشرك المدرسة كبار التلاميذ بها فى وضع المبادئ الضرورية للجماعة المدرسية ، والمحافظة على سمعة المدرسة ومستقبلها ، ويتاح للتلاميذ فرص شتى للاضطلاع بالمسئولية ، ومواجهة المسائل العملية ، وخدمة المجتمع ، والعمل للمصلحة العامة . وبهذه الطريقة يحملون على التفكير فى خير المدرسة ، وبذل كل مجهود للتغلب على ما يعترضها من الصعوبات ، ويفسح المجال أمامهم للانتفاع بمواهبهم ، وتعويدهم الابتكار والانتفاع بأوقات الفراغ .

ولكى تنجح المدرسة فى حياتها الاجتماعية ينبغى أن تكون بها جماعات متنوعة للكشافة ، والآداب ، والعلوم ، والموسيقا ، والتصوير ، وجماعات للبر ، ولمساعدة الفقير ، وإنقاذ الطفولة المشردة . ويجب ألا يتدخل المدرسون كثيراً فى تنظيم تلك

الجماعات ، بل يتركوا ذلك للتلاميذ ، ويكتفوا بإرشادهم عند الضرورة ، ويعتمدوا عليهم فى إعداد الاجتماعات المدرسية ، والحفلات الموسيقية ، والروايات التمثيلية ، والمحاضرات العلمية والأدبية ، والرحلات والمعسكرات الكشفية ، حتى نعودهم الزعامة ، والاعتماد على النفس ، وخدمة المجتمع ، والتفكير فى الإصلاح الاجتماعى ، ويشعر كل تلميذ بأنه عضو عامل ، فى جماعة منظمة ، أو بيت منظم ، أو مدرسة منظمة ، له ما لتلك الجماعة ، وعليه ما عليها . يعمل لرفعتها ، ويفخر بالانتساب إليها ، ويدرك ما له من حقوق ، وما عليه من واجبات . وتتكون لديه روح اجتماعية تلازمه مدى الحياة ، وتبث فى نفسه روح الوفاء والولاء للمدرسة .

وإذا قلنا بتشجيع النشاط المدرسى فليس معنى ذلك أن نهمل الناحية الدراسية العلمية ، بل يجب أن نعنى بالناحية العلمية عنايتنا بالناحيتين الاجتماعية والخلقية فى المدرسة .

العناية بالطفل فى البيت والمدرسة والملعب

فى انجلترة اليوم عناية كبيرة بتربية الأطفال تربية صالحة جسمياً وعقلياً وخلقياً واجتماعياً . وإن نظرة واحدة إلى صور الأطفال اليوم وصورهم منذ عشرين سنة مثلاً تظهر لك فرقاً كبيراً بينهم اليوم وبينهم بالأمس . وهذا يدل دلالة واضحة على مقدار العناية بالطفل ، وعلى مستوى المدنية بانجلترة ، وعلى النهضة المحسة والتقدم العظيم فى التربية والتعليم ؛ فنظرة إلى الوجه وقوة الجسم واليدين والعينين والفم تدل الناظر على التحسن الكبير فى المستوى ، وتغنيه عن المناقشة فى نهضة التعليم بانجلترة .

ولا يجد الطفل عناية بتربيته فى المنزل فحسب ، بل يجد هذه العناية فى المدرسة والملعب كذلك ، ويرى عطفاً كبيراً ومعاملة حسنة فى حجرة الدراسة وخارجها ؛ فهو متمتع بالحياة ، يرى السعادة أينما ذهب ، ويجد الفرصة فى التعلم منذ وجوده فى هذا العالم ، ويجد العناية به حتى قبل أن يرى هذا العالم. وإذا بلغ الخامسة من العمر وجد المدارس الابتدائية أو الأولية تنتظره . وفى المنزل يجد عناية كبيرة من أمه وأبيه فى تعليمهما إياه القراءة والكتابة فى ساعات فراغهما، وقصهما كثيراً من الحكايات عليه وهو فى فراشه قبل النوم ، وشرائهما له من اللُّعب التعليمية والتكوينية ما يناسب سنه . ومن هذه اللُّعب يتعلم الأعداد والحروف الأبجدية والأشكال الهندسية من مثلث ومربع ومستطيل ودائرة ونصف دائرة . . . الخ .

وتختار له اللعب التكوينية ؛ كأن يؤتى له بأجزاء طيارة أو سيارة . وبمحاكاة ما لديه من الصور والرسوم يمكنه أن يركب الأجزاء بعضها مع بعض ، ويكون منها الطيارة أو السيارة ، ويعرف أجزاء كل منها ، والوظيفة العلمية لكل جزء . ولا يختار له من اللعب ما لا يدعو إلى شيء من التفكير ؛ كأن يُشترى له قطار صغير فإذا ما أدار الألوى فيه جرى القطار على الأرض . فالجو الإنكليزى جو علمى ، والبيئة بيئة علمية .

ومن الممكن أن نقول كثيراً ، وكثيراً جدًّا عن الألعاب المنظمة للأطفال ، وإعداد كل وسائل الراحة فى الملاعب التى تنشأ فى المتنزهات العامة للألعاب الرياضية المختلفة، والعناية فى مدارس الأطفال بالموسيقا ، والفنون الجميلة ، واستخدام الصور المتحركة ، والذياع فى المدرسة ، والرحلات المدرسية ، والزيارات العلمية ، والطريقة التى يعامل بها ذوو العاهات وضعاف العقول أو الأجسام من الأطفال ، والطرق الحديثة المتبعة فى تربية هؤلاء الأطفال ، ولكن الكتاب لا يتسع لكل هذه الموضوعات .

التعاون فى تربية الطفل بين المدرسة والبيت

من مظاهر التربيـة الحديثة أن التعاون فى المدرسة يجب أن يحل بالتدريج محل المنافسة ، وأن المدرسة والمنزل يجب أن يعملا يداً بيد فى سبيل تربية الطفل تربية يصلح بها للحياة التى تنتظره ، تربية اجتماعيـة كاملة بحيث يتعوَّد التعاون مع غيره من الصغر؛ حتى يستطيع أن يقوم بأعمال جليلة فى الكبر . ربما لا يستطيع الآباء فى المنزل أن يروا الغرض من الحياة أو معنى الحياة ، وقد يكونون محبين لأنفسهم، يأخذون ولا يعطون . وهنا تبدو الحاجة إلى المدرسة ؛ فإنها تأخذ وتعطى ، وتدرك معنى الحياة ، وتستطيع القيام بمساعدة المنزل فى تربية الطفل تربية علمية عملية صحية تتفق مع البيئة التى ينسب إليها .

وأحسن الوسائل التى بهـا يستطيع المنزل والمدرسة معاً إعداد الطفل للحياة الـكاملة هى :

(١) العناية بالدور الأول من الحياة وهو دور الطفولة ؛ فإنه هو الأساس الذى يبنى عليه مستقبل الطفل وحيـاته . ولقد بلغت بالإنكليز العناية بالطفل لدرجة أنهم يفـكرون فيه حتى قبل أن يولد بخمسين سنة على الأقل ؛ فالطبقة الراقية منهم تفـكر فى أثر الوراثة ؛ فلا يتزوج أحد من هذه الطبقة بمن به أو بهـا مرض من الأمراض العقليـة أو العصبية أو الرئوية ؛ خوفاً من إيجاد طفل معتوه أو مجنون أو مستعد لمرض السل .

(٢) أن يعطى الطفل حرية كبيرة لتنمية مواهبه وقواه ، التى تعد هبة للحياة الاجتماعية . ولا نقصد بذلك أن ندع الطفل يفعل كل ما يشاء ، بل نعطيه فرصة فى

أن يعمل ويجرب ، ونراقبه عن بعد حتى يظهر خطؤه ، وندعه يحاول إصلاحه بنفسه ، ونساعده عند الحاجة ، ونعمل على أن يعرف نفسه ، ويمتاد ضبط شعوره وعواطفه ، والصبر ، والتجربة ، والمثابرة ، والتفكير فى الجماعة ، وروحها ، بحيث نضحى فى سبيله بكل شىء آخر ؛ فلا نفكر إلا فى الطفل وتقويمه وتهذيبه ؛ ليكون المثل الأعلى فى الحياة .

(٣) الاهتمام بالألعاب الرياضية ؛ فإنها خير وسيلة لتقويم خلق الطفل وتقوية جسمه . بها نبث فيه حب العمل والتفكير لا فى نفسه ، بل فى الفرقة التى يشترك فيها . وبذلك نميت فيه ذلك المرض النفسى ؛ مرض الأثرة وحب الذات والتفكير فى النفس ليس غير .

(٤) الحاجة إلى معرفة أن الطفل يحتاج أحياناً إلى الهدوء والصمت .

(٥) العمل على الإصلاح دائماً . والتفاهم بالمحادثة الودية خير طريقة للعلاج والإصلاح . وإن المراقبة فى دور المراهقة والبلوغ واجبة ؛ لأن هذا الدور أكثر أدوار الحياة خطراً .

(٦) العناية بالفنون والأعمال اليدوية ؛ فهى وسيلة للنمو العقلى ، والتهذيب الخلقى ، وكسب المهارة .

(٧) يجب أن يتم التعاون بين المدرسة والمنزل للوصول بالطفل إلى الكمال ؛ فإذا لم يكن هناك تعاون بينهما فمن المحال أن نصل إلى الغرض الأسمى من التربية .

وفى الأمم المتمدينة وبخاصة انجلترة والولايات المتحدة بأمريكا نجد الثقة متبادلة بين المدرسة والمنزل ، والرابطة بينهما كبيرة ، يتعاون كل منهما على تثقيف الطفل وإفادته ؛ فليست المدرسة فى واد والمنزل فى واد آخر . وإنى أسف لأن أقول : إن المدرسة وحدها فى مصر هى التى تجاهد منفردة فى سبيل تربية الطفل ؛ فالمنزل منفصل عنها كل الانفصال ، وقد يهدم ما تبنيه أحياناً ، ولا سبب لذلك إلا انتشار

الجهل والأمية . وحبـذا الأمر لو قامت المدرسة بدعوة المتعلمين من الآباء فى وقت معين كل ثلاثة أشهر مثـلاً للتفاهم والبحث معهم فى الأمور التى تتعلق بشئون الأطفال ، والنظر فى أحوال التعليم ومستقبل التلاميـذ ، والعمل على رفع مستواهم العلمى والخلقى والصحى والاجتماعى .

وفى « نيويورك » تجد المدرسة تعمل على التقريب بينها وبين المنزل ؛ فالآباء فى الولايات المتحدة بأمريكا أعضاء عاملون فى الحياة المدرسية ، يذهبون إلى المحاضرات العـامة التى تلقى فى المدرسة ، ويشتركون فى مناظراتها، ويساعدون فى مقاصفها ، ويعاونون فى محافلها الاجتماعية .

وبأمريكا الآن جماعات للآباء والمدرسين فى كل مكان تلقى فيها محاضرات عن : أعمال المدرسة ، والغرض من المدرسة ، والطفل ، ونفسيته ، وتربيته ، ومعاملته .

والـكل يفـكر فى الطفل ؛ ثقة بأن طفل اليوم هو رجل الغد ، وأثر التربيـة اليوم يظهر فى الغد ، وما تزرعه اليوم تجنى ثماره غداً . والوسيلة الوحدة لإصلاح الجيل المقبل وترقيته هى العناية بالجيل الحاضر ؛ فإذا عنينا بأطفال اليوم وتربيتهم تربيـة صالحة فى المدرسة ، والمنزل ، والملعب ، انتظرنا ثمرة طيبـة ، وشعباً راقياً فى المستقبل .

التعاون فى مدارس الأطفال فى (وِنِتْـكا) :

وفى مدارس الأطفال فى (وِنِتْـكا) "Winnetka" بأمريكا يشترط لقبول التلاميذ أن يرضى الآباء معاونة المدرسة والاشتراك مع موظفيها فى العمل ، وبغير ذلك لاتقبل الأطفال.وفى انجلترة قد بذلت جهود كبيرةفى السنوات الماضيةللتوحيد بين هذين العاملين : المدرسة والمنزل ، وتوثيق عرا الرابطة بينهما . ولقد نجحت هذه المجهودات، وأصبح الآباء يعنون بأمور التعليم،يسترشدون برأى المدرسة، ويستعيرون

من مكتبتها إذا شاءوا ، ويدعون للمجتمعات الموسيقية والتمثيلية والرياضية ؛ لكى يروا أبناءهم يغنون أو يمثلون أو يلعبون ، ويشاهدوهم رجالاً يقومون خير القيام بكثير من الأعمال : من إدارة مطعم ، وتنظيم حديقة ، وتنظيف فصول ، ومراقبة ألعاب رياضية ، وإدارة مكتبات ، وتوزيع الأدوات وجمعها بعد الانتهاء منها ، وإصلاح كل ما يحتاج إلى الإصلاح فى المدرسة . فالطفل عضو عامل فى المدرسة يعود من صغره الاعتماد على نفسه ، والاستعداد للحياة العملية العالية باشتراكه مع رفقائه فى الفصل والمعمل والمصنع والمحفل والملعب الرياضى .

وفى البيت يجد الطفل الإنكليزى مدرسة أخرى صغيرة ؛ فالبيئة علمية ، والجو علمى ؛ أم تعلمه ، وأب يرشده ، وخادم تقرأ له ؛ فالكل يفكر فيه صباحاً ومساء . فى الصباح يأتى الطفل إلى أمه بالصحيفة اليومية فتقرأ له الجزء الخاص به من الصحيفة عن الفيل أو النمر مثلا ، فيعرف ما تم من أمرهما ، ثم تقطع له هذا الجزء فيضعه بين كتبه الخاصة ، فى حجرته الخاصة بكتبه ولُعبه . وفى الساعة السابعة مساء يتناول كوباً من اللبن أو فنجاناً من المرق بعد الاستحمام ، ثم تأخذه إلى فراشه ، وتقرأ له بعض الحكايات السارة ، وتنشده شعر الطفولة ، وتغنى له بعض الأغانى بصوت هادئ جميل ، حتى ينام فتتركه إلى الصباح .

وترحب المدرسة الحديثة بالآباء ، وتريهم الأعمال التى يقوم بها أولادهم فيها ، وتعمل على إيجاد روح التعاون بينها وبين المنزل .

والمدرس الحازم يستطيع أن يساعد الآباء فى معرفة أن الحياة لا تقصد طفلاً واحداً ، أو أسرة واحدة ، أو مدرسة واحدة ليس غير ، بل تقصد المجتمع الذى ينسب إليه الفرد ، والذى يجب أن يقوم الكل بواجبه نحوه ؛ حتى تزول الأثرة التى تظهر فى بعض الآباء الذين لا يفكرون إلا فى أبنائهم وبناتهم ؛ فالمدرسة تستطيع

بمعاضدة المنزل أن تقوم بجلائل الأعمال نحو الأخلاق والإنسانية ، وتحسين المستوى الصحى ، والاجتماعى ، والعلمى ، والخلقى . ولسنا فى حاجة إلى تكرار القول بأن التعاون بين المدرسة والبيت هو الوسيلة الوحدة لنجاح التعليم . وبالمنتديات يمكن الجمع بين الآباء والمدرسين لاستماع روايات أو مناظرات يقوم بها الطلبة والمدرسون ، وبهذه الطريقة تتم الرابطة ، ويلم الشمث ، ويعمل الجميع لإسعاد الطفل وتربيته تربية حسنة .

ولقد أوحت روح (بستالوتزى) إلى المدرسين بأن يكسبوا تقدير الآباء ؛ فإن هذا التقدير هو العامل الأول لنجاح الإدارة المدرسية . وإن كانت المدرسة فى حاجة فإنها فى حاجة إلى مساعدة المنزل ؛ فالمدرسة هى التى تتسلم البضاعة الفاسدة ؛ يأتى الطفل إليها يتكلم لغة غير لغتها ، ويتخلق بأخلاق سيئة ، وحينئذ تجد عمل المدرسة مضاعفاً ، فتبتدئ تعلمه لغة جديدة أو لغتين ، وبجانب بث الأخلاق الفاضلة فيه تعمل على تقويم المعوج منها .

وإنى أعتقد أن الطفل يتمنى أن يأخذ والده فى إحدى يديه ، وأستاذه فى يده الأخرى ؛ حتى يعمل الكل وحدة « ثلاثية » متينة الاتصال ، تعمل لشىء واحد ؛ هو رقى المجتمع والوصول إلى الحياة الكاملة[١] .

---

(١) ارجع إلى كتاب « التربية الإنكليزية » للمؤلف

الفصل السادس

الطفل ومشكلة الطفولة

دراسة الأطفال :

إن دراسة الأطفال وطبائعهم وميولهم وغرائزهم تساعد المربى فى معرفة المواد التى تناسبهم ليختار منها الأصلح . وإن المدرس الذى يدرُس كل تلميذ بحيث يعرف نفسيته ومقدرته ، والبيئة التى يعيش فيها ، والظروف التى تحيط به ، يسهل عليه أن يدرك ما يحتاج إليه كل تلميذ ، وما يهضمه من المواد . وفى استطاعته أن يتجنب كثيراً من الهفوات إذا عرف أمزجة الأطفال وأخلاقهم الشخصية ، وعيوبهم الجسمية ، وعاهاتهم العقلية ؛ بأن يضع كل طفل فى الموضع الذى يلائمه ؛ فيُجلس ضعيف النظر وقصيره فى الصفوف الأمامية ، ويرسل ضعيف العقل إلى المدارس الخاصة بذوى العاهات العقلية ، والنحيف الجسم السليم العقل إلى الفصول التى فى الهواء الطلق ، وهكذا يمنح كلاًّ ما يتفق مع حالته الطبيعية .

ولو أدرك المدرس هذه الحقائق البدهية عن الأطفال لتجنب كثيراً من الأخطاء التى يقع فيها من لم يعرف شيئاً عن الطفولة ؛ فلو عرف أن اللعب والحركة ضروريان للطفل السليم كالطعام ، وأن كل عمل عقلى يترك أثراً فى خلايا المخ ، والتعب يقلل مقدار الانتباه ، ويضعف التذكر ، والعمل المدرسى يجب أن يكون فى جو صحى سار

لأمكنه أن يترك للطفل شيئاً من الحرية فى الحركة وفى اللعب وقت اللعب ، واستطاع أن يعرف أن التثاؤب والكسل من علامات التعب ، فيأخذ الأطفال للرياضة ، أو يعطيهم قسطاً من الراحة ، وما انتظر أن يكون عمل التلاميذ بعد الظهر بنشاط كعملهم فى الصباح ، ولم يثقل عليهم بالحجز بعد اليوم المدرسى الطويل لأداء واجب لليوم التالى ، ولاستطاع أن يعنى بتهوية الحجرة الدراسية ونظافتها ، ولانتبه إلى العادات الصحية فى جلوس التلاميذ ووقوفهم وتنفسهم ، ولكانت معاملته لتلاميذه كلها ثقة وإخلاصاً ، لا شكاً وارتياباً ، وما عاقب الطفل عن خطيئة ارتكبها إلا إذا عرف البواعث التى حملته على ارتكابها ، وفكر فى المؤثرات التى كانت مسيطرة عليه ، وشعوره بعد الخطأ ؛ فإذا كان حسن النية أو كان خطؤه ناشئاً عن جهله بالذنب أو سهوه أو عدم تفكيره وتقديره لما ارتكب من إثم فهمه الخطأ ونتيجته حتى يشعر به ، ويَعِد بتجنبه فيعفو عنه . فكثيراً ما تحدث الهفوات من الكبار . وإذا كان سيء النية عاقبه عقاباً يناسب ذنبه ، بشرط أن يكون ملائماً لطبيعته ، ومؤدياً إلى إصلاحه . ويجب أن يشعر التلميذ شعوراً صادقاً بأن هذا العقاب عادل . وليعلم المدرس أن الطفل الصغير حَكَم نزيه عادل ، يستطيع أن يقرأ عقل المدرس وقلبه أكثر من قراءة المدرس لعقل الطفل وقلبه .

والحق أن قواعد التربية وطرق التعليم يجب أن تؤسس على دراسة الطفولة والطفل ، ولا تكون هذه الدراسة بالقراءة وحدها عن الأطفال ، بل بالدراسة الحقة للبنين والبنات منهم ، ومعرفة أحوال الطفولة ، وطبيعة الطفل وحياته وعقليته ، ومراحل نموه ، ومميزات كل مرحلة ، والإلمام بها ، والسير بمقتضاها ، ودراسة العالم فى نظر الطفل ، وطرق الأطفال وعاداتهم ومشكلاتهم ، وما يحبونه وما يكرهونه ، وكيف يشوقون إلى العمل ؛ كى يستطيع المدرس أن يفهمهم ويفيدهم ، ويرشدهم إلى

الطريق السوىّ ، ويختار الطرق الصالحة لتعليمهم ، فينجح فى عمله نجاحاً كبيراً ، ولا يشعر بخيبة أو حيرة . وكثيراً ما يخطئ المدرس الذى لا يعرف شيئاً عن طبيعة الطفولة فى معاملته للأطفال ، وفى اختياره للمادة ، وفى طريقته فى التعليم ، فيضرهم من حيث لا يدرى ، ويدفع بهم إلى مهواة الضلال من حيث لا يقصد .

وإن دراسة الطفل والطفولة تساعد المربى فى أمور كثيرة، منها :

١ — معرفة الغرض من تربية الأطفال، والمواد التى تلائمهم.

٢ — معرفة أمزجتهم وصفاتهم الشخصية ، وحاجاتهم الجسمية ، من عناية ونظافة، وهواء وحركة، وراحة وغذاء ؛ فالأطفال من لحم ودم ، يحسون ويشعرون، لهم أجسام تجب العناية بها ، وعقولٌ يفهمون بها وتجب تربيتها ، وقلوبٌ يحبون أو يكرهون بها ، يحبُّون من أحبهم ، ويكرهون من يكرههم . يثقون بمن يثق بهم ، ويرتابون فيمن يرتاب فيهم .

٣ — دراسة الأطفال أكبر وسيلة لتجنب الهفوات معهم . وقد ذكر أحد المربين : أن مدرساً ضرب تلميذاً لأنه ظن أن التلميذ عبس فى وجهه حينما وبخه . وقد عرف بقية الفصل أن هذه عادة لهذا التلميذ ، تظهر على وجهه حينما يضطرب عقله . ولو عرف المدرس ذلك ما عاقبه بالضرب من غير مبرر ؛ فكثيراً ما يقوم الأطفال بأمور لا يقصدونها ولا يشعرون بنقصها .

ومن الممكن أن ندرس الطفل والطفولة بعمل مذكرات يدون فيها ما يحدث من كل طفل ، واختبار عدد كبير من الأطفال، وجمع ملاحظات مختلفة عن الطفولة، من غير نظر للزمن أو الفرد ، وبتذكر عهد الطفولة ، وملاحظة الطفل كل يوم فى الحياتين المدرسية والمنزلية ، وبالأسئلة والأجوبة، ودراسة رسائل الأطفال وصحفهم وكتبهم . كل هذه الدراسة تمكّن المربى من معرفة شخصية كل طفل ، فيعامله بما

يناسب حاله الخاصة . وتكشفُ الدراسةُ العاهات الجسمية والعصبية والعقلية، وتمنعه القسوة أو العقاب ،وتظهرُ له مقدار حب الأطفال له وثقتهم به . وإذا لم ندرس الطفل وطبائعه ، والطفولة وأهميتها ، والفروق الفردية بين الأطفال ، فلنثق بأننا سائرون فى الظلام ، وقد نضر الطفل من حيث لا نشعر .

قد تصدر من الطفل أشياء تعد فى نظرنا مخالفة للعادات أو الآداب ، وفى نظره ـ نظر عالم الطفولة الذى يعيش فيه ـ تعد عادية ؛ فقد تسأل الطفل : « هل تحبنى » ؟ فيجيبك على الفور بكل صراحة وشجاعة : « لا . إنى لا أحبك » فهل يؤاخذ على صراحته وإجابته بما يعتقد ؟ إن عالم الطفولة يخالف عالم الرجولة ، ونظر الطفل إلى الحياة يخالف نظر الرجل ؛ فعالم الطفولة هو عالم الصراحة والإخلاص ، والحركة ، واللعب ، والمحاكاة والتكوين والتدمير وحب الاطلاع . والطفل فى ذلك العهد يحتاج إلى كل من يساعده مساعدة كبيرة فى النمو، وإلى من يدرك طباعه، وينزل إلى مستواه، ولا يسيء فهمه . ولا يمكننا أن نفهم الطفل إلا إذا أعطيناه الفرصة لكى يظهر أمامنا بمظهره الطبعى ، وسجاياه التى جبل عليها ؛ كى نستطيع أن نصحح خطأه ، ونقوّم معوجه ، ونصلح عيوبه وقت ظهورها . وقبل أن نحكم على الطفل يجب أن نحلل عمله وغرضه منه ، ونعرف الباعث الذى دعاه إلى الخطأ ـ فى نظرنا ـ ولو أن ذلك الفعل الذى أخطأ فيه يعد فى نظره صواباً . يجب أن ننزع من أنفسنا حب السيطرة عليه ، ونمنحه الحرية التى بها تظهر لنا نفسيته وطبيعته الحقيقية . وكيف تظهر تلك الطبيعة فى ثوبها الأول إذا أمرنا الطفل أن يشعر بما نشعر ، ويفكر فيما نفكر ، ويستحسن ما نستحسن ، ويجيب بما نريد أو بما نمليه عليه ، ويطيع طاعة عمياء ؟ لقد جنت هذه الطريقة على الطفل فى تربيته منذ عدة قرون ، فأثرت فى تربيته وفى الحياة الإنسانية تأثيراً سيئاً .

لذلك يجب ألا نسيطر على تفكير الطفل ، بل نشجعه على التفكير فيما يقول وما يفعل ، ونترك له حرية التفكير؛ فلا نقول له : « هـذا الأمر حسن فى نظرى، فيجب أن يحسن فى نظرك . وبعبارة أخرى يجب أن تفعله . أو إنى أصدق هذا الخبر، فيجب أن تصدقه ثم تعتقد صحته. أو إنى أرى أن هذا المنظر جميل، فيجب أن تعُدَّه جميلا وتستحسنه . أو إنى أحب هـذا الشىء فيجب أن تحبه وترغب فيه . أو إنى أستصوب هـذا الأمر ، فيجب أن تعُده صواباً وتنفذه » ، وما إلى ذلك من الأمور التى نمليها على الأطفال، من غير مراعاة لتفكيرهم أو إرادتهم أو طبيعتهم ، ولا نترك لهم فرصة للتفكير والاختيار والحكم . يجب ألا نملى عليهم أوامر وأحكاماً ونطلب منهم الطاعة والتنفيذ من غير ما تفكير ، أو من غير أن نبين لهم الأسباب .

من السهل أن نأمر الطفل مرة وننهاه أخرى ، ولكن هل من السهل أن ينفذ الطفل كل ما يؤمر به أو ينهى عنه ؟ قد تُجبر الطفل وتُكرهه على أن ينفذ ما تقول ، ولكن هل معنى هذا أن يشعر بصواب ما تقول ؟ إذا أردت أن تفيد الطفل بما ترشده إليه فيجب أن تتفاهم معه ، وتبين له السبب حتى يقتنع . وهنا يكون التنفيذ مبنياً على التسليم برأيك وإرشادك . وثق بأن الطفل مستعد لأن يفهم إذا وجد من يفهّمه. وقد حدث أن طفلاً كان يحب إبقاء النور فى حجرته بعد أن يذهب إلى فراشه ، ويسمع بعض الحكايات التى اعتاد سماعها كل ليلة من أمه وأبيه قبل أن ينام . وذات ليلة صمم فى عدم إطفاء النور ، فأرادت والدته أن تعوّده النوم فى الظلام ؛ كى ينام نوماً عميقاً دون أن يدركه الخوف، فأخذ يبكى ، فذهبت إليه وقالت له : إن من الممكن أن يبقى النور كما تريد ، ولكن إذا ترك دفع أبوك نقوداً كثيرة لشركة الكهربا . ولن يستطيع حينئذ أن يشترى لك كل ما تحب من لعب جديدة ، وسيارة جميلة ؛ فسكت فى الحال ، وطلب من والدته إطفاء النور . ولم يحدث أن طلب إبقاءه فى حجرة نومه بعد ذلك .

تربية الطفل :

ليست تربية الطفل بالأمر الهين ؛ فإنها تحتاج إلى كثير من التفكير والصبر ، والحزم والخبرة والأناة . ومن الحقائق الثابتة أنه كما يكون الطفل يكون الرجل ؛ فإذا عنينا بتربية أطفال اليوم تربية حقة ضمنّا فى الغد رجالاً يمثلون المثل الأعلى للرجولة .

كثيراً ما يخطئ المربون والمربيات فى معاملة الأطفال وتربيتهم . وكثيراً ما يكون هذا الخطأ ناشئاً عن الجهل بالطفل والطفولة ؛ يصورون حركاته وسكناته ، وأقواله وأفعاله بالصورة التى ينظرون بها إلى غيره من الكبار . وهذا خطأ شائع فى التربية والتعليم ، فى البيت والمدرسة، بين الآباء والأمهات ، والمعلمين والمعلمات . ولتدارك هذا الخطأ يجب أن يكون الطفل موضع الاهتمام فى التربية ؛ بأن ندرس الأطفال دراسة وافية ، ونعرف كل ما يتعلق بهم ؛ لكى نستطيع أن نعامل كلاً منهم المعاملة اللائقة به . ونختار له المادة التى تلائمه ، ونخاطبه على قدر عقله .

الطفل موضع الاهتمام فى التربية :

إن التربية الحديثة تضع الطفل فى المكان الأول من الأهمية فى التربية ، وهى مؤسسة على العلم بالطفل والطفولة . وقد كان (چان چاك روسو[1]) أول من نادى بأن التربية يجب أن تؤسس على دراسة الطفل ومعرفة طباعه وميوله . ولذا سمى كتابه « إميل » : « إنجيل الحرية فى تعليم الطفل » .

(١) "Jean-Jacques Rousseau": ولد سنة ١٧١٢ ، وتوفى سنة ١٧٧٨م . وهو من أئمة التربية ، وأبطال الحرية . ولولاه ما قامت الثورة الفرنسية . ولئن كان (فولتير) يجهر بما يفكر فيه الناس ، لقد كان (روسو) يجهر بما يشعر به الناس .

وليس الطفل كله رديئاً فى نظر روسو ، ولـكن البيئة والمثـل القبيح والقدوة السيئة هى التى جعلته رديئاً . إنه يعاقب قبـل أن يكون قادراً على إدراك غلطاته وهفواته . وإن الهدايا الأولى التى تهدى إليـه هى السلاسل ، أما رغباته فتقابل بالرفض والتدخل فى كل الأحوال . إننا نفسده ونسىء تربيته ثم نشكو حينما نجده فاسداً سيئ التربية . إن الطفل يتأثر بالمثل الذى يراه ، وبالبيئة التى يعيش فيهـا ، وباللغة التى يسمعها ؛ أى يتأثر بالقدوة والمحاكاة كل التأثر .

إننا نعارض الطبيعة فى كل خطوة ، ثم نعجب ونتألم حينما نجد النتيجة سيئة . تتطلب الطبيعة أن يكون الأطفال أطفالاً قبل أن يكونوا رجالاً ؛ فللطفولة طريقتها الخاصة فى الرؤية والحـكم على الأشياء ، والتفـكير والشعور . ومن الحمق أن نعاملهم كالرجال ، ونحـكم عليهم بما نحكم به على الـكبار ، ونلْبسَهم ملابسهم ، وننتظرَ منهم ما ننتظره من الرجال ، أو نظنّ أنهم يجب أن يرغبوا فيما يرغب فيه الـكبار ، ويروا ما يرونه ، ويشعروا بمـا يشعرون به . إننا نريد أن يتمتع الأطفال بالطفولة أولاً ، ونعاملَهم ونربيهم كأطفال تربية تجعلهم رجالاً فى المستقبل .

وقد ورد فى الإنجيل(١) : « حينما كنت طفلاً كنت أتـكلم كطفل ، وكنت أفهم كطفل، وكنت أفـكر كطفل ، ولكن لما صرت رجلاً أبطلت أمور الطفولة » .

وهذا خير مثل وخير مبدأ للتربية الحديثة اليوم ، فلا تنتظر من الطفل أن يتكلم كرجل ، أو يفهم كرجل ، أو يفـكر كرجل ، كما لا تنتظر من الرجل أن يكون طفلاً فى كلامـه وفهمه وتفـكيره . فيجب أن نفـكر فى اللغة التى يفهمها الطفل ، والمادة التى يهضمها .

---

(١) فى الإصحاح الثالث عشر من رسالة (پولس) الأولى إلى أهل كورينثوس.

نقص التربية القديمة فى دراسة الطفولة :

لم تعن التربية القديمة بدراسة الطفل والطفولة ؛ فقد وصف (فِنلُون[١]) المدارس فى عصره فقال : « ليس فيها حرية ولا سرور ، بل دروسٌ مستمرة ، وصمت طويل ، وجلوس متعب ، ثم تهديد ووعيد » . وقد شكا أحد المعلمين تلك التربية فقال : « إننا لا ننقطع ليل نهار عن معاقبة الأطفال الذين فى مدارسنا وتحت رعايتنا . وإنهم يزدادون فى كل يوم سوءاً على سوء ، وشرًّا على شر » . ويقول (مونتين[٢]) الأديب الفرنسى فى كتابته عن مدرسة للبنين : « هى سجن من السجون ، أقبِلوا وادخلوا حينما يكون التلاميذ فى دروسهم ، ولن تسمعوا إلا صياح أولاد يُجلدون ، وضوضاء معلمين يرتعدون وهم سكارى من الغيظ . وطريقتهم فى تشويق تلك الأرواح الصغيرة الخائفة المسكينة إلى كتبهم هى الوجهُ العابس والعصا » .

فلا غرابة إذا قلنا إن تلك المدرسة كانت مثلاً للرذيلة ، وكان التلاميذ يبغضون المدارس والمدرسين ، ويهملون ماعرفوه بعد ترك المدرسة .

لا تنمو قوى الطفل إلا بالاستعمال والمرانة :

إن قوى الطفل لا تنمو إلا بالاستعمال والمرَانة ؛ أى بالتعود والاستمرار من الطفولة . هذه قاعدة لا يدخلها استثناء ؛ فإننا نتعلم المشى بالمرَانة على المشى ، والتكلم

(١) هو « فرانسيس دى سالجنا دى لاموت فنلون » "Fenelon" عالم وأديب فرنسى كبير ، له مؤلفات كثيرة فى الدين والفلسفة والتاريخ والأدب ، عرف بالفصاحة ، واشتهر بالخطابة ، وهو من أسرة فرنسية مشهورة . ولد فى ٦ من أغسطس سنة ١٦٥١ ، وتوفى فى ٧ من يناير سنة ١٧١٥ م .

(٢) "Montaigne" : كان (مونتين) ثريا فرنسيا ، وكاتباً كبيراً ، شجاعاً فى نقده ، وله رسائل قيمة فى التربية والتعليم . ولد سنة ١٥٣٣م . وتوفى فى ١٣ من سبتمبر سنة ١٥٩٢م .

بالتكلم والمحاكاة ، كما نتعلم ركوب الخيل بالركوب ، والسباحة بالتمرين ، ونتعود التفكير فى الأمور إذا عُودنا التفكير . وإذا أُهملت قوى الطفل فى الطفولة ، وأُهمل استعمالها ضعفت . فأعضاء الهضم تضعف إذا اعتدنا أن نتناول الطعام مهضوماً نصف هضم . ومهما كان عمل الإنسان أو مهنته فإن القوى الإنسانية تظهر وتنمو بالمحاولة والتجربة ، والتمرين والمثابرة . ولا ينمو التفكير والحواس والشعور الأدبى والشعور بالجمال إلا بالاستعمال والمرانة . فعلى المربين أن يعنوا بالطفولة ، واستعمال القوى الإنسانية . وتعويد الأطفال الاعتماد على أنفسهم ، والانتفاع بمواهبهم ، وألا يكثروا التعدى على حريتهم الشخصية ؛ حتى تنمو قواهم العقلية والخلقية والأدبية والروحية والفنية بالتمرين والاستمرار . يجب أن نعنى بالطفولة ، ونعطى الطفل الفرصة ليفكر بنفسه ، ويلاحظ بنفسه ، ويرى ويشعر ، ويستحسن ويختار ويعتقد ويحكم بنفسه ؛ كى لا يصبح آلة فى أيدينا ؛ فيشعر بما نشعر ، ويحكم بما نحكم ؛ وكى لا نعطل تلك المواهب التى خصه الله بها . وإننا لو صدقنا ما أُخبرنا بتصديقه ، لأننا أُخبرنا بتصديقه ، فإننا لا نعد حقاً من المصدقين . ولو استحسنا ما أمرنا باستحسانه ، فإننا لا نعد من المستحسنين . فعلى الإنسان أن يستعمل قواه وحواسه إن كان يَعد نفسه من الأرواح الحية ؛ لينتفع بعقله فى التفكير ، وبحواسه فى مختلف الأمور المحسة ، وبإرادته فى قوة التنفيذ .

قد نتقابل أحياناً مع أب أومدرس يفخر بأنه قد أخضع إرادة ابنه أو تلميذه ، وقد يفخر بأنه كسر قلبه أو نفسه ، وهو لا يدرى أنه بقسوته قد أضر بالطفل وحواسه وأعصابه من حيث لا يشعر . والطفل قابل للتربية والتهذيب إذا وجد التربية الحقة فى الطفولة ، والمربى الماهر ، والمربية الحكيمة فى المنزل والمدرسة . وهو محتاج إلى من يتعهد إرادته وقلبه ، ويحفظ روحه وعقله بالحكمة لا بالشدة ، وإلى من يعطيه الحرية فى أن يفكر ويتنفس ، وينمو ويعيش ، ويحيا حياة هانئة .

الخطأ في فهم الطفولة والعناية بالأطفال :

ذكرت إحدى الطبيبات الإنكليزيات أن مربية ابنها كانت في عطلة ، فاضطرت إلى أن تأتيه بمربية ثانية حتى تعود الأولى . وكان من عادة تلك المربيـة الجديدة أن تعطي الطفل مُسْهِلاً كل أسبوع ، فبعد أن انقضى الأسبوع الأول أحضرت ملعقة كبيرة من زيت الخروع ، وأرادت أن يتناولها ، فأبى ، ففتحت فمه قسراً وصبّت فيه الزيت رغم أنفه ، ولم تـكن حاله الصحية إذ ذاك تستوجب أخذ المسهل . ألا ترى أن في هذا شيئاً من الاستبداد والقسوة ؟ وهل من الحـكمة أن نعامل الطفل هـذه المعاملة القاسية في وقت لا تحتاج فيه صحته إلى شيء ؟ وهل من الحزم أن نسوي بين الصحيح والمعتل ؟ أليس من الظلم أن نقسو على هذا المخلوق العاجز الذي لا ناصر له ولا معين ، ولا يستطيع أن يدافع عن نفسه إلا بالبـكاء ؟ لو كان مريضاً أو كانت حاله الصحية العـامة تستدعي الوقاية من بعض الأمراض لشجعنا تلك المربية في إجبارها إياه ، ولـكن استعمال عادة من العادات استعمالاً أعمى ـ يدل على الجهل بالطفولة وطريقة العناية بها ، ولا يعد من الحـكمة . فالعاقل من يعامل الطفل بحسب ما تقتضيه حاله . وهذا قليل من كثير من المعاملة القاسية التي يعامل بها الطفل في البيت والمدرسة .

وقد ذكرت « الدكتورة منتسوري[1] » الطبيبة والمربية الإيطالية الـكبيرة أنها شاهدت ذات مرة في حديقة عامة بروما طفلاً جميلاً ضاحكاً عمره نحو سنة ونصف سنة ، يحاول أن يملأ دلوه الصغيرة بالحصى ، وكانت بجانبه مربية حسنة الرداء ، يلوح عليها أنها تحب ذلك الطفل ، وتعنى به كل العناية . فلما حان موعد الذهاب إلى المنزل

(١) ارجع إلى ما كتبناه عنها وعن طريقتها في كتاب : « الاتجـاهات الحديثة في التربية » للمؤلف بمكتبة عيسى البابي الحلبي بمصر .

سألته مراراً أن يترك عمله ؛ كي تضعه في عجلته الصغيرة . فلم يتأثر ذلك الطفل الصغير بأوامرها ، فملأت الدلو بالحصى ووضعتها في العجلة، معتقدة كل الاعتقاد أنها قامت بما أراد ؛ فأخذ ذلك الطفل يبكي ويصيح ، وظهرت على وجهه الصغير علامات الاحتجاج ضد العنف والشدة والظلم .

لقد غاب عن تلك المربية أن تألُّم الطفل لم يكن من ملء الدّلو له أو من وضع الدلو في عجلته ، بل كان من سوء معرفتها لغرضه . فإن الطفل لم يرد أن تقوم مربيته بملء الدلو ، بل أراد أن يقوم هو بملئها ؛ ليقنع نفسه بذلك وينفذ إرادته ، ويمرن عضلاته على الحركة ، ويعود عينيه تقدير المسافات ، ويشغل ذكاءه بالتفكير فيما لديه من الأعمال . هذا هو غرضه الذي لا يشعر به ولا يدركه ، ولا يمكنه التعبير عنه. وقد أساءت المربية فهمه، فظنت أن الطفل يريد أن يمتلك بعض الحصى؛ فملأت الدلو له ، وجعلته يبكي . ولو تُرِك يملأ الدلو بنفسه لأفرغها ثانية . فلم يكن غرضه ملء الدلو بالحجارة ، بل إقناع نفسه وإرادته ، وطبيعته المحبة للحركة ، فوقفت المربية عائقاً بينه وبين الطبيعة .

تلك المأساة الصغيرة التي تحملها هذه الحكاية ما هي إلا رمز للمأساة الكبيرة في التربية ؛ تلك المأساة التي يمثلها القائمون بأمر الطفل المسكين في البيت والمدرسة ، فيخطئون في فهمه ، ويضحون به في سبيل جهلهم بالطفولة وميول الطفل . وخليق بهم أن يشفقوا عليه ، ويتفاهموا معه ، ويشاركوه في شعوره ، ويدركوا أنه يحب الحركة والعمل ، والنشاط واللعب ؛ لينمو بدنه وعقله .

هذا وإن الجهل بالطفولة وعواطف الطفل وغرائزه ورغباته ونظراته كثيراً ما يؤدي إلى شقائه ؛ لسوء فهم أغراضه . فيجب على المربين أن يدرسوا الطفل ويعرفوه معرفة حقة ؛ كي لا تموت نفسه ، وتضعف إرادته ، وتُقتل آماله ؛ فإن في ذلك القضاء على شخصيته .

شعور الطفل نحو من يشعر بحبه :

ذات يوم كان أحد الآباء يلعب بالكرة مع ابنه الصغير فى حديقة عامة . وكان يعلم أن أباه يحب القراءة ، ففاجأه بقوله : « لقد أتعبتك معى يا أبى ، فهل تسمح لى باللعب مع الأطفال ؛ لأنى لا أود أن أتعبك أكثر من ذلك ؟ » وهو طبعاً لم يرد بذلك التخلص من أبيه ، بل قال هذه الكلمة وكله أسف على إتعاب والده ، ورغبة فى اللعب مع الأطفال .

وفى يوم آخر أتى ذلك الطفل نفسه من المدرسة وقد ضربه أحد الأطفال على عينه ، فورمت ، فلما أتت به الخادم أسرعت إلى أمه ، وهولت لها فيما أصاب ابنها ، فظنت أمه ـ وما كانت رأت الابن ـ أن عينه قد أصابها ضرر ، ففزعت واضطربت وأغمى عليها ، فوقعت على الأرض ثم مرضت ، فكان ابنها يلوم الخادم دائماً بقوله : « لو أمسكت عن الكلام ما حدث شىء من هذا » . وكان يسأل الخادم كل يوم عندما تذهب لإحضاره من روضة الأطفال : « كيف أمى الآن » ؟ وكان حينما يصل إلى المنزل يذهب إلى والدته فى الحال فيقبلها ، ويقول لها : « كيف أنت اليوم يا أماه ؟ أرجو أن تكونى بخير » .

هذه الأمور تدل دلالة واضحة على أن الطفل يُملك بحسن المعاملة ، ويشعر بالواجب، وقابل لأن يفهم كل شىء ، ولكنه فى حاجة إلى من يفهمه ، ومن يفهِّمه، فى حاجة إلى الحزم والصبر والحكمة والمؤاساة والإخلاص فى معاملته .

أسئلة الطفل :

أسئلة الطفل كثيرة ؛ فيجب أن نجيب عنها بكل أمانة وإخلاص ؛ فإذا سألك عن الدِّين أو الحرب أو القتل ، أو كيف وُلد فأجبه عن كل سؤال من أسئلته ، ولا

تقل له ما يقال عادة : «إنك لا تستطيع الآن أن تفهم ذلك». بل أخبره بأكثر مما يستطيع أن يفهمه . وما لم يفهمه اليوم سيبحث عنه حتى يفهمه مسوقاً بغريزة حب الاطلاع . ومن الممكن أن نستخدم هذه الغريزة فى بحوث جغرافية أو تاريخية أو طبعية أو فنية .

النشاط الذاتى للطفل :

إن الطفل مستعد لأن يعمل ويفكر فيما تصل إليه يده ، ولكنه فى حاجة إلى التشجيع ، وإلى من يعاونه بحكمة فى البيت والمدرسة. ويرى المربون اليوم فى أوروبة الحديثة ـ كما رأى اليونان قديماً ـ أن نأخذ الطفل من يده ، وندخله المدرسة قسراً ؛ ليتعلم حتى سن البلوغ ، ويجمع الشهد كالنحلة ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

وقد أصاب علماء النفس فى تحذيرنا الأخطار التى تنشأ عن تعطيل النشاط الذاتى للطفل ، وقتل الحيوية التى تبدو فيه ، ووضع اليد المميتة على هذه الروح الصغيرة الناشئة . ومن الخطأ أن نترك الطفل وحده فى وقت لا يجيد فيه الاختيار ،ولا يعرف الصواب من الخطأ ، ولا النافع من الضار ؛ فقد يشرب السُّم كما يشرب الماء حينما يشعر بالظمأ ؛ لأنه لا يميز السّم من الماء ، ويحاكى ما يراه وما يسمعه من تلقاء نفسه، ولديه الميل إلى التعلم ، وفمه مفتوح رغبة فى التعلم ، يسأل عن هذا وذاك : لماذا حدث ؟ وكيف حدث ؟ ومن أين أتيت بكذا ؟ وما ثمنه ؟ وما إليها من الأسئلة التى تتطلب إجابة رغبة فى المعرفة والتعلم . ولا ينكر أحد أن التلميذ يريد أن يتعلم إذا وجد المادة التى فى مستوى سنه وعقله ، وألفى المدرس الذى يميل إليه ويسيرُ معه خطوة خطوة ؛ حتى يدرك ما يدرك ، ولكننا نجد التلميذ الذى يتلمس المعرفة يسير فى الظلام على غير هدى ؛ فالمادة لا تناسبه؛ لأنه يطالب فيها بالمحال . والمدرس لا يقرأ كثيراً فى التربية، ولا يعمل بآراء المربين بعد خروجه من معهده ؛ فلا عجب

إذا نسى أحسن الطرق التى يحسن استخدامها فى التعلم والتعليم . فيجب أن نعمل على أن يترك الطفل المدرسة وهو يحمل لهـا أجمل الذكرى ، وللمدرسين كل تقدير وتبجيل ؛ كى لا يشعر أن المدرسة أضاعت نشاطه ، أو أن المدرسين أضاعوه أو كلفوه ما ليس فى طاقته .

الضغط على الطفل :

يستحيل على الإنسان صغيراً كان أو كبيراً أن يفعل كل ما تصبو إليه نفسه ؛ لأن القواعد الاجتماعية نفسها تحول بينه وبين العمـل الذى يريده أحياناً ؛ فالقواعد الصحية مثلاً قد تمنعك أن تتناول طعاماً تـكون راغباً فى تناوله .

والطفل مُبتلى فى كل مكان بمن يأمره وينهاه ، وقد يؤمر بفعل أشياء لا يحبها ، ويُنهى عن أشياء هو شديد الميل إلى فعلها. فإرادته مكبوتة ، ورغباته وميوله لا يجد إليها سبيلا ، والسلطة حوله من جميع الجهات ، يشعر بضغطها فى المنزل ، كما يشعر بشدتهـا فى المدرسة ؛ فقد يريد أمراً من الأمور، فيعارضه أبوه أو أخوه أو أمه أو أخته فى المنزل ، أو ينهاه عنه مدرِّسه أو إخوانه فى المدرسة ، فهو لا يجد من يراقبه فحسب ، ولـكنه يجد من يقسو عليه ويكبحه دائماً ممن يتصلون به . وهو من أجل ذلك كله مضطر إلى أن يتشكل بحيث يسير على حسب رغبات الجماعة التى تحيط به ، ويساير عاداتها وآراءها ، فهو لا يفعل ما يحب ، بل يفعل ما يحبـه غيره طوعا أو كَرهاً .

وكثيراً ما يقاسى الطفل من أنواع السلطة المحيطة به عَنَتاً . وكثيراً ما يشعر بالضيق؛ فيعارض تلك الأوامر والنواهى محتجًّا عليها بالبـكاء ، متألماً من شدة الضغط عليه . ولا غرابة ؛ فالطفل حساس بطبيعته ، سريع التأثر ، ومن ثَمَّ وجب أن نعامله بلين وعطف ، ونجتهد فى تفهيمه السبب في فعل هذا أو تجنب ذاك ، ولا نـكتفى

بالأوامر والنواهي مجردة عن أسبابها . فالطفل عنيد قد يفعل الشيء حيث تنهاه عنه ، وينتهي حيث تأمره ؛ لا يريد بذلك إلا أن يعرف ما ذا تكون نتيجة مخالفته وعصيانه .

اللعب والنمو للأطفال

إن الحيوان يستفيد وينمو باللعب ، وهو الوسيلة الطبيعية الوحدة للتعلم والرقى . وإن اللعب المملوء بالحركة والنشاط دليل على صحة العقل وسلامته فى الطفل . أما الخمول فناشئ عن نقص فى الطبيعة ، أو مرض فى العقل . واللعب للأطفال كالعمل للرجال . والطفل الصحيح الجسم لا يستطيع أن يجلس ساكناً خمس دقائق ؛ فتراه ينقب فى كل شيء تقع عليه عينه ، ويقلبه ويضعه فى فمه ، وقد يفكه ويحله؛ ليبحث عما فى داخله . يذهب إلى كتب أبيه ويأخذها من المكتبة ، ويرميها هنا وهناك ، ثم يأتى بلعبته ويلقيها فى النار ؛ ليرى إن كانت تحترق أم لا . وهكذا يستمر فى بحثه كالعالم الظمآن للوصول إلى حقيقة جديدة ، أو ابتكار حديث .

ويقوم الطفل فى أثناء اللعب بأشياء تؤدى إلى المهارة وزيادة الفهم ؛ فحينما يكون عمره سنة يردد الأصوات أولاً ، ثم لا تلبث هذه الأصوات أن تصير كلمات يستعملها فى حديثه وكلامه . وحينما يكبَر يجد سروراً فى رمى الكرة والتسلق ، والقفز والعدو والحركة ، وبذلك تزيد معلوماته ، وتنمو قوة رجليه وذراعيه وأصابعه . وقد يوسخ يديه ويمزق ملابسه فى أثناء لعبه وحفره فى الأرض .

كل هذه الأشياء يجب ألا نأسف أو نتألم لحدوثها ؛ فإنها من ملازمات الطفولة ، وهى جمال الطفل ، وجمال الوراثة الإنسانية ، والطريق الوحيد لكسب المعرفة وكسب المهارة .

ترى الطفل يتشبه بأبيه وأمه ، ويركب على كتف أخيه الأكبر ، ويكتب على الحيطان والأبواب . وترانا نلومه على كل هذا . ولو أنصفنا لوجب أن نلوم أنفسنا ؛ فإنه لو وجد حصانا يركبه، أو سبورة يكتب عليها، ما لجأ إلى الركوب على الكتف أو إتلاف الحائط والباب بالكتابة عليهما . وإذا كنا نحن المربين والمربيات لا نكون مسرورين إلا إذا جلس أطفالنا وتلاميذنا هادئين ساكنين ، لا يتحركون ولا يتكلمون ، وملابسهم وأيديهم نظيفة طول النهار ، فإننا نحن الذين نحتاج إلى أن نغير أنفسنا لا الأطفال ؛ لأننا نطالبهم بالمحال ، وننتظر منهم أن يكونوا ضد الطبيعة البشرية ؛ وهذا فوق مقدورهم . فيجب أن ننتفع بهذه القوى الدافعة للنمو فى تعليم الطفل ، وألا نضحى بسعادة الأطفال فى سبيل راحتنا المزعومة ، وأن يكون سرورهم ـ مهما كان فيه من تعب يلحقنا ـ راحة وسعادة لنا .

كثيراً ما يلجأ الآباء إلى معاقبة الأطفال حينما يلعبون ، وجدير بهم أن يشجعوا نزعة اللعب فى الأطفال ؛ فإنها من أحسن الوسائل للتربية بجميع أقسامها . والآن قد كثرت اللُّعَب التعليمية التى تناسب الأطفال ؛ فمنها ما يتعلم منه الطفل البناء ، ومنها ما يتعلم منه تركيب السيارة أو الطائرة الصغيرة ، ومنها ما يعلم الموسيقا والرسم والتصوير والطلاء والنجارة . . .

وقد نصح (روسو) ـ كما نصح كثير من علماء النفس والمربين ـ باستعمال العين واليد فى التربية والتعليم ، وبالتعلم فى أثناء اللعب . ولا ينكر أحد أثر اللعب والأعمال اليدوية فى تربية العقل وقوة التفكير ، والإبداع والاختراع . فيجب أن نمد أبناءنا وبناتنا بكل ما يمكن من اللُّعَب التكوينية ؛ حتى نعطيهم الفرصة فى استخدام حواسهم وأيديهم لتربية عقولهم .

أثر العناية بالطفولة من الناحيتين : الفردية والاجتماعية

الطفولة أهم أدوار الحياة ، ولها أثر كبير فى تربية الطفل من الناحيتين : الفردية والاجتماعية ؛ فكما يكون الطفل يكون الرجل . فإذا عنينا بالطفل كل العناية فى البيت والمدرسة كان أكثر نظافة ، وأحسن سلوكا ، وأذكى عقلا ، وأسعد حياة ، وأقوى جسما ، وأجود صحة ، وكانت نسبة الوفاة أقل ، وسار الطفل فى الحياة بقدر ماتسمح به مواهبه ومقدرته وكفايته . وإذا أهملت الطفولة كان لذلك الإهمال أثر سيئ فى مستقبل الفرد وحال المجتمع .

وفى انجلترة يجد كل فرد ما يناسبه من أنواع التعليم ، ولا يحرم أحد التعليم ؛ فهو حق من حقوق كل إنسان ؛ فكما أن من حقوق الإنسان الحياة ؛ فلا يجوز أن يتعدى على حياته أحد ، والملكية ؛ فلا يصح أن يتعرض لملكيته أحد ، والحرية ؛ فلا يجوز أن يستعبده أحد — كذلك من حقوقه التعليم . فالتعليم للإنسان من ضروريات الحياة ؛ كالماء ، والغذاء ، والهواء . وإن الحرب الكبرى الماضية قد نبهت الأمم فى أمريكا وأوروبة إلى شعور جديد نحو التعليم ، فأخذت كل أمة تفكر فى الوسائل التى بها تمد مدة التعليم ؛ لرفع مستوى الجيل الجديد فى التربية والتهذيب ؛ ثقة بأن التعليم هو الوسيلة الوحدة للرقى . وقد أصبح الكل يشعر بفائدة التعليم وأثره فى رقى الفرد والمجتمع . قال (شيشرون[1]) الخطيب والفيلسوف الرومى : « يجب أن تبتدئ التربية من أول أدوار الطفولة . »

(١) "Cicero" : ولد سنة ١٠٦ ق.م. وتوفى سنة ٤٣ ق. م. كان فيلسوفا كبيرا ، وخطيبا مفوها ، وله آراء ثمينة فى العقوبة البدنية ، وفى تربية الطفل .

وإن نظرة واحدة إلى عدد المجرمين قبل تعميم التعليم وبعده بانجلترة مثلا تبين بوضوح أثر التعليم فى الشعوب وفى النفوس ، وتدل على صدق كلمة (ڤكتورهوجو): «مَن فتح مدرسة فقد أغلق سجنا» ؛ فالتعليم هو الوسيلة الوحدة لإغلاق السجون، والسبيل الوحيد لرقى الفرد والمجتمع ، وهو سر عظمة الأمم . قال (أفلاطون) : « التعليم أفضل شىء يمتلكه خير الرجال » . وقال « مونتين[١] » : « الجهل مصدر الرذائل ». وقال « فُلَر[٢] » : « التعليم خير منحة يمكن أن تمنح » . فحياة الجهل حياة الموت ، والإنسان فى حاجة إلى العلم ؛ لأن العلم وسيلة الحياة .

حسن المعاملة والمساواة بين الأطفال

أحسن معاملة أطفالك ، وكن عادلا فى معاملتهم ، وساو بينهم فى العطف من غير تفرقة بين كبير وصغير . وقد قال كثير من علماء النفس : «إذا حدث تنازع بين إرادة الطفل وإرادة الأب فالأحسن أن يتجاهل الأب الأمر المختلف فيه أو يتركه» . وهنا نذكر الحكاية الآتية لترى منها شعور الطفل بنفسه ، والحكمة والحزم فى معاملة أمه له .

لأحد علماء النفس طفل عمره ثلاث سنوات ، محبوب وديع الأخلاق . وقد حدث ذات ليلة أن رفض أن يستحم كعادته كل ليلة قبل أن يذهب إلى الفراش فى الساعة السابعة مساء . فظنت أمه أنه متعب ؛ فابتدأت تخلع ملابسه بنفسها ، فظهرت

(١) ارجع إلى كتاب « التربية الإنسكليزية » ص ٢٧—٢٨ ، وكتاب « التربية ضرورية للحياة » للمؤلف .

(٢) "Thomas Fuller" (توماس فلر) : (١٦٠٨—١٦٦١م.) كتب فى الدين والتاريخ ، وعرف بكرم الخلق ، وقوة التذكر .

عليه علامات الحزن ، وأمسك بملابسه بعنف ، ورفض خلع الثياب . وكان ظاهره يدل على استعداده للقتال ؛ دفاعا عن نفسه ، وعن حقوقه . فتنازلت أمه فى الحال عن رأيها ، وأخبرته بالذهاب إلى سريره من غير حمام إذا أراد . فلم يرض بالذهاب وصمم فى أن يلبس ملابسه مرة ثانية ؛ فألبسته ملابسه . وفى الحال بدت على وجهه علامات السرور والنصر ، فسألته والدته : لماذا لا تأخذ حمامك يابنى ؟ فقال : إنى مستعد للاستحمام الآن ياأمى . وذهب واستحم وانتهى الأمر .

حار الوالدان فى أمره ، ولما نام الطفل ، تذكر أبواه أن أخاه الأكبر المعاند قد رفض الاستحمام فى الليلة السابقة ، وذهب إلى فراشه من غير حمام . فالطفل الأصغر قد سئم الخضوع دائما لأخيه الأكبر ، ورأى أن عليه الدور فى أن يظهر شخصيته ، ولكن لأنه لطيف حليم أرادت أمه أولاً أن تستعمل معه الشدة والقوة ، فساءته هذه المعاملة ، وتألم من التفرقة بينه وبين أخيه ، فهو لم يقاتل من أجل الحمام ؛ ولكنه كان يقاتل من أجل حقوقه ؛ طلباً للمساواة فى المعاملة ، واحتجاجاً على التفرقة ، ولم يمتنع أولاً عن الحمام إلا ليرى الطريقة التى يعامل بها .

ربما لا يوافق كثيرون على مراعاة الطفل ومعاملته بهذه الطريقة ، ولكن مما لاريب فيه أن الحرية التى يتمتع بها طفل يجب ألا يحرمها الآخر أيضا ؛ كي تتحقق المساواة والعدالة . ولو لم تخضع الأم لطفلها الصغير لشعر دائما بالظلم فى المعاملة ، وما رضى بالاستحمام ، ولاستمر فى تألمه من الضغط عليه من غير مبرر . وقد ينسى هذا الطفل حادثة الحمام ، ولكنه إذا شعر بالظلم حقيقة فإنه لن ينساه أبداً . والإنسان يذكر دائماً ما حدث له من المظالم فى هذه الحياة .

وإن سوء المعاملة لا تؤلم الأطفال فحسب ، بل الرجال أيضا . وقد تسمع رجلا

يشكو على الدوام أنه يحسن معاملة الناس ، ومع ذلك لا يردون المثل بالمثل ؛ بل يسيئون معاملته ؛ لا لسبب إلا وداعته وسهولته . ومن لا يظلم الناس يظلم . فهو قد يصنع المعروف مع غيره فيقابل بالجحود وعدم الشكر . ولو أصغيت إليه لأخبرك بأنه مظلوم دائما .

إن كثيرين من الأطفال يقاسون الكثير من الظلم فى هذا العالم ؛ فبعد أن يجد الطفل الحنان والعطف من أمه قد تموت تلك الأم ، وتحل محلها زوج أبيه ؛ فيرى القسوة ، ويشعر بالفرق أو الظلم الذى لا ينساه ولو كبر ؛ لأن زوج أبيه تشكوه دائما ، وتوبخه وتزجره ، وقد تضربه أو تجيعه ، فهى لا تحبه ، وهو يتحمل ذلك الجور ، ولا يجد من ينتصر له . وقد ينتقل حب أمه لطفل مولود أصغر منه ، فيشعر الطفل الأكبر بالخذلان . وقد يشعر فى نفسه بالظلم ، ويتألم من الظلم الذى لحقه فى الصغر كلما مرت به صعوبة ، أو لحقه ضرر فى الكبر . وقد كان (روسو) يقول : « إننى أتألم كلما سمعت كلمة ظلم أو مظلوم ؛ لأنى ظلمت مرة فى المدرسة وأنا صغير ، فاتهمت بكسر كوب لم أكسره ، وعوقبت عقابا صارما على ذنب لم أجنه » . وما أكثر المظلومين فى هذه الحياة !

فيجب أن يكون المربى عادلا فى معاملته ، بحيث يكون الكل لديه سواء . وأقصد بالمربى كل من يتولى تربية الطفل من أب وأم ، ومدرس ومدرسة . ويجب ألا يعاقب المربى أحداً على ذنب لم يرتكبه ، ولا يعاقب جماعة فى سبيل فرد ، ولا ينتقم من طفل برىء لا لسبب إلا قرابة الطفل لشخص مكروه لديه . ويجب أن تكون العدالة نُصب عينيه دائما فى كل عمل يعمله ، فلا يأخذ الطفل بذنوب غيره ، فلا ينفك ينشد :

غير جنى وأنا المعاقب فيكمُ * فكأننى سبابة المتندم

تعليلات الأطفال

يميل الأطفال بفطرتهم إلى الانتقال من الخاص إلى العام بطريقة غريبة فى استنباط الأسباب للحوادث التى يشاهدونها أو يسألون عنها . ويظهر ذلك فى سرعة استنباطهم لأية مشابهة ، وفى تعليلاتهم الأولى ، ؛ ظانين أن سبب الأشياء واحد ، وأن الأعمال يمكن أن تنفذ بطريقة واحدة . فقد يظنون أن الحانوت الجميل يحتوى على أشياء جميلة ، وأن الحانوت الردىء يحتوى على أشياء رديئة .

وقد حدث ذات يوم أن قال طفل عمره سنتان وعشرة شهور تقريبا : إنه سيضع ماء مُغلى على قطعة من خبز أراد أن يتخلص منها ؛ ظانا أن الخبز يذوب فى الماء كما يذوب السكر فى اللبن . وهو هنا مخطئ فى فكره وتعليله ؛ لاعتقاده أن الخبز كالسكر . ولما رأى أن السكر يذوب فى اللبن وغيره ظن أن الخبز مثله فى ذلك .

وكثيرا ما يخطئ الطفل فى تعليله ؛ لتسرعه فى الحكم لأقل مشابهة ، ولرغبته فى معرفة السبب ، فيعلل تعليلا لا علاقة له مطلقا بالنتيجة . وقد ناقش طفل صغير عمره سنتان أمه قائلا : « إن اللبن أبيض ؛ لأنه من بقرة بيضاء » صادف أن رآها من قبل . وذات يوم وجد اللبن بارداً فقال : « إنه من بقرة باردة » ؛ معتقدا أن البقرة الباردة تدرّ لبنا باردا . هذه التعليلات وأمثالها تثير الضحك ، ولكنها تدل على إدراك الأطفال للأسباب ، وتدعو مربيهم إلى إصلاح غلطاتهم ، وتفهيمهم الأسباب الحقيقية ، وتربية قوة الملاحظة فيهم .

تربية قوة التعليل لدى الأطفال[1] :

إن تربية قوة التعليل لدى الأطفال تسير يداً بيد وجنباً لجنب مع تربية قوة الحكم . وفى المرحلة الأولى من الطفولة تطالب الأم بإرضاء غريزة حب الاطلاع التى تبدو فى كثرة الأسئلة التى يسألها ابنها ؛ رغبة فى الاطلاع والمعرفة ؛ معرفة كل شىء يحيط به من الأشياء الغريبة أو الجديدة . وكثيراً ما يظن الآباء أن هذه الأسئلة نصف آلية ، ولا غرض للأطفال منها إلا إتعاب آبائهم .

والحق أن الأطفال لا يقصدون إتعاب الآباء بكثرة الأسئلة ، وأنهم حقيقة يسألون رغبة فى المعرفة والفهم ، وإن كانت أسئلتهم تدل على تقلب الخواطر لديهم ؛ فبينما يستفهمون عن شىء فى المنزل إذ ينتقلون فجأة إلى السؤال عن شىء رأوه فى الحديقة ، وهكذا . ولكن ذلك يوجب كثرة العناية بتعويدهم حسن السؤال ، وترتيب الأسئلة ، كما يوجب إقناع هذه الغريزة بأن نشرح للأطفال ما خفى عليهم ، ونجيب عما سألوا عنه ــ كلما سنحت الفرصة ــ بطريقة سهلة يفهمونها . ولله در الفيلسوف والمربى الإنكليزى (جون لوك) حيث يقول : « شجعوا ميل الطفل إلى كثرة الأسئلة بقدر ما تستطيعون ، وأقنعوا رغباته ما دمتم قادرين على ذلك ، ومادام قادرا على فهم ما تقولون » .

وإننا إذا نصحنا للآباء والمعلمين بتشجيع الأطفال على أسئلتهم والإجابة عنها ، فإننا ننصح لهم بالعناية بأن تكون أجوبتهم بطريقة تشجعهم على البحث بأنفسهم عن أسباب الأشياء ؛ وذلك بأن يفتحوا لهم الباب ، ويتركوا لهم القيام بالبقية . وإن كلمة أو كلمات تستخدمها فى إرشاد الأطفال إلى طريق الحل والجواب ستثمر

---

(١) ارجع إلى ما كتبناه عن « التفكير » فى الجزء الثالث من كتابنا « فى علم النفس » .

ثمرة حسنة فى وقت ما إذا عودتهم التفكير بأنفسهم ، والثقة بها فى كل عمل يعملونه ؛ كى لا يعتادوا الكسل العقلى ، والاعتماد التام على غيرهم .

وقد تكون أسئلة الطفل فى بعض الأحوال محرجة ، وقد يكون من الصعب الإجابة عنها ؛ فقد يسأل : لماذا السماء زرقاء ؟ ولماذا نرى ماء البحر أزرق ؟ ولمَ تجرى الأشجار والقطار سائر ؟ وكيف يحدث النور حينما تضغط على الزر الكهربى ؟ ولمَ أرى القمر يبدو أحيانا صغيرا وأحيانا كبيرا ؟ وكيف يولد الإنسان ؟ وما إلى ذلك من الأسئلة التى تحتاج فى الإجابة عنها إلى علم وحكمة فى معاملة الأطفال ومخاطبتهم . وقد حدث أن طفلة عمرها أربع سنين ونصف سنة ، قد ساقت أمها بأسئلتها إلى أصعب المسائل الفلسفية ؛ فقد رأت هذه الطفلة نحلة على زجاج النافذة ، فأرادت أن تمسكها بيدها ، فقالت لها أمها : يجب ألا تمسكيها أو تمسيها ؛ لئلا تلسعك . فاعترضت الطفلة وقالت : ولمَ لا تلسع الزجاج يا أمى ؟ فقالت الأم : لأنه ليس له أعصاب . فسألت الطفلة : وما معنى الأعصاب ؟ ولماذا تحس الأعصاب ؟ فصغار الأطفال يجب أن يعرفوا أن هناك أشياء كثيرة لا يمكنهم الآن أن يفهموها ، وأن يُعودوا أخذ بعض الحقائق أحياناً من غير سؤال أو إلحاح فى معرفة السبب .

تقول (جورج إيليَت[1]) الكاتبة الإنكليزية : « إذا ذكرت لطفلك البرهان على كل شىء جعلته وحشا غريب الخلقة » ؛ وهى بذلك تقصد أن هناك نقطا دقيقة

(١) "George Iliot" : ١٨١٩—١٨٨٠ م. كاتبة إنكليزية ، كتبت كثيرا من الروايات فى القرن التاسع عشر ، وكان للحياة الريفية أثر فى كتابتها ، فكتبت عن الريف فى انجلترة ، كما كتب (دكنز) : "Dickens" عن حياة الفقراء فى شوارع المدن ، وكتب (ثكرى) "Thackeray" عن حياة الأغنياء فى المجتمع الإنكليزى . بدأت الكتابة وعمرها أربعون سنة ، وتميل فى كتابتها إلى الناحية المحزنة .

قد يسأل عنها الطفل ، ويحسن استعمال الحكمة معه فى الإجابة عنها بلغة تناسبه ، مع مراعاة الأدب واللياقة .

الفرق بين تفكير الطفل وتفكير الرجل :

ليس التفكير مقصورا على الكبار من بنى الإنسان ؛ فهو هبة فطرية وهبها الله للنوع الإنسانى . وكما أن الرجل يفكر ، كذلك الطفل يفكر ، والفرق بين تفكير هذا وذاك إنما هو فرق فى الدرجة والطريقة والترتيب ؛ فتفكير الرجل المتعلم يُنتظر أن يكون مرتباً منطقياً . أما تفكير الطفل فسطحى غير مرتب ، ولكنه قد يكون منطقياً . وتبدو عليه علامات التفكير قبل أن يبلغ من العمر ثلاث سنوات ؛ فإذا فقد لُعبته بحث عنها ، وإذا غاب رفيقه فى اللعب أخذ فى السؤال عنه ، وإذا كسر فنجانه ، أو سمع الرعد ، أو رأى الطائرة ابتدأ يفكر ويسأل أسئلة مختلفة ناشئة عن حبه للاطلاع ، ولكنها تدل على التفكير . وقد يصيب الطفل فى تفكيره ، وقد يخطئ ، وكثيرا ما يكون السبب فى خطئه عدم الترتيب وسوء النظام . وقد يجد لذة فى التفكير فى تمرين من التمرينات ، أو قطعة من القطع . والمهم وجود الباعث على التفكير .

ويظهر تفكير الطفل وذكاؤه من أقواله ، وتشبيهاته ، وتعليلاته للأشياء ، وأفعاله ، وحله للمشكلات ، وتخلصه من المصاعب . وإذا أصغيت إلى أحاديث الأطفال التقطت من كلامهم كثيرا من الجواهر ؛ كأن يقول الطفل : لماذا سمى الحمام حمّاماً ؟ ألأن الماء فيه حام ؟ ، لماذا سميت مصفاة ؟ ألأنها تصفى أوراق الشاى ؟

وقد حدث أن طفلا عمره سنتان وثلاثة وعشرون يوما جلس بجانب أمه فى حجرة الأكل ، وهى تستعمل آلة الحياكة ، وأخذ يعوقها ويشغلها عن إدارتها

المرة بعد المرة . فلما حضر أبوه أخذه على ركبته وأسكته ؛ فسئم الطفل هذا التدخل ، ثم طلب من أبيه أن يذهب معه إلى حجرة الجلوس حيث يوضع الحاكى . فوافقه أبوه، ورافقه لاستماع الموسيقا . وما كاد أبوه يفتح الباب ، ويدخل الحجرة حتى جرى الطفل قائلا : « اجلس وحدك ياأبى » ، ثم رجع الطفل وأقفل الباب عليه وعلى أمه . وبهذه الوسيلة تخلص من أبيه .

ومما يحكى أن طفلا إنكليزياً عمره خمس سنوات ترك من غير غطاء الفتحة التى بجانب باب البيت ليرمى منها الفحم إلى المخزن الأرضى ؛ فقال له أبوه : لاتفعل ذلك مرة أخرى ؛ فقد يأتى الخباز أو ساعى البريد فيقع فيها ، فتكسر رجله ، فيذهب إلى القاضى ويقول له : إن رجله كسرت فى منزلى ، وأصبح عاجزاً عن الكسب . ويطلب من القاضى الحكم علىّ بدفع أجرة الطبيب ، وتعويض له كل أسبوع . فأجابه الطفل : لكن كيف يمكنه أن يذهب إلى القاضى لو كانت رجله مكسورة ؟ فالطفل يمكنه الجدل والنقاش ، ولكنه قد يختلف عن الرجل فيهما . وإذا كانت سنه سبع سنين مثلا ، وكان ترتيبه التاسع والعشرين ، وقلت له أرجو أن يكون ترتيبك الأول فى الشهر التالى ، فقد يجيبك : لا ! إن من الصعب أن أكون الأول مرة واحدة ، ولكن من السهل أن أكون العشرين ، ثم العاشر ، ثم الخامس ، وهكذا بالتدريج . فهذا الطفل لا نقول إنه مفكر فحسب ، ولكننا نقول إنه يفكر تفكيراً منطقياً . ولا نقصد بذلك أن الطفل مصيب دائما ؛ فقد يخطئ فى تفكيره كما يخطئ الرجل ، ولكن أفكار الرجل تكون أقرب إلى الصواب ؛ لخبرته واطلاعه وتجاربه فى الحياة.

معاملة الطفل وتربيته عند العرب

نقتبس هنا شيئاً من كلام العرب وفلاسفتهم ؛ كى يمكننا أن نعرف كيف كان العرب يقدرون الأطفال ، وكيف كانوا يعاملونهم ويهذبونهم ، تاركين الحكم للقارئ :

دخل الأحنف بن قيس على معاوية ، ويزيد بين يديه، وهو ينظر إليه إعجاباً به، فقال : يا أبا بحر ، ما تقول فى الوُلْد[(١)] ؟ ففهم ما أراد ، فقال : يا أمير المؤمنين هم عماد ظهورنا ، وثمر قلوبنا ، وقرة أعيننا ، بهم نصول على أعدائنا ، وهم الخلف منا لمن بعدنا ، فكن لهم أرضاً ذليلة ، وسماء ظليلة . إن سألوك فأعطهم ، وإن استعتبوك[(٢)] فأعتبهم . لا تمنعهم رفدك فيملوا قربك ، ويكرهوا حياتك ، ويستبطئوا وفاتك . فقال : لله دَرُّك يا أبا بحر ! هم كما وصفت .

وقال الغزالى فى كتاب الإحياء (ج ٣ ص ٥٢) من (كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق) ، مشيراً فى معاملة الأطفال إلى مراعاة أحوالهم وسنهم ،وأمزجتهم ومقدرتهم : « وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم ، كذلك المربى لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم ، وأمات قلوبهم . وإنما ينبغى أن ينظر فى مرض المريد وفى حاله، وسنه ومزاجه ، وما تحتمله نفسه من الرياضة ، ويبنى على ذلك رياضته » .

وهذا ما ينادى به علماء النفس والتربية اليوم ؛ من مراعاة مستوى الأطفال ومقدرتهم ، وميولهم وأمزجتهم . وفى صفحتى ٦٢ و ٦٣ من الجزء الثالث يقول :

---

(١) الولد : جمع ولد .

(٢) إن استرضوك فأرضهم .

« اعلم أن الطريق فى رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها ، والصبى أمانة عند والديه .... فإن عوِّد الخير وعُلِّمه نشأ عليه .... وإن عوِّد الشر وأهمل إهمال البهائم شقى وهلك .... (وإذا أخطأ) ينبغى أن يعاتب سرًّا . ويقال له .... إياك وأن تعود بعد ذلك لمثل هذا .... ولا تكثر القول عليه بالعتاب فى كل حين ؛ فإنه يُهَوِّن عليه سماع الملامة ، وركوبَ القبائح ، ويُسقط وقع الكلام من قلبه . وليكن الأب حافظاً هيبة الكلام معه ، فلا يوبخه إلا أحياناً .... (وينبغى أن) يعود فى بعض النهار المشى والحركة والرياضة؛ حتى لا يغلب عليه الكسل .... وينبغى أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتاب أن يلعب لعباً جميلا يستريح إليه من تعب المكتب بحيث لا يتعب فى اللعب .... وينبغى أن يعلم طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه ، وكلِّ من هو أكبر منه سنًّا من قريب وأجنبى ». وهذه أهم مبادئ التربية الحديثة التى ننادى بها اليوم، وينادى بها المربون فى أوروبة وأمريكا .

ويرى الغزالى[1] أن الصبى خلق قابلاً للخير والشر جميعاً ، وإنما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين . قال صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه ». وهو الرأى المقبول بين العلماء .

وقال ابن خلدون[2] فى المقدمة ص ٦١٩ : (فصل فى أن الشدة على المتعلمين مضرة بهم) : « وذلك أن إرهاف الحد فى التعليم مضر بالمتعلم ، ولا سيما فى أصاغر الوُلْد ؛ لأنه من سوء الملكة . ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر ، وضيق على النفس فى انبساطها ، وذهب بنشاطها ، ودعا إلى الكسل ، وحمل على الكذب والخبث ، وهو التظاهر بغير ما فى ضميره ؛ خوفاً من انبساط الأيدى بالقهر عليه ، وعلمه المكر والخديعة لذلك ، وصارت له هذه عادة

(١) فى كتاب الإحياء ج ٣ ص ٦٤

(٢) هو كاتب قدير ، ومؤرخ كبير ، ولد سنة ٧٣٢ هـ . وتوفى سنة ٨٠٨ هـ . وقد ذكر فى مقدمته كثيراً من الآراء السديدة فى التربية والتعليم .

وخُلقاً . . . . . فينبغى للمعلم فى متعلمه ، والوالد فى ولده ألا يستبدوا عليهم فى التأديب . . . . »

ومن أحسن مذاهب التعليم ما تقدم به الرشيد لمعلم ولده محمد الأمين فقال :

« يا أحمر ! إن الأمير قد دفع إليك مهجة نفسه ، وثمرة قلبه ، فصيِّر يدك عليه مبسوطة ، وطاعته لك واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين ، أقرئه القرآن وعرفه الأخبار ، وروِّه الأشعار ، وعلِّمه السنن ، وبصّره بمواقع الكلام وبدئه ، وامنعه من الضحك إلا فى أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم إذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه . ولا تمرَّنَّ بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها ، من غير أن تحزنه فتميت ذهنه . ولا تمعن فى مسامحته ؛ فيستحلىَ الفراغ ويألفَه . وقوّمه ما استطعتَ بالقرب والملاينة ، فإن أباها فعليك بالشدة والغلظة[1] » .

وفى هذه الوصية تتمثل الحكمة ، وسداد الرأى ؛ فهى تحتوى على منهج من أحسن المناهج الدراسية للمعاهد الثانوية ؛ فمن قراءة للقرآن الكريم ، إلى دراسة للتاريخ والأخبار . ومن رواية للأدب والأشعار ، إلى تعلم السنن ، ودراسة اللغة وبلاغتها . ومن تربية دينية أدبية علمية إلى تربية خلقية اجتماعية . وفى الجزء الأخير من الوصية خير دستور فى المعاملة الطبيعية ، والعقوبة المدرسية ، حيث يقول : « ولا تمعن فى مسامحته ؛ فيستحلى الفراغ ويألفه . وقوِّمه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباها فعليك بالشدة والغلظة » .

وهذا قليل من كثير مما فى الأدب العربى ، وسنكتفى بما استشهدنا به خوفاً من التطويل . ومن أراد الاستزادة فأمامه الأغانى ، والأمالى ، والكامل ، والعقد الفريد ، وزهر الآداب ، وصبح الأعشى ، والبيان والتبيين ، ومقدمة ابن خلدون ، والإحياء للغزالى .

---

(١) انتهى من مقدمة ابن خلدون ص ٦١٩ (فصل فى أن الشدة على المتعلمين مضرة بهم)

مراحل النمو فى الطفولة والمراهقة

مراحل الطفولة :

عرفنا أن هناك فرقاً بين الطفل والرجل ، ولنذكر هنا مراحل الطفولة معتمدين فى ذلك على ما قاله الأستاذ (كلاَپاريد[1]) فى كتابه « نفسية الطفل » ، وعلى ما ذكره غيره من علماء النفس والتربية فنقول :

	ذكور	إناث
١ — المرحلة الأولى للطفولة :	إلى سبع سنوات	بين ست سنوات وسبع.
٢ — « الثانية للطفولة :	من ٧ إلى ١٢ سنة	من ٧ إلى ١٠ سنوات.
٣ — « الثالثة المراهقة :	من ١٢ إلى ١٥ سنة	من١٠ إلى ١٣ سنة .
٤ — « الرابعة البلوغ :	من ١٥ إلى ١٦ سنة	من١٣ إلى ١٤ سنة .

ولهذه المراحل أهمية كبيرة فى تربية الطفل جسميًّا وعقليًّا وخلقيًّا .

(١) المرحلة الأولى للطفولة :

فى المرحلة الأولى للطفولة ينمو الطفل جسميًّا نموًّا واضحاً ، ويبدو هذا النمو فى السنوات الأولى والثانية والسادسة والسابعة بصفة واضحة . وفى الأشهر الأولى من

---

(١) "E. Claparéde" : هوأستاذ سويسرى من كبار أساتذة التربية وعلم النفس. وقد دعته وزارة المعارف المصرية سنة ١٩٢٩ مع (مستر مان) : "F.O. Mann" لبحث شئون التعليم فى مصر ؛ فكتب كل منهما تقريراً يذكر فيه ما يراه من العيوب وطرق الإصلاح.

حياته يقوم ببعض الحركات ، ويمكنه أن يجلس فى الشهر السادس ، ويزحف فى الشهر العاشر ، ويمشى بعد سنة أو أكثر أو أقل على حسب قوة الطفل أو ضعفه . وفى استطاعته أن يرى بعد يومين أو ثلاثة من ولادته . ولا يستطيع قبل الشهر السابع أن يفرق بين أمه ومربيته ، أو بين أبيه وعمه . وهو فى السنة الأولى من حياته عرضة لكثير من الأمراض ؛ كالإسهال ولين العظام وأمراض المعدة . ويتعرض لكثير من أمراض الطفولة بين الخامسة والسابعة ؛ كالحصبة والجدرى والسعال الديكى والدفتيريا .

وإدراكاته الحسية فى السنوات الثلاث الأولى من حياته كلها سطحية ؛ ففى السنة الأولى مثلاً لا يمكنه أن يميز الحمامة من اليمامة ، أو الديك من الدجاجة . وهو فى هذه المرحلة الأولى لا يمكنه أن يدرك إلا الأمور المحسة ؛ ولذا يجب أن نبنى دروسنا فى رياض الأطفال والمدارس الابتدائية على الأمور التى يمكنه أن يراها ويلمسها ويسمعها ، ويستعمل بقية حواسه فى إدراكه لها ، مستعينين على ذلك بما يمكن من النماذج أو الصور أو غيرها من وسائل الإيضاح . وتفكيره فى هذه المرحلة مفكك ينتقل من فكرة إلى أخرى لا ترابط بينهما ، مما يدل على عدم نضج عقله ، وعلى قلة تجاربه .

ويبدأ الطفل باللعب من طفولته الأولى المبكرة ؛ فإذا أعطيته شيئاً أمسكه بيده، ثم قذفه فرحاً مسروراً . وفى السنة الثالثة يمكنه أن يحاكى غيره فى حركاته وسكناته وألعابه؛ فيركب حصانه أو عجلته ، ويلعب بلُعبه ، ويأخذ فى البيع والشراء، ويتسلى بكثير من ألعاب الطفولة ، ويتأثر كل التأثر بالبيئة التى تحيط به ، وتتسع معلوماته وتجاربه من سنة إلى أخرى . ولا يتذكر ما مر به من التجارب والحوادث قبل السنة الثالثة من العمر .

قد يبكى الطفل ، فإلى أى حد يجب أن يصغى الآباء والأمهات إلى هذا البكاء ؟

وقد يطلب طعاماً لا يصلح له ، فكيف ينبغى أن يعامل ؟ وقد يريد أن يأخذ لُعَب غيره من الأطفال ، أو يأخذ آلات حادة كمبراة أو سكين ، أو يلعب بأشياء قابلة للكسر كالأكواب والفناجين ، أو يقوم بلعب غير صحى ؛ كأن يمضغ ورق الصحف : فالمربى الحكيم والمربية الحكيمة يعرفان كيف يقفان بحزم ، ويعاملان الطفل فى مثل تلك الأحوال ؛ فلا يسمحان له بعمل كل ما يريد ، ولا يمنعانه عن فعل كل ما يشاء ؛ بل يقفان كالميزان فى موقف العدالة والحزم ، فيسمحان له بالعمل حيث لا ضرر ، ويمنعانه حيث يجب المنع .

وفى هذا الموضع نستطيع أن نقول كلمة واحدة هى : إن الأطفال الذين يستحيل عليهم أن يلوثوا ملابسهم، والذين لا يتشاجرون أبداً مع غيرهم ، والذين لا يكسرون أو يتلفون شيئاً مطلقاً ، والذين لا تصيبهم رضوض أو جروح مؤلمة ، والذين لا يعصُون آباءهم ولا يخدعونهم مطلقاً — كل هؤلاء أطفال غير عاديين . ولسنا ممن يقول بالاستبداد المطلق ، والسيطرة التامة فى معاملة الطفل ، ولكننا نقول بإرشاده بحكمة ، والإيعاز إليه ، وتشويقه، وترغيبه فى الأفعال الحميدة ، والأخلاق الكريمة . ويجب ألا يستعمل الإجبار أو الضغط إلا عند الضرورة، وهو الدواء الأخير .

ومما يلاحظ على الطفل فى ذلك الدور من حياته أنه يبكى للحصول على ما يطلبه، ويغضب ويتألم حينما نتأخر فى تنفيذ رغباته ، ويفرح حينما ينجح فى الوصول إلى ما يرغب فيه . أما التأخر فى إجابته فيعد فى نظره رفضاً لطلبه ؛ لأنه لا يفهم إلا : « أنا أريد ، ولم أجد ما أريد » . ويظن أن أمه ليست منبعاً لراحته وسعادته فحسب ، بل هى أيضا السبب فى رفض مطالبه ، وفى خوفه أحياناً . ولا تفهم الأم الجاهلة من بكاء الطفل إلا أنه جائع، وفى حاجة إلى الطعام ، وربما لا يكون جائعاً ، ولا يكون فى حاجة إلى طعام ، ولكنه فى حاجة إلى تغيير ملابسه . وغريب أن الطفل لدينا

لا يزال يلبس ملابس ضيقة ، ويربط ربطاً شديداً ؛ حتى لا يكاد يستطيع أن يحرك رجله أو يتنفس ، كما لا يزال محروماً الهواء والشمس . أما الطفل الرضيع فى انجلترة فيترك حرًّا فى أن يرفس ويتنفس ، وملابسه واسعة ، ولا يُكتفى بوضعه لينام فى الحديقة أو فى الحجرة والنوافذ مفتوحة ، بل يترك أحياناً فى الصيف عارياً فى الشمس والهواء . وقد كان الإنكليز يتقونهما فيما مضى . ويجب ألا يُكتفى بحب الأمهات وما يعرفنه عن تربية الطفل ؛ بل يجب إطعامه فى مواعيد خاصة ؛ مرة فى كل ثلاث ساعات أو أربع ، طعاماً يناسب سنه وصحته . وقد وجد أنه بإعطاء الطفل ما يناسبه من طعام ، وما يحتاج إليه من حركة وراحة ، ونور وهواء ، قد تحسنت صحته ، وقلّت نسبة الوفاة فى السنة الأولى من حياته ، ونجا من الإسهال الذى يعترى الأطفال فى تلك السنة ، ومن الكساحة وأمراض الطفولة ، وأخذ جسمه ينمو ويقوى باستمرار . وهو فى المدن اليوم أحسن صحة ، وأكثر سعادة مما كان فى الماضى ، ومما فى الأرياف .

وفى الحق يجب أن نتخلص من بعض العادات والتقاليد العتيقة فى تربية الأطفال ؛ تلك العادات التى برهنت التجربة وأثبت العلم أنها مضرة بالطفل . وينبغى أن تؤسس تربية الأطفال على ما ثبتت صحته بالطرق العلمية من الطعام والنوم والملابس ، وفوائد الشمس والنور والهواء ، وطرق الوقاية من الأمراض ؛ فالوقاية خير من العلاج .

وفى الطفولة يولع الطفل بالقصص الخيالية السارّة ؛ فمن الممكن اختيار كثير من القصص له ؛ لبث كثير من الصفات الخلقية فى نفسه . ويرى بعض المربين ألا نلجأ كثيراً إلى الخيال ، وأن يعيش الطفل فى عالم الحقيقة لا عالم الخيال ، ولكنهم يريدون بذلك أن يحرموا الطفل عالماً جميلاً يجد فيه كل اللذة والمسرّة ، مع أن كل خيال مبنى على حقيقة .

قد يكون الطفل محبًّا لنفسه يريد أن يستولى على لعب أخيه الأصغر ، ويحب أن يُخص بعناية أمه وأبيه ؛ لأنه يفكر فى نفسه ، ولا يبالى بغيره . وكل ما نتطلبه أن يراعى المربون العدالة والمساواة بين الأطفال ؛ فيُعطى كل طفل قسطه ، وقسطه ليس غير ، بحيث تعم العدالة الجميع ، ولا يضحى بالصغير فى سبيل الكبير ، وبالضعيف فى سبيل القوى ، وأن تعمل كل وسيلة لمعالجة ذلك المرض ؛ وهو حب النفس بين الأطفال . ويجب أن نفهم الطفل معنى العدالة ، ونربيه على أن يكون عادلاً . ومن السهل أن نبث الشعور بالعدل فى نفسه . طبعاً نريد من المربين أن يكونوا مثلاً للعدالة الحقة الخالية من كل غرض . فإذا أحببت طفلاً أكثر من آخر فإياك وأن تتأثر بهذا الحب . وإياك وأن تظلم فى توزيع الهدايا أو اللعب بين الأطفال . فمن الواجب أن يتساووا فى اللعب . ولا تنتظر من طفل أن يقبل أقل من نصيبه . ولا تفرِّق فى المعاملة بين طفلين ، فتعطىَ أحدهما لعبة وتقول له : أخفها من أخيك ؛ كى لا يراها ، ولا تعطى الآخر شيئاً ؛ فالتفرقة قد يفهم منها الطفل المظلوم أن والده يحب أخاه أكثر منه . وإن ذلك يترك أثراً سيئاً فى نفس الطفل فى المستقبل . ومن الواجب أن تأتيه بلعبة أو تعتذر وتشرح له بطريقة يفهمها أنه يجب أن ينتظر إلى وقت آخر ؛ لأنه ليس هناك الآن لعبة ثانية له .

إن الأطفال يحتاجون إلى عدلنا وحبنا وإخلاصنا ، ومشاركتنا إياهم فى شعورهم ، كما يحتاجون إلى كل ما أوتينا من صبر وحكمة لنفهم طرق نموهم . ولا يستطيع الآباء أن يتركوا تربية الطفل للمدرسين وحدهم ؛ لأنهم يظهرون على مسرح حياة الطفل متأخرين بعد السنوات الخمس الأولى من حياته . وفى الوقت الذى يذهب فيه الطفل إلى المدرسة يكون قد تأثر إلى حد كبير بالتربية المنزلية الأولى ، سواء أكانت حسنة أم قبيحة ، حتى إن علماء النفس الذين درسوا نفسية الطفل يقولون : إننا لا

نبالغ إذا ذكرنا أن الخطوط الأساسية لسلوك الأطفال وأخلاقهم قد وُضعت وأصبحت ثابتة فى تلك السنوات الأولى من الطفولة ؛ فالطفولة أهم مرحلة فى التربية والتعليم ، تبدأ فى البيت ثم تنتقل إلى روضة الأطفال والمدرسة . وهنا يبدو وجوب التعاون بين البيت والمدرسة والملعب فى سبيل تربية الطفل تربية كاملة فى كل ناحية من النواحى .

(٢) المرحلة الثانية للطفولة ، وهى مرحلة الغلومة :

فى المرحلة الثانية من الطفولة يلحق الطفل بالمدرسة الابتدائية ، وقد تعلم القراءة والكتابة ، واستطاع أن يقوم بعمليات سهلة حسابية مما درسه فى روضة الأطفال أو المدرسة الأولية ، وتكونت لديه عادات كثيرة ، وأصبح يستطيع أن يتذكر مايرى وما يسمع ، وينتبه إلى الأشياء التى يميل إليها بفطرته من تلقاء نفسه ، ويمكنه أن يحفظ كثيراً من الكلمات والآيات القرآنية ، والقطع الشعرية ، والأناشيد الوطنية ، عن ظهر قلب ؛ فذاكرته فى تلك المرحلة قوية ؛ ولذا يسهل عليه تعلم اللغات الأجنبية فى ذلك الحين ، ولكن من الإرهاق أن نعلمه لغتين كالعربية والإنكليزية أو الفرنسية فى وقت واحد .

ويستطيع الطفل الآن أن يفكر تفكيراً منظماً ، ويعلل الحوادث ، وأفكاره مرتبط بعضها ببعض . وليس معنى هذا أن نثقل عليه بالأمور المعنوية المجردة التى يصعب عليه فهمها . بل يجب أن نقدم له الأمور المحسة الواضحة ؛ لينتقل منها إلى المعنويات .

وفى لعبه يميل إلى الصيد والمطاردة ، وتسلق الأشجار ، وصيد السمك ، ولعب الكرة ، والعدو ، والجرى ، وركوب الدراجة . ويفوق الذكر الأنثى فى الألعاب

التى فيها شىء من العنف ؛ فهو يميل إلى المطاردة ، وهى تميــل إلى دميتها وصنع الملابس لها .

ومن الممكن تعليم الطفل فى تلك المرحلة مبادئ اللغة العربية ؛ لغة البلاد ، بحيث يستطيع أن يقرأ ويكتب ويتكلم لغة سهلة مفهومة — ومبادئ الحساب ، والجغرافية والتاريخ ، ومبادئ العلوم ، والرسم والأشغال اليدوية .

ومن الخطأ أن نعامل الطفل فى تلك المرحلة كالرجل ، وأن ننتظر منه ما ننتظره من الرجل ، أو نحكم عليه بما نحكم به على أنفسنا ؛ كما أن من الخطأ أن نعــد الطفولة منفصلة عن المراحل الأخرى لنمو الطفل؛ فــكلها متصلة بعضها ببعض تمام الاتصال. وحينما نعامل الطفل يجب ألا نفــكر فى الجسم فحسب ، بل فى الروح والرأس واليد ، والقلب واللسان ، والذوق والوجدان أيضا .

ولقد طلبت معلمة فى درس تاريخ من إحدى تلميذاتها أن تقفل كتاب التاريخ الذى كان بيدها ، فى حين أن المعلمة نفسها كانت تنظر فى الــكتاب دائما . وبعد انتهاء الدرس قالت تلك التلميذة لرفيقة لها : كان الأجدر بالمعلمة أن تقفل كتابها وتسمح لى أنا بالنظر فى كتابى ؛ لأنى أصغر منها سنًّا .

ولو حللنا اعتراض تلك الطفلة لوجدنا أنها تريد أن تقول : كان يجب على معلمتى أن تعد درسها جيداً ؛ كى لا تحتاج إلى النظر فى الــكتاب طول الحصة ، وألا تحــل لنفسها ما حرمته علىّ .

وأمراض الأطفال فى هذه المرحلة أقل من أمراضهم فى المرحلة الأولى من الحياة؛ فنى استطاعتهم تقوية أجسامهم بالألعاب والرحلات والــكشافة ؛ حتى تقوى أبدانهم، وتهذب أخلاقهم ، ويعتادوا التعاون ، والعمل للجماعة والتفــكير فيها .

(٣) المرحلة الثالثة وهى مرحلة المراهقة :

فى مرحلة المراهقة ، ينتهى التلاميذ عادة من الدراسة الابتدائية ، وينتقلون إلى المدارس الثانوية ؛ ليتموا ثقافتهم من الناحية العلمية .

وتنمو أجسامهم بسرعة فى هذا الدور ، وتنضج الغريزة الجنسية . ويختلف نموهم باختلاف الوراثة والمناخ ؛ فيرث التلاميذ من آبائهم وأمهاتهم وأجدادهم الطول أو القصر ، ويصلون إلى دور البلوغ مبكرين فى الجهات الحارة ، متأخرين فى الجهات الباردة . وتضطرب أجسامهم وحركاتهم ، وأعمالهم ورسومهم ؛ لاضطراب أعصابهم فى ذلك الوقت . وينمو بعض أعضاء الجسم ،وتقل الوفيات ، ويصل الذكاء إلى حده الأقصى ، ويكثر الخيال ، وتكثر الآمال ، ويبدو الإعجاب بالعظماء من الرجال ؛ من علماء ومخترعين ، ووطنيين وفنيين . ويحب المراهق القراءة والاطلاع إذا وجد مربياً يشجعه ؛ فيختار له من الكتب ما يدعو إلى الاستمرار فى البحث ، والمعرفة . وفى هذه المرحلة تبدو العواطف ، وتشتد الانفعالات المتصلة بالغريزة الجنسية ، ويشعر المراهق بأن له شخصية يجب التفكير فيها ، وإرادة يجب تنفيذها ، ونفسا يجب الاعتزاز بها .

(٤) المرحلة الرابعة وهى مرحلة البلوغ :

فى مرحلة البلوغ يحتاج الشاب إلى رعاية خاصة ، وعطف كثير . وفى ذلك الوقت الخطر ينبغى أن يقود الأب ابنه ، وتقود الأم ابنتها إلى الطريق المستقيم ؛ فيعطى الفتى أو الفتاة كثيراً من الكتب الصحية لقراءتها والانتفاع بها ؛ لتجنب الضلال فى الحياة ؛ فإن هذا الدور أشد أدوار الحياة خطراً على الشبان والفتيات .

ومن الممكن توجيه الفتى والفتاة إلى ما فيه خيرهما ؛ فيقضى الأول فراغه فى لعب الكرة والسباحة والتجديف والمصارعة ، والقراءة والاطلاع ، والاشتراك فى الجماعات الرياضية والخيرية . وتقضى الثانية فراغها فى لعب الموسيقا ، والاشتغال بالرسم والتصوير ، والقراءة والاطلاع ، والاشتراك فى التمريض والأعمال الخيرية ، والمشروعات الإنسانية .

المميزات العقلية والوجدانية لدور البلوغ :

كان العلماء يعتقدون قديماً أن للإنسان ملكات عقلية ، تظهر فى كل مرحلة من مراحل النمو ، وأن لكل ملكة من الملكات مركزاً معينا فى المخ . ولقد أثبت علم النفس خطأ نظرية الملكات ، وبرهن على أن النمو العقلى للإنسان هو عملية واحدة مستمرة ، وأن ذكاء الإنسان متأصل فيه ، منذ الطفولة . ولقد استطاع العلماء اختبار الذكاء أو المقدرة العقلية للإنسان بمقاييس الذكاء ، بحيث تعرف نسبته الذكائية ؛ فإذا تأخر الطفل عن طفل آخر فى الذكاء بمقدار سنة فى سن الخامسة تأخر عنه سنتين حينما يبلغ العاشرة ، وتأخر ثلاث سنوات حينما يبلغ الخامسة عشرة من العمر ، وهكذا . ولنذكر مميزات مرحلة البلوغ فنقول :

١ — فى هذه المرحلة كثيراً ما يصاب الطلبة بقصر النظر ، ولا يدرى العلماء لذلك سبباً ، وتكثر معلوماتهم ، ويميلون إلى الإصغاء إلى الموسيقا ، ويستطيعون أن يوجهوا انتباههم إلى الشىء مدة أطول من مدة انتباههم فى المراحل السابقة ، وتضعف قدرتهم على الحفظ عن ظهر قلب ، ويستطيعون الفهم أكثر من الحفظ ، ويميلون إلى الشعر والأمور الخيالية . ومن السهل تشجيعهم على الكتابة القصصية وقول الشعر فى هذه المرحلة .

٢ ـ ومن مميزات هذه المرحلة نمو الغرائز الاجتماعية فى البالغ ؛ فتجد لديه ميلاً إلى التعاون مع غيره من الزملاء ، وتبدو فيه غريزة حب السيطرة ، فيتظاهر بما لديه من قوة ، ويجد غضاضة فى أن يطيع غيره طاعة عمياء .

٣ ـ ولديه رغبة كبيرة فى دراسة الحياة وعمل التجارب ؛ فمن السهل الانتفاع بما لديه من حب اطلاع ، فى البحث والقراءة والتربية العقلية .

٤ ـ ويشاهد فى البالغ التقزز والنفور ، وعدم الاكتراث لغيره ، فلا عجب إذا عمد إلى الشر أحيانا ، ولكن هذا المظهر لا يلبث أن يزول .

٥ ـ وفى هذا الدور تقل غريزة الخضوع ، وتكثر السيطرة ؛ فالفتى يحب البطولة ، والفتاة تولع بأمها ومدرستها ، وتظهر كثيراً من الإقدام .

٦ ـ وكثيراً ما تتضارب الغرائز المختلفة فى طباع البالغ ؛ فتارة يبدو عليه الحياء ، وآونة يبدو عليه الإقدام والتهور ، وتارة يظهر شجاعا ، ومرة يبدو ثائراً أو جباناً .

٧ ـ ولاضطراب وجدانه فى هذه المرحلة يضطرب فكره ، ويقل ضبطه لنفسه ، ولا يتزن سلوكه . وقد تتعارض رغباته مع والديه فى المنزل ، وأساتذته فى المدرسة ، لكنه ـ إذا عومل بالحكمة ـ يمكن توجيهه إلى الصراط المستقيم . وبانتهاء هذه المرحلة تهدأ نفسه ، ويستقيم تفكيره ، ويقل تهيجه .

٨ ـ وفى هذا الدور يولع البالغ بالعلوم الطبيعية والتصوير والرسم والموسيقا والشعر والدين والفلسفة . وهو خير الأدوار لبث الفضيلة فى نفسه ، ومحاكاة الأبطال والعظماء ، ودراسة الأمور التى تهذب الوجدان ، وتضبط الانفعال .

الفروق الفردية بين الأطفال ، ووجوب مراعاتها فى التدريس

إن علم النفس الحديث قد وصل بتجاربه وبحوثه إلى أن عقول النوع الإنسانى لم تخلق على مَثَل واحد ؛ فلكل عقل تركيب خاص وحركة خاصة . وقد ثبت بالاختبارات العقلية الكثيرة أن هناك درجات متفاوتة بين عقول الأطفال الذين هم فى سنّ واحدة، ومن شعب واحد، وجنسية واحدة ، بل الذين هم من أسرة واحدة. وكثيرا ما نجد فرقاً كبيراً حتى بين الأخوين اللذين تربَّيَا تربية واحدة ، فى رعاية أب واحد ، وفى بيئة واحدة . وليس الاختلاف بين التلاميذ ملموساً فى التكوين العقلى أو فى الذكاء الطبعى فحسب ، بل نراه فى الميول والرغبات أيضا ، بل وفيما يحبون وما يكرهون . وكما يختلفون فى الإدراك والتصور والتخيل والتذكر ، كذلك يختلفون فى طرق التفكير ، وفى القوة الجسمية ، والمقدرة العقلية . وليعلم كل مدرس علما لا شك فيه أنه ليس هناك فصل من فصول الدراسة يتساوى تلاميذه فى الاستعداد العقلى والعلمى معاً ؛ فدرجتهم العقلية ليست واحدة ، واستعدادهم لغذاء عقلى واحد جدُّ مختلف . فرأى علماء النفس أن من الواجب على المدرس أن يراعى تلك الفروق الظاهرة فى تدريسه ؛ لكى يكون ناجحاً فى عمله ، وأنه يجب أن يُعطى كل تلميذ ما يستطيع هضمه من الغذاء العقلى ، وأن نجاح المدرس فى مهنته يتوقف على قدرته على إيجاد ذلك الغذاء الذي يناسب مستوى التلميذ عقليًّا وعلميًّا . وفى الحق أن المربى

لا يكون جديراً بهذا الاسم إذا لم يضحّ بكل شىء فى سبيل الطفل وتربيته ، والعمل على نجاحه ، والسير به إلى آخر درجة ممكنة من التقدم والنجاح. وكما تراعى فى التعليم حاجة البيئة والمجتمع يجب أن تراعى حاجة الفرد ، والفروق بين الأفراد فى التعليم . والاختلاف شديد بين الأفراد فى الأوصاف الخلقية ؛ فهبك تريد أن تصف أفراد جماعة من الناس ، فإنك لن تجد فردا من هذه الجماعة تتفق كل صفاته الجسمية مع صفات الآخرين من تلك الجماعة ، ومن الصعب جدا أن تجد اثنين فى كل مليون من الناس يتساويان فى الطبيعة العقلية ، أو يتشابهان فى قوة المناعة والصفات الجسمية؛ فلكل فرد شخصيته التى يتميز بها دون غيره من سائر الأفراد. فالاختلاف كبير بين الأفراد ، غير أن الفروق التى وصل إليها النفسيون فى العقل والخلق أكثر من الفروق فى أوصاف الجسم ؛ فالأفراد يختلفون فى :

١ ـ الخلق ، ٢ ـ القوة العقلية ، ٣ ـ الميول .

ولذلك نجد طفلا يقرأ كتابا فى أربعة أشهر ، فى حين أن آخر قد يقرؤه فى سنة . وقد وجد بالتجربة فى إحدى المدارس الأمريكية أن أذكى التلاميذ مثلا قد يفعل فى يومين مالا يستطيع الغبى أن يفعله فى مائة[١] يوم . ويقول (ثُورْنْدَيْك)[٢] : « قد نجد أطفالا عمرهم سبع سنوات يستطيعون أن يقوموا

---

(١) انظر : Burk's Two Years in Individual Instruction, California State Normal, San Francisco.

(٢) (ثورنديك) : "Thorndike" من أكبر أساتذة التربية وعلم النفس فى أمريكا . ارجع إلى :

Educational Psychology, Vol. 3, & Individuality Riverside Monograph, by Thorndike.

بأعمال عقلية لا يقدر أن يقوم بها رجال يبلغون من العمر سبعاً وعشرين سنة [١] ».
والذى لا شك فيه أن هذه الفروق الكبيرة لم تكن ناشئة عن الطرق المدرسية بقدر ما هى ناشئة عن التأثيرات الخارجية التى تأتى من الوراثة والمنزل والبيئة .
ولقد أثبت كثير من علماء النفس مثل : (ثُورْنْدَيْك وبِيرْسُون) بعد الفحص الدقيق والاستقصاء ، أن من الأمور الموروثة حسن الخط ، أو رداءته والقدرة على الهجاء ، وحب الموسيقا ، وقوة الحكم ، والنشاط ، وحفظ العهود ، وخفة الروح ، والتعاظم ، والمقدرة العامة . ولا ينكر أحد أن للمنزل نفوذا ، وأن الضعف العقلى ، والغباوة ، والذكاء وحضور البديهة ، وقوة الذاكرة أو ضعفها من الصفات العقلية الموروثة .

ومن الخطأ الشائع بين المدرسين معاملة التلاميذ فى التدريس معاملة واحدة من غير تفرقة بين الأذكياء والمتوسطين والأغبياء منهم . ومن الواجب مراعاة الفروق الفردية بينهم ، ووضع كل تلميذ فى الموضع الذى يلاءمه ، وإعطاؤه المادة التى يستطيع أن يفهمها .

---

(١) من المعروف عن (اللورد ماكولى : Lord Macaulay) أنه حاكى (السير وولتر سكوت : Sir Walter Scott) فى كتابته وعمره سبع سنوات ؛ فكتب إذذاك ثلاث قصائد ، ومختصرا تاريخيا عاما ، وأظهر حبا للقراءة ، ورغبة فى العلم منذ الطفولة . فقول (ثورنديك) ليس بغريب .

الاختبارات العقلية للطفل

لقد وضع العالم الفرنسى (ألْفِرِدْ بِينيه[١]) اختبارات معينة يمكن بها معرفة عقلية الطفل ، وقياس ذكائه فى كتابه[٢] « الآراء الحديثة عن الأطفال » ، الذى ألفه سنة ١٩١٠ . ولنذكر بعض هذه الاختبارات مع قليل من التصرف ؛ لتناسب أطفالنا ، ويسترشد بها المربون فى اختبار عقلية أبنائهم وتلاميذهم[٣] .

سن الطفل		الاختبـــارات
٣ أشهر	:	أن ينظر إلى الشىء من تلقاء نفسه .
٩ شهور	:	(١) أن ينتبه إلى الصوت الذى يسمعه .
		(٢) أن يمسك بالشىء الذى يراه ، أو الذى تصل إليه يده .
سنة واحدة	:	أن يعرف أنواع الطعام .
سنتان	:	(١) أن يمشى .
		(٢) أن يبين الأشياء التى يحتاج إليها .
		(٣) أن ينفذ أمراً واحداً تطلبه منه .

(١) "Alfred Binet" : عالم فرنسى من علماء النفس . ومن آثاره : «الاختبارات العقلية أو مقاييس الذكاء» .

(٢) "Les Idées Modernes sur les Infants (1910)"

(٣) ارجع إلى ما كتبناه بالتفصيل عن « الاختبارات العقلية » أو مقاييس الذكاء فى الفصل الأول من الجزء الثانى من كتابنا : « فى علم النفس » . وسيرى القارئ أن هنا بعض التغيير بالزيادة أو النقص ، أو التقديم أو التأخير فى بعض الاختبارات .

ثلاث سنوات : (١) أن يعرف أنفه ، وعينه ، وفمه .
(٢) أن يعدّ الأشخاص والأشياء التى فى صورة من الصور .
(٣) أن يعرف اسمه ولقب أسرته .
(٤) أن يعيد جملة مكونة من ستة مقاطع بعد سماعها .

أربع سنوات : (١) أن يعرف جنسه إن كان ذكراً أو أنثى ، ولداً أو بنتاً .
(٢) أن يعرف أسماء هذه الأشياء : مفتاح ، سكين ، قرش ، حينما تسأله عن أسمائها .
(٣) أن يذكر ثلاثة أرقام حسابية بعد سماعها .
(٤) أن يوازن بين خطين ويبين أيهما أكبر أو أصغر .

خمس سنوات : (١) أن يوازن بين صندوقين مختلفى الثقل ، ويذكر أيهما أثقل .
(٢) أن ينقل شكلَ مربع من الرسم الذى أمامه .
(٣) أن يعيد جملة مكونةً من عشرة مقاطع بعد أن يسمعها .
(٤) أن يعدّ أربعة قروش توضع أمامه .
(٥) أن تكوَّن أمامه لعبة سهلة من اللُّعب ، ثم تفك ، أو تهدم ، ويطالب بتكوينها وتركيبها ثانية .

ست سنوات : (١) أن يميز يده اليمنى من اليسرى ، وأذنه اليسرى من اليمنى[١] .
(٢) أن يكرر عبارة مكونة من ستة عشر مقطعاً بعد سماعها .
(٣) أن يوازن بين صورتين ، ويذكر أيهما أحسن .
(٤) أن يعرّف بعض الأشياء المعروفة لديه بذكر فوائدها .
(٥) أن ينفذ ثلاثة أوامر يؤمر بها[٢] .

---

(١) ذكر بعضهم هذا الاختبار لسن سبع سنوات .
(٢) جعل بعضهم هذا الاختبار لمن فى سن سبع سنوات .

(٦) أن يعرف سنّه .

(٧) أن يميز الصباح من المساء .

سبع سنوات : (١) أن يشير إلى مواضع النقص فى الصورة التى يختبر فيها .

(٢) أن ينقل شكلاً لمتوازى أضلاع[١] .

(٣) أن ينسخ عبارة مكتوبة .

(٤) أن يعيد خمسة أرقام حسابية بعد سماعها .

(٥) أن يصف صورة من الصور التى توضع أمامه .

(٦) أن يعرف قيمة ثلاثة عشر نصف قرش .

(٧) أن يذكر أسماء أربعة أنواع مختلفة من قطع النقود .

ثمان سنوات : (١) أن يقرأ قطعة من القطع، ثم يتذكر شيئين منها.

(٢) أن يذكر أسماء أربعة ألوان .

(٣) أن يعدّ من عشرين إلى واحد عدًّا تنازليًّا .

(٤) أن يوازن بين شيئين من الذاكرة ؛ كأن يوازن بين الناموسة والذبابة .

(٥) أن يكتب قطعة إملائية تملى عليه .

(٦) أن يعرف مجموع ثلاثة قروش صاغ وثلاثة قروش (تعريفة) .

تسع سنوات : (١) أن يذكر تاريخ اليوم الذى هو فيه .

(٢) أن يعرف أيام الاسبوع ، بحيث يذكر اسم اليوم إذا سألته عنه .

(٣) أن يقرأ قطعة من القطع ، ثم يتذكر ستة أشياء منها .

(٤) أن يرتب خمسة صناديق على حسب وزن كل منها .

(٥) أن يعرف كيف يستبدل بقطعة من النقود خمسة قروش .

---

(١) وضع بعضهم هذا الاختبار لمن فى سن ست سنوات .

عشر سنوات : (١) أن يعرف شهور السنة .
(٢) أن يميز أنواع العملة المختلفة للنقود المصرية .
(٣) أن يكوّن عبارتين يستعمل فيهما كلمتين توضعان له .
(٤) أن يجيب عن خمسة أسئلة تتطلب ذكاءً وتفكيراً[1] .
(٥) أن يقوم برسم شكلين من الذاكرة .

اثنتا عشرة سنة : (١) أن ينقدويلاحظ خمس عبارات تحتوى على أشياء لا يقبلها العقل.
(٢) أن يستعمل ثلاث كلمات فى تكوين جملة مفيدة .
(٣) أن يذكر أكثر من ستين كلمة فى ثلاث دقائق .
(٤) أن يعرّف بعض الكلمات المعنوية المجردة ؛ كالصدقة والعدالة والشفقة .
(٥) أن يعيد ترتيب الجملة بعد أن يغيَّر ترتيب الكلمات فيها .

خمس عشرة سنة : (١) أن يعيد سبعة أرقام حسابية بعد سماعها .
(٢) أن يكرر جملة مكونة من ستة وعشرين مقطعاً بعد أن يسمعها.
(٣) أن يبين بالتفصيل ما فى صورة من الصور التى يُختبر فيها .
(٤) أن يحل مسألة نفسية، ويشرح بعض الحقائق التى يُسأل عنها .
(٥) أن يذكر ثلاثة ألفاظ على وزن كلمة تعطى له .

هذه هى الاختبارات العامة التى وضعها (بينيه) ؛ لقياس الذكاء فى الأطفال، ومعرفة عقليتهم . ولسنا الآن فى مقام يسمح لنا بالتطويل فى ذكر ما يتعلق بهذه الاختبارات العقلية ونقدها . ومن أراد الزيادة فليرجع إلى الفصل الأول من الجزء الثانى من كتابنا (فى علم النفس) للأستاذين حامد عبد القادر ومحمد عطية الإبراشى.

---

(١) ارجع إلى الفصل الأول من الجزء الثانى من كتابنا «فى علم النفس» لترى فيه الأسئلة بالتفصيل .

وكل ما يمكننا أن نقوله هو أن كثيراً من ذلك متروك لحزم المدرس وبصيرته حينما يستعمل هذه الاختبارات ، بحيث يجعلها مناسبة لسن الطفل وبيئته[1] .

وليطلع على هذين الكتابين إذا شاء .

(١) «الاختبارات العقلية» ، تأليف (بَالاَرْد) :

Mental Tests-by P. B. Ballard.

(٢) « مقياس الذكاء » ، تأليف (تِرمَان) :

The measurement of Intelligence, by Terman.

وسيرى القارئ أن هنا شيئاً من التغيير بالزيادة أو النقص ، أو التقديم أو التأخير في بعض الاختبارات .

إرشـــادات للمربين
في تربيـة الأطفال ومعاملتهم

ليست تربيـة الأطفال ومعاملتهم بالأمر السهل ؛ فإنها تحتاج إلى كثير من التفكير والتجربة والحزم كما ذكرنا . وسنكتفي هنا بذكر بعض الإرشادات العامة للمربين والمربيات ؛ لأننا لا نستطيع أن نضع خطة معينة يعامل بها كل طفل حين يخطئ ؛ لاختلاف الأطفال من جهة ، واختلاف الآباء من جهة أخرى ، ثم اختلاف الأحوال من جهة ثالثة ؛ فما يصلح لطفل ربما لا يصلح لآخر ، وما يحسن في نظر هذا قد يقبح في نظر ذاك ، وما يكون اليوم حسناً قد يكون غداً قبيحاً . وعلى العموم

---

(١) انظر : "The Teachers' Encyclopaedia, Vol . I . P. 15"

نرجو أن يكون فى هـذه النصائح بعض الفائدة لهم فى التغلب على الصعوبات التى تعترضهم فى سبيل تربية الطفل وتهذيبه :

(١) اجتهـد فى أن تعرف عقلية أطفالك وتلاميذك ، وميولهم ورغباتهم ، ثم ساعدهم فى أن يستفيدوا من مواهبهم ، وينتفعوا بها بقدر الاستطاعة .

(٢) تذكر دائماً أن الأطفال يختلفون فى تفكيرهم ووجدانهم ، وإرادتهم وأخلاقهم ؛ فعامل كلاً منهم معاملة تناسبه . واعلم أن ما يصلح لمحمد ربمـا لا يصلح لعلى ، وأن المدرسة التى توافق هذا ربما لا توافق ذلك ، وثق بأن العالم فى حاجة إلى أنواع كثيرة مختلفة من الرجال والنساء .

(٣) لا يكفى أن تنهى الطفل عن فعل الشىء قائلاً له : « لا تفعل كذا » ، بل ينبغى أن تضيف إلى ذلك: « ويحسن أن تفعل كذا » ، بحيث لا توقف نشاطه ، بل توجهه إلى ما هو أحسن . وإذا أغلقت فى وجهه باباً فافتح أمامه باباً آخر .

(٤) لا تظن أن الطفل يفهم كل ما تقوله له ؛ فربمـا لا يدرك ما تدركه وما تقوله .

(٥) إذا وعدت الطفـل بوعد فأوف بوعدك ، ولا تعِده بشىء لا تستطيع تنفيذه .

(٦) اجتهد فى أن تكون المثـل الأعلى أمام الطفل ؛ كى تكون له خير قدوة يقتدى بها .

(٧) لا تضطرب حينما يقع الطفل على الأرض ، أو حينما ينقطع عن الأكل ، بل افعل ما يحتاج إليه من المعونة بدلاً من القلق والاضطراب .

(٨) لا تتردد فى أن تعمل أحياناً بعض استثناءات من القواعد التى تضعها نصب عينيك لتربية الطفل .

• (٩) لا تأخذ الطفل حيث ترغب ، بل اذهب معه حيثما يرغب .

(١٠) لا تتناقش فى شئون الأطفال وهم حاضرون ؛ ظناً منك أنهم لا يفهمون ما يقال ؛ فإنهم يفهمون أكثر مما تعتقد ، ولكنهم لا يستطيعون التعبير عما فى نفوسهم من الأفكار .

(١١) لا تقطع على الطفل أفكاره وأعماله بغتة ، بل أعطه الفرصة فى أن يتمم فكرته أو عمله .

(١٢) لا تهزأ بالطفل ولا تسخر أو تضحك منه ، بل اضحك معه .

(١٣) لا تتدخل فى عمل الطفل إلا عند الضرورة ، ولاحظه عن كثب ، ودعه يقوم بتمثيل دوره فى رواية الحياة . وأرشده عند الحاجة ، واترك له حرية الاختيار .

(١٤) ثق بطبيعة الطفل ثقة لا حد لها ، رغم ضعفها فى الطفولة ، وثق بأن الميول العليا تسيطر على الميول السفلى لو سمح لها بالظهور فى الوقت المناسب .

(١٥) أعط الطفل قدراً معقولاً من الحرية ؛ فإنها تساعد فى إظهار الطبائع الحقيقية للطفل .

(١٦) خفف عنه هذا الضغط المميت ، وساعده فى أن يعتمد على نفسه بقدر المستطاع ، ولا تفعل له شيئاً يستطيع هو أن يفعله .

(١٧) ضع تحت تصرفه من المواد ما يكفى تغذيته عقلاً وروحاً ، وأعطه الفرصة فى أن يمرن قواه العقلية والروحية .

(١٨) لا تثبط همته بالبحث دائماً عن هفواته فتخطئه فى الصواب ، بل شجعه وقل له : إنك اليوم أحسن منك بالأمس ، وأرجو أن تكون غداً أحسن منك اليوم .

(١٩) ساعده فى أن يفكر فى التغلب على الصعوبات ، وفى أن يؤدى عمله خير أداء .

(٢٠) شجع إخلاصه الطبعى ، وميوله الحسنة ، وصحح الخطأ منها .

(٢١) فكر فى شخصية الطفل ، واسمح لها بالظهور فى طريقها الطبعى .

(٢٢) كن عادلاً فى معاملتك ؛ فإذا ارتكب اثنان من التلاميذ أو الأبناء ذنباً واحداً ، فلا تعاقب أحدهما وتترك الآخر ؛ خوفاً من أن يحتج هذا عليك ، إن لم يكن بلسانه فبقلبه قائلاً : لم تضربنى وتترك فلاناً ؟

(٢٣) لا تشجع المنافسة بين طفل وآخر ؛ فإنها تؤدى إلى العداء والتكبر ، وحب النفس ، بل اجتهد فى أن توجد روح التعاون بين الأطفال ، ووازن بين حاضر الطفل وماضيه ، وبين حاضره ومستقبله إذا شئت .

(٢٤) نمِّ فى الطفل حب التعاون والاشتراكِ مع غيره ؛ بإيجاد روح الصداقة ، ومشاركتهِ غيره فى شعوره .

(٢٥) ساعده فى تربية غرائزه ، وشجع الحسن منها وأصلح الخطأ .

(٢٦) لا تظن أن من لم ينجح فى دروسه المدرسية لن ينجح فى غيرها ؛ فمن لم يفق من أبنائك وتلاميذك فى العلوم قد يفوق فى الصناعات والفنون إذا أعطيته الفرصة . ولا تدخل اليأس فى قلبه . فلا تلم الطفل إذا أخفق فى البيت أو المدرسة ، بل اجتهد فى معرفة السبب فى إخفاقه ، واستشر عند الضرورة رجلا عالماً بدراسة الأطفال .

(٢٧) ليس من الضرورى أن تصمم فى أن يتبعك بنوك فى عملك وخلقك ، ويخطوا خطواتك ؛ فما ناسبك ربما لا يناسبهم ، وما خلقت له ربما لا يتفق مع ما خلقوا له .

ولا أقصد بهذه النصائح والإرشادات أن أملي على المربين مبادئ أقيدهم بها . وإلا خالفت ما ذكرته وما ناديت به من النظريات ، بل أريد أن أفتح السبيل أمامهم ، فليفعلوا بها إذا شاءوا ، وليفسروها كما أرادوا ، وليذكروا دائماً أن التربية تستطيع أن تساعد الحياة فى تكوين ابتداء سعيد أو طفولة سعيدة . يقول (أفلاطون) : « إن الابتداء السعيد[١] أهمُّ السبل للوصول إلى الكمال والسعادة » . ولقد مضى على هذه الكلمة أكثر من ألفى سنة ، ولكنها وجدت آذاناً لا تسمع. ولقد حان الوقت الذى يجب أن نقدر فيه هذه الكلمة قدرها ، فنُحِلَّها فى النفس مكانها ، ونضمّها من القلوب فى الأعماق .

ويقول الإنكليز فى أمثالهم : « إن الابتداء الحسن هو إتمام لنصف العمل[٢] » ؛ فإن كانت التربية الأولى للطفل — فى المرحلة الأولى من حياته — حسنة فكأننا قد قمنا بنصف تربيته . لذا يقول علماء التربية : إن الطفولة أهم أدوار الحياة . وبالمثل يقال إذا ابتدأت حياتك العملية بابتداء حسن فكأنك قد قطعت نصف عراك الحياة نحو الانتصار ، فالابتداء هو نصف الموقعة ، بل كل الموقعة .

فيأيتها الأمهات والمعلمات ، ويأيها الآباء والمعلمون ، رفقاً بأبنائكم وبناتكم ، وتلاميذكم وتلميذاتكم ؛ فإنهم فى حاجة إلى عطفكم وحنانكم ! أعينوهم وأشفقوا عليهم ؛ فإنهم فى حاجة إلى معونتكم وشفقتكم ، انصروهم ودافعوا عنهم ؛ فإنه لا ناصر لهم غيركم ، ولا مدافع عنهم سواكم ، ثم اعملوا على أن تمتلكوا قلوبهم ، فيقبلوا مبادئكم وإرشادكم ، ويكون النصر فى النهاية لكم والمنفعة لهم . واعلموا أن الأطفال ودائع ثمينة قد اؤتمنتم عليها ، فحافظوا على تلك الودائع ، ولا تميتوا تلك

---

(١) فى حياة المخلوق حيواناً كان أو نباتاً ، متوحشاً أو مستأنساً .

(٢) "Well begun is halfly done."

النفوس فتقتلوا آمالهم ، وتُضعفوا قواهم ، وتقفوا فى سبيل نموهم . إن أطفال اليوم هم رجال الغد ؛ فإذا عنيتم بهم وبتربيتهم الآن جنيتم أحسن الثمار فى المستقبل .

أتيحوا لهم الفرصة فى العمل معتمدين على أنفسهم؛ كى لا يقف نموهم؛ فإن العضو الذى لا يعمل لا بد أن يَشَل. وتذكروا دائماً أن الأعمال واحتمال المسئوليات هى التى تخلق من الطفل رجلاً فى المستقبل ، يمثل الرجولة فى النشاط والقوة، والثقة بالنفس، والقدرة على أداء العمل. علموهم من الصغر القيام بما يستطيعون نحو أنفسهم وإخوتهم وأخواتهم ، وأصدقائهم وصديقاتهم ؛ لتعودوهم العمل للجماعة فى الكبر . وشجعوهم على أن يشتركوا مع إخوتهم فى المنزل ، وإخوانهم فى المدرسة ، فى القيام بكثير من الأمور التى لها صلة بالحياة ؛ حتى تبثوا فى نفوسهم روح التعاون من الصغر ؛ التعاون فى سبيل الجماعة وتقدمها . وهنا يكون النجاح لهم والفخر لكم .

عودوهم الاعتماد على النفس ، والثقة بها . بثوا فى قلوبهم حب العمل وإتقانه . وقولوا لهم إن العمل هو الحياة ، والحياة هى العمل . ولا نجاح فى الحياة إلا بالمثابرة على العمل ، والإخلاص فيه . ومحال أن يجنى الإنسان ثمرة إلا إذا أعد العدة ، ورسم الخطة للعمل ، وسار بجد إلى النهاية ، وكله رغبة فى العمل ، وثقة بالله وتوفيقه .

الفصل السابع

رسالة المدرس
أو
المدرس وكيف ينبغي أن يكون

مهنة التعليم وأثرها :

يقوم المدرس بعمل جليل هو خدمة العلم والمجتمع؛ فمركزه من أكبر المراكز، ومهنته تسمو فوق كل مهنة ، فيجب أن يسمو المدرس بها ، كما يجب أن نضعه موضعه ، ونقدره حق قدره . وقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ، فرأى مجلسين : أحدهما فيه قوم يدعون الله عز وجل ويرغبون إليه ، وفى الثانى جماعة يعلّمون الناس، فقال : «أما هؤلاء فيسألون الله، فإن شاء أعطاهم، وإن شاء منعهم. وأما هؤلاء فيعلمون الناس ، وإنما بُعثت معلماً » . ثم عدل إليهم وجلس معهم . وبذلك ضرب النبى الكريم لنا خير مثل فى الحث على التعليم والاعتراف بفضل المعلم .

وقد شاد « مارتن لوثر » الزعيم الألمانى، والمصلح الدينى (١٤٨٣ — ١٥٤٦ م.) بذكر المعلم ، وجعله فى مصاف القادة الروحيين ؛ إذ يقول : « لو أُتيحت لى الفرصة فى ترك وظيفة الوعظ والإرشاد ما اخترت مهنة غير مهنة التعليم » . فالمدرسة نواة لكل إصلاح ، والمدرس المخلص يستطيع أن يسمو بأمته، ويضعها فى صف الأمم

الراقية ؛ ببث أحسن العادات والمبادئ الخلقية والدينية والاجتماعية والوطنية والصحية فى نفوس تلاميذه . وقد صدق « بِسْمارك » بعد الحرب السبعينية فى قوله : « لقد غلبنا جارتنا بمعلم المدرسة. » كما صدق « إرَسْمَس » فى قوله : « أعطنى إدارة التعليم وأنا أتعهد إليك بقلب العالم » .

وقد اعترف المرحوم شوقى بك بفضل المعلم ، فقال :

قم للمعلم وفه التبجيلا * كاد المعلم أن يكون رسولا

وقال « هِى بن شَرِيرَا[1] » وهو أحد علماء بنى إسرائيل : « ابذلوا كل جهد فى تعليم أبنائكم من الصغر ، وكافئوا المدرس على عمله ؛ لأن ما تقدمونه له تقدمونه لأبنائكم » .

فتبجيل المعلم تبجيل لأبنائنا ، وتقديره تقدير لهم ، به يحيون ، وبه ينهضون إذا أدى رسالته خير أداء .

ولنذكر كلمة ثمينة للعالم المحقق ، والأديب الكبير الأستاذ أحمد أمين بك نشرها بمجلة الثقافة عن المعلم ومهنة التعليم ، وهى ناطقة بنيته وإخلاصه للعلم والتعليم :

« هل يكون معلماً ؟ »

« سألنى أب : هل أدخل ابنى كلية الآداب ليكون معلماً ، أو كلية الحقوق ليكون محامياً أو قاضياً ؟ وأضاف إلى ذلك : إن ابنى يرغب فى أن يكون معلماً ، وأنا أكره له ذلك ؛ لأن التدريس عمل مضن لا يدرّ مالاً ، ولا يفيد جاهاً .

نعم ـ أيها الأب ـ إذا أردت وأراد ابنك المال والجاه فإياه وإيا التعليم ، وإيا

---

(١) "Hai Ben Sherira": عالم إسرائيلى توفى سنة ١٠٣٨م .

الأدب والفن وما إلى ذلك ؛ فإنها ليست طريق المال ولا الجاه ، ومن قصدها للمال والجاه خاب ظنه ، وضلّ سعيه .

إنما يصلح للتعليم قوم قنعوا من دنياهم بأن يعيشوا على ضروريات الحياة ، وفى حدود ضيقة من الرزق .

ليس يصلح للتعليم من طلب بتعليمه الغنى والجاه ؛ وليس يصلح له كذلك من سدت فى وجوهه طرق الكسب الأخرى، ثم رأى أن باب التعليم وحده هو المفتوح أمامه ؛ فدخله مرغماً . إنما يصلح للتعليم من كان يرى — بحكم طبيعته ومزاجه — أن لذة التعليم تفوق كل لذة ، وأنه سعيد باحترافه التعليم ، وأن ما يجده من لذة فى حرفته يعوض ما يجده من ضيق فى رزقه، وضآلة فى جاهه، وإلا كانت حرفة التعليم عذاباً، وكل درس يؤديه ألماً يمتد بامتداد الدرس ، وكل فترة من الزمن بين درسين أنيناً من الدرس الماضى ، وإشفاقاً من الدرس القادم ، وكل ساعات فراغه شكوى من الزمان أن رماه بحرفة التعليم ، وسباً للقدر أن بلاه بهذا البلاء المبين .

إن الحرفة الحقة الناجحة — أيها الأب — هى التى خلق لها صاحبها لا التى أُكره عليها صاحبها ؛ ففى الأولى هى لذة وشوق ، ونمو شخصية ، وتفتح ملكات ؛ والنجاح فى الحرفة وبلوغ الذروة فيها هو القصد الأول ، والمال والجاه إذا أتيا أتيا عرضاً لا قصداً ، وإذا لم يأتيا فلا بأس ؛ فقد سعد فى أثناء عمله ، وسعد فى نجاحه ببلوغ غايته أو القرب منها . وفى الثانية هى ألم ، وهى سخط ، وهى طلب للمال والجاه من غير وسائله الطبيعية ، وطرقه المشروعة . فسائل ابنك قبل أن تسائلنى ، واختبره قبل أن تختبرنى : هل يجد لذة فى تفتح الزهرة وإثمار الشجرة أكثر مما يجد من حفنة من المال فى يده يعددها ويقلبها ويلعب بها؟ إن كانت الأولى فشجع ابنك على أن يكون معلماً ، وإن كانت الأخرى فوجهه إلى أى عمل غير التعليم ، ولا تقع فيما

يقع فيه الناس ، إذ يستفتون شهوتهم فى المنصب والجاه ، ولا يستفتون ملكات أبنائهم وطبيعتهم واستعدادهم، ويختارون لأبنائهم من العمل مايتفق والمنصب والجاه، ولا يتفق والطبائع والاستعداد ، فيبوءون بالفشل الذى يبوء به مَن حاول أن يجعل من النحاس ذهباً ، ومن الحديد نحاساً ؛ فلا المنصب نالوه، ولا ماهم أهل له أدركوه، ووقفوا وسط السلم ، لا فوق ولا تحت ، أو علقوا فى الهواء ، لا فى السماء ولا فى الأرض .

كل ذى صناعة منتج أو مبدع أو خالق ، فالنجار والحداد والمثّال ونحوهم يبدعون من المواد الخام صوراً لم تكن ، وقد يبلغون فى الإنتاج حدًّا يستخرج الإعجاب والعجب ، ولكنهم مهما يبلغوا لا يصلوا إلى إبداع المعلم ، وسمو صناعته ، وسحر فنه .

ماذا يصنع المعلم ؟

إنه يجلو أفكار الناشئين والشباب ، ويوقظ مشاعرهم ، ويحيي عقولهم ، ويرق إدراكهم . إنه يسلحهم بالحق أمام الباطل ، وبالفضيلة ليقتلوا الرذيلة ، وبالعلم ليفتكوا بالجهل . إنه يملأ النفوس الخامدة حياة ، والعقول النائمة يقظة ، والمشاعر الضعيفة قوة . إنه يشعل المصباح المنطفئ ويضيء الطريق المظلم ، وينبت الأرض الموات ، ويثمر الشجر العقيم . إن المعلمين عدة الأمة فى سرائها وضرائها ، وشدتها ورخائها ، لا تنتصر فى حرب إلا بقوتهم ، ولا تنهزم إلا لضعفهم، ولا يزهر العلم فيها إلا بهم، ولا ترقى مصانعها ومتاجرها إلا برقيهم . هم منشئو الجيل ، وباعثو الحياة ، ودعاة الانتباه ، وقادة الزمن . هم عنوان الأمة ، ومظهر ضعفها أو قوتها ، فى عقلها وقلبها وخلقها ؛ لأنهم يصنعون القوالب التى تصب فيها أبناؤها وبناتها ، ويشكلونهم بالأشكال التى يتصورونها ويضعونها ...

المعلم يملك نفوسا وعقولا ومشاعر بعدد من يعلمهم ، ومن يصل نفعه إليهم ، وغيره يملك مالاً وضياعاً وعقاراً ، فإن كان ابنك — أيها الأب — ممن يفضل ملك النفوس والعقول على ملك المال والعقار فاجعله معلما ، وإلا فليكن تاجراً أو محامياً أو مهندساً أو ما شئت ، غير أن يكون معلماً .

المعلم يتاجر ، ولكنه يتاجر فى الأرواح والعقول والمشاعر ، ويكسب ويخسر ، ولكنه يكسب نفوساً تتعلق به ، وقلوبا تتجمع حوله ، أو يخسر عقولا أتلفها ، ونفوسا أفسدها ؛ فإن كان ابنك ممن له غرام بالنفوس والقلوب يكسبها فليكن معلماً ، وإلا فخير له أن يتاجر فى الذهب والفضة ، أو ما يدر الذهب والفضة .

أما إن هو تاجر بالنفوس وأراد الذهب فبشره بالخسارة التى يمنى بها رجل الدين إذا أراد الدنيا ، ورجل العلم إذا خدم بعلمه السياسة .

التعليم — أيها الأب — نوع من الرهبنة ، انقطع صاحبه لخدمة العلم ، كما انقطع الراهب لخدمة الدين ، أو إن شئت فقل إن الراهب يعبد ربه من طريق تبتله واعتكافه ، والمعلم يعبده من طريق علمه وتعليمه ؛ كلاهما زهد فى الدنيا إلا بقدر ، وانقطع عن الناس إلا ما يمس عمله ، وكلاهما ركز لذته وسعادته فيما نصب له نفسه ؛ فإن رأيت راهباً ينحرف ببصره إلى زخرف الدنيا وزينتها فهو راهب فسد ، وإن رأيت معلما يجعل غرضه الأول المال والجاه وعرض الدنيا فهو — كذلك — معلم فسد .

كم فى الدنيا من أناس أشقياء أكبر شقائهم ناشئ من أنهم يعملون فيما لم يخلقوا له ؛ هذا مهارته فى يده يعمل بعقله ، وهذا مهارته فى عقله يعمل بيده ، وهذا مهارته فى قلبه يعمل بيده أو عقله ، وهذا مالىّ يعمل عالما ، وهذا عالم يعمل ماليا وهكذا .

ومن هذا القبيل صنف من المعلمين لم يخلقوا للتعليم ، وإنما خلقوا للمال ، فأجسامهم في التعليم ، وطموحهم للمال . فلما لم يصلوا إلى المال — وذلك طبيعي — عذبوا عذابا

شديداً ، وضاقت نفوسهم ، واضطربت عقولهم ، وفشلوا فى التعليم والمال معاً . نسوا أن التعليم عمل روحى لا يصلح له إلا من تجرد للروح وشئونها . وقلبوه إلى عمل آلىّ فحرموا لذة الروح ، ولم ينجحوا فى العمل الآلى . وكانت حجرة التعليم سجناً ، وعلاقتهم بالمتعلمين علاقة السجان بالمسجونين ؛ فلم ينجحوا فى التعليم الذى قيدوا أنفسهم به ، ولا فى المال الذى طمحوا إليه . وكان من الخير أن يريحوا أنفسهم من التعليم ، ويريحوا التعليم من أنفسهم. لقد فهموا ـ كما يفهم الماليون ـ أن مقياس النجاح فى الحياة سمة الرزق ، وعظم الراتب ، وتدفق المال ، فلما لم يجدوا شيئاً فى أيديهم عدوا أنفسهم خاسرين ، فنقموا على أنفسهم، وعلى الزمان ، وعلى حرفة التعليم ، وعلى القدر الذى ألجأهم إليها ، وفاتهم أنهم غلطوا فى مقياس النجاح ، فوزنوا بالمتر، وقاسوا الطول بالقنطار ؛ فمقياس النجاح فى الحياة العلمية غيره فى الحياة المالية ، والمناصب الحكومية .

ومع هذا فلهم بعض العذر فى الشكوى من الضيق والضنك ؛ فنظم الحياة يسرت العيش للراهب ولم تيسره للمعلم ، جعلت الراهب يعيش لنفسه وربه ، وقطعت صلته بالأسرة فتخفف من أعبائها ، ولكنها أباحت للمعلم أن يتزوج ، وأن يكون رب أسرة ، ثم طالبته أن يترهب ، فإن ترهب هو لم تترهب زوجه وولده ، فهو يحلق بنفسه وعمله فى السماء ، وأسرته تجذبه فى عنف إلى الأرض ، يرضى بكسب القلوب ، ويسر بفتح الزهور ، ويعد نفسه غنيا بملك النفوس . ولكن ذلك كله لا يغنى فتيلا عند أسرته ؛ فهى تريد المال الصامت ، ولا يرضيها ملك النفوس الناطقة. فهو بائس مسكين ، مضطرب بين مثله السماوى، ومثل أسرته الأرضى، وغناه النفسى، وفقرهم المادى ، وقناعته بلذته الروحية ، وإلحافهم فى طلب لذائذهم المادية . وقد يكون مثل المعلم صحيحا وسليما لو عاش وحده ، وطمح وحده ، وتغنى وحده ، كما هو

شأن الراهب . أما وهو معلم فى معهده ، ومثقل بالأسرة فى بيته فتلك مشكلة المشكلات فى العالم كله .

لو عقل الناس لأغنوا المعلم ، وأمكنوه من التفرغ لعلمه ولإنتاجه وخلقه . ولو قاسوا الأشياء بفوائدها لقوّموا المعلم أكبر قيمة ، ولكن أنى هذا ، وتقويم الأشياء فى الدنيا من أول عهدها إلى اليوم تقويم أخرق بنى على نظر أحمق ؟ .

هذا كل مهارته أن يثير الضحك بمنظره ، أو بمنطقه ، أو بحركاته ، فينهال عليه المال انهيالا . وهذا يثير الشهوة بألفاظه وخدعه فيتدفق عليه المال بالهيل والهيلمان . وهذا شاب سخيف غر كل ميزته أنه ابن غنى ، مات والده فانتقلت إليه ثروته التى لا تحصى ، ولا خير للمجتمع منه . وهذا وذاك من الأمثلة الوافرة . وبجانب هؤلاء جميعا نابغة لا يجد قوته ، ومعلم لا يجد الكفاف . كل ما فى الدنيا من أمثلة يدل على فساد التقويم . كتاب ملئ حكمة بدرهم . وحبة من لؤلؤ - ليست لها قيمة ذاتية - بآلاف . ومجهود الآلاف من الناس يحرثون ويزرعون لا يساوى خاتما من ماس تتزين به المرأة ساعة فى العمر . ولاعب تقوّم لعبته بالمئات . ومكتشف لا يقوم اكتشافه بشىء . وعلى الجملة فقد عجز العقل أن يدرك « أساس التقويم » عند الناس ؛ فلا هو مقدار ما فى الشىء من منفعة ، ولا ما فيه من عدم المنفعة ، ولا هو الجمال ولا القبح ، ولا الخداع ولا الصراحة ، ولا الصدق ولا الكذب ، ولا الحق ولا الباطل ، لا شىء من ذلك كله . ولا شىء غير ذلك كله صالح لأن يفسر أساس التقويم عند الناس .

ومن مصائب المعلمين أنهم كثيرون ، وأنهم يجب لمصلحة الدولة أن يكونوا كثيرين . فلا بد لكل طفل وطفلة أن يكون له معلم . فكان لا بد من معلمين يتناسبون فى الكثرة مع المتعلمين . ومن مقتضيات كثرتهم أن مدى زمن التعلم

يبلغ عند كثير من أفراد الأمة ثلث عمرهم أو أطول . وكثرة العدد فى مهنة من المهن حليف الفقر . فلو قومتهم الدولة قيمتهم الذاتية التى يستحقونها لم تكفهم خزائنها ، ولم تسد مطالبهم ميزانيتها . فكان الفقر لهم من مقتضيات الحال ، وصروف الزمان . وعلى كل حال فلا منفذ لهم من ضيق اليد إلا سعة النفس ، ومن الفقر فى المادة إلا غنى الروح ، ومن الحياة اللاصقة بالأرض إلا السمو إلى السماء ، ومن الشكوى من سوء تقويم الناس للأشياء إلا إنشاؤهم مملكة روحية فى أنفسهم ، تقوّم فيها الأشياء تقويما صحيحاً عادلاً .

قص أيها الأب هذه القصة على ابنك ، واشرح له ما غمض ، وفصّل له ما أُجمل ، ثم اسأله بعد : هل هو راض عن التضحية كما يضحى الجندى ؟ وهل هو قابل أن يحد من لذته كما يحد الراهب ؟ وهل هو مستعد أن يتعزى بالمعنويات عن الماديات ، وأن يخلق فى نفسه عالما فيه كل ضروب القناعة ، وتحل فيه اللذائذ العقلية والروحية محل اللذائذ الجسمية ؟

إن كان كذلك فدعه يكن معلما ، وإلا فجنبه الشقاء » .

هذه هى المقالة الثمينة التى نشرها الأستاذ العالم المحقق أحمد أمين بك ، وهى تنبئ بروحه العالية ، وليست فى حاجة إلى تعليق . ولنعد إلى موضوعنا فنقول :

العناية باختيار المدرس:

يجب أن نعنى باختيار المدرس كل العناية ؛ كى يكون خير قدوة لتلاميذه ، فى أقواله وأفعاله ، وحركاته وسكناته ، فى المدرسة وخارجها ، فى الملعب وحجرة الدراسة . ولا نبالغ إذا قلنا : يجب أن يكون المدرس مثلا أعلى للأخلاق الكريمة ، والإخلاص فى العمل ، وأداء الواجب ، وقوة الشخصية ، فلا يسمح لأحد بالتدريس إلا إذا كان قد أعد إعداداً خاصاً لتلك المهنة المقدسة ، مهنة التدريس ؛ بحيث يكون متينا فى مادته ،

عالما بطرق تدريسها ، خبيرا بنفسية الأطفال وميولهم ونزعاتهم وغرائزهم ؛ ليستطيع القيام بتربيتهم تربية كاملة ، ويُعدهم للحياة ، ويعودهم أحسن العادات : من الاعتماد على النفس ، والمثابرة ، وضبط الشعور ، والتعاون ، والصدق ، والتضحية ، والوفاء والإخلاص ، كما يستطيع تربية ميولهم وغرائزهم ، ويسير بهم فى الطريق المستقيم .

ولا يستطيع المدرس أن يقوم بذلك كله إلا إذا اتصل بالتلاميذ صلة روحية فى عملهم ولعبهم ، ودرس كلا منهم على حدة ؛ فأصلح المعوج منهم ، وأرشد من يحتاج إلى إرشاد ، وشجع من يستحق التشجيع ، ومهد السبل أمامهم ، وأزال الصعوبات التى تعترضهم ، وفكر فى صحتهم ، وتهذيب أخلاقهم ، وتربية عقولهم ، ووجداناتهم . وساعدهم فى الانتفاع بمواهبهم .

وبدلا من أن تكون مهنة التدريس ملجأ يلتجئ إليه كل من لم ينجح فى عمل آخر ، يجب ألا يختار لها إلا من يحبها ، ويعد نفسه لها ، ويرى فى نفسه القدرة على النجاح فيها .

ومما يؤسف له أن معظم الطلبة والطالبات يلحقون بمدارس المعلمين والمعلمات ؛ ليعدوا أنفسهم لمهنة التعليم ، لا حبا لتلك المهنة أو للأطفال ، بل كعمل يكسبون منه معيشتهم فى المستقبل فقط . وعليهم أن يولدوا فى أنفسهم حب التعليم والأطفال — إن أرادوا النجاح فى عملهم ؛ فالعمل بغير رغبة لا يثمر ، وأن يشعروا بمراكزهم مربين يقدرون العلم والأخلاق ؛ وأن يضعوا نصب أعينهم : العلم الذى لا يوصل إلى الكمال ليس بعلم ؛ فالمدرس ينبغى أن يفكر فى تلاميذه ومدرسته قبل أى شىء آخر ، ويُحتاج إليه لا فى سير المدرسة فحسب ، بل فى التفتيش على التلاميذ ، وإرشادهم إلى أقوم الطرق ، وفى نصح الآباء فيما يتعلق بشئون الأبناء ، سواء أكانت صحية ، أم خلقية ، أم اجتماعية ، أم علمية .

فمن الواجب ألا يقبل فى معاهد المعلمين كل من يتقدم إليها من الطلبة، بل يجب أن يراعى فى اختيارهم من كان لديه استعداد لتلك المهنة ، وقوة فى الجسم ، وأدب فى الحديث، وصدق فى القول، وإخلاص فى العمل، وقوة فى الإرادة ، ودقة فى الملاحظة ، وشعور بحب الأطفال ، ورغبة فى البحث والاطلاع ، وحب للحقيقة ، وإنكار للذات ، ونظافة وإتقان ، وحماسة ونشاط ، وحضور بديهة ، وحسن تصرف ، وقوة فى الشخصية ، ومتانة فى الخلق .

من طالب إلى مدرس :

إن الطالب فى دارالعلوم ، ومعهد التربية ، ومدارس المعلمين ، يجب أن يستمر طالباً مدى الحياة ، محبا للبحث والدرس، والتنقيب والاطلاع ؛ فبهذه الوسيلة وحدها يمكنه أن يكون مدرسا حقا ، ويستطيع أن يعد نفسه من رجال التعليم النافعين . ولكى يستمر فى التقدم يجب أن يكون على صلة دائمة بالكتب العلمية والأدبية والاجتماعية ، وكتب التربية وعلم النفس ، ومجلات التربية والتعليم ، ونقابات المعلمين، ويزور مدارس غير مدرسته ، وبخاصة المدارس الأجنبية فى مصر وغيرها من الأمم، ويتخذ جميع الوسائل الممكنة لكسب المعرفة والمهارة ؛ حتى يكون المثل الأعلى للمدرس .

وفى الوقت الذى ينتسب فيه الطالب إلى دار العلوم، أو معهد المعلمين لايعرف شيئاً عن التربية النظرية أو العملية ، كما لا يدرى شيئا عن نفسية الطفل ونموه العقلى ؛ فإذا طالبته فى ذلك الوقت بالقيام بتعليم غيره علمه كما كان يُعلَّم ؛ وأخذ يحاكى محاكاة الضال ، من غير مراعاة لسن الأطفال ، أو مستواهم العقلى ، أو مستواهم العلمي ، أو ميولهم ورغباتهم ؛ فيقضي وقته في حفظ النظام ، ويعتمد على الكتب

الدراسية كل الاعتماد ، ولا يفهم الغرض الذى ترمى إليه المناهج ، ولا يستطيع أن يعلم تلاميذه كيف يستذكرون دروسهم ، ولا يعرف الطريقة السديدة فى التدريس ، ولا عجب ؛ فهو لا يدرى شيئا عن التربية والتعليم . وقد كلف جُون ستِوارت[1] مِل » أن يعلم الصغار من إخوته وأخواته ، وهو لا يعلم شيئا عن مهنة التعليم ؛ تلك المهنة التى تحتاج إلى كثير من الرغبة والدراسة والعلم والخبرة والمرانة ؛ فسجل رأيه فى هذه الطريقة فقال : « إننى كنت أمقت هذا العمل كل المقت . ومع هذا قد كسبت كثيراً من الآراء والأفكار ؛ فقد كنت أُعد الدروس التى كان يجب علىّ القيام بأدائها ، واستفدت فائدة كبيرة من التمرن والتدرب على شرح الأشياء الصعبة لغيرى ، ولكن قد علمتنى التجربة أنه لا يجوز أن يقوم طفل بتعليم طفل آخر ؛ فإن هذا النوع من التعليم ناقص ، وخال من الروح أو الصلة التى تربط المعلم بالمتعلم » .

يشعر الطالب بمعاهد المعلمين بأنه فى حاجة كبيرة إلى التعلم ؛ كى يترك تلك المحاكاة الآلية ، ويبحث عن نور يستنير به ، ومصباح يستضىء به ، ومرشد يرشده إلى الطريق المستقيم ؛ فيدرس التربية وعلم النفس ، ويتلقى كثيرا من البحوث والنظريات ، ويأخذ فى البحث والتفكير فى بعض المشكلات ؛ حتى تتضح فى نفسه قواعد التعليم وطبيعة التدريس ، وقوانين النمو العقلى ، وأصول التربية وعلم النفس ، والطرق العامة والخاصة ، وآراء المربين والمصلحين . وعلى هذه المبادئ والأسس ، والقواعد والنظريات يبنى طريقته فى التدريس ، ويرتقى من درجة المحاكاة إلى درجة الابتكار والاختراع ، وينتقل من طريقة آلية إلى أخرى مملوءة بالحرية ، ومن

(١) "John Stuart Mill" : فيلسوف إنكليزى (١٨٠٦ — ١٨٧٣م) . من علماء المنطق والفلسفة ، وله كتب ثمينة ، أهمها كتابه "On Liberty" : عن الحرية ، وقد تأثرت انجلترة كثيرا بمبادئه عن الحرية . ارجع إلى كتاب : « التربية الإنكليزية » للمؤلف صفحة ٩ من الطبعة الأولى .

عمل مهوش إلى عمل منظم مرتب ، فيعرف مستوى كل طفل لديه ، والعمل الذى ينتظر منه ، وينتفع بما درس من المواد ، ويستخدم ما عرف من نظريات التربية وعلم النفس ، فتصبح الدراسة خصبة منتجة ، وتصير المناهج حية مثمرة ، ويعلّم كما يعلم رجل مفكر ، له غاية خاصة يقصدها ، وغرض معين يرمى إليه ، ولا يكون آلة يحاكى ويعلم بطريقة آلية مملوءة بالهفوات . وبإعداد المدرس وتثقيفه من الناحيتين : العلمية والفنية تتغير روح المدرسة وعملها ؛ لأن المدرس قد تغير ، وقد أعد خير إعداد . وكما يكون المدرس تكون المدرسة . وكما تكون المدرسة يكون التلاميذ .

شعور المدرس بالحاجة إلى الإصلاح :

يشعر كثير من المدرسين بالحاجة إلى الإصلاح ، وأن كثيرا من وقتهم ضائع لا يستفيد منه التلاميذ الفائدة المرجوة . وينبغي أن يسأل المدرس نفسه هذه الأسئلة، مهما كانت الأسباب :

(١) ألم أحسن استعمال الفرص التى كانت لدىّ ؟ .

(٢) هل حصلت على نتيجة تعادل المجهود العقلى والجسمى الذى بذلته ؟

(٣) هل وصل تلاميذى إلى الغرض الذى أرمى إليه ؟

ولا يعد المدرس ناجحاً إذا ضاع مجهوده سدًى، ولم يجد نتيجة لعمله ، ولم يستفد التلاميذ منه . والمدرس يشعر فى هذه الحال بأن هناك شيئا يستدعى النظر والتفكير العميق ، فيكون بين أمرين : إما أن يبحث عن الخطأ فيتداركه ، وهذا حسن ، وإما أن يقنع بما هو فيه ظناً منه أنه لا أمل فى النهوض بتلاميذه ؛ لغباوتهم ، أو لقلة العناية بهم فى المنزل . ونحن لا نتفق وهذا المدرس فى يأسه ورضاه بالواقع ، وفى عدم البحث لمعرفة العيوب ، والعمل لإصلاحها ببذل كل مجهود ممكن ، ثم فى

الاكتفاء بنظام ظاهرى ، ومظاهر فى النظافة يخدع بها من يسهل أن يُخدع من رؤسائه ؛ فيتحاشى نقدهم ، ويتظاهر بالعمل، وهو لم يعمل شيئا مثمراً . ولا فائدة فى أن يكون مثل هذا مدرسا . وإننا فى كتابتنا نكتب للمدرس الذى يرغب فى النجاح، ويعمل لتحقيق تلك الرغبة ، ويبحث عن الخطأ ، ويستفيد من تجاربه وآراء غيره من المربين ، ويستمر فى الاطلاع ؛ حتى يعرف مادته جيداً ، ويعمل لتوضيحها لمن يشعر بغموضها أو صعوبتها ؛ كى يصل إلى الغرض الذى يرمى إليه . وإننا نلوم المدرس الذى يحل الصعوبات للتلاميذ قبل أن يشعروا بها ، والذى يبين لهم المواضع التى يحتمل أن يخطئوا فيها قبل أن يقعوا فى الخطأ ؛ نلومه لأنه لم يترك لهم الفرصة ليشعروا بالصعوبة ، ويجاهدوا للوصول إلى الصواب ، أو يحاولوا إصلاح غلطاتهم بأنفسهم . وليته يكتفى بهذا ؛ بل يتسرع فى العمل ، ولا يفكر فيما يفهم ويهضم منه ؛ بل يفكر فى مقدار مايعمل ، سواء أفهم أم لم يفهم ، وسواء أهضم أم لم يهضم.

وبما يظهره المدرس من الشدة والقسوة ، يصل إلى انتباه التلاميذ وسكونهم وإصغائهم. ولو تركت هذه الشدة لحظة، أو ترك المدرس الفصل لسبب من الأسباب — لوجدت التلاميذ فى ضوضاء ، وذهب النظام والسكون . فهذا الانتباه القسرى ليس بالانتباه الذى ننشده ، وهذا النظام الظاهرى ليس بالنظام الذى نقصده ؛ فنحن نريد أن نستولى على قلوب التلاميذ ؛ كى ينتبهوا برغبة من أنفسهم ، لا خوفا منا أو من عقابنا ، بل حبا للعلم والاستفادة ، ونأمل أن يعملوا بنظام ، ويثابروا على عملهم فى غيابنا أكثر من نظامهم وعملهم فى حضورنا .

مهمة المدرس الحديث :

تتطلب التربية الحديثة ألا يقوم المدرس بالعمل إلا عنـد الحاجة ، وأن يترك الفرصة لتلاميذه للقيام بالعمل بأنفسهم ؛ بأن يضع لهم الخطّة وضعاً علميًّا منظماً ، ثم يسمح لهم بتنفيذها بطريقة منظمة ؛ كى يعتادوا الاستقلال فى الفكر والعمل ، والاعتماد على النفس ، وتحمل التبعة ، والانتفاع بالحرية المنظمة .

فمهمة المدرس : أن يشجع التلميذ على التفكير المستقل، والعمل المستقل ، والاطلاع وكثرة القراءة ، ويعوده تنظيم المعلومات ، وأن يلاحظه وهو يعمل ، ويراقبه وهو ينتقل من خطوة إلى أخرى ، ويرشده عنـد الحاجة إلى الإرشاد . وما أكثر سرور المدرس حينما يرى تلميـذه يفكر بحرية ، ويحاول أن يعمل حتى يصل إلى الجواب الصحيح .

يقول طالب أمريكى عن أستاذ له : « لقد تعلمت من أحـد أساتذتى أن أقرأ وأفكر بنفسى ، وإن نجاحى لينسب إليـه . وما كان أشد سروره حينما كان يرانا نعمل مستقلين ، ولكل منا تفكيره الخاص أو عمـله . وبطريقته هذه قد تحولت من تابع لغيرى إلى مفكر مستقل بنفسه فى تفكيره . وقد أفادنى هـذا التحول والتغيير ، وكان سبباً فى نجاحى فى عملى . والآن أعرف ما كان يرمى إليه أستاذى ، وأدرك كل ما كان يقصده ، ولو أنى لم أفهم السبب إذ ذاك فى اتخاذ طريقته الخاصة . وإنى واثق بأن كل تلميذ من تلاميذه مدين له كثيراً ، ومدين لطريقته فى عدم التدخل فى عملنا ، وفى قضاء وقته فى رسم الخطط التى كنا نسير عليها ، وفى العمل على تقدمنا فى دراستنا » .

وإن المدرس الماهر القدير لا يستبيح لنفسه أن يقوم بالعمل كله فى حين أن تلاميذه ينظرون إليه ؛ فهو لا يفكر فى المـادة من حيث هى ، ولكنه يفكر فيما يلائم

التلاميذ منها ، وفى الحقائق التى يستطيعون فهمها ، ويعمل لاستفادتهم قبل أى شىء آخر ، وينتظر حتى يشعروا بالصعوبة ويجتهدوا فى التغلب عليها . وإذا ساعدهم كانت مساعدته بطريقة مشوقة تشجعهم على الاستمرار فى العمل والتفكير ، والتحليل العلمى ، والبحث ، وبذل المجهود العقلى .

إن المربى الذى يساعد المتعلمين بالإكثار من الشرح أو بالشرح على الدوام إنما هو قائم بأسهل الأعمال ؛ فمن السهل أن تشرح ، ولكن هل يفهم التلميذ كل ما تشرح ؟ إنك تنتظر من الطفل الصغير أكثر مما تنتظر من نفسك . إنك تطلب منه أن يبقى ساكناً لا يتحرك ، ولو كان ذكيًّا يفهم بالإشارة ما يقال لأول مرة ، فى حين أنك لا تستطيع أن تحكم نفسك وتسير مع الطفل المتأخر حتى يفهم .

إن المدرس الحديث هو الذى ينتظر حتى يتعلم الأطفال على انفراد أو فى جماعات ، ينتظر حتى يقوم الفرد بما يستطيعه من العمل ، ويزوده بالضرورى من الآراء ليتقدم فى مشروعه ، وينجح فى عمله . ولا نريد بالانتظار الانسحاب التام ، أو عدم التدخل مطلقاً ، بل نريد مراقبة المتعلم بصبر ، وأناة ، وقيادته بحكمة وروية ، وإرشاده عند الحاجة .

وعلى المدرس أن يسأل نفسه هذه الأسئلة يوميًّا :

(١) كيف أعلِّم ؟

(٢) كيف أُمكِّن الأطفال من التعلم ؟ وبعبارة أخرى : كيف أجمع بين تعليمهم وتعلمهم ؟

(٣) ما ذا يجب أن أفعل ليعمل التلاميذ بنشاط ورغبة ، مع المحافظة على نفوذى بينهم ؟

(٤) كيف أشوقهم إلى العمل ، وأرشدهم إلى الصواب ، وأوعز إليهم بما ينفعهم وينير أمامهم السبيل فى عملهم ، وأسمح لهم بأن يعملوا مستقلين بأنفسهم ، ويفكروا من غير أن يشعروا بأى ضغط خارجى لتنفيذ هذا العمل ؟

(٥) كيف أعطيهم الحرية ولا أتدخل فى عملهم ، ثم أتركهم يعملون ، وفى الوقت نفسه أكون واثقاً بأنى قائم بواجبى وعملى خير قيام ؟

واجبات المدرس :

ولكى ينجح المدرس فى عمله ويصل إلى تحقيق هذه الأمور يجب عليه ملاحظة ما يأتى من مبادئ التربية الحديثة :

(١) أن يكون عمله منظماً مرتباً ؛ يعرف ما يقوم به اليوم ، وما يقوم به فى هذا الأسبوع ، ومتى يبدأ هذا الموضوع ، ومتى ينتهى من ذاك ؛ بأن يقسم عمله السنوى تقسيماً دقيقاً على ما لديه من الزمن ، ويعمل لينتهى التلاميذ من العمل قبل انتهاء السنة الدراسية ، ويكون لديه وقت كاف للإعادة والمراجعة ، والاختبارات والتمحيص .

(٢) أن يدرس فصله جيداً بحيث يعرفه جماعة ، ويعرف كل فرد فيه حق المعرفة ، ويكون عمله قيادة المتعلمين، وترغيبهم فى العمل ، والسير بهم إلى الأمام ؛ حتى ينجحوا ويصبحوا قادرين على الاستقلال فى العمل والتفكير .

(٣) أن يُعد عملاً خاصًّا لكل فرد أو لكل جماعة من الفصل ؛ ليجد كل فرد ما يلائمه من العمل ، فيعمل بحسب مستواه العقلى والدراسى ؛ وذلك بأن يرتب المدرس عمله ترتيباً حسناً ، ويكون منبعاً للأخبار ، ومصدراً للعلم ، ومرشداً لمن يحتاج إلى الإرشاد ، وقاضياً عادلاً يفصل فى المنازعات التى لا يستطيع الأطفال الفصل فيها ، وأباً رحيماً يعمل لصالح أبنائه والنهوض بهم ، ويفكر فى منفعتهم ، ويشوقهم إلى العمل ، ويعمل لسعادتهم فى مدرستهم ، وتقدمهم فى عملهم .

(٤) أن يتذكر دائماً أن التعليم الحق يتطلب أن يقوم المتعلمون بالجزء الأكبر من العمل ، ويقوم المدرس بالإرشاد ، ويعمل بهذه النصيحة : تكلم قليلا ، واجعل كثيراً من وقتك لمعرفة تلاميذك ومواطن الضعف فيهم ، وإرشاد من يخطئ منهم . ولا تكن كغيرك ممن يعمل ويحل على السبورة، ويستعجل الأطفال فى نقل الحل بفهم أو بغير فهم ، بل عوّدهم القيام بالعمل بهدوء ومثابرة ؛ حتى يصلوا إلى النهاية بمجهوداتهم الشخصية والعقلية . ولا تنس أن عملا قليلا يقوم به المتعلمون أنفسهم خير من عمل كثير يتعلمونه من غيرهم . وتذكر دائماً أن التلاميذ فى حاجة كبيرة إلى نصحك وإرشادك فى الوقت الملائم ، ولكنهم ليسوا فى حاجة إلى نقل أشياء كتبت لهم ولا يفهمون لها معنى .

(٥) أن يسمح للطفل بالتفكير ، ويعطيه ما يناسبه من الحرية المعقولة فى أداء العمل واختياره ، ويعوّده الاعتماد على النفس؛ حتى يتغلب على كل صعوبة تلاقيه ، ولا يسمح له بأن يحاول المستحيل ؛ كى لا يثبط همته ، ويضيع وقته فيما لا فائدة فيه .

(٦) الاحتراس فى الابتداء : —

إن من الخطأ الكبير أن يعطى الأطفال مقداراً عظيماً من الحرية دفعة واحدة . وتتطلب الحكمة التدرج فى إعطاء الحرية ، والاحتراس فى الابتداء ؛ فالمدرس القدير ينبغى أن يدرس تلاميذه حينما يبدأ بالعمل معهم ، ثم يمنحهم الحرية بقدر ، ويقودهم إلى تحمل التبعة بالتدريج ، فلا ينتقل دفعة واحدة بفصل كان يشتغل فى الماضى بالطريقة الآلية المعتادة إلى حرية مطلقة . ومن الممكن أن تجد فى كل فصل أطفالاً يستطيعون أن يفهموا ما يراد منهم من العمل ؛ فأمثال هؤلاء يمكن الاعتماد عليهم وتركهم يعملون من غير مساعدة. وهناك آخرون لا يستطيعون الاستقلال فى العمل؛ فأمثالهم ينبغى تعويدهم العمل منفردين بالتدريج مع المساعدة عند الضرورة .

وقد تكون هناك صعوبة فى الابتداء ، ولكن بالتمرن يمكن التغلب عليها ، وإننا لا ننتظر من المتعلمين فى الابتداء كل إجادة وإتقان .

ومن الممكن أن نعود الأطفال من الصغر كيف يستقلون بعملهم ، ويفكرون فى التغلب على الصعوبات بأنفسهم ، فيستعملون عقولهم ، ويعتادون حسن التصرف فى شئونهم . وهناك فرق بين تلميذين اعتاد أحدهما من صغره أن يُعمل له العمل ، واعتاد الآخر أن يقوم هو بالعمل .

إننا لا نقول بتحويل المسئولية كلها من المدرس إلى الأطفال ؛ بل يستحسن التدرج معهم فى المسئولية، وفى الحرية التى نعطيهم إياها، فنمرنهم على العمل مستقلين؛ حتى يعتادوا فى يوم ما أن يتحملوا كل المسئولية ، ويقوموا بكل شيء بأنفسهم : وبذلك نطمئن إلى النتيجة ، ولا نقع فى خطأ ، فالحرية التى تعطى الطفل يجب أن تكون بالتدريج حتى يعتادها ، ويحسن استخدامها . ولقد سمع رجل حكيماً يقول : « إنه يسمح لأبنائه بأخذ ما يشاءون من كيس نقوده » . فلما ذهب الرجل إلى منزله حاول هذه الطريقة مع ابنه المبذر، فانتهز ابنه الفرصة، وأخذ كل مالدى أبيه من النقود ، فظن الأب خطأ أن هذه الطريقة غير عملية . والحق أن هذا الأب مخطئ ؛ فقد كان يجدر به أن يتدرج مع ابنه ، ولا يعطيه كل هذه الحرية دفعة واحدة ، أما الأب الأول فكان حكيما عود ابنه الاقتصاد من الصغر ، كما عوده الأمانة ، ثم ائتمنه على نقوده ، وتحمل المسئولية من الطفولة .

(٧) تعويد التلاميذ الاعتماد على النفس :

فى إحدى المدارس عيِّن أحد النظار الذين درسوا أصول التربية وقواعدها ، وقد تشبعت نفسه بالآراء والنظريات الحديثة ، وكان خلفاً لناظر يدين بالمبادئ العسكرية فى التعليم ، وقد شغل هذا المركز ثلاث سنوات أدار فى أثنائها المدرسة باستعمال

يده الحديدية فى النظام ، والعقاب الصارم متى سنحت له الفرصة ، وكان بمعزل دائماً عن الطلبة . فلما أتى الناظر الجديد ـ وكان متشبعاً بالروح الحديثة فى التربية ـ وجد نفسه فى مركز حرج ؛ فقد خلف رجلا لا يعرف شيئاً عن التربية الحديثة، ولا يدين بها ، وألفى نفسه فى مدرسة لم يعود أطفالها أن يختاروا لأنفسهم ؛ فقد كان المدرس يختار لهم كل شىء ، ولم يكن لهم رغبات ؛ بل كانوا منفذين لرغبات المدرسين . وحينما يطلق لهم العنان لا يعرفون كيف يتجنبون المضار ، ومتى يبتدئون بالعمل ، فالصلة بين الناظر القديم والمدرسة كانت صلة استبدادية كلها نفور واستبداد ؛ فالأطفال يرغمون على أن يظهروا كل خضوع للمدرس ، وأن يطيعوه طاعة عمياء من غير سؤال عن السبب ، وألا يتكلموا إلا حينما يُدْعَوْن إلى الكلام ؛ فكان المدرس مكروهاً فى قلوبهم ، محتقراً فى نفوسهم . وكان ذلك يبدو من سلوكهم حينما يغيب أو يترك الفصل . تلك التربية الاستبدادية لا تتفق وروح التربية الحديثة[1] .

وجد الناظر الجديد نفسه فى مركز صعب ؛ لأن الأطفال كانوا يفرون منه حينما يرونه على مقربة منهم ، ويفضلون أن يكونوا بمعزل عنه ، فأخذ يعمل فى هدوء ، ووزع المسئولية بحكمة ، ورأى أن المدرسة فى حاجة إلى مساعدة كل فرد فيها ، وسرعان ما أدرك الأطفال أن ناظرهم يعمل لمساعدتهم والنهوض بهم ، وإصلاح مدرستهم .

مكث الناظر الجديد سنة واحدة فى تلك البيئة ، ولكنه أظهر نجاحاً سريعاً فى جعل المدرسة قادرة على أن تسير سيراً حسناً من غير ضغط مستمر ، واستبداد دائم .

---

(١) ارجع إلى كتاب :
Thomas Alexander, Prussian Elementary Schools, Macmillan & Co., 1918.

ولم يتمكن فى تلك المدة الوجيزة من تحقيق كل رغباته ، وكل ما فى نفسه ، ولـكن النتائج التى وصل إليها يمكننا أن نذكر منها ما يأتى :

أولاً : أنه أثر فيمن لديه من المدرسين ؛ فأخذ كل منهم يعمل لينجح فى عمله ، ويزود نفسه بالآراء الحديثة فى التربية ، فاشترك كثير منهم فى كلية المعلمين بجامعة (كولومبيا)؛ لأخذ محاضرات صيفية بها، بعد أن كانوا لا يشتركون فى تلك المحاضرات. وهذا دليل على تحسن حالتهم وتأثرهم بالناظر الجديد . وبدءوا يتصلون بما يحدث فى عالم التربية ، ويعملون لإصلاح ما يعن لهم من العيوب فى مدرستهم ، فانتقلت المدرسة من حسن إلى أحسن .

وقد كان ذلك الناظر مثلا للتواضع ؛ لم يفخر بما قام به من جلائل الأعمال ، ولم يظهر أنه القوة المركزية فى المدرسة ، مع أنه قد كان قوة تعمل للإصلاح وهى صامتة ؛ فرفع مستوى المدرسة علميًّا واجتماعيًّا وخلقيًّا، واستمرَّت سائرة على هديه، محتذية حذوه ، خمس سنوات بعد أن تركها .

ثانياً : لقد ظهر تغير كبير فى شعور التلاميذ نحو المدرسة ؛ فعاد إليها من تركها منهم ، واستمروا بها حتى نالوا شهاداتهم . وقد كانوا فى عهد الناظر القديم ينتظرون بفارغ الصبر بلوغ السن المعينة التى تسمح لهم بالانقطاع عن المدرسة ليتركوها غير أسفين ؛ مللاً منهـا ، ونفوراً من إدارتها . وقد كان معظم هؤلاء الطلبة من الطبقة العاملة التى لا تجد عملاً إلا بعد حين ، ولا يخفى أن تركهم المدرسة قبل الانتهاء من التعلم، وقبل أن يجدوا عملاً ملائماً لهم ــ يضر المجتمع . وقد دلت الاختبارات العلمية الحديثة بعد الفحص والاستقصاء على أن الأذكياء من الناس قد يصبحون مجرمين إذا لم يُعَلَّموا كيف يدركون رغباتهم ، ويضبطون قواهم النفسية ، ويعملون للانتفاع بها انتفاعاً صالحاً .

(٨) الانتظار على الأطفال حتى يظهروا بمظاهرهم الطبيعية :

وذلك بأن يعودهم المدرس أداء العمل كما ينبغى من غير رقيب عليهم ؛ فإن الغرض الأساسى من التربية المدرسية أن يُربّى التلاميذ تربية بها يستطيعون إجادة أعمالهم بوازع من أنفسهم ، من غير أن يكون عليهم رقيب يرقبهم ، وبها يقومون بالعمل فى حضور المعلم كما يقومون به فى غيابه إذا خرج من الفصل وتركهم وحدهم . فالتعيينات والدروس التى يعطونها فى الحياة المدرسية ينبغى أن توضع بحيث تؤدى الى أن يعتادوا الثقة بأنفسهم ، ويشعروا بالتبعة الملقاة على عاتقهم ، ويقوموا بالعمل الذى ينتظر منهم . وحينما يعتاد الأطفال الدخول فى الفصل ، والجلوس فى أمكنتهم عند بدء الحصص ، والخروج عند انتهائها ، وأداء الواجب من غير أن يطالبهم أحد به ، والقيام بالعمل من غير أن يحثهم أحد عليه ، والشعور بالواجب نحو أنفسهم ورفقائهم ومدرسيهم ومدرستهم — تكون المدرسة قد قامت بواجبها خير قيام . فالمربى يجب ألا يفكر فى العمل فحسب ؛ بل فى تربية الطفل للحياة ، بحيث يمكنه القيام بعمله لو تُرك وحده من غير رقيب — وفى تعويده أداء الواجب حُبًّا له ، من غير أن يحثه أحد على ذلك.

ولا يستطيع الطفل أن يقوم بما ننتظره منه إلا إذا تركت له الحرية فى تنفيذ العمل وأتيحت له الفرصة ليعمل ، ويعمل بجد كل عمل شاق . وإن الأم التى تبالغ فى رعايتها لطفلها فلا تتيح له الفرصة للقيام بكل عمل ومقاتلة الحياة ، ومحاولة كل شىء — مسيطرة على الطفل سيطرة تضره من حيث لا تشعر . وليست هذه العناية أو التقييد بالأغلال حبا ، بل الحب ألا تقيده ، وأن تعطيه الحرية والفرصة ليعمل . فعلى الأم أن تعامل ابنها بما تقتضيه الإنسانية ، وأن تحبه على البعد والقرب . ولتثق بأن الطفل يقدر أن يسير وحده من غير اعتماد على أحد إذا أعطى الفرصة والحرية فى أداء

العمل : ويجب أن تبعد يديها عن ابنها ؛ كى لا تخنقه باستعبادها ؛ فإن الأم التى تعنى بطفلها كل العناية ليست بمحبة له ، ولكنها مستعبدة له ؛ فهى لا تتركه يقوم بنفسه، ويقعد بنفسه ، ويقاتل الحياة بنفسه ؛ بل تسيطر عليه، ولا تترك له الحرية فى العمل، فتخنقه وتدّعى أنها تحبه . وقد اتفق كثير من المربين أمثال (ولْيَم جيمس ، وأُوبِنْهيم[1] ، وفرُويد[2] ، ويُونْج[3] ، وأدْلَر[4] ، وستيكِل[5]) على أن شدة الضغط وشدة الرقابة من الآباء والمدرسين من أكثر العوامل ضررا بالأطفال فى حياتهم.

هذا وإن المدرس الماهر هو الذى يفكر دائما فى أن يُحتاج إليه أكثر من حاجته إلى غيره ، وتكون إشارته أكثر من أمره ، وتشويقه أكثر من ضغطه ، وثقته أكثر من شكه ، يسيطر بلطف ، ويلين من غير ضعف ، ويحكم بدون عنف .

يقول أحد كبار الساسة من الأمريكيين : «إن الثقة به كانت السبب فى نجاحه.» ولا شىء يؤدى إلى إخفاق المربى أكثر من الشك فى تلاميذه ، وعدم الثقة بهم ، والعنف معهم ، والشدة فى معاملتهم ، والضغط عليهم .

ولقد وصف (ثَكَرِى[6]) ـ وهو أحد أدباء انجلترة فى القرن التاسع عشر ـ أستاذا له بأنه كان فظا غليظ القلب ، قاسى المعاملة ، جامد العقل ، بذىء اللفظ ، لا يستطيع مخلوق أن يتحمل آدابه ومعاملاته؛ فقد كان يضرب على القفا، ويسب بألفاظ نابية إذا لم يحفظ التلميذ ، أو لم يفهم . لم يثق بأحد من تلاميذه ، ولم يعرف للتدريس معنى . وكان تلاميذه يجدون صعوبة فى اللغة اللاتينية، وما هى بالصعبة لو كان المدرس جيدا .

أما (دانتى[7]) فقد ذكر أستاذه مدرس اللغتين اللاتينية والإغريقية أحسن

---

(١) Oppenheim (٢) Freud (٣) Jung (٤) Adler (٥) Steckel

(٦) Thackeray : أديب إنكليزى ، (١٨١١ـ١٨٦٣م.) كتب كثيرا عن الأغنياء فى انجلترة فى القرن التاسع عشر ، كما كتب (دكنز) عن حياة الفقراء فيها .

(٧) Dante (١٢٦٥ـ١٣٢١م.) : أعظم شعراء إيطاليا ، اضطهد كثيرا ونفى لمناداته بحرية الفكر . وله آراء فلسفية عن الثواب والعقاب والجنة والنار .

الذكرى؛ إذ قال : إن كان قد نجح فى حياته فنجاحه ينسب إلى أستاذه « لاتين » .

فقد كان« تَـكَرِى» يشكو سوء معاملة أستاذه وصعوبة اللغة اللاتينية فى حين كان (دانتى) ينادى بأن سهولة اللغتين: اللاتينية والإغريقية تنسب لمهارة أستاذه، وحسن معاملته، وجودة طريقته ، وثقته بتلاميذه، وتشويقهم إلى عملهم، وجعله المادة الجافة شائقة ، والصعبة سهلة . فمعاملته الحسنة دعتهم إلى حب العمل ، وكانت ثقته بتلاميذه كبيرة ، مملوءة بالإخلاص والتفكير فى منفعة التلاميذ ، وميولهم ورغباتهم . فنجاح مدرس (دانتى) ينسب إلى تفكيره فى تلاميذه ، والتضحية بكل شىء فى سبيلهم ، وإعداده لدروسه وتنظيمها ؛ كى تكون سهلة عليهم .

(٩) الحرية :

يجب على المدرس أن يذكر أن التربية الحديثة مؤسسة على الحرية فى العمل ، وفى الاختيار ، وفى التفكير ، وطريقة التنفيذ . وليس من السهل تعيين المقدار الذى يسمح به من الحرية للأطفال ؛ فالمقدار الذى يناسب أحد الأطفال من الحرية ربما لايناسب الآخر. ولا حرية فى حياة يعتمد فيها الفرد على غيره فى كل عمل من الأعمال. ولا حرية حينما تسيطر رغبات الشخص وميوله عليه ؛ فيرغب فى ملك غيره ، ويتمنى ما يمتلكه سواه ، ولا يريد من الطعام واللعب إلا ما فى يد غيره . فمثل هذه الحرية يجب أن تهذب؛ حتى يستطيع الطفل أن يفرق بين الحسن والقبيح، والغث والسمين، ويحسن الاختيار ، ويفكر فى غيره ، ويميز الرغبات النافعة من الضارة ، ويضبط شعوره ونفسه ، فلا يغتصب ما فى يد غيره . فالشخص الذى لا يستطيع التغلب على رغباته وميوله عبد لنفسه . وليس من الحرية أن تعمل حيث تجب الراحة ، أو تستريح حيث يجب العمل ، أو تلعب كل الوقت ولا تقوم بعمل نافع فى الحياة ؛ فالشخص الذي لايعمل حيث يجب العمل ، ولا يستريح حيث تجب الراحة عبد من العبيد .

أهمية عمل المدرس وأثره فى الإصلاح الاجتماعى :

لا ينكر أحد ما للمدرس من الأثر الكبير فى الرقى وإصلاح المجتمع الإنسانى، علميا وخلقيا وأدبيا وصحيا واجتماعيا . ولدى المدرس المخلص فرص كثيرة للإصلاح، إن كان يفكر فى الإصلاح ؛ إصلاح العيوب المنتشرة فى المجتمع . إننا لا ننتظر من المدرس أن يكون مدرساً فحسب ؛ بل ننتظر منه أن يكون مصلحا بالقدوة الحسنة ، والعظة حيث تنفع العظة . ننتظر منه أن يهب كثيراً من وقته ومجهوداته وأعماله لنفع المجتمع والنهوض به، والسير به فى طريق المثل الأعلى، وأن ينظر إلى مصلحة الطفل، ويفكر فى النهوض به ، ويعمل كل وسيلة لاستخدام مواهبه ، والسير به فى سبيل النجاح فى الحياة .

إن أثر المدرس يظهر فى تلاميذه ، كما يظهر أثر الآباء فى الأبناء . وإن وجود مدرس قدير مخلص فى المدرسة كثيرا ما يغير بيئتها وينهض بها ؛ فهو مثل صالح يقتدى به غيره من الزملاء . أما مركزه فهو مركز كبير لا يقدره إلا من يشعر بأثر المدرس فى المجتمع . ولا غرابة ؛ فلقد أوصى (أجاسيز[١]) ألا يكتب على قبره إلا كلمة واحدة هى كلمة « معلم ». ولقد قال أحد الأبطال ذات مرة : « لو كنت بين أطفال المدارس خمس سنوات. . .»؛ فهو يتمنى أن يكون مدرسا يقضى بين تلاميذ المدارس ولو خمس سنوات؛ حتى يبث فى نفوس النشء الصغير مايرى فيه الخير لهم ولبلادهم. يتمنى ذلك البطل الفرصة التى أتيحت لنا فى أن يكون بين جدران المدارس خمس سنوات ؛ ففى سنى الطفولة يستطيع المدرس أن يضع الأساس المتين ، وأن يغرس أشرف المبادئ وأحسن الأخلاق فى نفوس النشء ؛ فى نفوس أطفال اليوم ورجال

(١) Agassiz : هو (چون لويس رودولف أجاسيز) ، العالم السويسرى المشهور ، من علماء التاريخ الطبيعى . ولد فى ٢٨ من مايو سنة ١٨٠٧ ، وتوفى فى ١٤ من ديسمبر سنة ١٨٧٣م.

الغد . هؤلاء الأطفال إذا هذبوا اليوم هُذِّب المجتمع غدا. أما نحن فمدرسون إلى الأبد، ولدينا فرصة أكبر من فرصة ذلك المصلح، فيجب ألا نألو جهدا فى السير بالأطفال إلى الطريق المستقيم، إلى الأمام ، إلى الرقى، إلى العلا ، إلى المدنية والحضارة ، إلى الكمال أو ما يقرب من الكمال .

فالمدرس يجب أن يكون مثلا عاليا للتلميذ، يحذو حذوه ، ويقفو أثره ، ويجرى على طريقته ووتيرته . هو روح التربية ، وهو القائد والصديق، والمعلم لا بالاسم فحسب ، بل بالحقيقة والروح. وليس هناك عمل شريف مقدس كالتعليم، ولا يستحق ذلك اللقب العظيم؛ «لقب معلم» — إلا الرجل الكامل الذى يترفع عن الدنايا، ويربأ بنفسه عن فعل القبيح. قال كاتب إنكليزى : «ليست المناهج والقوانين المدرسية، والأبنية الفخمة، والأجهزة العظيمة بأكثر أهمية فى التربية والتعليم من المدرس؛ فإن له أثراً كبيرا فى التلميذ؛ فى علمه وأدبه، وفى عمله ومهارته. حسن جد أن تبنى المدارس وتملأ بالتلاميذ، وترسم لها الخطط لإصلاحها، وأحسن من هذا أن يُعَدَّ لها المدرسون الأكفاء؛ لينهضوا بها وبالتعليم». فمن المحال أن يرتقى مستوى التعليم إلا إذا أوجد له مدرسون قديرون، مخلصون فى عملهم، خبيرون بمهنتهم ، واستفادوا من تجاربهم وإرشادات غيرهم . فإذا أردنا إصلاح التعليم فى مصر فلا سبيل لذلك إلا إصلاح المدرس. ولا وسيلة لإصلاح المدرس إلا العناية بإعداد المدرسين فى دار العلوم ومعهد التربية ومدارس المعلمين والمعلمات .

بالأمس كانت طائفة المعلمين مهملة ضائعة الحقوق ، وكان راتب المعلم ضئيلا ، ومعاشه قليلا ، وحياته مملوءة بكثير من المتاعب التى تهدد مستقبله . ولم يكن حظ المعلمة بأحسن من حظ المعلم . وكانت شكوى هذه الطائفة قليلة ، مع كثرة ما كانوا يقاسونه من شظف العيش، ومشقة العمل . وقد أخذت حال المعلمين تتحسن بعض الشىء فى مصر منذ سنة ١٩٢٢ بعد تعديل الدرجات ، كما قدروا التقدير كله فى العالم

المتمدين بعد نهاية الحرب العالمية الماضية؛ إذ كان للحرب الفضل فى ازدياد الشعور بفائدة التعليم والمعلمين. واليوم قد نالوا كثيرا من حقوقهم، وأصبح مستواهم يناهض مستوى غيرهم من المثقفين أدبيا وماديا. ولا غرابة؛ فالمعلمون قادة الأفكار فى الأمة، يمثلون الطبقة المثقفة العالمة فيها، ويقومون بعمل جليل؛ فعليهم وبهم ترقى الأمة إلى أسمى درجات الحضارة والمدنية.

وسيقبل كثيرون على مهنة التدريس؛ تلك المهنة الروحية المقدسة، مادام المعلمون يجدون كل تشجيع وتقدير من الأمة والحكومة. وللمعلمين اليوم مركز سام فى جميع الأمم الراقية. ولا عجب إذا تمنى بعض الزعماء أن يكونوا معلمين؛ ليبثوا ما يشاءون من المبادئ الخلقية والاجتماعية والوطنية فى نفوس النشء؛ فإنما يقدر المعلم مَن يعرف قيمة التعليم.

ولكى تدرك أهمية عمل المدرس وأثره فى الإصلاح الاجتماعى نذكر لك الكلمة الآتية، وهى مقتبسة من تقرير ضابط التعليم بلندن(١) سنة ١٩٢٦.

إن المذكرة الآتية جديرة بالذكر، وهى عن مدرسة كانت تعد منذ سنوات ليست بالقصيرة أردأ مدرسة فى لندن؛ فلقد كانت فيما مضى مركزاً للقتال؛ فالجهات المجاورة كانت تتقاتل مع إدارة المدرسة، والتلاميذ كانوا يتشاجرون مع المدرسين، والآباء كانوا ينصرون أبناءهم، وكان العقاب البدنى شائعا، وإهمال الواجب أمراً عاديا، والأطفال يرسلون إلى المدرسة وملابسهم خرق بالية، وحالتهم هى التعس والشقاء، يأتون فى الشتاء من غير أحذية ولا جوارب، فى الوقت الذى تكون فيه الأرض والنبات والأشجار كلها بيضاء مغطاة بطبقة كثيفة من الثلج. وكثيرا ما كان المدرسون يشترون الخبز لتلاميذهم من مالهم؛ فكان المدرس يقوم بجهود

(١) ارجع إلى كتاب (التربية الإنكليزية) للمؤلف الطبعة الأولى ص ٩٤.

كبير نحو تعليم التلاميذ النظام ، وإطاعة القوانين، والعناية بالعمل . وكان يعمل كل وسيلة لكسب محبتهم وصداقتهم بدلا من عداوتهم . أما الآن فقد ظهر نشء جديد، وجيل حديث ، نشأ فى عصر يخالف العصر الماضى ، ويفوقه رقيًّا فى المستوى ، والعناية بالصحة ، والتربية البدنية ، وملاءمة المبانى المدرسية الجديدة ؛ ففى المدرسة الإنكليزية اليوم لا تجد طفلا بغير حذاء ، ويندر جدا وجود تلميذ يلبس ملابس ممزقة أو خرقا بالية . لا كسل ولا إهمال ، ولا ضعف ولا اصفرار ؛ لأن الأطفال اليوم يجدون فى المدرسة وخارجها عناية كبيرة بالألعاب الرياضية ، وصاروا يحبون جو المدرسة ؛ لأنه جو يشجع على الذهاب إليها ؛ جو الترغيب والتشويق ، لا الإرهاب والتخويف . والآباء اليوم يثقون ثقة كبيرة برجال التعليم ، ويشعرون بما تؤديه تلك الطائفة لهم من جليل الأعمال ، ويساعدون المدرسين كل المساعدة فى تنفيذ النظم المدرسية التى يضعونها .

وللآباء والمعلمين الحق فى استشارة الطبيب عن أبنائهم وتلاميذهم فى أى وقت عند الحاجة . وفى كل سنة يرى شىء من التقدم ، ويبدو هذا التقدم واضحا من صور التلاميذ اليوم وصورهم قبل اليوم .

وقد نادى (فِيشَر) فى انجلترة فى سنة ١٩١٧ بتحسين مرتبات المدرسين ونظامها. ومما ذكره أن مهنة التعليم محال أن تغنى . وقال : إن من الواجب أن يستريح المدرسون من المتاعب المالية ؛ فإن راحتهم ضرورية لإصلاح التعليم ، والمتزوج منهم يجب أن يكون فى حالة تمكنه من تربية أسرته تربية صالحة . وإن المدرس الحزين الكاسف البال لا يستطيع أن يحسن عمله ، أما المدرس البائس فخطر اجتماعى له أثره السيئ فى المجتمع .

وقد نال المدرسون فى انجلترة كثيرا من حقوقهم بعد أن شعرت الأمة الإنكليزية بما يقوم به المدرس من خدمة الشعب ، وبأهمية عمله وأثره فى الإصلاح الاجتماعى ، وبما يستحقه من التشجيع والترقية .

ومن المحال الوصول إلى المثل الأعلى فى التربية والتعليم إلا إذا أعطى المدرس حقوقه من الوجهة المادية؛ لأن المدرس كغيره لا يمكنه القيام بما عليه من واجبات، وما تتطلبه الحياة من الأمور المالية إلا إذا كان لديه ما يكفى من المال لنفقة أسرته ، وتربية أبنائه وبناته .

إن المدرس يحتمل كثيرا ، ويقاسى كثيرا ، فى سبيل النهوض بأبناء الشعب ، وقد جعل من الشعوب المتوحشة شعوبا متمدينة، وقاتل الجهل، وحارب الأمية ، ومهد الطريق للمدنية الحديثة التى نراها اليوم ، وقضى حياته فى خدمة أمته ، ورفعة بلاده ، ورقى وطنه . وجدير بالأمة أن تذكره بكل فخر وإعجاب ، وتذكر ماقام به من عمل جليل ؛ فبه ترقى الأمم وتنتصر ، وتسمو من حضيض الجهل والوحشية إلى أوج العلم والمدنية . وإذا أردت أن ترى أثر المدرس فانظر إلى الأمم الراقية وحضارتها ومستواها ، فى الحياة والمعيشة والصحة والرقى والتعليم ، تجدها أثراً من آثار المدرسين ، وحسنة من كثير حسناتهم . ولا يعرف فضلهم إلا المثقفون الذين يشعرون بفائدة العلم وأثره .

كما يكون المدرس تكون المدرسة :

تشعر الحكومات فى الأمم المتمدينة بأنها لا تستطيع أن تقوم بتعليم كل فرد من الأفراد تعليما حقًّا مهما كانت غنية إلا إذا وجد لديها عدد كاف من مدرسين قديرين أكفاء ، يشعرون بواجبهم وبالمسئولية الملقاة على عاتقهم ، يصح الاعتماد عليهم، والثقة بهم فى تنفيذ أغراض الأمة التى تبتغيها من التعليم . لذلك ينبغى تشجيع من يستحق التشجيع منهم ، ومكافأة المخلصين ؛ فكما يكون المدرس تكون المدرسة ؛ لأن المدرس قدوة للتلاميذ ، يحاكونه فى حركاته وسكناته ، وأخلاقه وعاداته ، وأفكاره وآرائه ، فإذا لم يكن المعلم كفئاً متحلّياً بالأخلاق السامية ، مخلصاً لمهنته وتلاميذه ومدرسته ، فمن المحال أن تصل المدرسة إلى الغرض الذى من أجله أُنشئت. فالمدرس المهمل عقبة فى سبيل تعليم الأمة تعليماً حقًّا . وكثيراً ما يعجز عن أن يقود تلاميذه إلى سبل النجاح فى الحياة والعمل ، ويُضيع أموال الأمة التى تتكبدها فى سبيل التعليم ، ويحول خيرة أبنائها وذخيرتها إلى كسالى متعطلين ؛ فيهدم أغراض الأمة بقتل أرواح عهدت إليه ، ونفوس وضعت بين يديه ، ثقة به واعتماداً عليه . وتكون تلك الأرواح ضحية المدرس وعجزه ، أو إهماله وتقصيره ، وهو مسئول عنها أمام الله، وأمام الإنسانية ، وأمام وزارة التربية والتعليم . مثل ذلك المدرس الذى يضحى بالودائع الثمينة التى فى يده ، والأمانات الغالية التى اؤتمن عليها ـ لجهله وكسله، لا يستطيع أن ينجح فى مهنة التدريس ، ويجب ألا يستمر فى المدارس المصرية ؛ فقد مضى الوقت الذى كان كل من لم ينجح فى عمله يتخذ مهنة التعليم مهنة له . وينبغى أن نضع على الدوام بين أعيننا تلك الحكمة البالغة : « كما يكون المدرس تكون المدرسة، وتكون الأمة » . وأن نذكر دائماً المضار والآثار السيئة التى تعود على المجتمع من المثل السيئ ، والقدوة الطالحة .

والمدرس لا يمكنه أن يقوم بواجبه خير قيام إلا إذا قام كل من له صلة بالمدرسة بعمله ، وأداه خير أداء ؛ بأن تقوم الوزارة بواجبها وإرشادها ، ويقوم النظار بعملهم ، والآباء بمعاونتهم ، والتلاميذ بواجباتهم . فالمدرس وإن كان القوة المرشدة، والعضو الهام فى المدرسة، فإن هناك أعضاء آخرين يُسألون عنها بجانبه؛ فهو لا يمكنه أن يسد النقص الذى يُحدثه الباقون من الأعضاء. فيجب أن يتعاون هؤلاء الأعضاء جميعاً فى سبيل نجاح المدرسة ؛ فالتعاون حياتها ، به تعيش وتحيا . ويتوقف نجاحها على معاونة الجميع فى سبيل النهوض بها بإنشاء مدارس صحية ، بها مقاعد مريحة ، وتهوية حسنة . فمهما أُوتى المدرس من المهارة والإخلاص فإنه لا يمكنه أن يتغلب على الضرر الذى يعود على المدرسة إذا كان هناك إهمال من أحد الأعضاء الممثلين لها . لهذا كله يتضح أنه كما يكون المدرس تكون المدرسة إذا أعطى المدرس كل ما يحتاج إليه من الأمور الهامة فى عمل المدرسة وسيرها بنجاح، وإحيائها والنهوض بها ، والوصول إلى الغرض المنتظر منها .

إعداد المدرس المهنى

تحتاج مهنة التدريس إلى إعداد خاص؛ لأن مسئولية المدرس كبيرة، وعمله عظيم. وهى أولى المهن بالعناية بالإعداد علميًّا وعمليًّا . وتحتاج تلك المهنة إلى صبر وخبرة بطرق التدريس ، وإعداد خاص ، وأخلاق طاهرة ، وحب طبعى للمهنة ، وعلم بالمادة التى يدرسها ، وتعاون كبير على العمل . وقد يكون المدرس مطبوعاً يميل إلى التدريس بطبيعته ، وبعبارة أخرى خلق ليكون مدرساً؛ يجمع الأطفال حوله وهو صغير ؛ ليعلمهم ما عرفه فى مدرسته ، ويقص عليهم قصصاً شائقة تنفعهم فى حياتهم ، مما سمعه فى بيته أو مدرسته . ويرى بعض علماء التربية أن المربى يخلق ولا يصنع ،

أما نحن فنرى أن المربي يصنع كما يخلق ، فيكون مصنوعاً كما يكون مطبوعاً ، وأن العلم بالمادة وبالطرق الحديثة فى تدريسها يساعدان المدرس فى النجاح فى عمله ؛ فالعمل نبات بطىء النمو لا يثمر إلا إذا تعهده الإنسان بالتجربة العلمية والخبرة والتجارب والمثابرة . ولا ننكر أن المدرس المطبوع خير من المدرس المصنوع إذا درس الاثنان علوم التربية . ولا يكفى أن يكون المدرس مطبوعاً ليكون ماهراً فى مهنة التدريس؛ بل يجب أن يدرس التربية وتاريخها ، وطرقها العامةو الخاصة، ونفسية الطفل؛ كى لا يقع فى الخطأ الذى وقع فيه غيره ممن لم يدرسوا التربية ، وعلم النفس ، وتدبير الصحة من قبل .

وإذا قلنا إن المدرس المطبوع خير من المدرس المصنوع فليس معنى ذلك أن الأول لا يحتاج إلى إعداد خاص ، أو أن الثانى لا يُرجى منه خير ، ولا يستطيع أن يكون ماهراً فى تدريسه إذا أعد نفسه لتلك المهنة ، وانتفع بتجارب غيره من المربين ، وعمل لتنفيذ ما يدرسه من نظريات التربية وقواعدها .

ولا يستطيع المدرس أن ينجح فى عمله إلا إذا كان عالماً بمادته حق العلم ، محبًّا لعمله، دقيقاً فيه ، يعد درسه جيِّدًا قبل أن يدخل فصله ، يفكر فى تلميذه ومستواه، وفى ميوله ودروسه قبل أن يفكر فى أى شىء آخر ، يخلص لمدرسته وتلاميذه الإخلاص كله .

وتتطلب مهنة التدريس :

(١) متانة المادة .

(٢) دراسة علوم التربية ونفسية الأطفال وميولهم وغرائزهم . ولنشرح هاتين النقطتين فنقول :

«ا» ماذا نقصد بمتانة المادة ؟

نقصد بمتانة المــادة معرفة المواد التى تقوم بتدريسها معرفة حقة تناسب الزمن الذى تعيش فيه ، بحيث تعرف كل صغيرة وكبيرة عنها ، وتتصل بكل ما كتب فيها قديماً وحديثاً ؛ حتى تستطيع أن تمتلك قلوب التلاميذ بمادتك وطريقتك . ولا يكفى أن تعرف الدرس الذى تقوم بتدريسه ؛ بل يجب أن تسيطر على المــادة التى تطالب بتدريسها ، وتعرف كيف تصل هذه المــادة بالمواد الأخرى وبالحياة ، وكيف توضحها وتوازن بينها وبين غيرها ، وتضع كل شىء منها فى موضعه .

ومعرفة المــادة أول شىء يجب أن يفكر فيه المدرس ، وشرط أساسى لنجاحه فى مهنته . كثيراً ما يلحق الشبان بمهنة التدريس ومعلوماتهم سطحية ، وقد نجح فى حياة التدريس منهم من خلق بطبيعته ليكون مدرساً ، وقصر نفسه وروحه وقلبه على عمله المدرسى ، وأعد دروسه فى كل يوم إعداداً جيداً ، وانتهز كل فرصة لتحسين معلوماته . وإن مثل هذا المدرس لا ينال منا إلا كل تشجيع . أما المدرسون الذين لم يعدوا أنفسهم لمهنة التدريس وما تستدعيه من علم وصبر ومهارة وإخلاص ، ولم يبذلوا جهدهم فى تحسين مستواهم العلمى باستماع بعض المحاضرات ـ فمحال أن ينجحوا فى عملهم . وللتمكن من المــادة فوائد ، منها :

(١) تبعث فى الإنسان حب العمل:

إن المدرس القدير يستطيع أن يستخدم مادته فى تشويق تلاميذه إلى المدرسة والعلم والعمل ، وفى إيقاظ عقولهم ؛ حتى تصير الدراسة سارة لهم ، وتصبح الحياة المدرسية حياة السعادة والهناءة ، فلا يهجر التلميذ المدرسة قبل أن يتم دراسته كما يفعل كثير من المتعلمين . ولتشويق التلاميذ يجب ألا تكون المــادة مقصورة على العلوم والنظريات ؛ بل يجب أن تشمل الأعمال اليدوية التى تناسب البنين أو البنات .

(٢) تساعد فى حفظ النظام فى الفصل :

إن المدرس الذى لا يستطيع أن يحفظ النظام فى فصله ، ويمتلك انتباه تلاميذه بمادة مشوقة ، وروح مسيطرة ، وشخصية مؤثرة ، لا بالإرهاب والتخويف ، والضرب والتعنيف ـ لا يصلح لأن يكون مدرساً ؛ فإن تلاميذه فى الغالب حاضرون فى الفصل بأجسامهم ، غائبون بعقولهم وأرواحهم، ولا يستفيدون شيئاً من دروسهم. ولو تحققنا منزلة المدرس بين تلاميذه حينما يكون مسيطراً على مادته ، غنياً عن دوام النظر إلى كتابه ، لقدرنا ما لمتانة المادة من الأثر فى نفوس التلاميذ . إن المدرس الذى لا تفارق عيناه الكتاب ـ وهو يدرس لأطفال فى مدرسة ابتدائية ـ ليس بمدرس.

ولقد حدث مرة أن إحدى المدرسات بإنجلترة كانت تطالب التلميذات على الدوام بعدم النظر إلى الكتاب ، فى حين أنها كانت تنظر دائماً فى كتابها . فقالت تلميذة « إن من الظلم ألا تسمح لى المدرسة بالنظر فى كتاب الجغرافية، وتسمح لنفسها بالنظر فيه . ألست أنا أصغر منها سناً ؟ » هل من العدل أن يسمح للكبير بما لا يسمح به للصغير فى هذا الأمر ؟ أما المدرس الواثق بنفسه فهو فى غنى عن الكتاب إلا عند الضرورة . وبدلاً من النظر فى الكتاب يستطيع أن ينظر إلى التلاميذ ، ويلاحظهم فى حركاتهم وسكناتهم ، وأقوالهم وأفعالهم ، يسألهم فى دروسهم ، ويشرح لهم ما صعب عليهم عندما يشعرون بالحاجة إلى الشرح ، ويوقف كل ما من شأنه الإخلال بالنظام ، ويجعل التفات التلاميذ إلى أعمالهم التى بأيديهم . مثل هذا المدرس ليس فى حاجة إلى الشكوى من سوء النظام، وليس فى حاجة إلى استعمال أية قوة للمحافظة على النظام. فهو يحفظه بمادته ومهارته ، وروحه ويقظته وشخصيته، وحب التلاميذ له وللعمل المدرسى . وإذا أحب التلاميذ عملهم المدرسى قل الكسل وسوء

النظام ، والغياب ، والتأخر فى المجىء إلى المدرسة ، وصاروا يفخرون بمدرستهم ، ويتعاونون بكل الوسائل على نجاحها ومساعدتها .

(٣) تدعو إلى الثقة بالمدرس :

إن ثقة التلاميذ بالمدرس هامة كثقة الجند بالقائد ؛ فإذا فقد الجيش ثقته برئيسه فلا مفر من الفوضى والعصيان ، والثورة والفرار . وإذا فقد المدرس ثقة تلاميذه به كان من الصعب عليه أن ينجح فى مهنته . أما المدرس الماهر الكفء فمن السهل عليه أن يكتسب هذه الثقة فيستخدمها فى تسهيل الصعب على التلاميذ ، وهدايتهم إلى الطريق المستقيم ؛ طريق الحكمة والعلم والخلق . ولى أن أسأل : ماذا يحدث إذا كان المدرس يتردد فى كلامه دائماً ، ويتلعثم ويخطئ فى نطق الكلمات ، وفى مخالفة القواعد العامة ؟ لا شك أنه يفقد تلك الثقة الغالية ؛ ثقة تلاميذه به . ولا عجب إذا شعر صغار التلاميذ بهذا الضعف ؛ فلقد حدث أن ولداً يبلغ من العمر عشر سنوات قال مرة لأبيه : « ما الفائدة من ذهابى إلى المدرسة بعد اليوم ؟ إننى الآن أعرف ما يعرفه المدرس » . فالطفل يشعر بأن من الواجب أن يعرف المدرس أكثر من التلميذ ؛ حتى يكون موضع ثقة واحترام .

(٤) تبعث فى التلاميذ حب العمل والإخلاص فيه :

إن التلاميذ يعجبون بالمدرس القدير الغزير المادة ، ويتمنون أن يكونوا مثله فى يوم من الأيام علماً ومقدرة ؛ فهو المثل الأعلى أمامهم ، وحضوره بينهم يذكرهم دائماً بأن العلم ثمين ، ما أجمله ! مثل هذا التأثير من وراء الستار يُحيي الجو العلمى بالمدرسة، ويدعو إلى تحسين مستوى التلاميذ ، واتساع آمالهم ، وتقوية إراداتهم . وإذا أردت

أن تعرف مقدار أثر مادة المدرس فى نفوس تلاميذه فانظر إلى مدرس ضعيف المادة انتهى من درس جغرافية فى فصل معروف بالجد والنشاط . جلس المدرس على المقعد وأخذ يسأل تلاميذه الأسئلة التى فى الكتاب، من غير زيادة أو نقص، وبدون شرح أو توضيح . حدث جدل فى الفصل عن موقع نهر أو مدينة ؛ فأخذ المدرس يفكر مدة طويلة لمعرفة الجواب فلم يهتد إليه . وفى أثناء ذلك حدث سوء النظام ، وانتشر القلق والاضطراب ، فغضب المدرس ، ووبخ كل التلاميذ لغباوتهم وحمقهم وجهلهم ، وأوقف واحداً أو اثنين منهم بجانب الحائط . وقبيل انتهاء الحصة عين لهم أربع صفحات لدرس اليوم التالى . هنا انتهت الحصة ، وخرج المدرس من الفصل ، ولم يعرف التلاميذ موقع النهر أو المدينة. فالآن لاحظ التلاميذ حينما يذهبون إلى أمكنتهم، ترهم يضربون الأرض بأرجلهم ، ووجوههم عابسة ، يحتجون فى أنفسهم ، ويرمون كتبهم فى قماطرهم ، ويقفلونها بضوضاء وعنف . والآن أسألك : هل هـذا درس فى نظرك ؟ هل وجد التلاميذ فى هذا الدرس ما يدعو إلى التشويق إلى الدرس التالى ؟ من السهل أن تعرف كيف يكون الدرس الآتى . ربما تجد قليلا منهم – وهم خيرة التلاميذ – يقومون بإعداد الدرس التالى لحبهم للعمل بطبيعتهم، أو لتأثير آبائهم فيهم فى بيوتهم . أما بقية الفصل فلن يستذكروا شيئاً فى الخارج ، وسيعبثون بكل نظام فى حجرة الدراسة . وحينئذ يأخذ المدرس فى توبيخهم وتهديدهم، وزجرهم وعقابهم، بالحجز بعد انتهاء اليوم المدرسى؛ لأداء الواجب أو العمل الذى لم يؤدوه فى المنزل .

ثم تصور الفصل نفسه والتلاميذ أنفسهم مع مدرس آخر متين المادة ، غزير العلم (فى الجغرافية) ، معلوماته حديثة ، تجده يأتى لهم بالدرس فى صور واضحة ، ويجعل المادة الميتة حية أمام التلاميذ ، يُحيى الدرس بأسئلة جيدة ، ومحادثة شائقة ، ومناقشة حسنة ، واستنباط منطقى . التلاميذ سعداء فى فصلهم ، والأمور الخفية واضحة لديهم ، والصعاب سهلة فى نظرهم ؛ وذلك لمهارة المدرس، ومتانته فى مادته، وعنايته

بدرسه . أما النظام فحسن ، وأما التلاميذ فكأن على رءوسهم الطير ، كلهم إصغاء وانتباه للدرس والمدرس . كلهم نشاط وجد وعمل وحياة . لا تذمر ولا ضجيج ، ولا زجر ولا توبيخ، ولا حجز ولا عقاب(١) . السرور يعمهم، والغبطة تملأ قلوبهم. وما أكثر سرور التلميذ حين يفتح له المدرس باب العمل فيعمل حتى ينتهى منه بنفسه ، فيحوز رضا أستاذه واستحسان إخوانه . كان الدرس مملوءاً بالإفادة والسرور . لذلك ترى التلاميذ يتهافتون ويشتاقون ويتطلعون إلى الدرس التالى الذى يرون فيه هذا المدرس ثانية . ترى وجوههم ضاحكة مستبشرة ، مرحبين بمدرسهم ، ينتظرونه بفارغ الصبر ، ويتوقون إلى مجيئه . يشعر المدرس بهذا الحب المتبادل بينه وبين تلاميذه ؛ فيخلص فى عمله ، ويعمل التلاميذ لإرضائه ، فلا يحتاج إلى لومهم أو تعنيفهم ، ولا يحتاج إلى حثهم على العمل ؛ فهم يعملون بأنفسهم مستعدين لتنفيذ كل ما يفوه به المدرس برغبة وميل وحب للعمل . ولا غرابة ؛ فمتانة المدرس مع حبه لتلاميذه، وإخلاصه فى عمله ، وقوة تأثيره ـ استدعت إخلاص التلاميذ فى أعمالهم، وفى أداء واجباتهم .

والآن أقول ماذا يكون مركز المدرس منا بين طلبته فى درس هندسة إذا عرض أحد الطلبة إجابته على المدرس ، فأخبره بأنها خطأ مع أنها صواب ، ثم تقدم طالب آخر مخطئ فى الحل فأخبره بأنه مصيب، وفى النهاية أخذ المدرس يحل التمرين ، فظهر جواب يخالف الجوابين السابقين ؟

ماذا يكون مركزه فى درس تاريخ إذا زاره زائر ، وأخذ يسأل التلاميذ أسئلة فى الدروس الماضية ، وتواريخ الحوادث والوقائع؛ فلم يستطيعوا الإجابة ، ولم يتذكر

---

(١) فالمدرس القوى بعلمه وخلقه وشخصيته ليس فى حاجة إلى استعمال أية قوة معادية كالعقاب. أما المدرس الضعيف فهو الذى يلجأ دائماً إلى العقاب، ويحتاج إلى استعمال القوة أو السلطة التى فى يده، فيعاقب التلاميذ بالوقوف أو التوبيخ أو الحجز أو بقطع درجات من الأخلاق .

المدرس الإجابة أيضا أو تاريخ الحادثة ؟ كيف يكون مركزه بين الطلبة والزائرين ؟ وهل يثق به التلاميذ بعد ذلك ؟

بماذا يشعر المدرس فى مدرسة ابتدائية إذا أخذ ينظر فى كتاب الجغرافيــة أو التاريخ أو قانون الصحة طول الحصة ؟ ألا يشعر بقلق فى نفسه ؟ وهل يكون مستريح الضمير إذا كان غير متمكن من مادته ؟

انظر إلى العكس مثلا حينما يدخل المدرس فصله وهو واثق بنفسه ، مُعِدٌّ لمادته ، متمكن منها كل التمكن . ألا يشعر بهدوء بال ، وراحة ضمير ، وثقة من الطلبة بكل ما يفوه به ؟ ما أضعف مركز المدرس بين طلبته إذا كان ضعيف المادة ! وما أكثر تذمرهم، إن لم يكن فى حضوره ففى غيبته ، وبعد خروجه من الفصل ! إنهم يندبون حظهم ، ويشعرون بالضياع والخسارة ، حينما يرزقون مدرساً ضعيفاً مهملا إعداد دروسه . هب المدرس منا ضعيفاً فماذا يجب أن يفعل حتى يتغلب على هذا الضعف ؟ يجب أن يستذكر الدروس جيداً قبل أن يدخل حجرة الدراسة، وأن يكثر من الاطلاع على مادته؛ حتى يعرفها معرفة جيدة، ويعالج هذا الضعف . قد يكلف المدرس منا للضرورة تدريس مادة هو غير متمكن منها ، فهل يمتنع من تدريسها ؟ لا . يجب أن يقبل ، ثم يستحضر كل كتاب كُتب فى هـذه المادة ، ويأخذ فى الاستعداد للسيطرة على هذه المادة . وهـذا سهل جدًّا إذا كان المدرس قوى الإرادة ، محبًّا للعمل ، مولعاً بأداء الواجب .

ومجمل القول أن الفوائد التى تجنيها المدرسة والتـلاميذ من المدرسين الأكفاء لا تُعد ، وأن متانة المادة تساعد المدرس كل المساعدة فى نجاحه فى حياته العملية ؛ حياة التدريس . ولا يكفى أن يعرف المعلم مادته فحسب ؛ بل يجب أن يكون كثير الاطلاع ، له دراية بكثير من المواد . فالمطالعة لا يمكن أن يعلِّمها رجل لا علم له بأدب اللغة وعلوم البلاغة . ولا ينجح فى تعليم الجغرافية إلا من له إلمام بالتاريخ، وعلم

طبقات الأرض ، وعلم النبات . ومدرس تاريخ مصر مثلا يستفيد كثيراً من معرفة تاريخ الشرق والتاريخ العام . لذلك نقول إن غزارة المادة من أهم الخطوات فى تحويل الطالب إلى مدرس . ولا تنقص فى الأهمية عن معرفة قواعد التربية وطرق التدريس. وفى النهاية يتوقف نجاح المدرس على مقدرته العلميـة وذكائه ، وغيرته ، ونشاطه ودقته ، وإخلاصه فى عمله ، وشخصيته .

هذا وإن حزم المدرس وشخصيته وحبه لمهنته حبًّا طبعياً لا تكفِّر عن النقص الناشئ عن الجهل بالمادة، أو الجهل بعلوم التربية ؛ فإن هذه الصفات وحدها لا تكفى إذا لم تصحب بمعرفة المادة وطرق تدريسها وتجربتها .

دراسة التربية هى العامل الثانى لاعداد المدرس ونجاحه فى مهنته

يتخذ كثير ممن لا عمل لهم مهنة التدريس مهنة لهم ؛ فيشتغلون بالتدريس فى المدارس الحرة ، ولا علم لهم بالتربية أو التعليم ، أو المدارس وأنظمتها ، أو الأطفال وطبائعهم؛ كأن مهنة التعليم ملجأ للمتعطلين. وكان الأجدر بهم أن يقرءوا علوم التربية كثيراً، وكثيرا جدا ؛ حتى تقودهم إلى الطريقة المثلى فى عملهم. إننا لا ننكر أن هناك أفرادا خلقوا ليكونوا مدرسين بطبيعتهم منذ الطفولة ؛ فتراهم يجمعون الأطفال حولهم وهم صغار ، ويأخذون فى تعليمهم ماتعلموه فى مدارسهم . فأمثال هؤلاء يكونون من خيرة المدرسـين لو عرفوا قواعد التدريس وطرائقه ، فيسيرون على هدى ، ويستفيدون من تجارب المربين ، ولا يقعون فى غلطات عادية ثم يتداركونها . فدراسة التربية تحفظهم من العثار والضلال فى الطريق ، وتساعدهم كثيرا فى النجاح فى العمل، وتسهيل الصعاب من الأمور ، ولكنَّ هؤلاء المدرسين بالطبيعة قليـلون ، لا يكفى عددهم تعليم الشعب التعليم العام. لذلك نضطر إلى تعليم غيرهم حتى يسدوا هذا الفراغ فى المدارس . ولسنا ممن يقولون إن دراسة التربيـة تستلزم النجاح فى التدريس ؛ فقد

تعرف كل نظريات التربية ، وكل القواعد والطرق فى التدريس ، ولـكنك إذا دخلت الفصل نسيت هذه النظريات، وتلك القواعد والطرق . ولـكن بالتمرين ترى أنها تساعدك كل المساعدة فى النجاح فى التعليم ، وتقودك إلى التوفيق فى عملك . أما الباعث على قبول أصحاب المدارس الحرة شبانا لم يحصلوا على شهادة الدراسة الابتدائية للتدريس فى مدارسهم فهو حب المال ، وجعل التعليم تجارة . ولو فكر هؤلاء فى إفادة تلك الأرواح الغالية وتربيتهم ما قبلوا إلا من هم أهل للتعليم؛ أهل لهذه المهنة الشريفة، ممن لهم دراية بالتربية، وأعدوا أنفسهم للتعليم. فليس التدريس بالمهنة السهلة كما يظن؛ بل هو مهنة تحتاج إلى معرفة بعلوم التربية ، وحب للأطفال ، وميل للتعليم ، وأمانة فى العلم ، وإخلاص فى العمل ، ودراسة لغرائز الأطفال وميولهم وعاداتهم وطبائعهم، كما تحتاج إلى خبرة وكفاية ، ومقدرة وصبر ، وحضور بديهة ويقظة ، وإلى التفكير فى كل تلميذ ، ووضعه فى الموضع الذى يستحقه ، وإرشاده حيث يحسن الإرشاد ، وعلاجه حيث تظهر أعراض المرض العلمى أو الخلقى أو الجسمى أو الاجتماعى . وما هذا كله بالأمر الهين .

وقد شكا مرة أحد المدرسين عدم النجاح فى مهنة التدريس، فسئل: ماذا قرأت فى التربية؟ فأجاب : لا شىء ! فقيل له : لا عجب إذا ضللت الطريق، وأخفقت فى عملك. فلحق بإحدى مدارس المعلمين ، وداوم على قراءة كتب التربية وعلم النفس والمجلات والصحف التربيبية حتى أعد نفســه للتعليم ؛ فنجح فى مهنة التدريس ، وأحبها حباً جما . وفى الحق قد يكون الإنسان متيناً فى مادته ، فإذا ما دخل الفصل وقف مبهوتا حائراً لا يدرى ماذا يفعل . ولا علاج لمثل هذا إلا الاسترشاد بآراء المربين وتجاربهم وطرقهم فى التعليم، والتمرن على التدريس حتى ينجح المدرس فى عمله. ولقد كان كثيرون من علماء التربية يعتقدون أن « المعلمين مطبوعون لا مصنوعون » ـ كما قلنا من قبل ـ

وفى هذا القول كثير من الصحة ، ولكن تجارب القرن العشرين برهنت على أن هذا لا يكفى ، وأن العلم بالمادة شىء ، وتدريسها فن يحتاج إلى خبرة بالتربية وأغراضها وطرقها.. وإن «أفلاطون وأرسطو» يعدان التربية والتعليم من أهم الأمور، وأصعب المهن التى تحتاج إلى مقدرة ومعرفة بالأطفال . ولقد قال « شيشرون » المربى الرومانى العظيم : « مما يخالف العقل أن يقوم بتعليم الأطفال قوم لا يعرفون شيئا عن قواعد التربية ومسائلها » . وصرح «رِيشَارْد مَالـكسْتَر» بأن « الوسيلة الوحِدة لإصلاح المدارس هى إعداد المدرسين لمهنتهم » . وقال « جُوسِف پين » أحـد علماء التربية من الأمريكيين : « إننا لا نتردد فى أن نقول إنك لا يمكنك أن تعلِّم إلا إذا عرفت الغرض من التربيـة ، وتمـكنت من معرفة وسائلها وطرقها فنا من الفنون ، وعرفت قواعـدها علما من العلوم ، ودرَست ما قاله وما جرَّبه علمـاء التربية وفلاسفتها » .

إننا لا نريد بهذا أن نثبط همة من يرغبون فى مهنة التعليم قبـل أن تـكون لهم دراية كبيرة بعلوم التربية، ولا نريد أن نحط من كرامتهم؛ فـكل غرضنا أن يقرءوا كل ما كتب باللغة العربية على الأقل فى التربية وعلم النفس؛ حبا لإصلاح التعليم والنهوض به؛ ففى ذلك خير لهم ونجاح فى مهنتهم. وإن هذا النقص ـ وهو الجهل بالتربية وقواعدها وطرقها وتاريخها ، وبعلم النفس وأصوله ـ يمكن تداركه بالتعلم والقراءة ، والرغبة فى التقدم ، والمثابرة على الدراسة ؛ فإن الآمال والغيرة والجد والنشاط تسهل كل صعب فى سبيل من يريد النجاح فى مهنة التدريس . وإن الأمل فى نجاح المدرس الصغير الذى يشعر بعيوبه ؛ فيجتهد فى إصلاحها بالاستذكار والاسترشاد بآراء المربين ، والانتفاع بالتجارب ـ أكثر من الأمل فى نجاح مدرس نال إجازة التدريس، فانقطع عن الشعور بالحاجة إلى القراءة والاطلاع ؛ اتـكالا على معلوماته السابقة . ويحسن

بالمبتدئين من المدرسين أن ينتفعوا بآراء رؤسائهم فى أعمالهـم ، ويعملوا بروح شريفة للوصول إلى آمالهم وأغراضهم . ولما كانت وظيفة المدرسـة الآن كبيرة ، ومسئوليتها عظيمة ، فى تربية الجسم والعقل والقلب واليـد والعـين وجب العمل لإعداد مدرسين قادرين يستطيعون الوصول إلى هذا الغرض، والقيام بهذه المسئولية الـكبيرة ، ويكونون معروفين بالمهارة وسداد الرأى، ومتانة الخلق ، والـكفاية العلمية. وحبذا الأمر لو سُنّ قانون يحدد الشروط التى تخول الإنسان الدخول فى طائفة المعلمين ، ويوجب على من يرغب فى مهنة التعليم دراسة علوم التربيـة ولو فى ساعات فراغهم، للتقدم لامتحان خاص يعمل لهم، يكون بمنزلة امتحان (الـكفاءة للتعليم الأولى) على الأقل. وأعتقد أن هذا القانون لو وضع يرحب به كل من يفـكر فى المصلحة العامة؛ فإنه لا ضرر أكثر من أن توكل تربية الأطفال لقوم لا يعرفون عن التربية شيئاً . ولقد قرأت مرة فى صحيفة الأهرام (١٣ — ٦ — ١٩٣١) لناقد ينقد فوضى التعليم الحر، ويذكر أن رجلا كان خبازا ، وليس بيده شهادة من الشهادات يدير مدرسة ابتدائية . وهذا مثل من الأمثلة التى توقع الأطفال فى شرك الجهلاء .

وتتضمن دراسة التربية :

(١) دراسة علم النفس ؛ لاستخدامه أساساً لاختبار قواعد التربية وطرقها ، وبخاصة نفسية الأطفال .

(٢) معرفة قواعد التربية ، ونظم التعليم ، وطرق التدريس ، والاستفادة من تجربتها بأخذ الحسن منها .

(٣) دراية بالإدارة المدرسية التى تتطلب معرفة أحوال المدرسـة وشروطها ، وأثاثها وأدواتها ، وكتبها وامتحاناتها ، وترتيب التلاميذ ، وتوزيع الأعمال على المدرسين ... الخ .

(٤) معرفة تاريخ التربية ؛ كى يكون المدرس على صلة بكبار المربين ، فيقتبس من آرائهم ، ويستفيد من تجاربهم وتضحياتهم .

(٥) رؤية نماذج فى التدريس ، والتمرن على إعداد الدروس ، وبحث طرق غيره من المدرسين .

(٦) التربية العملية ، والعمل لتجربة النظريات والطرق الحديثة فى التربية مع إرشاد مرب قدير . ويجب أن يتمرن الطالب على تدريس جميع فروع المادة فى كل السنوات المدرسية . ولا يكفى درس أو درسان للتمرين ، فى فصل واحد أو سنة واحدة .

(٧) قراءة مجلات أو صحف أسبوعية أو شهرية فى علوم التربية ، ليكون المدرس على صلة دائمة بعالم التربية ، ومايحدث فيه من آراء جديدة ، ونظريات حديثة ، فيستفيد ويفيد تلاميذه مما يستحسنه منها .

وفضلا عن دراسة التربية يجب :

(١) أن تُعطَى فرص كثيرة للمدرسين فى زيارة مدارس أخرى؛ حيث يرون طرقا مختلفة عن الطرق التى يستعملونها ، بعضها أحسن وبعضها أردأ . وفى مثل هذه الزيارات يجب على الطالب أو المدرس أن يستعمل الحكمة ، فيتخذ دائما حالة المتعلم لا الناقد ؛ فلا ينقد غيره من المدرسين ؛ بل يأخذ ما يحلو له ، ويترك البقية .

(٢) أن يحضر المدرس كل ما يمكنه من المحاضرات العامة والخاصة ؛ فإنها تساعده فى أن يكون فى تقدم علمى مستمر . ومن المحال أن تخلو محاضرة من فائدة . ويجب أن ينظر بوجهه دائما إلى الأمام نحو الشمس المشرقة ، نحو الفائدة العلمية ؛ حتى يحسن مستواه .

الفوائد التى يجنيها المدرس من دراسة التربية كثيرة ، منها :

(١) تساعده فى النجاح فى مهنة التدريس . ولتوضيح ذلك نذكر لك الحكاية الآتية:

لحق أحد الشبان بوظيفة مدرس فى إحدى المدارس الكبيرة وهو لا يعرف شيئا عن التربية أو التدريس . ثم أخلص الإخلاص كله فى عمله ، فأخذ يشتغل بجد. وبعد خمسة أسابيع فى عمل شاق أو خمسة أسابيع كانت أشق أيام حياته وأتعسها كما يقول ، اضطر إلى الاستقالة من عمله؛ ظنًّا منه أنه لا يستطيع القيام بأعباء هذه المهنة. ثم ذهب إلى المزرعة يائسا ، وقد ملّ التعليم وسئمه، ووجد الأبواب موصدة فى وجهه، وقد ضاعت آماله وأحلامه فى أن يكون مدرسا . وذات يوم زاره أستاذ له كان من المعجبين به ، فقص عليه أمره ، وأخبره الخبر . فأخذ أستاذُه العالمُ بمواهبه يشجعه ، ويزيل من نفسه أثر الشعور بالخيبة والإخفاق قائلا : « إنك لم تنجح فى عملك ، ولكن هل تعجب من ذلك ؟ هل سبق لك أن عرفت شيئا عما حاولت أن تقوم به ؟ هل قرأت كتابا واحدا فى التربية والتعليم ؟ » ثم نصح له بالالتحاق بإحدى كليات المعلمين لدراسة التربية ؛ فسطر هذه النصيحة على صفحات قلبه ، وذهب إلى الكلية ، وقرأ كل ما استطاع حول التعليم . وبعد الانتهاء من الكلية اشتغل ثانية بمهنة التدريس ، فنجح نجاحا باهراً ، وكان من المدرسين المشهورين المحبوبين لدى الرؤساء والتلاميذ . ولا ينكر أحد ما لدراسة التربية من الأثر، وخاصة إذا صحبت بمعرفة المادة؛ حتى يكون المدرس فى مأمن من الزلل والخطأ .

(٢) إن المدرس الذى لا دراية له بالتربية لا يجد مثلا حسنا يقتدى به ، ويحذو حذوه ، ويقفو أثره ، ويتلو تلوه . ولا يستطيع أن يصحح خطأ نفسه؛ لأنه لا يشعر به . وقد يستمر فى ارتكاب الغلطات نفسها اليوم بعد الآخر .

وليس من الحزم أن يُقدِم الإنسان على عمل كبير يحتاج إلى علم وخبرة ودربة وهو لا يعرف عنه شيئا . قد يكون الشخص ذكيا ، ولكن الذكاء وحده لا يكفى ؛ بل يجب أن يصحب بالعلم والتجربة . فالذكاء وحده لا يبنى سكة حديدية ، أو (قنال بنما) ، أو جسرا من الجسور، بل يجب أن يصحب الذكاء بالعلم بهندسة المبانى أو الهندسة (الميكانيكية) فيساعد كل منهما الآخر. وبالمثل يقال فى التعليم. فالميل للتعليم بالطبيعة ، والعلم بالمادة لا يكفيان للنجاح فى مهنة التعليم؛ بل يجب أن يشاركهما العلم بالتربية والتعليم ؛ حتى يستطيع المدرس أن يشعر بغلطاته ، ويقتدى بالمثل الأعلى من المربين .

(٣) العلم بالتربية يؤدى إلى منع تجارب ثمينة على الأطفال : فيجب أن يطالب الآباء بإعداد مربين أكفاء لتربية أطفالهم ؛ كى لا يكونوا ضحية التجربة عليهم. يجب ألا ينتهج أحد مسلك التعليم قبل أن تكون له دراية سابقة بعلوم التربية وطرق التعليم ، ونصائح كبار المربين . يقول (هربرت سبنسر) : « إنه ليس هناك مبرر عقلى لترك فن التربية بين بعض المدرسين . ويجب التسليم بأن العلم والطرق السديدة فى تربية الأطفال جسميا وعقليا وخلقيا أهم من كل شىء آخر. » فيجب على كل من يريد أن يتخذ التعليم مهنة له أن يعرف كيف يدرِّس المواد التى سيقوم بتدريسها قبل أن يبدأ أن يكون معلماً، وأن يتمرن على تطبيق القواعد والنظريات التى يعرفها من التربية وعلم النفس . وبهذه الوسيلة يكون مقدراً أهمية عمل المدرس والمسئولية فى العمل. وإن المدرس الذى يأمل النجاح ويبتغيه يجب أن يسترشد بنصائح المجربين من المربين ، ويظهر رغبته فى عمله ، ويعمل لنجاح المدرسة التى ينتسب إليها ، ويرتب عمله وينظمه ، ويكون قادرا على اتخاذ أصدقاء له بالمدرسة .

(٤) إن التجربة وحدها لا تكفى ؛ بل يجب أن تصحب بمن يرشد المعلم إلى

الطريق القويم ؛ فإنه ــ لو تُرك ونفسه ــ ربما لا يرى غلطات نفسه ، وقد يستمر كذلك حتى تصبح هذه الغلطات عادة لديه، ومن الصعب أن يتغلب عليها ، فيمل التعليم ويَبرَم به ، وتقل غيرته عليه ، ويصبح آلة تسير من غير تفكير .

(٥) إن العلم بالتربيــة يقلل المجهود ، ويوفر على المدرس كثيراً من الوقت فتحفظ صحته، وفى الوقت نفسه يستفيد التلاميذ من أقصر طريق موصل . وهذا مما يسهل على المعلم مهنته الشاقة التى تحتاج إلى إجهاد كبير ، وتعب عظيم ، وإلى قوة فى الأعصاب ، وقوة فى الجسم .

ونصيحتى لمن يريد النجاح فى مهنة التدريس أن يذكر دائما أنه لا يزال طالبا، يحتاج إلى تجديد معلوماته بالإمعان فى الفحص ، والتعمق فى البحث ، بقراءة كل ما يعن له فى مادته ، وفى عالم التربيــة . وسنوفى هذه النقطة حقها من البحث فى الفصل التالى .

الفَصْلُ الثَّامِنُ

الصفات التى ينبغى أن تتوافر فى المدرس

(١) يجب أن يكون المدرس أباً قبل أن يكون مدرساً :

يجب أن يحب تلاميذه محبته لأبنائه ، ويفكِّر فيهم كما يفكر فى أولاده . وليذكر كل مرب أنه قبل أن يفكر فى أن يكوِّن رجلا يجب أن يكون هو رجلا . ولا تنتظر من أبنائك وبناتك الكمال إلا إذا كنت كاملاً . لا تنتظر منهم التحلى بالأخلاق الفاضلة إلا إذا تحلَّيت بها . احترم أبناءك وتلاميذك يحترموك . احترم شخصية الطفل ، وأعطه قسطاً كبيراً من الحرية ؛ حتى تظهر ميوله الطبيعية ؛ فتقوِّىَ ما صلح ، وتصلح ما فسد . على هذه الروح تبنى التربية الحديثة . وعلى هذا الأساس بنى « رُوسُّو ، وبِستالُوتزِى ، وفرُوبِل ، وهِربَرت سبنسر » آراءهم فى التربية . وعلى الآباء والمدرسين نعتمد فى تنفيذ هذه المبادئ فى البيت والمدرسة ؛ كى يشعر الأطفال بالسعادة أينما وُجدوا . ومما لا ريب فيه أن الآباء والأمهات يحبون أبناءهم ، ولكن ليس من المؤكد أن المعلمين والمعلمات يحبون تلاميذهم . إن الأم التى تضع أبناءها فى قلبها أم عادية جدا ، ولكن الأم التى تضع أبناء غيرها فى قلبها تُعد من الأمهات الطاهرات . وبالمثل يقال فى الأب ، ولكن حب النفس منتشر

بين الأفراد . ومن المناظر المؤلمة التى رأيتها فى مَحفِل مدرسىّ بانجلترة : أمٌّ أخَّرت طفلاً عن الصف الذى كان واقفاً فيه ، وقدَّمت ابنها ؛ ليقف مكانه ، فيرى الألعاب ويحرم الآخر التمتع بالنظر إليها . فهذه الأم لا تفكر إلا فى ابنها ، ولا تشعر نحو غيره بما تشعر به نحو ابنها . وفى الحديث : « أحب لأخيك ما تحب لنفسك » . ولنا أن نقول أحب لأبناء غيرك ما تحبه لأبنائك ؛ وأحب تلاميذك محبتك لأبنائك ؛ كى يضعوك فى قلوبهم ، وينزلوك منزلة آبائهم .

إن المدرس مهما يكن متيناً فى مادته ، عالما بقواعد التربية ـ لا ينجح فى مهنته إلا إذا امتلأ قلبه بحب الأطفال ومؤاساتهم . وإن المدرسة الخالية من محبة الأطفال مملوءة بالنزاع بين التلاميذ والمدرسين . ليس فى قلب معلميها شىء من مؤاساة الأطفال؛ فلا عجب إذا نفَروا منهم ، واشتد بغضهم لهم ، وكثيراً ما تجد الأطفال فى الابتداء يحبون معلميهم ، فإذا ما عرفوهم كرهوهم ، وأصبحوا يطالبون بعدم الذهاب إلى المدرسة ، وبإعلان الحرب عليها . فكما أن المنزل لا يكمل إلا بحب الأبناء ، فكذلك المدرسة لا تكمل إلا بحب أبنائها حبًّا طاهراً ، مملوءاً بالإخلاص . وإن المدرسة التى لا تعطى تلاميذها قلبها محال أن يعطيها التلاميذ قلوبهم .

وإن أولى التلاميذ بالعطف أولئك الفقراء الذين يأتون من منازل حكم عليها بالشقاء ، تربيتهم سيئة ، وملابسهم رثّة ، ومحادثتهم جافّة ، ومعاملتهم شاذّة . وجوههم عابسة ، وقلوبهم واجفة ، لا يحبون أحداً ؛ لأنهم لم يشعروا بحب أحد . ولا يعرفون معنى النظام ؛ لأنهم لم يروا شيئاً من النظام .

وأمثال هؤلاء كثيرون . وهنا الفرصة أمام المدرس فى أن يعمل ـ وعمله شاق ـ للوصول إلى قلوب هؤلاء البائسين لينقذ حياتهم ، وينجى أرواحهم من الموت والشقاء .

والوسيلة لإحيائهم هى : أن تعرف الطفل ، وحياته الماضية ، وأحواله وميوله ، وأن تجتهد فى مساعدته ومشاركته فى شعوره ، وتسهيل الأمور فى سبيله .

ذات يوم كتب أحد المدرسين فى الولايات المتحدة بأمريكا تقريراً لناظر المدرسة عن تلميذ فى السنة النهائية لنقله من فصله ، من أجل ذنب ارتكبه . وكان ذلك التلميذ متعباً دائماً ، معروفاً بالفظاظة والغلظة وسوء الخلق . وكان الناظر حديثاً فى المدرسة ، لا يعرف شيئاً عن الحياة المنزلية لذلك التلميذ . فدعاه إلى مكتبه ، وتحادث معه عن سوء سلوكه ، فأظهر له شراسة ووقاحة . فتألم الناظر ، وفكر فى جلده بالسوط ، وكتابة تقرير عنه لأولياء الأمور ؛ كى يفصل من المدرسة . ولكنه أحس أنه ينبغى أن يستشير والديه قبل معاقبته ، فذهب إلى منزل والديه ، وكان المنزل صغيراً تخيم عليه الكآبة ، وليس به أكثر من حجرتين عاريتين خاليتين من النظام ، يشعر من يدخلهما بالضيق والحزن . كانت أم التلميذ فى المنزل ؛ فأخبرها بسبب مجيئه ، وسوء مايفعله ابنها فى المدرسة ، وبعزمه على جلده وطرده ؛ فلم تكترث للأمر ، ولم تبال بما قيل . فبينما كان يريد الخروج إذ دخل رجل قصاب قبيح الوجه ، بشع المنظر ، ضخم الجسم ، وثق الناظر بأنه أبوه ، فأخبره الخبر ، فلطم ابنه على وجهه ، ثم التفت إلى الناظر ، وأخذ يسب ويلعن قائلاً : «لا تتعب نفسك مرة ثانية ، واقتله إذا أردت» .

فأخذ الناظر الولد ، ورجع به إلى المدرسة وهو أسِفٌ لحاله وبيئته ، وزال غيظه ، وحل محله شعور رقيق ، وعطف كبير عليه . لم يكن الناظر محتاجاً لأن يخبر التلميذ بما فى نفسه ، ولكنه أحس ما يشعر به ناظره نحوه . وقبله المدرس ثانية إجابة لرغبة ناظر المدرسة . ولما أخبره بما حدث فى المنزل تألم له كل الألم ، وتحسن شعوره من جهته ، وأخذ يعطف عليه . ولم يحدث من ذلك التلميذ بعد هذا إلا ما يرضى الجميع .

ومن المحال أن تصلح أحداً إلا بالتفاهم والعطف والإخلاص . وفى (سْتَانْز) "Stanz" قد جمع (بِسْتَالُوتْزِى[1]) حوله ثمانين طفلاً من الجهلة المشرَّدين من السائلين الذين لا أخلاق لهم . وبعد بضعة أشهر قال (بستالوتزى) عنهم : « بين هؤلاء السائلين الطريدين سرعان ما وجدت الصداقة والسكينة ، والصلة الحسنة ، التى قلَّما تكون حتى بين الإخوة والأخوات . ولم ينتج عقاب الأطفال أى عناد ؛ لأنى كنت بمعاملتى أُبرهن للأطفال دائماً على حبى وإِخلاصى لهم . » ولا عجب إذا قال بعض المربين عن مدرسة (بستالوتزى) : «لو كانت هناك معجزة فإنْ (بستالوتزى) قد قام بها فى (سْتَانْز) . » تلك المعجزة هى نتيجة حبه للأطفال وإخلاصه لهم . ولن يرتفع مستوى التعليم ولن يرقى إلا بالحب الطاهر والإخلاص .

لقد أنشأ (اللورد بِرْتِرَانْدرَسِل[2]) - أحد كبار الفلاسفة بكمبردج بانجلترة - مدرســة حديثة تسير على مبدأ : « افعل كما تحب » . فى هذه المدرسة يعلَّم الأطفال الصراحة ، ويجابون عن كل أسئلتهم بصراحة وإخلاص وحزم . ولقد حدث مرة أن طفلين خرجا من المدرسة بغير إذن ، وهى داخلية . ثم تأخرا فى العودة. أتدرى بما ذا عوقبا ؟ بلا شىء . كل ما حدث أن المدرسين بينوا لهما أنهما سبَّبا لغيرهما من رفقائهما وأساتيذهما قلقاً كبيراً ، وتعباً شديداً ، فشعرا بخطئهما ، والشعور بالخطأ

(١) هو (يوحنا هنرى بستالوتزى) أحد زعماء التربية فى القرن الثامن عشر . ولد بزوريخ بسويسرة فى ١٢ من يناير سنة ١٧٤٥ ، وتوفى فى ١٧ من فبراير سنة ١٨٢٧ م . و (ستانز) قرية على بحيرة (لوسرن) بسويسرة ، أسس فيها (بستالوتزى) مدرسته لتعليم اليتامى من أبناء هذه القرية بعد أن خربها الفرنسيون بعد الثورة الفرنسية ، وكان عمره إذ ذاك ٥٣ سنة .

(٢) ارجع إلى صحيفة : "The Sunday Express, March 29 - 1931"

ابتداء الإصلاح . والغرض الهام من العقاب الإصلاح . وحينما يفوه الطفل بألفاظ بذيئة يمكن أن يقال له : « إذا سمعك الناس في الخارج تقول هذه الكلمة فإنهم يبغضونك ، وينفرون منك ، ويبتعدون عنك ، ويعتقدون أنك سيئ الخلق . » مثل هذه النصيحة بالتفاهم معه تكفى لتقويم معوجه ، وإصلاح خطئه .

كثيراً ما يصدر من الطفل ـ عفواً وعن غير قصد ـ أمور تجعل والديه فى مركز حرج ؛ كأن يقول مثلاً لضيف سودانى : « الرجل الأسود ، الرجل الأسود » ، أو كأن يقول لوالدته عند تناول الشاى مع بعض الضيوف : « إنى لن أتناول الشاى إلا إذا قامت هذه السيدة ، أو قام هذا الرجل من هنا » . وكان كلاهما ضيفاً . هذه الكلمات تخجل الآباء ، وتوقعهم فى حيرة وارتباك ؛ لأنها تمس شعور الزائر الغريب . ولكن إذا حللنا نفسية الطفل وجدنا نفسيته طاهرة ، لم يفكر فى أن يؤلم أحداً ، ولم يشعر بأن فى هذا الكلام إيلاماً لأحد . فسبق الإصرار على الجريمة ـ فى نظرنا ـ غير موجود ، وحسن النية موثوق به . لذلك أبرئ هذا المتهم الصغير . ويشاركنى القراء فى هذا الحكم ، وهذا الشعور . غير أن البراءة يجب أن تصحب بكلمة إرشاد على انفراد مع ذلك المتهم الصغير ، بحيث تجعله يشعر بخطئه ؛ كى لا يعود إليه مرة أخرى .

فعلى المربين أن يذكروا دائماً أن الطفل حسن النية ، يرتكب ما يرتكبه وهو لا يعتقد أنه مخطئ فى قوله أو فعله . فكثيراً ما يأتى فى طفولته أموراً منتقدة فى نظرنا يستقبحها العرف ، ولا يستحسنها المجتمع الذى يعيش فيه . ولكنه فى عالم غير عالمنا نحن . فيجب أن نلتمس له العذر ، ونعمل كل وسيلة لتهذيبه ، ونقنعه بالصواب .

(٢) يجب أن تكون الصلة حسنة بين المدرس والتلميذ :

يجب أن تكون هناك صلة روحية حسنة بين المدرس وتلميذه ؛ هى صلة الآباء بالأبناء ، بحيث يعد التلميذ ابناً يضحى فى سبيله بكل غال وثمين . ولا نخطئ إذا قلنا إن الصلة بين المدرس والتلميذ لدينا هى الضرب والعقاب ، والقسوة والفظاظة والغلظة ؛ فالمدرس ينظر إلى تلاميذه نظرة احتقار ، ويتنحى عنهم ويعتزلهم ؛ ظنًّا منه أنه بمخالطتهم تضيع كرامته ، وتقل سلطته ، ويذهب احترامه . وهو مخطئ فى هذا الظن ، وفى تلك المعاملة . وإذا أراد المدرس أن ينوب عن الأب فى التربية والتعليم فعليه أن يمثل الأب الكامل فى عدله وصبره، وحلمه وحبه للجميع ، وأن يكون شفيقاً فى عقابه ، يعطف على الغبى والشرير من التلاميذ حتى يقوم بإصلاحهما .

إن كلمة والد تشمل الأب والأم ، وينوب المدرس عن الاثنين ، ويحل محلهما ؛ فهو يمثل سلطة الأب ، ومحبة الأم . إنه يمثل الوالدين فى العناية بالطفل وصحته وتربيته ، وحفظه من الشر ، وتزويده بالأفكار الصائبة ، والانتفاع بمواهبه ، وجعل حياته المدرسية حياة سعيدة هانئة . ولا يستطيع المربى أن يقوم بهذا التمثيل خير قيام إلا إذا أحب الأطفال ، ودرس غرائزهم وطباعهم ، وميولهم ورغباتهم ، وعرف كيف يوحى إليهم ، وكيف يسيطر على نفوسهم ، ويؤثر فيهم ، وشاركهم آلامهم ، وضحى بكل شىء فى سبيلهم .

(٣) يجب أن يعنى المدرس بالأطفال ودراسة الطفولة :

إن من أعظم جرائم المجتمع إهمال الصغار من الأطفال ، والإساءة فى معاملتهم ، والظن بأن الطفل يولد شرّيراً ، فيجب أن تقتل إرادته بالسوط ، وتعارض ميوله

الفطرية، وتقمع لذاته الطفاية بالشدة والقسوة. ففى سبيل الجهل يضحى الآباء بالطفل، ويسيئون إليه ، ويطالبونه بالمحال ، ويكلفونه كسب معيشته وهو طفل ، من جمع بقايا اللفائف ، والخدمة من الطفولة فى المنازل . وهل تنتظر الأمة أن تجنى ورداً إذا زرعت شوكاً ؟ كلا ، إنها ستحصد ما زرعت ؛ ستحصد شوكاً لا وردًا . قال أحد القضاة فى (شيكاغو) بالولايات المتحدة بأمريكا ، وهو يتولى البحث عن حاجة أبناء السبيل إلى العناية والرعاية : «فى كل السنوات التى قضيتها بالاشتغال فى محكمة الجنايات لم تبرح هذه الفكرة ذهنى لحظة واحدة ، وهى أننى شعرت كأنى جبار ، وضعته السلطة الحاكمة فى المحكمة ؛ ليحكم لها بالسجن والإعدام ، وينتقم لها مما اقترفته يدها من إهمال الأطفال ، وتركهم فى الطرق . ولو سئلت عن أسباب الجرائم لقلت : « عدم العناية بالأطفال » . فالطفل المهمل تدور حوله قضايا التشرد والبطالة ، وقد يكون بفطرته أطهر الناس قلباً .

فلو وجد الطفل العناية والتربية ، والبيئة الحسنة ، والحكمة فى المعاملة ، وكانت هناك صلة حسنة بين المدرس وتلميذه ، والأب وابنه ، لتحول الطفل من شيطان رجيم — كما يظنون — إلى ملك كريم .

يجب ألا يتنحى المدرس عن تلميذه ولا يعتزله . يجب أن يتصل به ؛ حتى يدرس نفسيته وميوله ، ويعمل لإصلاح ما فيه من عيوب ، ويشعر نحوه شعوره نحو ابنه وأخيه ؛ فيلعب معه بالكرة فى فناء المدرسة ، ويشترك معه فى تنظيم الحديقة ، وغرس الأشجار ، ويتصل به فى كثير من الأعمال . ولا يفكر فى أن ذلك يقلل إجلال التلميذ له ؛ لأن الاحترام أمر نفسى يزداد بالصلة الروحية الحسنة المملوءة إخلاصاً . وغريب أن فكرة العزلة ؛ عزلة الناظر عن المدرس ، والمدرس عن التلميذ ، والضابط عن الجندى — لا تزال سائدة فى المدارس الفرنسية والجيش الفرنسى ؛ ظنًّا منهم أن

التنحى يؤدى إلى التعظيم والتوقير ، كما نظن خطأ . ونرجو أن يأتى اليوم الذى يكون فيه المدرس أخًا أكبر للتلميذ ، لاشبحًا مخيفاً مفزعاً فى نظره، وأن يحاول أن يكون صديقاً وأباً ومرشداً لتلاميذه ؛ حتى تصبح روح العلاقة بين المعلم والمتعلم روح وفاء وإجلال وتقدير .

(٤) يجب أن يشعر المدرس بالواجب نحو المجتمع :

يجب أن يشعر المدرس بما يجب عليه نحو المجتمع ، ويعلم أن كل فرع من فروع التعليم يعمل لخدمة المجتمع ؛ تلك الخدمة التى تعد أمراً حيويًّا فى نظر كل فرد ، كما يجب أن يعمل لبث الروح الوطنية ، والأخلاق الكريمة فى نفوس التلاميذ . فعلى أساس التربية الوطنية ، والديانة العملية ، والقدوة الصالحة ، يستطيع المدرس أن يكوّن نشئاً جديداً ، وشعباً كاملاً فى كل ناحية من النواحى . فعلى أيدى طائفة التعليم يُربَّى كل الأفراد فى الأمة ، ثم يخرجون إلى الحياة العملية . فعلى المدرس أن يشعر بمركزه ، وبالأمانة التى تركت فى يديه ، ويعمل للوصول إلى الغرض الذى ينتظر منه ؛ بحيث تصبح المدرسة المصرية عملية ، لها قوة كبيرة ، وتأثير عظيم فى تهذيب الأخلاق وتقويمها ، وإعداد رجال وطنيين، مخلصين ، عمليين، يثقون بأنفسهم، ويشعرون بما يجب عليهم لغيرهم ، ولا يفرُّون من تحمل مسئولية أى عمل يؤمرون بالقيام به .

(٥) يجب أن يكون المدرس مثلا للعدالة والنزاهة والكمال :

إن الطفل أعدل حكَم على حركات غيره وأفعاله ؛ فيجب ألا يقف المربى موقفاً يرى منه الأطفال الميل إلى أحدهم دون الآخر ، لغرض شخصي أو نفسي ؛ حتى

يمتلكهم جميعاً ، وألا يضع نفسه موضع نقد ؛ فالطفل خير ناقد ، ينظر بعين الطبيعة والنزاهة والعدالة ؛ نظرة لم تلوثها الأغراض ، يقول ما يعتقد ، ولا مرشد له إلاّ شعوره وعقله . إنه يحبك ويطيعك إذا وجد أنك تستحق حبه الطاهر ، وطاعته المعقولة . إنه يطيعك فى كل أوامرك إذا كانت مقبولة مقرونة بتفهيمه الأسباب . إنه لا يكفى أن تأمر ؛ بل يجب أن يصحب الأمر بالسبب .

ربما لا يستطيع الطفل أن يحكم فى السنوات المدرسية الأولى على معلمه ومعلمته من جهة متانة المادة ، ولكن فى استطاعته أن يحكم على روح كل منهما ، ومقدار حبهما له، فيقول: « إن فلاناً يحبنى، وفلاناً يكرهنى. وفهمت كذا من(أحمدأفندى)، أما (حسنأفندى) فلم نفهم منه شيئاً ؛ لأنه دائماً يتكلم، ولا نعرف ماذا يقول . وأما (عمرأفندى) فكسلان لم يعطنا شيئاً » . وهذا أحسن نقد علمى فى التربية والتعليم . وهو يريد أن يقول : إن الأول يسير على مستوانا ، ومادته شائقة ، ومناسبة لنا ، ويعرف ما نحتاج إليه ، ويأتينا بما نحبه ، وما نستطيع هضمه من الطعام . أما الثانى فيظن أننا رجال ولسنا فى عالم الطفولة ، فيختار لنا أشياء لا نستطيع أن ندركها . ولا يحاول تفهيمنا إياها بطرق سهلة تستميلنا ؛ فهو يتكلم ولا يفهم أحد منا ما يريد أن يقوله ؛ لأن كلامه خفى علينا ، وفوق مداركنا ، ولا يناسب سِنّنا أو عالَمنا . وفى الامتحان يأتى بأسئلة صعبة علينا ؛ لأن بينه وبين الأستاذ فلان عداء .

هذا قليل من كثير مما يُسْمَع كل يوم من التلاميذ . وأرجو أن يأتى يوم يكون فيه المربى مثلاً للكمال والعدالة ، ينظر فيه المعلمون والمعلمات إلى تلاميذهم وتلميذاتهم نظرة واحدة .

يقول (فروبل[١]) : « بين المعلم والتلميذ ، وبين الأمر والطاعة يجب أن يكون هناك حَكَمٌ ثالث يخضع له كل من المعلم والمتعلم على السواء . هذا الحكَم الثالث هو الحق ، هو العدالة التى نطالب بها فى كل حال من الأحوال » .

(٦) يجب أن يكون المدرس مخلصاً :

إن إخلاص المدرس فى عمله أكبر وسيلة لنجاحه فى مهنته ونجاح تلاميذه . وليس من الإخلاص أن تدخل حجرة الدراسة قبل أن تعد دروسك، أو تضييع أوقات تلاميذك بالتأخر عن الميعاد . ولو شعر المدرس أو المحاضر بما يشعر به التلاميذ فى الفصل ، والمنتظرون فى قاعة المحاضرات ، عند ما يتأخر فى الحضور فى الموعد المعين ـ ما تأخر لحظة واحدة . انظر إليهم تجدهم فى قلق ، يلتفتون إلى كل آت ؛ متألمين لمرارة الانتظار ، ينظرون إلى الباب نظرة الألم ، ولسان حالهم يقول : كان الأجدر بالمدرس أن يكون خير قدوة ، وأحسن مثل فى المحافظة على أوقات طلبته ، وعلى المواعيد ، وأن يشعر بأن تأخره خمس دقائق فى أول الحصة يؤدى إلى ضياع خمس دقائق من كل طالب . فإذا كان فى الفصل أربعون طالباً كان مقدار التأخر الذى حدث للجميع مائتى دقيقة . ولا أدرى كيف يكون شعور الطالب إذا أضاع المدرس خمس دقائق من كل حصة بالتأخر فى مجيئه ! ولا أدرى لماذا يعاقب التلميذ إذا تأخر بضع دقائق عن المجىء إلى المدرسة بالحرمان طول اليوم ، ولا يلام المدرس على تأخره، مع أن تأخر التلميذ يعود عليه وحده ، أما تأخر المدرس فيعود على عشرات من

---

(١) هو « فردريك ولهلم فروبل » ، المربى الألمانى الكبير ، وصاحب الفضل الأكبر فى إنشاء رياض الأطفال ، ولد سنة ١٧٨٢ وتوفى سنة ١٨٥٢ م .

تلاميذه ؟ ولِمَ لا يكون الإنسان منا حريصاً على وقت الطلبة فلا يضيع منه شيئاً ؟ ولِمَ لا نبقى الطالب نصف ساعة بعد انصراف المدرسة إذا تأخر خمس دقائق فى الصباح بدلا من أن نحرمه اليوم كله دروساً هو فى حاجة إليها ، أو دروساً ربما لا تُعاد ثانية ؟ فمن العدالة أن يعادل العقاب الجريمة .

ليس من الإخلاص أن تهمل عملك ، وتنسى واجبك ، فيختل النظام فى فصلك، وتسمع الضوضاء على بعد ، ويصبح الفصل كأنه ملعب من الملاعب ، أو ملهى من الملاهى ، يغنى فيه من يغنى، ويرقص فيه من يرقص. الكتب ملقاة هنا وهناك، على اليمين وعلى الشمال ، والطلبة يتبادلون كلمات اللعن ، فيبتدئ الدرس وينتهى كأنه رواية هزلية . وهنا أقص عليكم قصة مدرس مهمل فى إحدى المدارس الإنكليزية القديمة، ذكرت على سبيل نقد إحدى مدارس الخاصة بانجلترة ، وهى مدرسة (سَانْدهيرِسْت) : حدث مرة أن أحد الطلبة كان يغنى ، فقال له المدرس : اترك هذا الغناء !

الطالب : ألا تسمح لى بأن أُغنى ياسيِّدى ؟

المدرس : لا ؛ فإن هذه حجرة دراسة .

الطالب : أهى حقًّا حجرة دراسة ؟ لقد ظننت أنها حجرة لهو ولعب .

المدرس : معاقب بكتابة خمسين سطراً !

الطالب : لكن ياسيدى . ذلك . . . .

المدرس : معاقب بمائة سطر ، وإذا تفوهت بكلمة زاد العقاب .

الطالب : أتقصد ما تقول ياسيدى ؟

المدرس : معاقب بمائة وخمسين سطراً .

أتدرى ماذا حدث بعد ذلك ؟ فى اليوم التالى أرسل هذا الطالب ظرفا أزرق يحتوى على كمية كبيرة من الورق الأبيض إلى منزل المدرس ، بعد أن ختمه عدة مرات بالشمع الأحمر ، ولم يكتب حرفا واحدا على ورقة. وفى الحصة التالية سأله المدرس عن الكتابة، فقال الطالب : أنا أعتقد أنى كتبت الواجب ياسيدى ، ثم التفت إلى طالب يدعى (هَنتَر) وقال له : « هذه هفوتك أيها الخنزير ! إنى أظن ياسيدى أن (هَنتَر) ذلك الكلب القذر قد سرقها . أتسمح لى أن أرفسه ؟لعنه الله يا أستاذى » .

المدرس : لا ! اجلس . إنك لم تكتب هذا الواجب مطلقا . ثم انتهى الأمر . ولست فى حاجة إلى التعليق على هذه الحكاية ؛ فأنت تعرف لماذا لم يقم الطالب بعمل الواجب ، ولماذا لم يكلفه المدرس تنفيذه . فالمدرس المهمل لا ينتظر من تلاميذه الإخلاص فى عملهم ، والقيام بواجبهم .

ومما يقال أيضا على سبيل التفكهة ، أن أحد المدرسين اعتاد أن يترك دفتر أسماء التلاميذ والدرجات فى مكتبه بالفصل ، وكان لدى أحد الطلبة مفتاح يستطيع أن يفتح به ذلك المكتب . ففى المساء ــ والمدرسة داخلية ــ استأذن هذا الطالب ومعه طالب آخر أن يذهبا إلى الفصل لإحضار كتاب منه . ولم يكن هناك أحد . وفى خمس دقائق فتح المكتب ، وملئ دفتر المدرس سعوطا . وفى صباح اليوم التالى اجتمع الطلبة فى الفصل، ومنهم النائم، ومنهم الواقف ، ومنهم من يتكلم ، ومنهم من يدعى البحث فى المعجم . فلما فتح المدرس دفتره لينادى أحد الطلبة ، ويكلفه الابتداء بالدرس ، سمعت قهقهة وضحك فى الجهة الأخرى من الحجرة ، وأخذ ذلك المدرس يكح ويعطس ثلاث دقائق باستمرار . فسأله أحد الطلبة :

« هل أصبت ببرد ياسيدى ؟ أرجو ألا يكون خطراً . إن الريح الشرقية متعبة

قليلا ياسيدى . هل تستعمل دواء كذا للكحة ؟ إنه مفيد جـدا . » وأخيرا قال الأستاذ ، لأحد الطلبة : ترجم من فضلك . فأخذ يترجم، ولـكن المدة لم تطل؛ فإن (هَنْتَر) نشر تيار السعوط فى حجرةالدراسة، فابتدأ الطلبة جميعا يكحون ويعطسون عمداً. فقال المدرس :

«إن من يعطس سأ كلفه كتابة مائة سطر، وسأرسل عنه تقريراً لناظر المدرسة»؛ فهدأ الفصل قليلا ؛ لأن الطلبة يخشون الذهاب إلى الرئيس . وإن المدرس الضعيف لا يتردد مطلقا فى إرسالهم للناظر . وهنا قال أحـد الطلبة لرصيفه : «فِلْتْشَر ، إذا كررت ذلك مرة أخرى ضربتك» . وبعد برهة قال « فِلْتْشَر » : «إذا كنت لا تسمح لى ياسيدى بأن أعطس فأرجو أن تسمح لى من فضلك بأن أمخط .» فسمح له قائلا : «لاتـكن قبيحاً». وفى الحال قالوا جميعاً : «لماذا تسمح لِفِلْتْشَر وحده ، ولا تسمح لنا بذلك ؟ إن هذا ليس من العدل . » فمثل هذا المدرس لا يصلح لأن يكون مدرساً ، وإن فصلا لا عمل فيه ولا درس ، وكله ضوضاء ، وسوء نظام ، وعطاس ، وكحة لا يصح أن يعد فصلا مدرسياً . وهذه نتيجة تقصير المدرس وإهماله وضعفه . وأرجو ألا يكون مثل هذا كثيرا .

٧ ـ يجب أن يتصل المدرس بالحياة :

يجب أن يكون المدرس متصلا بالحياة الخارجيـة ؛ السياسية ، والاجتماعية ، والأدبية ، والعلمية ، والفنية ؛ حتى يستطيع أن يعد التلاميذ لتلك الحياة ؛ فإن فاقد الشىء لا يعطيه .

فإذا أراد المدرس أن تـكون له منزلة كبيرة فى نفوس تلاميذه فعليه أن يلم بشئون الحياة ؛ فيعرف الـكثير عن علمائها وأبطالها ، ومخترعيها ، وساستها ، وبعض

كتابها وشعرائها ، ومصوريها ، وقادتها . فمن العار ألا يعرف شيئا عن (أديسُون ، أو لنكُولْن ، أو واشنطون ، أو إسحق نيوتن ، أو نابليون ، أو ولِنجتُون ، أو هِنْدنبرج ، أو كابانصُو ، أو وِلْسُن ، أو بَدروِسْكى الموسيقى الشهير ، أو بِيتْهُوفِن ، أو غيتة ، أو مارتن لوثر ، أو كارلَيْل ، أو دِكِنْز ، أو السير وُولْتَر سكُوت ، أو اللورد ما كُولِى ، أو الرئيس هُوفر ، أو الرئيس رُوزفلت ، أو رمزِى مَكْدونالد ، أو مصطفى كمال ، أو غاندى ، أو دِيفالِيرا) .

وإذا قلنا إن المدرس يجب أن يتصل بالحياة الخارجية فجدير به أن يتصل بالحياة الداخلية ؛ فيعرف شئون بلاده ، وتاريخها قديما وحديثا ، ووزراءها وصناعها ، وتجارها ، وساستها ، وأبطالها ، وعلماءها ، وأدباءها ، وشعراءها ، وقادتها فى الفكر أو العمل ؛ حتى يتمكن من تزويد تلاميذه بالآراء والأفكار متى سنحت الفرصة .

ولكى لا يصعب عليه أن يجيب عن بعض أسئلة التلاميذ التى تتطلب تفكيراً عميقاً يجب أن يكون على صلة دائمة بالحياة العلمية ؛ فيعرف شيئا عن الإذاعة والمذياع ، والطيران ، والغواصات ، والطائرات بأنواعها ، وقاذفات القنابل ، وقوة الكهربا والبخار ، والعلم والاختراع ؛ حتى لا يقف مكتوف اليد عاجزاً عن الإجابة إذا سأله التلميذ .

فالمدرس الكفء القدير يجب أن يتصل بالحياة ونواحيها ، من علم واختراع ، وثقافة وأدب ، وشئون اقتصادية ، وسياسية ووطنية فى العالم أجمع ؛ كى يكون قريباً من الحياة كل القرب ، متصلاً بالعالم كل الاتصال .

٨ - يجب أن يستمر المدرس فى البحث والاطلاع :

يظن المدرس بعد التخرج فى مدارس المعلمين وغيرها أن الحياة العلمية قد انتهت بعد انتهاء الحياة المدرسية . والحقيقة أنه لا نهاية للعلم ، وأن العلم يبتدئ بعد الحياة المدرسية . فالمدرسة تفتح السبل أمامك ، وعليك إتمام البقية . فيجب أن تستزيد دائما من المعلومات ؛ كى لا تقف أفكارك عند حد . فإنه ليس هناك مهنة من المهن تحتاج إلى ازدياد دائم فى العلم والاطلاع ، والبحث والتجربة ، والخبرة والنشاط ، كمهنة التدريس . لذلك تجد المدرسين فى انجلترة مثلا لا يتكلون على تجاربهم المدرسية ، ولا يكتفون بما حصلوا عليه فى الكلية ؛ بل يلحقون بمدارس صيفية فى أثناء العطلة ، أسبوعين أو شهرا من كل سنة ؛ لأخذ محاضرات فى التربية أو علم النفس أو اللغات الأجنبية ، أو للتمرن على كثير من الأعمال اليدوية . . . . ويدفعون أجورا خاصة للمدارس التى يذهبون إليها صيفاً . ويتضاعف عدد هذه المدارس كل سنة ؛ فتجد بكل مدينة كبيرة مدرسة أو مدارس يتصل بها من يريد من المدرسين أو المدرسات ، والطلبة والطالبات ؛ لتحسين مستواهم العلمى والعملى ؛ تراهم يقضون الصباح فى استماع المحاضرات ، وبعد الظهر فى اللعب والرياضة البدنية ، أو فى زيارة بعض الأمكنة الأثرية ، أو القيام برحلات بحرية . وفى المساء يشتركون فى الذهاب إلى رواية تمثيلية ، أو محفل اجتماعى . فتراهم يُعِدون كل وسيلة للتعلم وترويح النفس ، والاستفادة علميا وعمليًّا ، وصحيًّا واجتماعيًّا ، وخلقيًّا وعقليًّا .

وحبذا الأمر لو اقتدينا بانجلترة فى فتح مدارس صيفية فى جهات صحية كالإسكندرية والمنصورة ودمياط ، يذهب إليها المدرسون صيفا لمدة معينة ؛ للرياضة وحضور المحاضرات التى يمكن أن يختار لها مدرسون فى مختلف المواد ؛ حتى يجد

المدرس الفرصة التى يريدها ، فيختار ما يشاء من المواد والجهات . ويمكن أن يسمح لهؤلاء المدرسين بالسكنى فى المدارس الداخلية فى تلك المدن إن وُجدت ؛ تسهيلا لهم، وتشجيعاً على حضورهم وإلحاقهم بتلك المدارس.

ومع ذلك فالمعلم يستطيع الاستزادة من المعلومات بقراءة الكتب الحديثة ، وحضور المحاضرات المختلفة ، والاطلاع فى دار الكتب الملكية أو غيرها فى أثناء السنة . وعندى لا يحسب المدرس ناجحاً فى مهنته إلا إذا عوّد تلاميذه الاعتماد على النفس ، وحب العلم والعمل ، ومعرفة قيمة الوقت ، والعمل لتجديد معلوماته بالقراءة والاطلاع .

وفى الولايات المتحدة بأمريكا يلحق كثيرون من المدرسات والمدرسين بالمدارس الصيفية؛ لحضور محاضرات فى التربية العلمية والعملية . وفى سنة ١٩٢٠ كان عدد هؤلاء المدرسين خمسين ألفا . وفى سنة ١٩٢٨ قد بلغ عددهم ٤١٠ ألف مدرس . وفى سنة ١٩٣٠ قد بلغ العدد ٤٢١ ألف مدرس ؛ أى بنسبة ٤٥٪ من مجموع المدرسين فى المدارس الثانوية والابتدائية بالولايات المتحدة بأمريكا .

فمتى يأتى اليوم الذى يرى فيه الإنسان المدرس المصرى ينتفع علميًّا بوقت فراغه؛ لتزيد معلوماته ؟ وإن إنشاء معهد الدراسات العليا لمدرسى المدارس الثانوية خطوة موفقة فى سبيل تشجيع المدرسين على البحث والاطلاع ، فى أوقات الفراغ .

٩ - يجب أن يكون المدرس قادراً على التعليم، حسنا فى إدارته، حكيما فى عمله:

ليس المدرس بمدرس فحسب ، ولكنه منظِّم ومهذِّب ، ومرتِّب وحاكم. وتحتاج هذه الأشياء إلى قدرة على التعليم ، وحسن إدارة ، وقوة فى التنفيذ ، وحكمة فى التصرف ، وحضور بديهة . فلكى يستطيع المدرس أن يقود التلاميذ فى العمل

الذى يرسمه لهم ويضعه بكل حكمة يحتاج إلى حسن تصرف وإدارة ؛ فيقول الكلمة الصائبة فى اللحظة المناسبة ، ويقوم بالواجب فى الوقت الملائم ، وبالطريقة الملائمة . وقد يكون الرجل عالما ولكنه سيئ الإدارة ، لا يستطيع أن ينفذ مشروعا من المشروعات ، أو عملا من الأعمال ؛ لضعف إرادته ، وسوء تصرفه ، وعدم اتصاله بالحياة ، وضعف إدراكه ، وفساد رأيه ؛ فهو لا يستطيع أن ينجح فى الحياة العملية ، ولا يمكنه أن ينفذ ما يعهد إليه من الأمور .

وقد يدّعى المدرس كثيراً من الادعاءات إذا أخفق فى مهنته ، أو لم ينجح فى النهوض بتلاميذه ؛ فيدّعى أن المناهج صعبة ، أو أن التلاميذ كسالى ، أو أن المعلم السابق كان مهملا . والحقيقة أن السبب فى خيبته عجزه عن التعليم ، وسوء تصرفه ، وقلة فراسته ، ورداءة طريقته . ولو كان لديه شىء من الحكمة لسيطر على مادته ، وأصلح طريقته ، وامتلك قلوب تلاميذه ، بعلمه ومهارته ، وصبره ، وحسن خلقه ، ودقته ، ومثابرته واجتهاده فى السير إلى الأمام ، واتصاله الدائم بعالم التربية والتعليم .

١٠ - يجب أن يتشبع المدرس بروح المدرسة الحديثة :

على المدرس أن يتشبع بروح المدرسة الحديثة ، ويعمل لتنفيذ كل ما يمكن من المبادئ الصالحة فى التربية والتعليم مثل :

(ا) إيجاد روح التعاون فى المدرسة ؛ بأن يتعاون التلميذ مع زملائه ومع مدرسيه.

(ب) العمل بقاعدة الحرية المعقولة فى التعليم .

(ج) عدم إرهاق الطفل بأوامر ونواه لا حاجة إليها .

(د) تعويد الطفل الاعتماد على نفسه فى التعليم والبحث .

(ه) تشويقه إلى العمل وترغيبه فيه .

(و) مراعاة عالم الطفل وطبائعه وغرائزه دائما .

(ز) التفكير فى الطفل قبل أى شىء آخر ، والعمل لإعداده للحياة العملية ؛ بالجمع بين التعليم النظرى والعملى .

١١ — يجب أن يكون المدرس ذا عزيمة ثابتة :

يجب أن يكون المدرس قوى العزيمة ، محافظا على مبدئه ، لا يأمر اليوم بشىء وينهى عنه غدا ، ولا يطالب التلاميذ بالمحال ، ولا يتهاون فى تنفيذ ما يأمرهم به .

١٢ — يجب أن يكون المدرس سليم الجسم :

يجب أن يكون المدرس سليم السمع ، قوى البصر ، معتدل الصوت ، خاليا من الأمراض والعاهات الجسمية ؛ كى يستطيع أن يؤدى رسالته العلمية خير أداء ؛ فإن المدرس الضعيف الجسم يكون عادة خائر القوة ، ضعيف الأعصاب ، سريع التأثر ، معرضا لكثير من الأمراض .

فإذا توافرت هذه الصفات الخلقية والعقلية والجسمية فى المدرس ، وراقب الله وضميره فى عمله ، وفكر فى الودائع الثمينة التى اؤتمن عليها ، كان موضع احترام وتبجيل ، واستطاع أن يقوم بعمله خير قيام ، ويصل إلى الغرض الأسمى الذى نرمى إليه ، وننشده من التربية والتعليم .

(١٣) يجب أن يكون المدرس ذا شخصية قوية :

كثيراً ما يتكلم المربون عن الاتجاهات والطرق الحديثة فى التربية ، وبعد أن ينتهوا من دفاعهم عن آرائهم يختمون بحثهم بقولهم : «والخلاصة أن كل شىء يتوقف على شخصية المدرس» . فيجد هذا القول قبولاً حسناً ، وآذاناً مصغية ممن يسمعه ، ولكن إذا كان كل شىء يتوقف على شخصية المدرس ، فما الفائدة من كليات المعلمين ، ونظريات التربية ، وآراء المربين التى درسها الطالب ليعدّ نفسه لمهنة التعليم؟

حقًّا إن لشخصية المدرس أثراً كبيراً فى نجاحه فى مهنته ، وتأثيره فى تلاميذه. وليست الشخصية وحدها كافية لنجاحه فى عمله ؛ بل يجب أن تصحب بمؤهلات علمية خاصة ، وثقافة معينة ، وإعداد مهنى منظَّم .

وإذا قلنا إن قوة الشخصية شرط أساسى لنجاح المدرس ، فلا نقول بتضحية شخصية التلميذ فى سبيل شخصية المدرس؛ ولكننا نقول بالشعور بوجودها ، والعمل لتكوينها وتربيتها .

شخصية المدرس

يضع المربون أهمية كبيرة على شخصية المدرس ؛ فهى ذخيرة فى حجرة دراسية مملوءة بتلاميذ وهبت الطبيعة لهم ميولاً مختلفة ، ولديهم رغبات متناقضة، جلسوا فى تلك الحجرة ليدرسوا شيئاً واحداً، ومادة واحدة. فإذا كانت شخصيته قوية استطاع أن يقرِّب بين هذه الميول وتلك الرغبات المختلفة ، ويقودها إلى الطريق المستقيم ، ويتغلب على ما يعترضه من الصعوبات بحكمة ومهارة . ولكن ما تلك الشخصية التى طالما سمعنا الناس ولا نزال نسمعهم يتكلمون عنها ، ولا ندرى من أمرها شيئاً ؟ وللإجابة عن هذا السؤال نقول : إن شخصية المدرس أو غيره يصعب إدراك كنهها،

وليس من السهل أن نحددها ونعرفهـا تعريفاً علميًّا جامعاً مانعاً ؛ فهى كما قلنا فى كتابنا « الشخصية » كالـكهربا والمغناطيسية والمـذياع ، لا تعرف إلا بآثارها . ولـكن هـذا كله لا يمنعنا أن نحاول البحث عن سرها وتعريفها تعريفاً على وجه التقريب فنقول(١) :

الشخصية : مجموعة الصفات العقلية والخلقية والجسمية والإرادية التى يمتاز بها الشخص من غيره ؛ فشخصية الإنسان هى الإنسان نفسه ما دام يؤثر فى غيره ويتأثر به . وتبدو فيما يظهر منه من استقلال الفـكر ، وحضور البديهـة ، وسرعة الخاطر ، وقوة الروح ؛ فهى قوة تجعل له نفوذًا فعّالاً يسرى أثره إلى هؤلاء الذين يعاشرهم ويختلط بهم . وتعمل عملهـا صامتة هادئة ، ولـكنك لا تلبث أن تشهد أثرها فى صورة جلية واضحة فيمن حوله من الناس ، بحكم ما طبع عليـه الإنسان من المحاكاة والتأثر بغيره . وإذا كان هـذا ظاهراً فى الناس عامة ، فهو فى الأطفال أظهر ، ومن ثم كانت الشخصية القوية والقدوة الصالحة من أقوى العوامل فى تـكوين أخلاقهم ، وتوجيه سلوكهم .

ولمـا كانت الغاية من عمل المدرس التأثير فى التلاميذ ، وتربية ميولهم ونزعاتهم ، وتعويدهم صالح العادات ، وحميد الصفات ، كانت شخصيته أقوى أثراً من شخصية سواه . ولا يستطيع أن يقوم بأداء رسالته على الوجه الأكمل إلا إذا كان ذا تأثير نافذ فى نفوس تلاميذه ، يستهوى أفئدتهم ، ويستولى على قلوبهم . والمدرس الماهر هو الذى يستطيع أن ينتفع بغريزة الخضوع فى الأطفال ؛ فيؤثر فيهم التأثير الحسن ؛ إذ يأتمرون بأمره ، ويحاكونه فى سلوكه وعاداته ، ويصغون إلى كل ما يفوه به . وبشخصيته يمكنه أن يوجههم إلى ما فيه صلاحهم ، ويرشدهم إلى الطريق المستقيم .

ولقد حدث مرة أن سئلت إحدى الطالبات بمدرسة المعلمات بعد انتهائها من المدرسة ، وقد أريد تعيينها معلمة ؛ لشخصيتها البارزة ، وقدرتها الـكبيرة على حفظ النظام ،

(١) ارجع إلى الفصل الأول من كتابنا : « الشخصية » .

وامتلاك قلوب التلاميذ ، من غير احتياج إلى أى نوع من أنواع العقاب : كيف أمكنك أن تستولى على انتباه الأطفال ، وتحفظى النظام بهذه الدرجة ؟

فأجابت ـ وقد اعتراها بعض الخجل ـ : « لا أدرى » .

وبهذا أشارت إلى حقيقة خفية لها درجة كبيرة من الأهمية ؛ هى أن لشخصية المدرس أثراً كبيراً فى السيطرة على قلوب التلاميذ ، ولقد وهب الله لها هذه الشخصية ، فكان التلاميذ أطوع لها من بنانها ، يقومون بكل ما تأمرهم به بنفس راضية ، من غير التجاء إلى تهديد أو وعيد ، أو عقاب شديد .

وإن الطلبة الضعاف من معاهد المعلمين والمعلمات الذين يجدون صعوبة مع تلاميذهم يحسنون صنعاً إذا سألوا أنفسهم هذا السؤال : « هل هم يصلحون لمهنة التعليم ؟ » وأمثال هؤلاء لن يفيدوا كثيراً فى التعليم ، وسيجدون هذه المهنة شاقة أمامهم ، وستكون حياتهم التعليمية مملوءة بالصعوبات ؛ فالصحة والقوة الجسمية ، والمواهب العقلية ، والصوت المؤثر ، والنظرة القوية التى تخترق شغاف القلوب ، والثقة بالنفس ، والصبر ـ كل هذه صفات تقوّى شخصية المدرس ، وتساعده فى النجاح فى عمله. أما هؤلاء الذين لم يسعدهم الحظ ، فلم توهب لهم هذه الخلال ، فيمكنهم أن ينجحوا فى عملهم إذا كانت لديهم إرادة قوية ، أو عزيمة ثابتة تعمل لتكميل هذا النقص الطبعى ، بالعناية التامة بالدروس وإعدادها ، والتفكير فيها ، والاستفادة من تجارب المربين فى التربية والتعليم .

وعلى المدرس أن يكون قادراً على ضبط نفسه ، وكتمان شعوره ، حذراً فى عقابه وتهديداته ؛ فلا يصرح بكل ما فى نفسه . وكثيراً ما يحدث أن المدرس المبتدئ الذى يفكر فى حفظ النظام يضطر إلى استعمال أقصى حد من أنواع العقوبة المعروفة ، ثم يقف ولا يدرى ماذا يفعل . وهنا يظهر غضبه ، ولا يضبط نفسه . وقد يلجأ إلى تهديدات لا يستطيع تنفيذها ، أو إلى حكم آخر هو ناظر المدرسة ؛

ليتدخل فى الأمر . ولو كان المدرس حكيماً ما اضطر إلى كل هذا ، ولحافظ على نفوذه ومركزه بين التلاميذ .

وليست شخصية المدرس وحدها كافية لنجاحه فى عمله أو تدريسه ؛ بل لا بد له من أن يجمع إلى شخصيته أن يعرف مادته جيداً ، ويكون واسع الاطلاع والتدقيق فى البحث ، ويأخذ نفسه بالتهذيب والتثقيف ، حتى يصبح خير قدوة لتلاميذه .

قال عمرو بن عتبة لمعلم ولده : ليكن أول إصلاحك لولدى إصلاحك لنفسك ؛ فإن عيونهم معقودة بك ؛ فالحسن عندهم ما صنعت ، والقبيح ما تركت .

فشخصية المدرس ذخيرة كبيرة فى إرشاد تلاميذه إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم ، رغم اختلاف ميولهم وأهوائهم ، وتناقض نزعاتهم ومشاربهم .

وعلى المدرس أن يشارك الأطفال فى وجدانهم وشعورهم ، ويظهر لهم رغبته الحقة فى إفادتهم ونفعهم . وإذا اضطر إلى الشدة وجب أن تكون شدة فى غير عنف ، وإذا اضطر إلى اللين وجب أن يكون فى غير ضعف ؛ حتى يصل إلى أحسن النتائج فى التعليم . قال معاوية بن أبى سفيان : « لو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت » . قيل له : « وكيف ذلك ؟ » قال : « كنت إذا شدوها أرخيتها ، وإذا أرخوها شددتها » .

وإذا لم يحسن المدرس الإلقاء فمن الممكن أن يهذب صوته ، ويحسن إلقاءه بالإيقاع ، والتمرن على تنويع الصوت فى السرعة أو البطء ، وفى رفعه أو خفضه على حسب ما تقتضيه الحال ؛ حتى يحسن الإلقاء ، ويكون نطقه واضحاً ، وتكون لديه قدرة كبيرة على التأثير فى الأطفال . ولقد وهب الله لبعض المدرسين هذه الموهبة ، فاستفادوا منها فى مهنتهم ، ونجحوا نجاحا كبيراً فى عملهم .

رأى الأستاذ (نُورْمَان مَـكْمَان[1]) فى شخصية المدرس :

يرى العالم المربى (نُورْمَان مَـكْمان) أن شخصية المدرس وما لها من الأثر فى توجيه التلاميذ والتسلط عليهم قد تـكون عقبة فى طريقهم إلى الحرية ؛ إذ أنه يرى أن لـكل فرد شخصية تختلف عن شخصية غيره ، وله الحق فى إنماء قواه الطبيعية بالطرق التى تسمح بها الطبيعة والمجتمع ؛ فهو حر فى أن يخطئ ويقع فى الخطأ مادامت غلطاته لا تضر غيره ، ومادامت تلك الغلطات تقوده إلى الصواب والتعلم بالتجربة . وإن العمل الذى يقوم به ـ ولو كان رديئاً ـ خير من العمل الذى يعمله غيره له ، ولو كان حسناً . ولـكن مهما قال « نُورْمَان » فلا بد من الشخصية التى تؤثر فى التلاميذ وتسيطر عليهم ؛ حتى يضمن المدرس انتباههم وحرصهم على الانتفاع بما يرشدهم إليه .

وكما تـكون الشخصية فطرية تـكون مكتسبة بالدربة والمرانة والتربية الحقة ، ولـكن الفطرية أقوى من المـكتسبة . ولو كانت الشخصية هبة طبعية فحسب ، لـكنا ضحايا الظروف ، وما كان للتربية أى أثر فى تـكوين العظماء من رجال الدين والعلم والأدب ، ولـكن أثرها لا ينـكر فى تـكوين الشخصية والعظمة فى نفـوس العظماء[2] . وهنا نسأل : هل قامت التربية وقام المربون حقًّا بواجبهم نحو تربيـة الشخصية ؟ هل قاموا بواجبهم وقد أصبحنا نفـكر فيما فـكر فيه غيرنا ، ونتـكلم بما قاله سوانا . ونفعل مثل من سبقنا ؟ إننا أصبحنا محاكين فى أفـكارنا وأقوالنا وأفعالنا ، مهملين أنفسـنا وشخصياتنا ؛ لأن التربية تربية اتـكالية ، لا تعرف معنى الثقة بالنفس ، والاعتماد على النفس فى التفـكير والقـول والعمل . وقد نادى كبار المربين

---

(١) Mr. Norman Mc Munn.

(٢) ارجع إلى كتاب الشخصية للمؤلف ص ١١ .

وبخاصة « السير پرسِى نَن [(١)] » المربى الإنكليزى الكبير بأن «الغرض من التربية هو تربية الشخصية المستقلة » . وكتب التربية فى واد ، والمدارس فى واد آخر ؛ فبينما نقول : يجب أن يربى الفرد تربية كاملة من كل الوجوه جسمياً وعقلياً ، وخلقياً واجتماعياً ، نجد أن الفرد مهمل إهمالاً تاماً من جميع الوجوه ، وأن شخصيته تطبع بالطابع المدرسى ، وتصب فى قالب خاص ؛ فتفقد مظاهرها الطبيعية ؛ كل ذلك حباً للنظام . ولسنا ننكر أن النظام يجب أن يكون سائداً ، بل إننا ننادى بالنظام ، ونقول دائماً : النظام هو الحياة ، ولكننا نعترض على الطريقة التى بها يسود ذلك النظام ؛ تلك الطريقة التى تقتل شخصية الطفل ، وتضعف مواهبه ، ونطالب بطريقة أخرى بها يستتب النظام ، من غير إضرار بعقلية الطفل أو وجدانه أو إرادته ، أو جسمه أو شخصيته . وليست هذه الطريقة بسهلة ؛ لأنها تتطلب مشاركةً فى الوجدان ، وفهماً لكل فرد من جهة الذكاء والميول والبيئة والأحوال . . . وما ذلك بالأمر الهين ؛ فنحن لا نفكر إلا فى المظاهر ، والنظام الشكلى ، والسكون العسكرى ، مهما ضحينا فى سبيل هذه الأشياء من الضحايا . وإذا تحققت الثقة بين المعلم والمتعلم ، ووجدت الصلة الروحية بينهما ، فمن المحال أن تكون هناك صعوبة فى نظام أو غيره ، ولن يضحى بشخصية الفرد أو الأفراد بعد .

وتقتضى الشخصية الفعالة نشاطاً ، ومثابرة على أداء الواجب ، وحرصاً على منفعة التلاميذ ، واحتراما للنظم المدرسية ، هذا إلى عطف على التلاميذ ، وتشجيع لهم ، وتحريك لبواعث النشاط الذاتى لمحبة العمل ، والإقدام عليه ، مع الحرية المنظمة التى تعينهم على تكوين شخصيتهم ، وتقوية إرادتهم ، وتعويدهم الثقة بأنفسهم ، إلى غير ذلك من الصفات التى تبعث فى الأحداث محبة العمل والدأب فيه بإخلاص وعزم ونزاهة .

وشر ما يبتلى به الأطفال مدرس مضطرب النفس ، سريع الغضب ، مهمل

(١) ارجع إلى : Education Its Data & First Principles, by Sir. T. Percy Nunn .

أداء واجبه؛ فإن أمثال هذا المدرس سرعان ما يوحون إلى التلاميذ بنقائصهم وعيوبهم، ويبثون فيهم ضعف الهمة، والكسل، وخور العزيمة، والاستهتار، وما إلى هذا من الصفات التي تجعل من الطفل عضواً أشل في المجتمع.

على أنه يجب ألا يعزب عن البال أن الشخصية ليست أمراً خاصًّا بالمدرس فحسب؛ بل هي قوة سرية يجب توافرها في كل فرد من أفراد المجتمع؛ حتى يضمن لنفسه النجاح في عمله. فنجاح المحامي يتوقف كثيراً على شخصيته وحكمته وحضور بديهته. ونجاح الطبيب يتوقف على شخصيته، ومهارته وشعوره نحو المريض. ونجاح أي إنسان يتوقف على شخصيته، ومقدار إلمامه بمادته، وخبرته بشئون مهنته وأسرارها. فالشخصية لازمة لكل فرد لزومها للمدرس؛ حتى يوفق الجميع إلى النجاح فيما يكلفونه من أعمال، وما يوضع في أعناقهم من أمانات.

ولكي تكون شخصية المدرس قوية يجب أن يثق بنفسه ويحترمها، ولا يتذلل لمن هو أكبر منه مقاماً، ولا يترفع على من كان أقل منه مركزاً؛ فإن التذلل جبن، والتكبر دليل على النقص. كما يجب أن يكون أميناً في عمله، سهلاً في خُلقه، مخلصاً في أداء واجبه، يعرف كيف يعامل الرجال، وكيف يحترم النساء، وكيف يكون محبوباً عند الأطفال، وكيف ينفذ إرادته، وكيف يثبت على مبدئه، ويستمر في الطريق الذي يرسمه لنفسه، ويثق بصحته. ولن ينجح المدرس إذا كان ضعيف الشخصية، متردداً، ضعيف الإرادة، مهملاً عمله، لا يفكر إلا في أكبر راتب وأقل عمل.

ولكي تكون شخصية المدرس كاملة يجب أن يكون معتدل الجسم، قوي الصحة، سليم الحواس، قادراً على حسن التعبير، كريم الخلق، أبيَّ النفس، أميناً في عمله، محبًّا للنظام، حسنِ المعاملة، ضابطاً لشعوره، حازماً في رأيه، قويًّا في

إرادته ، متيناً فى مادته ، عالماً بنفسية تلاميذه وميولهم وغرائزهم ، يستطيع أن ينظم عمله ، ويعده جيداً ، ويرتبه ترتيباً منطقيًّا ، ويفكر فى الأطفال ومستقبلهم ، ويعمل للسير بهم إلى الأمام ؛ كى يظهر أثره فيهم من يوم إلى آخر . يجب أن يكون محبًّا للبحث والاطلاع ، متصلا بالعالم والحياة ، يقدر التبعة الملقاة على عاتقه ، يشعر نحو تلاميذه بما يشعر به نحو بنيه من عطف وشفقة ومحبة .

يجب أن يكون حميد السجايا ، سلس القياد ، ليّن العريكة ؛ كى يكون خير قدوة للتلاميذ يقتدون به ، ويحذون حذوه ، ويقتفون أثره ؛ فإذا قال فعل ، وإذا وعد وفى ، وإذا أمر حرص على تنفيذ أمره ، يفكر قبل أن يأمر ليسبق عقلُه لسانَه ، ولا يأمر إلا بما فيه المنفعة ، ولا يطلب ما يصعب القيام به ، فإذا أراد أن يعاقب تلميذاً لا يعاقبه بكتابة مائة سطر مثلا من موضوع من الموضوعات ؛ كى لا يشعر التلميذ بأن العلم وسيلة للعقاب . ولا يقف موقف المدرس الذى كاف تلاميذه لأمر ما كتابة مائة وخمسين سطراً ، فعارضوا ، فعاقبهم بمائتى سطر ، فأعادوا المعارضة ، فجعل العقاب ثلاثمائة سطر ؛ فلم يكتبوا شيئاً ، ولم يسألهم عما فعلوا . ويجب ألا يتفوّه بتلك العبارات الجوفاء التى طالما يسمعها التلاميذ من مدرسيهم مثل: «من فعل منكم كذا طردته من المدرسة ولن يرى هنا بعد اليوم . ومن تكلم مع جاره أمتّه . »

فالواجب الملقى على عاتق المدرس كبير ، لا يستطيع القيام به إلا إذا كان قوى الشخصية ، وأخلص فى مهنته ، وأحب عمله ، وحافظ على أوقات تلاميذه ، وكان محبًّا للحقيقة ، عادلاً فى معاملته . ولا نبالغ إذا قلنا إن مستقبل الطلبة بيد المدرسين. وبالمدرسين تكون الأمة . ولو قام كل منا بواجبه نحو العلم والتعليم لكانت مصر اليوم فى مستوى أرقى الأمم الأوروبية فى كل ناحية من النواحى .

الخـلاصة :

ومجمل القول يجب أن يتحلى من وجد فى نفسه الميل لمهنة التعليم ، وأعد نفسه للتدريس - بالصفات الآتية : —

١ — أن يكون ذا شخصية قوية ونفوذ كبير ؛ كى يستطيع أن يملك قلوب تلاميذه ، ويستهوى أفئدتهم .

٢ — يجب أن يكون محباً للأطفال بطبيعته ، يعطف عليهم ، ويقوى ضعيفهم ، ويشجع قويهم ؛ بحيث يكون أباً شفيقاً قبل أن يكون مدرساً .

٣ — أن يكون عالماً بطبائع الأطفال ، وغرائزهم ، وعاداتهم ، وميولهم ، وأذواقهم ، وتفكيرهم ؛ كى لا يضل فى تعليمهم .

٤ — أن يعتقد أن التعليم وسيلة كبيرة لتحسين المجتمع من كل الوجوه ، ويفكر فى المجتمع وما يتطلبه حتى تكون المدرسة متصلة بالحياة .

٥ — أن يعامل جميع تلاميذه معاملة واحدة ، ويعدل بينهم ، ويحسن الصلة بهم ، فلا يفرق بين ابن الغنى وابن الفقير ، ولا ينظر إلى من يتعلمون بالمجان نظرة احتقار ، لا لسبب إلا أنهم فقراء ، كما يفعل بعض المدرسين .

٦ — أن يخلص لتلاميذه ، ويحافظ على أوقاتهم ، ويفكر دائماً فى النهوض بهم ، ويشعر بأنهم ذخيرة الشعب فى المستقبل .

٧ — أن يتصل بالحياة والعالم كل الاتصال ؛ كى يمكنه تزويد تلاميذه بما يشاءون من ثقافة وأدب ، وعلم واختراع .

٨ — أن يكون محبًّا للعلم ، واسع الاطلاع ، غزير المادة ، منظم التفكير ، حسن الاختيار ؛ لينهض بتلاميذه ، ولا يخبط خبط عشواء .

٩ — أن يحسن التدبير والإدارة ، والتصرف ، ويكون حكيماً حازمًا فيما يقول وما يفعل ؛ يلين فى غير ضعف ، ويشتد فى غير عنف ، يقوم بالواجب فى الوقت الملائم ، وبالطريقة الملائمة ، ويقف دائما مواقف مشرفة .

١٠ — أن يعمل بروح التربية الحديثة : من التعاون ، والحرية المنظمة ، والتشويق ، والعمل برغبة ، والجمع بين الناحيتين : العلمية والعملية ، والتضحية بكل شىء فى سبيل تربية الطفل تربية استقلالية حقة .

١١ — أن يكون قوى العزيمة ، محافظاً على مبدئه ، لا يأمر اليوم بشىء ثم ينقضه غداً ، ولا يطالب التلاميذ بالمحال ، ولا يتهاون فى تنفيذ ما يأمرهم به .

١٢ — أن يكون سليم السمع ، قوى البصر ، معتدل الصوت ، خالياً من الأمراض والعاهات الجسمية .

ونزيد على ما تقدم من الصفات الجسمية والعقلية والخلقية والاجتماعية :

١٣ — أن يكون نشيطاً شجاعاً ، حاضر البديهة ، سديد الحكم ، قوى الملاحظة ، واضح الخيال ، يفكر دائماً فى الطرق المؤدية لنجاحه فى عمله .

١٤ — أن يكون ذا كرامة يربأ بنفسه عن الدنايا ، ويستنكف من القبيح ؛ حتى يكون مرفوع الرأس ، وموضع التبجيل والاحترام .

١٥ — أن يكون راجح الحلم ، رحب الصدر ، كثير الصبر ، قادراً على ضبط شعوره ونفسه ؛ لا يتأثر لأتفه الأسباب ، ولا يغضب لأقل شىء .

١٦ — أن يكون فصيحاً قادراً على التعبير والتوضيح والتفسير . ولا نبالغ إذا قلنا يجب أن يكون خطيباً مفوّهًا ، يصل إلى قلوب تلاميذه ، ويؤثر فى نفوسهم .

١٧ — أن يعطى التلميذ الفرصة فى القيام بالعمل بنفسه ، وبالتجارب فى كل مادة من المواد . هذا إذا أراد أن يكون التعليم مثمراً منتجاً ؛ فأحسن الطرق فى التربية لا تثمر إلا إذا اشترك التلميذ فى العمل ، وقام بالتفكير والحل ، فى حين أن المدرس يفتح له السبل ، ويشوقه إلى العمل ، ويرشده عند الحاجة إلى الإرشاد . أما المعلمون الذين يقومون للتلاميذ بالحل على السبورة ، ويدعونهم ينقلون ما يرون من غير فهم ، فإنهم يضرونهم كثيراً من حيث لا يشعرون ؛ لأنهم يقومون بالعمل الذى فرض على غيرهم القيام به .

الفصل التاسع

إعداد الدرس واهميته

إن لإعداد الدروس أهمية كبيرة، وأثراً عظيما فى نجاح المدرس فى مهنة التعليم . وإننا ننتظر من طالب المعلمين العناية التامة بإعداد دروسه فى كل مرحلة من مراحل التعليم .

فإذا ما سيطر المعلم على مادته بعد بضع سنوات من الخبرة والتجربة انتظرنا منه زيادة فى الاطلاع ، واستمراراً فى البحث ؛ حتى يصير فى يوم ما عالماً بمادته حق العلم، ماهراً فى تدريسه ، مرتب الفكر ، منظم العمل ، يرجع إليه فى حل المشكلات .

أهمية الاطلاع اليومى للمدرس :

للاطلاع اليومى أثر كبير فى نجاح المدرس فى مهنته . وتتطلب مهنة التدريس دوام القراءة والبحث والاطلاع . وإن المعلم الذى ينقطع عن البحث العلمى ـ الثقافى أو المهنى ـ قد رضى لنفسه ركوداً ذهنيًّا ، وضعفاً علميًّا . وليس هناك وسيلة أخرى للوصول إلى المدرس الكفء القدير ، المتين المادة ، الغزير العلم ، سوى القراءة اليومية ، والاطلاع المستمر . فالمدرس ينبغى أن يكون طالب علم دائماً . وفى الوقت الذى ينقطع فيه عن طلب العلم يفقد سرّ قوته وعظمته . ولا نبالغ إذا قلنا : إن السر

فى عظمة المدرس ومتانته فى مادته ، هو أن يطلب العلم مدى الحيـاة ، وأن يبحث عن العلم ما دام حيًّا ، وأن يكثر البحث والاطلاع . ومن أجل ذلك قيل : المدرس طالب من المهد إلى اللحد . وإننا ننتظر من المدرس المبتدئ فى أول حياته التعليمية أن يعد دروسه اليومية تمـام الإعداد ، ويخصص جزءاً من أوقات فراغه بالقراءة الخارجية والبحث الحرّ .

وقد سئل مرة أحد المربين وهو (الدكتور أرْنولْد[1]) : لمـاذا تعد دروسك كل يوم قبل أن تقوم بتعليمها ؟ فأجاب : « إنى أود ألا يشرب تلاميذى إلا من منبع جديد ، وماء عذب ، لا من ماء راكد » . وهو يريد بذلك أن تـكون مادته جديدة ؛ كى يكون فى دروسه حياة ونشاط ، لا موت وخمول ، وأن تكون دروسه متصلة بالحياة كل الاتصال ، خالية من الخطأ ، بعيدة عن الجمود أو الفساد .

وليس الغرض حشو الذاكرة بالمعلومات ، ولـكن الغرض اختيار تلك المعلومات؛ كى يكون لهـا أثر فى نفوسنا . والحق أن الإنسان ينسى أكثر من تسعة أعشار ما يتعلمه فى المدرسة ، ولا يُستثنى المدرسون من هذه القاعدة ؛ فهم كذلك ينسون أكثر من تسعة أعشار ما يعرفون . ولهذا النسيان لا يستطيعون أن يعتمدوا كل الاعتماد على ما درسوه من المواد فى المعاهد والـكليات ؛ بل يجب أن يعيدوا ما درسوه ويُحيوا ما فى ذاكرتهم ، بدوام القراءة والبحث والاطلاع ، وإعادة النظر فيما درس، ومراجعة التعريفات ، والاستزادة من المعلومات ، وربط الأفـكار بعضها ببعض ؛ فحياة العلم مذاكرته ، كما يقول السلف .

---

(١) "Dr Thomas Arnold Headmaster of Rugby School."
هو (الدكتور توماس أرنولد) ناظر مدرسة (رجبى) ؛ وهى إحدى مدارس الخاصة بانجلترة. ولد سنة ١٧٩٥ ، وتوفى سنة ١٨٤٢ م . وله كثير من الإصلاحات فى هذا النوع من المدارس الإنـكليزية .

لا يكفى لإعداد الدرس أن يكون المدرس على علم بمادته ؛ بل يجب أن يفكر فى المقدمة التى يبدأ بها الدرس ،والطريقة التى بها تعرض تلك المادة ، والتى بها تكون الأسئلة ، والمناقشة ، والموازنة ، واستنباط الحقائق والقواعد من الأمثلة التى تذكر للوصول إلى القاعدة والتطبيق عليها .

ولا يكفى أن يذهب المدرس إلى تلاميذه حافظاً ما فى كتابه عن ظهر قلب ، فيكرر المادة أمامهم كالببغاء ، ثم يكلفهم الرجوع إلى الكتاب ؛ فإن هذا ليس من الإخلاص فى العمل ، وليس من الأمانة فى شىء . وإذا جاز الاعتماد على كبار الطلبة فى قراءة بعض الدروس وفهمها ، واستخلاص بعض الحقائق منها ، معتمدين على أنفسهم فى الدراسة والبحث ، لا يجوز الاعتماد على صغار التلاميذ فى الاكتفاء بتكليفهم قراءة ما فى كتبهم .

لا علم إلا بعد تعليم :

إن لهذه القضية نصيباً كبيراً من الصحة ؛ فالحق أنه لا علم إلا بعد تعليم. وإذا كان الطالب مسئولا عن نفسه فقط ، فالمدرس مسئول عن تلاميذه والنهوض بهم . ولا يمكنه أن يفهمهم مادة من المواد إلا إذا عرفها حق المعرفة ، وفهمها كل الفهم . وقد قيل : فاقد الشىء لا يعطيه ؛ فلا عجب إذا سمعنا بعض المبتدئين من المدرسين يقولون : إنهم لم يفهموا مادة كذا إلا بعد أن قاموا بتدريسها وتعليمها ؛ فالمدرس المبتدئ يستفيد من الناحية العلمية أكثر مما كان يستفيده من العلم وهو طالب ؛ فمهنة التعليم تضطره إلى الاطلاع والدراسة والفهم ؛ فهى مرتبطة بالتعلم وكسب المعرفة الارتباط كله . وإن المجهود الذى يبذله المدرس فى توضيح نقط الدرس للتلاميذ يساعده فى جعل الدرس واضحًا تمام الوضوح فى نفسه . فالعلم يزداد بالبحث والجدل ، والحوار واحتكاك الأفكار . أما العلم الذي لا يسمعه أحد ، ولا ينتفع به أحد ، فمآله النقص

والنسيان . يقول أحد المربين : « إن الله يبارك فى العالم الذى يعلّم غيره ، ويبارك فى المتعلّم الذى يتلقى العلم ويتقبله » . وقد صرح أحد حكماء بنى إسرائيل مرة بأنه قد تعلّم من أستاذه كثيراً ، وتعلّم من زملائه أكثر مما تعلمه من أستاذه ، ولكنه تعلّم من تلاميذه أكثر من الجميع . ولا غرابة ؛ فالطالب الذكي قد يصل إلى حل لم يصل إليه أستاذه ، والطلبة المجدون فى عملهم يبعثون فى المدرس رغبة فى العمل ، فيستفيد ويفيد .

وإن إعداد المدرس لدرسه غير إعداد الطالب له ؛ فالطالب قد يكتفى بدراسة المادة دراسة سطحية ، أما المدرس فلا يكتفى بهذا النوع من الدراسة ؛ بل يتعمق فى الفهم ، ويعرف كل ما يتعلق بمادته معرفة تامة ؛ كى يكون على علم بأضعاف ما ينتظر أن يذكره لطلبته .

وعلى إعداد المدرس لدروسه يتوقف نجاح تلاميذه أو إخفاقهم ؛ فهو مسئول عن قوتهم أو ضعفهم ، وعن تقدمهم أو تأخرهم ، وعن نتائجهم إذا نجحوا أو لم ينجحوا . وقد يمشى المدرس المخلص أميالاً ليستشير آخر فى حل تمرين هندسى ، أو مسألة حسابية ؛ كى لا يُظهر ضعفاً أمام تلاميذه . فنشاط المدرس وغيرته على عمله ، وحرصه على إفادة تلاميذه تكمل ما به من نقص - إن كان هناك نقص - من الناحية العلمية . وفى استطاعة المدرس الضعيف المادة أن يكون عالماً غزير المادة إذا وُجدت لديه الرغبة فى العلم والبحث والنهوض بتلاميذه ؛ لأن هذه الرغبة تحمله على الاطلاع ؛ كى يعالج ما به من ضعف علميّ .

وفى إعداد الدرس يجب أن يعرف المدرس معانى الكلمات الصعبة فيه ، ويفهم معنى كل عبارة وفقرة كل الفهم ، ويكون قادراً على توضيح الأفكار الغامضة ، والتعبير عن كل فكرة بعبارة صحيحة سهلة ، وزيادة ما يعنّ له من الآراء ، وحذف ما يراه جديراً بالحذف منها .

المبادئ التي يجب أن تراعى في إعداد الدروس:

١ ــ يجب ألا ينظر المدرس إلى درسه ، كما ينظر إلى موضوع منعزل مستقل عن غيره ، بل يعده موضوعا مرتبطا بغيره من الموضوعات ؛ مرتبطا بما قبله وما بعده من المادة نفسها ؛ كي يفهم التلاميذ العلاقة بين درسه والموضوعات التي سبقته ، أو التي تليه ؛ لينتفعوا بقوانين الربط ؛ ربط الموضوعات بعضها ببعض ؛ فيسهل عليهم تذكرها. ففي درس كان وأخواتها يجب أن يعرف المدرس العلاقة بينها وبين المبتدأ والخبر ، والفرق بينها وبين إنَّ وأخواتها ، وظنَّ وأخواتها . وفي درس نائب الفاعل يجب أن يعرف العلاقة بينه وبين الفاعل ، ثم الرابطة بينه وبين المفعول به .

٢ ــ يجب أن يكون للمدرس خطة واضحة في درسه ، وغرض معين يعمل للوصول إليه ، ونقط جوهرية يجب أن تُعرف وتُفهم ويُبنى عليها في المستقبل . وقد أغنت الكتب المقررة المدرس عن البحث عن تلك النقط في كل درس من الدروس ، وفي كل سنة من السنوات الدراسية ؛ فعليه أن يطلع على هذه المادة ، ويرتبها في ذهنه نقطة نقطة ، ويعمل لتفهيمها لتلاميذه بالطريقة التي يختارها ؛ بأن يكون لكل درس خطة من الخطط ؛ فيعرف كيف يبدأ الدرس ، وكيف يناقش التلاميذ ، وكيف يشرح العبارات الغامضة ، والكلمات الصعبة ، وكيف يوضح ما في العبارة أو الأسلوب من جمال ، وكيف يفهم التلاميذ الغرض الذي يرمى إليه الشاعر من قطعة المحفوظات ، أو الذي يقصده الكاتب من قطعة المطالعة ، والنقط الجوهرية في درس القواعد ، وكيف ننتفع بهذا الدرس فيما نقرؤه ، وما نكتبه ، وما نقوله ؛ حتى نصل بالدراسة إلى الغرض الذي نقصده منها ، ولا تكون آلية .

ولتنفيذ هذه الخطة يجب أن يدون المدرس بإيجاز في كراسة إعداد الدروس

الوسائل التى يتخذها فى درسه ؛ من تمهيد وقراءة للموضوع ، أو كتابة للأمثلة على السبورة ، ومناقشة وموازنة ، واستنباط لقاعدة أو حكم أو مبدأ ، فيذكر الخطوات التى يتبعها فى درسه من بدايته إلى نهايته ، بطريقة (هربارت الألمانى) ، أو بطريقة طبعية لا تكلف فيها ولا تصنع ، يذكر فيها كل ما يقوم به من عمل ؛ بحيث يكون على علم تام بالمفردات الصعبة التى يناقش التلاميذ فى تهجيتها أو معناها ، وبالنقط التى يعطيها فى الدرس ، والأسئلة التى يسألها ، والتمرينات التى ينتظر قيام التلاميذ بحلها ، والمعنى المقصود من الآية أو الحديث ، والعظة التى نتعظ بها من درس التاريخ .

فقراءة المدرس للقطعة فى الكتاب لا تكفى لإعداد الدرس ؛ بل يجب أن تصحب بمعرفة الألفاظ الغامضة ، والنقط الجوهرية وتحديدها ، وكتابة خطة بها — كما بينَّا — تُذكر فيها الطريقة التى يتبعها المدرس فى تعليمه . وقد يضطر المدرس إلى تغيير تلك الخطة حينما يرى التلاميذ وجهاً لوجه ، ويبدأ درسه بطريقة عملية . وقد يكون من الواجب تغييرها ؛ لتكونَ ملائمة للتلاميذ . وإننا لا نتطلب منه أن يكون عبداً لكتاب معين ، أو طريقة معينة ، أوخطة ثابتة . ولا ننتظر منه أن يعلِّم تلاميذه كل ما يعلَم ، ولكننا ننتظر منه أن يعطيهم ما يستطيعون فهمه من المادة . وبكثرة التجربة والمرانة قد يدرك غلطات نفسه ؛ فيتداركها فى الدروس التالية . وفى استطاعته أن ينقد نفسه بنفسه بعد كل درس ؛ لينتفع بذلك النقد فى المستقبل ، إذا قام بتدريس هذه المادة مرة أخرى لتلك الفرقة . ولا يكفى لإعداد درس من الدروس فى المدارس الابتدائية ، أو المتوسطة ، أو الثانوية أن يكتب التاريخ ، ثم يكتب درس كذا ، صفحة كذا ، من كتاب كذا .

٣ — يجب أن يتذكر المدرس دائما تلاميذه وسنهم ، ومستواهم ، ومقدرتهم

العقلية والعلمية ، وما يلائمهم ومالا يلائمهم ، ويختار لهم من المادة ما يناسب الذكى والمتوسط والغبي منهم . ويجب أن يعرف كيف يوضح هذه النقطة لذلك التلميذ ، وكيف يفهم هذه العبارة لهـذا الطالب ، والنقط التى يجب أن يلم بها الأذكياء ، والوسائل التى تتخذ لتفهيم الضعفاء ، وكيف ينتفع بمعلومات التلميذ العبقرى فى تشويق غيره من زملائه . هذه أمور يجب أن يتذكرها المدرس دائما حينما يُعد درسه.

٤ ـ يجب أن يكون المدرس على علم تام بالوسائل التى يتخذها لتوضيح درسه ؛ من القيام بتجربة خاصة ، أو عرض نموذج معين ، أو صورة جميلة ، أومصور جغرافى أو تاريخى واضح . ويجب أن يعرف كيف يستعمل هذه الوسائل للإيضاح . وأين يستعملها ؟ وأين يضعها ؟ ومتى يستعملها ويظهرها للتلاميذ ؛ كى يستفيدوا منها فى معرفة الأمور الصعبة ، وفهم النقط الغامضة . وإن حسن استعمال المدرس لوسائل الإيضاح ، وإظهارها عند الحاجة إليها ، والانتفاع بها كما ينبغى ، مما يدل على عناية المدرس بإعداد درسه ، وتنظيم خطته .

٥ ـ يجب أن ينتفع المدرس بمعلومات التلاميذ السابقة ؛ كى يربط المادة الجديدة بالقديمة ، وتذكّر هذه بتلك . ولا يكفى أن يعرف ما درسوه لينتفع به ، بل يجب أن يعرف ما سيدرسونه فى المستقبل ؛ ليلاحظه فى أثناء تدريسه ؛ فإن معرفة درس من الدروس قد تساعد فى فهم آخر . وقد يتوقف فهم درس من الدروس على فهم درس آخر ؛ ففهم نائب الفاعل يتوقف على معرفة الفاعل والمفعول به .

٦ ـ يجب أن يحسن المدرس اختيار مادته ؛ فحسن الاختيار يدل على حسن الذوق ، وأن يرتبها ترتيبا منطقيا ؛ كى يسهل على التلاميذ فهمها وتذكرها .

٧ ـ يجب أن يبحث المدرس عن أوجه الشبه وأوجه الخلاف بين الدروس بعضها وبعض ؛ فبمعرفة هذه الأوجه والموازنة بينها وبين ما يماثلها أو يضادها تتضح نقط الدرس .

٨ ـ يجب أن يتمكن المدرس من مادته ؛ حتى تكون واضحة فى نفسه ، ويستطيع توضيحها لغيره ، والتعبير عنها بلغة واضحة وعبارة سهلة ؛ فإن وضوح الفكرة يساعد فى وضوح العبارة . فإذا كانت الأفكار واضحة فى نفسه، وكان متمكناً منها ، سهل عليه أن يُعبر عنها لتلاميذه .

٩ ـ يجب تحديد الدرس وتعيينه ؛ بحيث يكون ملائما للزمن ، لا يستغرق أكثر من الوقت المحدد ، ولا يتطلب أقل منه .

١٠ ـ ينبغى أن ينتفع المدرس بمكتبة المدرسة ، ويعرف ما بها من كتب تتصل بمادته ؛ حتى يستطيع أن يرشد التلاميذ إلى المراجع التى يرجعون إليها بعد دروسهم. وليس فى استطاعة المدرس ذلك إلا إذا انتفع بخزانة الكتب فى المدرسة حقا ، وأعد دروسه كما ينبغى . ومن السهل تشجيع الطلبة على الاستفادة مما فى المكتبة من كتب، والاستعارة منها ، وتفهيمهم الأبواب التى يقرءونها ، والكتب التى يطلعون عليها .

١١ ـ يجب أن تكون الدروس متصلة بالحياة كل الاتصال ، ملائمة للبيئة كل الملاءمة ؛ فعند افتتاح مجلس النواب يستطيع أن يجعل درسه فى المطالعة ، أو الإملاء، أو التربية الوطنية ، عن الحياة النيابية . وفى أوقات الغارات الجوية يمكنه أن يجعله عن طرق الوقاية منها . وفى الأعياد القومية تذكر كلمة عن كل عيد . وفى الحوادث التاريخية القومية يجب أن تكون الدروس مرتبطة بها كل الارتباط . وفى دروس الحساب يجب أن تذكر أثمان الأشياء فى المسائل الحسابية بحيث تناسب الأسعار فى أوقات الرخص أو الغلاء . وفى الجغرافية يجب أن تراعى التغييرات السياسية فى كل أمة ، والحدود الجديدة لكل دولة . وفى دروس مبادئ العلوم يجب أن تلاحظ فصول العام ، والظواهر الطبيعية ، والنبات الملائم لكل فصل .

١٢ ـ يجب أن يفكر المدرس فى الطريقة التى يريد أن يتبعها فى درسه ؛ بحيث

يكون على علم تام بما يشاء أن يفعله ، أو يناقش فيه ، أو يستنبطه فى كل خطوة من خطوات درسه .

فوائد إعداد الدروس :

١ ـ إن المدرس المتمكن من مادته ، المعد لدرسه بعناية ودقة ، لا يجد صعوبة فى حفظ النظام فى فصله . وفى استطاعته أن يرشد تلاميذه إلى غلطاتهم ، ويوعز إليهم ببعض النصائح التى تشوقهم إلى التعلم . وكثيرا ما ينشأ سوء النظام ، والعبث بالأدوات وبالدرس ، والكسل بين التلاميذ ، إذا وجدوا من المدرس ضعفاً فى مادته ، أو إهمالا فى إعداد درسه . أما المدرس المعد لدروسه ، الغزير المادة ، الواسع الاطلاع ، القوى الشخصية ففى استطاعته أن يسيطر عليهم بقوته العلمية والشخصية ، وتكفيه نظرة أو إشارة لإيقاف هؤلاء العابثين عن عبثهم ، والكسالى عن تقصيرهم .

٢ ـ إن المدرس الذى يعنى بإعداد دروسه ، ويفكر فى مادته ، وفى الطريقة التى بها يصل إلى عقول تلاميذه ـ يمكنه أن يكون ماهراً فى أسئلته وتدريسه ، ويستطيع أن يحكم حكما صحيحا على مقدار ما فهمه تلاميذه ؛ فهو يعرف حق المعرفة النقط التى فهمت ، والتى لم تفهم ، ومَن فهم ومن لم يفهم من التلاميذ ، والصعوبات التى تعترض كلاًّ منهم ، ويقف بينهم موقف المرشد الحازم ، يهدِّئ المتسرع منهم ، ويشجع المتردد ، ويثنى على من يستحق الثناء ، ويوقظ الغافل ، ويساعد الضعيف ، ويحث الكسلان على العمل . فتجد فى دروسه حياة ونشاطا وتشويقاً ، ومادته فى تجدد مستمر .

٣ ـ إنه يحافظ على أوقات تلاميذه ، ويعمل لإفادتهم ، وترغيبهم فى العمل ؛ فينتبهون إليه كل الانتباه ، ولا يضيعون له وقتا . ومثل ذلك المدرس لا يقف موقف

ممتذر ، ولا يحتاج إلى اعتذار ؛ فهو معد لدروسه دائما ، مؤد لواجبه خير أداء . وقد يمر العام ولا يحتاج إلى معاقبة أحد ؛ لأنه لا يعرف التقصير ، والتقصير لا يعرفه ، وتلاميذه مولعون به ، معجبون بإخلاصه ؛ فهو مثلهم الأعلى فى الإخلاص فى العمل؛ لا يضيع وقتا فى محاولة تجربة خاطئة غير منتجة ، أو استعارة جهاز من الأجهزة، أو آلة من الآلات ، أو مصور من المصورات ، من الفصول الأخرى فى أثناء الدرس؛ فقد أعد كل شيء يتطلبه الدرس من قبل .

٤ — إن المدرس الذى يعد دروسه اليومية بعناية ودقة وأمانة لا يقف موقفا مخجلا أمام طلبته ؛ فلا يظهر بينهم بمظهر العاجز، ولا يدعى أنه يعرف مالم يعرف .

وخلاصة القول أن إعداد الدروس من الأمور الجوهرية لنجاح المدرس فى مهنته، وتجديد معلوماته ، وترتيب مادته ترتيبا منطقيا . وبغيره لا يمكنه أن ينجح فى عمله؛ فالنظام لديه مفقود ، ووقت تلاميذه ضائع ؛ لأن الفوضى دائمة ، والشكوى مستمرة . وربما لايستطيع المدرس المهمل أن يضبط شعوره ؛ فيسب هذا ، ويلعن ذاك، ويشعر بكثير من القلق ؛ فيضر صحته ، ويشعر بالخيبة والإخفاق .

يقول « بَاجْلِى[1] » أحد فلاسفة التربية : « يجب أن يعد المدرس كل درس من دروسه إعداداً تامًّا » ؛ كى يتمكن من مادته ، ومن الأسئلة التى يسألها ، ويجتذب قلوب تلاميذه . كما يجب أن يبحث عن وسائل الإيضاح الممكنة — الملائمة لسن التلاميذ، وقواهم العقلية — من ذوات الأشياء، أو نماذجها أوصورها أورسومها. وعليه أن يدون بكل عناية ودقة خطة لكل درس من دروسه ؛ بحيث تشمل الأسئلة وطرق النقاش والشرح والتوضيح ، والوسيلة التى يتخذها لتفهيم تلاميذه . وربما يكون هذا النوع من الإعداد شاقا مجهداً للمدرس ، ولكنه سيجد منه ثمرة كبيرة

(١) ارجع إلى كتابه : "The Educative Process, by Bagley"

فى البحث والنشاط والعمل والانتفاع بالوقت . فالمدرس الذى يعد دروسه على هـذا النحو من الأمانة والإخلاص يكتسب قوة وعظمة ، ويجد لعمله نتيجة وثمرة، ويمتلك قلوب تلاميذه ، وينال حبهم وإعجابهم ، فيبادلونه حبًّا بحب ، وإخلاصا بإخلاص .

ولا نبالغ إذا قلنا إننا شاهدنا فى أثناء التفتيش المدرسى ناظرة ـ لمدرسة أجنبية بالإسكندرية ؛ هى مدرسـة « يد الإحسان » بالشاطبى ـ لا تسمح للمدرسين بمغادرة المدرسة بعد انتهاء عملهم اليومى قبل أن يُعدوا دروسهم لليوم التالى ، ويدونوها فى كراسات إعداد الدروس، ثم يسلموها لها ؛ كى تطلع عليها قبل خروجهم من المدرسة .

مذكرة إعداد الدروس

يعانى الطلبة كثيرا من الصعوبات فى كتابة مذكراتهم لإعداد الدروس . وللتغلب على هذه الصعوبات يستطيع الطالب أن يدون مذكرته بطريقـة طبيعية لا تـكلف فيها ولا تصنع ، يوضح فيها كل ما يقوم به فى الدرس من عمل ، أوأسئلة، أو مناقشة ، أو استنباط . وليس هناك ما يمنع مراعاة خطوات (هربارت الألمـانى) ؛ بتقسيم الدرس إلى مراتب فى إعداد الدروس، وهى :

١ ـ المقدمة : ويذكر فيها الطالب ما يتخذه تمهيداً لدرسه .

٢ ـ العرض : وهى المرتبة التى تعرض فيها المادة على التلاميذ ؛ كأن تقرأ القطعة، أو تذكر القصة ، أو تـكتب الأمثلة على السبورة ، أو تعمل التجربة .

٣ ـ الربط : وهى المرتبة التى تربط فيها أجزاء الدرس بعضها ببعض ، أو تربط القاعدة الجديدة بالقديمة ؛ بالموازنة بين هذه وتلك .

٤ ـ الاستنباط : ويذكر فى تلك المرحلة ما يستنبط من التلاميذ بعد الأسئلة والمناقشة والموازنة ـ من تعريفات ، وحقائق ، وقواعد وقوانين عامة .

٥ ـ التطبيق أو الإعادة أو المراجعة ؛ بأن يُسأل التلاميذ شفوياً فى الدرس ، أو تدون التمرينات أو المسائل التى يراد قيام التلاميذ بها ، أو يكلفوا إعادة الدرس أو مراجعته ؛ حتى تثبت القاعدة الجديدة فى أذهانهم.

وفى أعلى المذكرة تذكر الفرقة التى يقوم الطالب بالتدريس فيها ، والفصل ، والمادة ، وموضوع الدرس ، والغرض العام منه والخاص ، والزمن ، والتاريخ ، ووسائل الإيضاح .

ولنكتب لك على سبيل المثال مذكرة لإعداد درس من الدروس ، بالطريقة الطبيعية التى لا تصنع فيها ولا تكلف ، وهى تمثل كل مايحدث فى الدرس من أوله إلى آخره.

مثل للطريقة الطبيعية فى مذكرة إعداد الدروس

الفرقة : السنة الرابعة الابتدائية .

المادة : مبادئ صحة .

الغرض العام: تربية قوة الملاحظة ، والإلمام بالقواعد الصحية ، ومراعاتها فى الحياة .

وسائل الإيضاح : ١ ـ قمع من الزجاج.
٢ ـ ورق ترشيح ٣ ـ مسحوق فحم.
٤ ـ أوان زجاجية ٥ ـ ماء عكر وماء نقى.

الفصل : الأول .

موضوع الدرس : طرق تنقية المياه.

الغرض الخاص : معرفة طرق تنقية المياه، وحث التلاميذ على عدم التهاون فى ماء الشرب أو الاستحمام، وعلى العناية بالصحة.

التاريخ : ٩ من المحرم سنة ١٣٦٢ هـ .
و١٥ من يناير سنة ١٩٤٣ م.

الزمن : ٤٥ دقيقة .

المـــادة والطريقة

١ — أعرض على التلاميـذ كوبين بأحدهما ماء غير مرشح من ماء النهر ، وبالآخر ماء نقى مرشح .

٢ — أسألهم الأسئلة الآتية :

ا ـ أى الماءين يُفضل للشرب ؟ ب ـ لماذا يظهر الماء عكراً ؟

حـ ـ ما سبب تعكير هذا المـاء ؟ د ـ هل يحسن شربه وفيه هذه المواد الغريبة؟

هـ ـ لمـاذا لا يحسن ؟

٣ — أستمر فى المناقشة حتى يعرف التلاميذ الفرق بين الماء العكر والماء النقى ، والضرر الذى تسببه المياه العـكرة ، ثم أخبرهم بموضوع الدرس وأدونه على السبورة .

٤ — أعرض عليهم الأدوات التى أحتاج إليها فى التجربة ، وأسألهم عن اسم كل منها .

٥ — أضع قمعاً فوق كوب قائم ، ثم أضع ورقة الترشيح فى القمع وضعاً ملائماً ، ثم أمزج مسحوق الفحم بالمـاء العـكر المراد ترشيحه ، ثم أصب المزيج داخل القمع فوق ورقة الترشيح . وإذ ذاك يتساقط الماء فى الـكوب ، ويكون جيداً صالحاً للشرب ؛ لخلوه من معظم الجراثيم المرضية .

٦ — أريهم المـاء بعد ترشيحه لمعرفة الفرق بينه وبين الماء العـكر .

٧ — أسألهم عن طريقة الترشيح ؛ حتى يعرفوا أن المـاء يرشح بمروره من مادة ذات مسام ؛ كورق الترشيح ، بعد مزجه بمسحوق الفحم .

٨ — أبين لهم أن غلى الماء بعد ترشيحه هو الطريقة الوحدة التى بها يتيقن الإنسان خلو الماء من الجراثيم ، وهو واجب فى زمن الأوبئة ، ويستعمل للشرب بعد أن يبرد .

٩ — أوضح لهم أن من الممكن ترشيح الماء المكر بوضع جزء من (كربونات المغنيسيا) أو الرمل النقى على الماء ، ثم يرشح المخلوط بطريقة القمع والورقة . وتستعمل شركات المياه الرمل والحصى فى ترشيح المياه .

١٠ — أوضح لهم طريقة الترشيح بالزير أى الحُبّ ، وهى أكثر طرق الرشح سهولة واقتصادًا .

١١ — أبين لهم الطريقة الشائعة بين القرويين فى الترشيح ، وهى طريقة الترويق ؛ بوضع نوى المشمش أو الخوخ ، أو اللوز فى الماء .

١٢ — أناقشهم فى عيوب كل طريقة ومحاسنها .

١٣ — أستنبط منهم أن ترشيح المياه التى يؤتى بها من الترع والأنهار ضرورى جدًّا لوقاية الإنسان الأمراض .

١٤ — أبث فى نفوسهم العناية بنظافة مياه الشرب والغسل والاستحمام .

١٥ — أدون على سبورة المكتب ما أستنبطه من التلاميذ نقطة نقطة بالتدريج .

١٦ — أطالبهم قبيل نهاية الدرس بكتابة الملخص فى مذكراتهم الخاصة .

الفصل العاشر

القواعد الأساسية للتدريس

ما بذله المربون من الجهود :

لا نريد أن نتحكم فى المدرس ، فنضع له طرقاً نقيده بها ، وقواعد لا يحيد عنها ؛ فقد يتخذ الإنسان لكل درس طريقة ، بحسب ما تمليه عليه تجاربه وخبرته وحكمته فى التدريس . ولا نبالغ إذا قلنا إن لكل درس طريقة معينة . ولا يمكننا أن ننكر أن هناك قوانين عامة ، وقواعد أساسية يمكن الانتفاع بها فى التدريس . وليس من الوفاء أن ندّعىَ أن ما بذله كبار المربين ، وقادة التربية من جهود مضنية ، فى القرون الخالية ، كان بغير نتيجة أو ثمرة . ولا نستطيع أن ندعى أنه ليس لدينا شىء يمكننا أن ننتفع به من تجاربهم فى التربية ، وآرائهم فى التعليم . وليس من الصواب أن نقول إن جميع القواعد والقوانين المتعلّقة بالتدريس قد عرفت كلها ؛ فهناك قواعد انتشرت وأصبحت معروفة ، وقواعد أخرى ما زالت تحت التجربة ، لم يتبين صوابها أو خطؤها بعد ، وقواعد لم تعرف حتى الآن . وسنكتفى هنا بذكر القواعد الأساسية التى يستطيع المدرس أن يسترشد بها فى كل مادة من المواد ، وفى كل درس من الدروس ، منها :

١ — تحديد الغرض :

يجب أن يكون هناك غرض خاص يرمى إليه المدرس ، وأن يعرف التلميذ هذا

الغرض ؛ ليتمكن من التعاون مع المدرس ، وبذل الجهد للوصول إلى ذلك الغرض المعين . فإذا لم تكن هناك غاية محددة يقصدها المدرس ، ويدركها التلميذ عدمت الإرادة ، وإذا عدمت الإرادة عدم العمل ، وزالت الرغبة والشوق ، وزال النشاط الذاتى . فالتلميذ إذا عرف العمل الذى يطلب منه اجتهد فى إدراكه وفهمه ؛ فإذا أعطيته مسألة حسابية ، أو تمريناً هندسيًّا ، نافس غيره فى حل المسألة أو التمرين ؛ لأن الغرض منهما معين ، وحلّهما محدود . فإذا لم يعرف التلميذ الغرض الذى يرمى إليه المدرس من العمل أخذ يخبط خبط عشواء ؛ لا يدرى أين الطريق ، ولا يهتدى إلى الحل . ولا يكفى أن يذكر المدرس الغرض للتلميذ ، ولكن بالأسئلة والمناقشة ، وربط الأفكار بعضها ببعض ، يدرك التلميذ ما يرمى إليه المدرس من الأفكار ، وما يستدعيه العمل من مجهود ونشاط .

٢ — العلم بالمادة والطريقة :

إن العلم بالمادة والطريقة من أهم القواعد الأساسية للتدريس ؛ بأن يتمكن المدرس من المادة التى يقوم بتدريسها جيدًا ، ويرتبها ترتيباً منطقيًّا ، ويعرف الخطوات التى يتبعها فى الدرس ، والأسئلة التى يسألها فى كل نقطة ، والمناقشة التى يناقشها فى كل موضع ؛ بحيث يكون على علم تام بما يفعله فى بدء الدرس ، ونهايته ، وفى كل لحظة منه ، ويفكر فى المستوى العقلى والعلمى للتلاميذ ، ويقسمهم بحسب ذلك المستوى إلى جماعات : أقوياء ومتوسطين وضعفاء ، من غير أن يشعروا بالغرض من هذا التقسيم ؛ كى لا يتكل الأقوياء على قوتهم ، ولا تثبط همم الضعفاء منهم . يجب أن يراعى المدرس التكلم باللغة العربية السهلة ، ويشجع التلاميذ على التكلم بها ، ويلاحظها فى مذكرات إعداد الدروس ، ويسأل حينما يحسن السؤال ، ويناقش حينما يحسن

النقاش ، ويخبر حينما يحسن الإخبار ، ويستنبط حينما يمكن الاستنباط ، وتكون الحكمة رائده فى كل عمل ، ويفكر دائماً فى الطفل واستفادته ، ويضحى بكل شىء فى سبيله ، ويعمل ليستفيد كل بحسب مقدرته ، بحيث يتقدم كل فرد تقدماً نسبياً .

٣ — قانون الربط :

يجب على المدرس أن ينتفع بقانون الربط ؛ بأن يجتهد فى ربط المعلومات الجديدة بالمعلومات والتجارب القديمة التى عرفها التلاميذ من قبل ؛ لتكون الأفكار متصلة بعضها ببعض ، فيسهل عليهم تذكرها . وليس من الممكن النجاح فى تعليم أية مادة من المواد إلا إذا راعى المدرس قانون الربط فى كل درس من دروسه ؛ فالحقائق إذا ربطت وتكوّنت منها سلسلة فى الذهن أصبحت ملكًا للتلميذ ، وسهل عليه أن يتذكرها . ومن السهل الانتفاع بهذا القانون فى كل مادة من المواد .

وليس فى استطاعة المدرس أن ينتفع بمعلومات التلاميذ القديمة إلا إذا عرف شيئاً عن أفكارهم ودروسهم السابقة ، وكان على صلة بما أخذوه ، وما لم يأخذوه ، وما هضموه ، وما لم يهضموه من الموضوعات . ولا يكفى أن يكون المدرس على صلة بما عرفه التلاميذ من أفكار وآراء ودروس ؛ بل يجب أن يكون على صلة بأحوال التلميذ وكل شىء يتعلق به ؛ لكى يراعى شعوره وأحواله .

وقد حدث فى إحدى المدارس الأمريكية أن مدرِّسة من المدرسات دعت أحد التلاميذ فى درس مطالعة ليقرأ قصيدة من القصائد عنوانها : « أيها النجار ! اترك تلك الشجرة ! » وكان بدء القصيدة هكذا : « هنا قد لعبتْ أخواتى . هنا قبّلتنى أمى » . فهزّ التلميذ رأسه رافضاً ، ولم يستطع القراءة ، وجلس ساكناً ؛ فشدّدت المدرسة عليه ، وأمرته بالقراءة ، فوقف وأخذ يقرأ بصوت متهدج ، ثم وقع على

مقعده ، وأخذ يبكى ؛ فدهشت المدرسة ، ولم تعرف لذلك سبباً ، حتى أخبرها أحد التلاميذ بأن أم هذا الطفل قد توفيت قبل بدء الدراسة . ولو عرفت المدرسة أحوال هذا الطفل لراعت شعوره، وتجنبت إيلامه من حيث لاتقصد . وتذكرنى هذه الحادثة بأخرى لأحد الزملاء من المفتشين ؛ فقد ذهب إلى إحدى مدارس البنات للتفتيش . وفى أثناء الدرس سأل تلميذة عن أبيها ؛ ففاضت دموعها ، وأجهشت بالبكاء ، وسرعان ما أدرك أنها يتيمة الأب ، وأنه مخطئ فى هذا السؤال الذى لا مبرر له .

ولكى ينتفع المدرس بقانون الربط يجب أن يكون قادرًا على ربط الأفكار بعضها ببعض ، والموضوعات بعضها ببعض ؛ كى يدرك التلاميذ العلاقة بين الدروس الجديدة والقديمة ، وتثبت المعلومات فى أذهانهم ، ويتمكن المدرس من الاستفادة من تجاربهم السابقة ، ويحييها من موتها ؛ فتنتظم معلوماتهم ، وتحيا بالإعادة والمراجعة والربط .

ويتصل بهذا القانون ـ وهو قانون الربط ـ كثير من القواعد الأساسية المعروفة فى التدريس ؛ كالانتقال من المعلوم إلى المجهول ؛ أى من الأشياء التى يعلمها التلاميذ إلى الأمور التى يجهلونها ؛ كأن ينتقل المدرس من معرفتهم لأبى الهول إلى من بناه والغرض من بنائه . وفى درس المبتدأ والخبر يمكنه أن يسألهم عن الفاعل ؛ كى ينتفع بمعلوماتهم عنه ، ثم ينتقل من ذلك إلى درسه ؛ وكالانتقال من السهل إلى الصعب ؛ كأن يعلّم التلاميذ الأعداد السهلة من واحد إلى تسعة ، ثم يتدرج معهم من عشرة إلى ١٩ وهكذا . ويُنظر إلى السهولة والصعوبة من جهة التلميذ لا من جهة المدرس. وممن قال بربط مواد الدراسة بعضها ببعض ، وربط المعلومات الجديدة بالقديمة « يُوحَنَّا فرِدْريك هِرْبارْت » المربى الألمانى (١٧٧٢ — ١٨٤١ م) .

٤ — قانون التشويق والانتباه :

من أهم القواعد الأساسية للتدريس تشويق التلميذ ؛ لينتبه إلى الدرس، ويستفيد من وقته، وتتضح الأفكار فى نفسه، وتثبت فى ذهنه . فبالتشويق تملك شعور التلميذ وانتباهه وإرادته ؛ فإذا قلّ انتباه التلميذ عجز المدرس عن إفادته ، إلا إذا استعمل سلطته ، وقسره على الانتباه ، وهدده بالعقاب أو قطع الدرجات . وهناك فرق كبير بين ما يتعلمه التلميذ برغبة وشوق ، ويجد فيه لذة ، ويصغى إليه بعقله وأذنيه ، وما يجبر على الانتباه إليه ، ولا يجد فيه رغبةً أو لذة ؛ فالرغبة فى العلم ، والشوق إليه ، واللذة منه ـ توقظ إرادة التلميذ ؛ فينتبه إلى الدرس طائعاً مختارًا من غير أى مجهود يبذله المدرس . وإننا ننتظر من المربى أن يشوق التلاميذ إلى العمل ويشجعهم ، ولا يثبط نفوسهم بالعقاب والتوبيخ ، واللوم والتأنيب ، وأن يعمل على أن تكون دروسه شائقة جذابة تتفق مع ميولهم ، وتلائم مستواهم .

وبقوة الإرادة وبالعادة قد يكتسب التلميذ الرغبة فى المادة ؛ فينتبه إليها انتباهاً إراديًّا مكتسباً ؛ أى مصحوباً بالإرادة ، حتى تكتسب الرغبة والشوق إلى المادة ، فقد يميل إليها بعد كرهه لها ، ويحبها بعد النفور منها ، وربما يكون هذا أثرًا من آثار المدرس الماهر . فالرغبة قد تكتسب ، والشوق قد يولّد فى النفس ، فيكتسب الانتباه إلى المادة التى كانت مبغضة لدى التلميذ . ومن الحكمة أن يفكر المدرس فى قوى التلاميذ وميولهم ، ومراحل نموهم ، وأوقات تعبهم ونشاطهم ؛ كى لا يكلفهم مالا يطيقون ، فى الوقت الذى يشعرون فيه بالتعب . وفى استطاعة المدرس الماهر أن يكتسب انتباه تلاميذه إلى مادته بعد نفورهم منها ، وحبهم لها بعد كرهها ، والتفكير فى التخصص فيها بعد بغضهم لها .

٥ ـ قانون الإدراك الحسى والانتفاع بالحواس :

لقد أثبت علماء النفس أنه ليس فى العقل شىء لم يكن أولاً فى الحواس ، وأن تربيتها تربية للعقل ؛ فلا عجب إذا دعاها « مِلْتون[1] » الشاعر الإنكليزى : « أبواب المعرفة الخمسة » . وقد نادى المربون باستخدامها والاستفادة منها فى التربية والتعليم؛ ففى المقاييس والموازين والحساب والموسيقا والرسم والخط والطبيعة والجغرافية والأشغال اليدوية ينبغى أن ينتفع المدرس بحواس التلميذ ؛ فيشجعه على أن يستعمل يديه ونظره وسمعه كما يستعمل عقله وذوقه؛ حتى يدرك درسه إدراكاً كاملاً ؛ فالأيدى والحواس هى المعلم الأول للطفل . ولقد نادى بهذا المبدأ (روسو) حيث قال : «إن أقدامنا وأيدينا وأعيننا هى أول من يعلمنا الفلسفة » . وحث على هذا المبدأ (بِسْتَالُوتزِى وفرُوبل وسبِنْسَر) من قادة التربية، ولكنه قد وجد آذاناً مغلقة ؛ فلم ينفذ إلا ببطء، وبطء شديد فى الأعمال المدرسية . وربما كان السبب فى إهمال الحواس والانتفاع بها أن المدرسين كانوا يفكرون ـ ومازالوا يفكرون ـ فى الأمور الشكلية ويهملون الجوهرية من آراء المربين ، ويجدون من السهل عليهم تعيين صفحات للتلميذ ، أو تلقينها له ؛ ليحفظها عن ظهر قلب . وبهذه الوسيلة يهملون تربية الحواس وقوة التفكير والحكم فى التلميذ .

فالحواس مفاتيح العقل ، وهى الطرق الموصلة إليه . وكلما كانت العناية بتربية الحواس تامة كان لهذه التربية أثر كبير فى الحياة العقلية للإنسان ؛ فبغير الإدراكات الحسية الواضحة لا يمكن تكوين صور ذهنية واضحة فى النفس ؛ فإذا أدرك التلميذ الشىء إدراكاً واضحاً استطاع أن يتذكره ، ويتخيله ، ويحكم عليه ، ويتثبت من

---

(١) « چون ملتون » : "John Milton" شاعر إنكليزى ، ولد سنة ١٦٠٨ ، وتوفى سنة ١٦٧٤ م . ومنزلته تلى منزلة (شكسبير) فى الشعر .

حكمه واستنباطه. فالواجب الأول على المدرس أن يفتح النوافذ التى يصل بها إلى عقل التلميذ، وينتقل من الحس إلى المعقول ؛ كأن ينتقل من طرح الأمور المحسة إلى طرح الأعداد والأرقام . وإن النوافذ التى بها يستطيع الوصول إلى عقول التلاميذ هى الحواس، وتربيتها ، والانتفاع بها . وليس معنى هذا المغالاة فى استعمال الأمور المحسة، وإهمال الأمور المعنوية ؛ لئلا تضعف قوة التفكير لدى التلميذ .

ولم يقتصر (روسو) على النداء باستعمال الحواس والانتفاع بها ؛ بل أرشدنا إلى الوسائل التى ينبغى أن تربى الحواس بها وتهذب . وفى استطاعتنا أن نقول إن التجارب الحديثة فى تربية الحواس؛ كطريقة (منتسورى) فى التربية، ودراسة الطبيعة فى بيئتها ، والانتفاع بالمقاييس والموازين ، كلها مؤسسة على تربية الحواس التى أشار بها (روسو) من قبل ؛ فهو يقول : « فى الوقت الذى يستطيع فيه الطفل تمييز الأشياء بعضها من بعض يجب أن تختار له اللُّعَب التى تهدى إليه . » بحيث تكون ملاءمة له ولسنه وميوله ، فلا يختار للطفل اللُّعب التى تصلح لطفلة ، ولا يختار للبنت اللُّعب التى تصلح للابن . ويقول فى موضع آخر : « ليس الغرض من تمرين الحواس مجرد استعمالها » ؛ بل الغرض الوصول إلى المعرفة والحكم السديد ، وقوة الشعور ، والإدراك والملاحظة .

فروسو ينصح باستعمال كل حاسة من الحواس ، وتنمية كل منها إلى أكبر درجة ممكنة . ويقول فى موضع ثالث : « قِس واحسِب وزِنْ ووازن » ؛ أى استعمل القياس والحساب والإحصاء والوزن والموازنة فى تربية حواس الطفل ؛ بأن تكلفه أن يقيس شيئا فى الحجرة أو الحديقة ، ويحسب مساحته ، أو تدعه يزن بعض الأشياء فى يديه ؛ ليميز الثقيل من الخفيف ، ويوازن بين الأشكال بعضها و بعض . وإن (روسو) لا ينصح بالعناية بحاسة من الحواس وإهمال أخرى . وقد انتفعت (الدكتورة

منتسورى) بما ذكره (روسو) فى تربية الحواس؛ من القياس والإحصاء والوزن والموازنة.

ولو عنينا بتربية الحواس وتهذيبها ما كنت ترى الرجل ينظر إلى الصورة فلا يمكنه أن يرى ما فيها من آيات الجمال، أو يسمع الطيور تغنى وتغرد فلا يشعر بسجعها وتغريدها، أو يسمع الموسيقا فلا يميز الضوضاء من العذب منها، أو يرى الشىء فلا يمكنه الحكم عليه، أو يقدره فيخطئ التقدير، أو يختبره بيده أو نظره فلا يستطيع أن يعرفه معرفة صحيحة.

٦ ـ التعبير عن الأفكار باللفظ والعبارة، أو الرسم والتصوير، أو العمل:

فالأفكار أمهات الأعمال. وإذا كانت الفكرة واضحة فى نفوس التلاميذ فمن السهل أن يُعبروا عنها باللفظ والعبارة، أو بالرسم والتصوير، أو بالعمل والإشارة. فعلى المدرس أن يمدهم بالوسائل الممكنة للتعبير عن أفكارهم؛ لأن محاولة التعبير عن فكرة من الأفكار بما يذكرونه أو يكتبونه أو يرسمونه أو يصورونه أو يعملونه ـ خير وسيلة لتوضيح الأفكار فى نفوسهم. ومن هذا يتضح أنه ليس الغرض الرئيسى من الرسم والتلوين، وعمل النماذج والأشغال اليدوية فى المدارس ـ أن نكوّن من التلاميذ رسَّامين، أو مصوِّرين أو رجال فن؛ ولكن الغرض تشجيعهم على التعبير عما لديهم من الأفكار، بأية وسيلة من الوسائل؛ حتى تتضح فى نفوسهم.

٧ ـ استغلال النشاط الذاتى للتلميذ :

يراد بهذا القانون استغلال النشاط الذاتى للتلميذ ، وإعطاؤه الفرصة فى أن يفكر بنفسه ، ويختبر الشيء ويجربه ، ويتمرن عليه بطريقة صحيحة خالية من الخطأ ؛ فإن التمرن على الشيء هو الوسيلة الوحدة للمهارة فى القيام بالعمل. فأعضاء الطفل تنمو بالمرانة والتمرن، وتضعف بالإهمال ؛ فإذا اعتاد أن يفكر ويعتمد على نفسه فى تفكيره وعمله اعتاد التفكير والاستقلال فى العمل . وإذا حلت له كل مسألة ، وكل تمرين ، ولم يمرن على الاعتماد على نفسه فى العمل صعب عليه أن يفكر مستقلاً فيما بعد . فالطفل فى حاجة إلى الإرشاد ؛ لاستغلال نشاطه الذاتى فى التفكير والعمل . ومن واجب البيت والمدرسة القيام بهذا الإرشاد .

وقبل أن يأتى الطفل إلى المدرسة يتعلم الكلام والمشى وغيرهما فى البيت ، ويستعمل يديه ورجليه وحواسه ، ويدفعه نشاطه الذاتى الفطرى إلى الحركة والقول والعمل ، وتدفعه نزعة المحاكاة إلى أن يحاكى غيره ممن يحيطون به ، فى التعبير عن الأشياء والأعمال ؛ حتى تصير ملكاً له، ويكون قادرًا على أدائها. وهذا بدء التربية والتعليم .

وبعد مرحلة المحاكاة قد تتولد لديه رغبة فى تكوين الأشياء ، ويدفعه نشاطه الذاتى إلى تنمية قواه الجسمية والعقلية ، فيمس الأشياء ويختبرها ، ويحلها ، ويغيّر تركيبها مستعملا حواسه ؛ حتى يصل إلى كثير من الأفكار والمعلومات والتجارب بنشاطه الذاتى ، وينتقل إلى مرحلة الابتكار والاختراع . فلماذا لانستغل ذلك النشاط بهذه الطريقة الطبيعية لكسب المعرفة حينما يكون الطفل فى المدرسة ؟ لماذا لا نترك له الفرصة فى استعمال يديه وحواسه وعقله ولسانه فى التعلم ؟ لماذا نقضى عليه بقتل مافيه من نشاط وحب للعمل والتجربة والتفكير ؟ لماذا نضطره إلى الجلوس ساكناً هادئاً

كالآلة الصماء ؛ يقبل آراء المدرس كما هى ، ويأخذ عبارات الكتاب كما هى ، من غير أن تترك له فرصة فى أن يفكر بنفسه ، ويعمل بنفسه ؟ إن الإخبار وحده فى التعليم لا يكفى ؛ فإخبار التلميذ بالطريقة التى بها يحرك يديه وقدميه حينما يريد تعلم السباحة لا يعلمه شيئا من السباحة ؛ ولكن تعلمها يستدعى أن يحرك التلميذ يديه ورجليه بالفعل مع إرشاد المدرس . وإننا لا ننتظر من المدرس أن يرى أو يسمع أو يتذكر بالنيابة عن تلميذه ؛ ولكننا ننتظر منه أن يترك لتلميذه الفرصة فى أن يرى بنفسه ، ويسمع بنفسه ، ويتذكر بنفسه ؛ كى يكون شريكا فى العمل ، نشيطاً يستغل نشاطه ومواهبه فى التعلم ؛ حتى يتعلم حقًّا ، ويتربى التربية الحقة . فى استطاعة المربى أن يوعز إلى تلميذه بالغرض الذى يرمى إليه ، ويرسم له الخطة ، ويختار له المادة ، ويمده بالكتب والمراجع ، ويعلمه كيف ينتفع بها ، ثم يترك له الفرصة فى أن يفكر ، ويتعلم ، ويفهم ، وينظِّم ، ويرتب ، ويعمل بنفسه . فلا يكفى أن يلقِّنه المربى ما يريد من العبارات والأفكار ؛ بل يجب أن يرشده إلى الطريقة التى بها يستغل نشاطه الذاتى فى كسب العلم ، وكسب المهارة ، معتمدًا على نفسه فى بحثه ، وتفكيره ، وعمله ، تحت إرشاد المربى . وإن المربى الذى يتجاهل أو يجهل نشاط التلميذ وغرائزه وميوله ومواهبه ـ قاتل له ، ولنشاطه ، وتفكيره .

وباستغلال النشاط الذاتى للتلميذ نعوده الاعتماد على نفسه ، والعمل برغبة ، وتتضح المعلومات فى ذهنه ؛ لأنه قد تعب فى كسبها ، ونبث فيه روح الاستقلال ، والرغبة فى التعلم ، ونشجعه على التغلب على الصعوبات ، ويصبح العمل المدرسى ، والحياة المدرسية ، والدروس العلمية محبوبة لدى التلميذ ، يسعى لها ويفكر فى فهمها ، ولا يحتاج إلى ضغط أو سلطة فى الوصول إليها .

وإن نشاط الأطفال كبير لا حدَّ له ؛ فهم بفطرتهم يحبون الحركة والجرى والعمل ،

ويكرهون السكون والخمول والكسل ، إذا كانوا أصحاء . فالأطفال العاديون أحياء بطبيعتهم ، نشيطون بفطرتهم ، وقلوبهم مملوءة بالحياة والنشاط ، ونشاطهم أكثر من أجسامهم . فمن الواجب أن نمدهم بالوسائل التى ينتفعون فيها بذلك النشاط ، وبتلك الحياة ، أما الحكم عليهم بالجلوس ، والسكون ، والهدوء ، وعدم التحرك فليس بوسيلة معقولة للانتفاع بذلك النشاط الفكرى الذى وهبه الله لهم ، وهو حكم قاس لا يتفق و طبيعة الأطفال ، وينافى قواعد الصحة والتربية .

ويرى (روسو) أن الاعتماد على النفس فى التعلم يؤدى إلى الابتكار والاختراع، وأن استعمال الفكر يقوى التفكير لدى المتعلم ، وأن معظم الغلطات التى نرتكبها نقلت إلينا من غيرنا . فيجب أن نشجع الطفل على الاستقلال فى التفكير ، ولا نسمح لأحد بالسيطرة عليه ، والتحكم فى تفكيره ؛ بل نعطيه الفرصة فى استغلال نشاطه ، وتحكيم عقله ، والتفكير بنفسه فى كل شأن من الشئون ؛ بأن يزن الأفكار، ويقدرها حق قدرها ، ويستعمل حكمته وعقله فى كل عمل من الأعمال .

يجب أن يتذكر المدرس أن التعليم ليس بكثرة التكلم ، وأن يعطى تلاميذه الفرصة فى أن يقوموا هم أنفسهم بالعمل تحت إرشاده ، ولا يساعدهم إلا حينما يشعرون بالحاجة إلى المساعدة .

٨ ـ قانون الاستقراء والاستنباط :

فى المراحل الأولى من مراحل التعليم يجب أن يسبق التفكيرُ الاستقرائىُّ التفكيرَ القياسىَّ ؛ لأن الطريقة الاستقرائية تناسب صغار التلاميذ ، حيث ينتقل المدرس من الجزئيات إلى الكليات، ويتدرج من الأمثلة ، أو التجارب إلى التعريف، أو القاعدة ، أو الحكم ؛ كما فى دروس القواعد والطبيعة ؛ ففى القواعد يكتب أمثلة

مختارة على السبورة ، ويناقش التلاميذ فيها حتى يستنبط منهم القاعدة التى يقصدها. وفى الطبيعة يقوم التلاميذ بعمل التجارب تحت إرشاد المدرس ، حتى يصلوا بأنفسهم إلى نتيجة من النتائج ، أو قانون من القوانين العامة . أما كبار التلاميذ فيلائمهم استعمال الطريقة القياسية ؛ بأن تذكر لهم القاعدة، ثم توضح بالتطبيق والأمثلة عليها. ومن الخطأ أن ندعى أن من الممكن الانتفاع بقانون الاستقراء والاستنباط فى تدريس جميع المواد ؛ فهناك دروس لا تحتاج إلى استقراء ؛ كدروس الرسم والخط والأشغال والموسيقا ، حيث يحتاج التلاميذ إلى رؤية أجزاء الشيء ، أو مشاهدة نموذج له ، ثم محاكاته والتمرن عليه ، أو رؤية القطعة الموسيقية واستماعها، ثم محاكاتها والتمرن عليها.

فالتفكير الاستقرائى يمكن أن يكون فى بعض الدروس التى تشتمل على حقائق وقوانين عامة ؛ كالقواعد والطبيعة والكيمياء ؛ فبذكر الأمثلة ، وعمل التجارب ، وعرضها ، والمناقشة فيها ، والموازنة بينها يمكن استنباط حقيقة من الحقائق العامة ، أو قاعدة من القواعد ، أو نظرية من النظريات .

وإننا لا ننتظر من الطفل أن يكون استقراؤه كاملا ، أو يدرك القوانين العامة تمام الإدراك ؛ ففى البدء قد يدرك الفكرة إدراكاً ناقصاً . وبالتدريج تزداد آراؤه وتجاربه حتى تكمل ، ويكمل استقراؤه ، ويستطيع الانتفاع بما كسب من آراء ، وما عرف من نظريات . فبالاستقراء نصل إلى الحقائق العامة ، وبالقياس نوضحها ، ونبرهن على صحتها ؛ حتى تثبت فى أذهان التلاميذ . لهذا نتكلم عن القانون التاسع وهو :

٩ ـ قانون القيـاس :

بعد أن يعرف التلاميذ القاعدة العامة بالطريقة الاستقرائية يمكن توضيحها ، والبرهنة عليها ، وتثبيتها فى أذهانهم بالطريقة القياسـية . فالغرض من الاستقراء تزويد العقل ببعض الأفكار والتعريفات والأحكام والقواعد العامة . والغرض من القياس الانتفاع بهذه الأفكار والتعريفات والأحكام والقواعد عمليًّا ، ومراجعتها والتطبيق والتمرن عليها حتى ترسخ فى الأذهان . فأفكار التلميذ فى البدء قد تكون ناقصة أو غامضة ، وبكثرة التمرين والتطبيق يمكن أن يكمَّل ما بها من نقص ، ويوضح ما فيها من غموض .

ويجد الأطفال لذة كبيرة حينما يرون أنفسهم قادرين على الانتفاع بما عرفوه من قواعد ونظريات ، ويُظهرون كثيرًا من الفرح والسرور حينما يحلون مسألة حسابية ، أو تمريناً هندسياً ، أو تطبيقاً نحويًّا من المسائل والتمرينات والتطبيقات التى تتفق مع القاعدة ، أو النظرية التى درسوها بالطريقة الاستقرائية .

وفى استطاعة الطفل ـ حتى وهو صغير ـ أن يوازن بين الأشياء ، ويقيس بعضها على بعض ؛ فقد حدث أن طفلا عمره سنة ونصف سنة رأى نمرًا فى قفص ، فأخذ يصفق بيديه ويقول : « انظر ياأبى ! أليست هذه قطة كبيرة ؟ » وهو بقوله هذا يفكر بالطريقة القياسية ؛ فقد قاس النمر على القط ؛ لما بينهما من تشابه كبير ؛ لأنهما من فصيلة واحدة . فالطفل قد عرف القط من قبل ، ولم ير النمر ، ولكن حينما رآه قاسه على القط بطريق القياس ، ولو أنه لا يعرف لهذا القياس معنى . وقد ثبت فى علم النفس أن لدى الطفل ميلا طبعيًّا للانتفاع بالشىء حينما يعرفه . وإننا ننتظر من المدرس أن يشجع هذا الميل الطبعى للانتفاع بالمعلومات ؛ حتى تكثر آراء الطفل وتجاربه ، ويكمل ما به من نقص .

وليس الغرض من كسب المعلومات خزنها فى الذهن ؛ ولكن الغرض أن ينتفع بها التلميذ فى كتابته وقراءته وتفكيره وعمله ؛ حتى يكون عالماً عاملاً ، ماهراً كاملا. وإن العلم الذى نعده قوة هو العلم الذى نستطيع أن ننتفع به فى حياتنا العملية[1] . أما العلم الذى لا يمكن الانتفاع به عمليًّا فلا خير فيه . يقول « الدكتور چُون دِيوِى » الفيلسوف الأمريكى — وهو من أكبر فلاسفة التربية وقادتها فى العصر الحاضر — : « ليست التربية إعداداً للحياة فحسب ، ولكنها الحياة نفسها » . فالعلم والعمل كثيراً ما يفترقان ، وكثيراً ما يناقض أحدهما الآخر ؛ فقد نعلم كثيراً ولا نعمل بما نعلم ، وقد نعمل ضد ما نعلم . وهذا من أكبر العيوب فى الحياة الإنسانية . وإن أحسن اختبار لأخلاق الشخص أن ننظر إلى أعماله فى حياته اليومية ؛ فإذا كانت مطابقة لأقواله كان خير مثل للحقيقة . وإذا كانت أعماله مناقضة لأقواله كان من المنافقين، الذين يقولون مالا يفعلون ، ويفعلون ضد ما يقولون .

١٠ — قانون العادة .

من القواعد الهامة الأساسية للتدريس قانون تكوين العادة ؛ وهو تكرار العمل حتى يصير عاديًّا آليًّا . ومن الممكن الانتفاع بما لدى الطفل من مرونة وميل للعمل فى تكوين أحسن العادات : العقلية والخلقية والاجتماعية والصحية لديه . ولا تستطيع المدرسة أن تنجح فى تكوين العادات الصالحة فى نفوس التلاميذ إلا إذا تحلى المدرسون بالحزم ، وحسن البصيرة ، والذكاء، وقوة الملاحظة ، والصبر والمثابرة، والمشاركة الوجدانية بغير تراخ أو تساهل ، والرقابة الدائمة بغير تجسس ، والعمل للوصول إلى الغرض بدون تردد أو تسرع ، والتنويع فى التعليم ، والابتكار فى الطريقة .

(١) ارجع إلى الفصول : الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كتاب الشخصية للمؤلف .

ويرى (فروبل) الألمانى (١٧٨٢ ـ ١٨٥٢ م .) آراء لا يمكننا أن ننساها فى موضوع كهذا ؛ فمن أقواله التى تعد من أهم القواعد الأساسية للتدريس :

١١ — «دع التلميذ يتعلم بعمله» :

وهو مبدأ نادى به (روسو) من قبل ، ونادى به المربون من بعد . وعلى هذا المبدأ بنيت التربية الحديثة فى القرن العشرين . وقد أسست المربيــة (هيلين پارْكهرِسْت) طريقتها فى التربيــة ـ وهى طريقة (دَلْتُون) ـ على هــذا المبدأ فى التربية ؛ وهو ترك التلميذ يعتمد على نفسه فى العمــل ، ويتعلم بعمله وبما يبذله من مجهود فى التفــكير والبحث والاطلاع ، والاستقصاء . وإننا نرى أن الدروس التى يستذكرها المتعلم بنفسه ، ويفــكر فيها بنفسه حتى يفهمها ـ تكون أثبت فى ذهنه ، وأكثر جلاء ووضوحًا فى نفسه ، وأحسن من أخذها بالتلقين من غيره ؛ فالشىء الذى يأتى بسهولة قد يذهب بسهولة ، أما الذى تصل إليــه بعد الجهد والتعب ، فمن الصعب أن تفقده .

فيجب ألا يكون الإنسان عبــدًا لغيره فى آرائه وتفــكيره ، وأن ينتفع بعقله فى معرفة الحقيقة والوصول إليها ، ولا يهمل قوة التفــكير التى لديه بتعطيلها ، وعدم استعمالها ، ولا يترك حواسه وأعضاءه وقواه مهملة معطلة ؛ معتمدا على غيره فى القيام بأشياء يستطيع الاعتماد على نفسه فى تعلمها وفهمها .

١٢ — «تعالوا نعش مع أطفالنا» :

هذا ما قاله (فروبل) من قبل ، وهــذا ما ينادى به المربون اليوم ، وبخاصة

الفيلسوف الإنكليزى الكبير (الدكتور بِرْتراند رَسِل) ؛ فإنه يقول ما معناه : إن المدرس لا يستحق أن يكون مدرساً إلاّ إذا كان مستعداً لأن يحلب البقرة فى المزرعة مع التلميذ ؛ وهو يريد بذلك أن يعيش مع التلميذ ، ويتصل ببيئته ، ويفهم نفسيته ، وما يميل إليه ، وما لا يميل إليه ؛ كى يعمل لإفادته ، ويفكر فى النهوض به علميًّا وعمليًّا ، ويُعده للحياة . ولا يستطيع المدرس أن يهذب التلميذ ، ويقوِّم مافيه من اعوجاج ، ويصلح ما به من عيوب إلا إذا كان على صلة تامة به .

١٣ — « إن الأطفال لا يجيئون إلى المدرسة لكى يعدوا أنفسهم للحياة ، ولكن ليحيوا بالفعل » :

هذا ما ذكره (فروبل) بالأمس ، وهذا ما ينادى به (الدكتور چُون دِيوِى) الفيلسوف الأمريكى اليوم فى قوله : « ليست التربية إعدادًا للحياة فحسب ، ولكنها الحياة نفسها » . لهذا نتطلب من المدرس أن تكون دروسه حية ، متصلة بالحياة ، وأن يعد تلاميذه للحياة ؛ حتى يحيوا بالفعل ، فى المدرسة وخارجها ، ويصلوا إلى الغرض الذى ننشده من التربية .

١٤ — « يجب أن يكون للمربى دراية تامة بغرائز الأطفال وميولهم » :

إن أهم قاعدة من القواعد الأساسية للتدريس دراسة الطفولة والأطفال ؛ وقد تأثر (فروبل) بما نادى به (روسو) فى كتابه (إميل) من العناية بالطفولة ، فى قوله : « ادرسوا أطفالكم » ؛ كى لا تخبطوا خبط عشواء فى تعليمهم ومعاملتهم .

١٥ — « يجب أن تكون الدروس قصيرة ومتنوعة » :

فإن طول الدروس يدعو إلى السآمة والملل ، وخاصة إذا كان التلاميذ صغارًا ؛ لأنهم لا يستطيعون أن ينتبهوا انتباها تامًّا مدة طويلة . وإن فى التنويع شيئًا من الترويح على نفوس الأطفال ، والتشويق إلى العمل .

ومجمل القول لا ننتظر من المدرس أن يكتفى بما ذكره المربون من قبل من القواعد الأساسية للتدريس ؛ كالانتقال من الحس إلى المعقول ، ومن المعلوم إلى المجهول ، ومن الجزئى إلى الكلى ، ومن البسيط إلى المركب ، ومن السهل إلى الصعب ، ومن الأمثلة إلى القاعدة أو التعريف ؛ وكتأسيس التعليم على الملاحظة والمشاهدة والمعاينة ؛ أى على ما يلاحظه المتعلم بنفسه ، ويشاهده ويعاينه بنفسه . ولكننا ننتظر منه العمل بما ذكرناه من قواعد وإرشادات ، وتشجيع التلاميذ على الاعتماد على أنفسهم فى التفكير والبحث والعمل ، وعدم الانتقال من مسألة إلى أخرى حتى يجيدوا فهم الأولى ، وتتضح فى أذهانهم ، وتشجيعهم على الانتفاع بما أوتوا من مواهب وميول ، وحواس ، وملاحظة ، وتصور ، وتخيل ، وتذكر ، وتفكير ، ووجدان ، وإرادة ؛ كى نصل إلى المثل الأعلى من التربية الكاملة .

الفصل الحادى عشر

الطرق العامة للتدريس

الطريقة فى التدريس وأهميتها :

الطريقة : هى الوسيلة التى نتبعها ؛ لتفهيم التلاميذ أى درس من الدروس ، فى أية مادة من المواد . وهى الخطة التى نضعها لأنفسنا قبل أن ندخل حجرة الدراسة ، ونعمل لتنفيذها فى تلك الحجرة بعد دخولها . ولطريقة التدريس أثر كبير فى التعليم ، وبها تحسن النتيجة أو لا تحسن ، وعليها يتوقف نجاح المدرس أو إخفاقه ؛ فكثيراً ما يكون عالماً غزير المادة ، ولكنه قد يخفق فى تدريسه ؛ لأنه لا يجيد الطريقة التى بها يصل إلى عقول التلاميذ . فالطريقة من أهم الموضوعات فى التربية ، وهى الأساس الذى تبنى عليه مهنة التدريس ، ويتوقف النجاح فى الدراسة ؛ فقد تقوم الوزارة بوضع المناهج ، ويقوم النظار بعمل جداول الدروس وفق قانون نظام المدارس والمبادئ الحديثة فى التربية ، وقد تترك الوزارة للمدرسين الحرية فى زيادة مادة أو حذف أخرى ، ولكن ما زال المدرس الماهر فى طريقته صاحب الحظ الأوفر فى نجاح الدراسة . وبطريقته قد يحكم عليه ؛ فإن كانت جيدة عُدَّ جيداً ، وإن كانت رديئة عُدَّ رديئاً .

فعلى المدرس أن يعنى بدراسة الطرق العامة والخاصة فى التربية كل العناية ؛ كى

يستطيع النجاح فى مهنته . وكما نتطلب من المدرس أن يكون من الوجهة العلمية متيناً فى مادته نتطلب من الوجهة الفنية أن يكون على علم تام بطرق التدريس قديمها وحديثها ؛ كى يستطيع أن يرشد تلاميذه ويقودهم ، وينير لهم الطريق الذى به يدرسون ويفهمون ، وينهضون ويفوزون .

شروطها :

قبل أن نعرف طرق التدريس وقواعده يجب أن ندرس نفسية الطفل وعقليته ، والطريقة التى بها يعمل ويفكر ، ويحس ويتصور ، ويتخيل ويدرك ، ويتذكر وينسى . وقديماً أهملت الطريقة كل الإهمال ، وكان المعلّم يُعلِّم كما كان يتعلَّم ، وكما كان يُعلِّمه غيره . وكانت العناية كلها موجهة إلى المادة ، وإلى المادة وحدها . وحديثاً عنينا بالطريقة عنايتنا بالمادة ، وعنايتنا بالطفل ، وفكرنا فى الطفل ونفسيته ، ومستواه وميوله وغرائزه ، والمادة التى تلائمه ، والطريقة التى نقدم بها تلك المادة ، بحيث يسهل عليه هضمها وفهمها بشوق ورغبة . وفيما مضى كان التلاميذ فى الفصول يعلَّمون بطريقة واحدة ، من غير نظر إلى التفرقة بين قويهم وضعيفهم ، ذكيهم وغبيهم . أما اليوم فننادى ونطالب بوضع كل طفل فى الموضع الذى يتفق مع حاله الجسمية والعقلية ، ويناسب مستواه العقلى والعلمى . لهذا قسمت الفصول بحيث تناسب الأذكياء والأغبياء والمتوسطين ؛ فيجد كل فرد الطريقة التى تلائمه ، والمادة التى يستطيع أن يدركها ، كما يجد فرصة فى التفكير ، وحرية فى العمل المنتج .

وينبغى أن تختلف الطريقة باختلاف المادة . ولا نبالغ إذا قلنا ينبغى أن تختلف باختلاف الدرس فى المادة الواحدة ؛ فطريقة تدريس اللغة الإنكليزية تختلف عن الطريقة التي بها تدرس الجغرافية ، وطريقة تدريس الحساب تختلف عن طريقة

تدريس التاريخ ؛ فلكل مادة طريقة خاصة بها . وكل درس يحتاج إلى عناية وحزم وحكمة من المدرس . وهو مطالب :

أولاً : بالتفكير فى أصول التربية ونظرياتها وقواعدها .

ثانياً : بالتفكير فى الطريقة الخاصة بكل مادة يقوم بتدريسها ، مطالب بالتفكير فى كل جزء من تلك المادة ، وتنفيذ كل ما يمكن تنفيذه من النظريات الحديثة ، والاتجاهات الحديثة فى التربية وعلم النفس .

وإن المدرس الماهر هو الذى يستطيع أن ينزل إلى مستوى الطفل ؛ حتى يفهمه ، ويقوده إلى الطريق المستقيم . وليس من السهل أن يضع المدرس نفسه فى مستوى الطفولة ؛ فعليه أن يسير مع تلميذه خطوة خطوة ؛ حتى يكوّن منه الرجل الكامل الذى نبغيه ، ونصل إلى الغرض الذى نرمى إليه .

الأسس والمميزات العامة للطرق الحديثة فى التربية

للطرق الحديثة فى التربية أسس ومبادئ عامة ، نذكر منها :

١ — مراعاة ميول التلاميذ ؛ بحيث يعطون من المواد ما يلائمهم ، ويتفق مع غرائزهم ورغباتهم ، وبيئتهم واستعدادهم ؛ كى يستفيدوا من الدراسة .

٢ — استغلال النشاط الذاتى للتلاميذ ؛ بأن تشرك التلاميذ معك فى كل عمل تقوم به ، وتعطيهم فرصة للتفكير والعمل ، وتشجعهم على أن يعتمدوا على أنفسهم فيما يستطيعون القيام به فى تعلمهم وبحوثهم ، وتوجه نشاطهم إلى الأشياء التى تناسبهم ، وتستغل النشاط الذى يظهرونه فى أية ناحية من النواحى ، وترشدهم إذا أخطئوا ، ولا تتدخل فى شئونهم إلا إذا كان هناك ما يدعو إلى التدخل .

٣ — التربية عن طريق اللعب ؛ بأن يجعل اللعب وسيلة للتربية ؛ فيتعلم الأطفال فى أثناء لعبهم ، وبخاصة مرحلة الطفولة ؛ فلا يشعرون بذلك الضغط المميت ، ولا يقيدون بكثير من القيود التى تكون عقبة فى سبيل حريتهم ، وإظهار مواهبهم ورغباتهم . وبطريقة اللعب يستطيع التلاميذ القيام بكثير من الأعمال فى المدرسة التى تعد مملكة صغيرة للأطفال ؛ لا تفكر إلا فيهم ، وفى تهذيبهم ، وإدخال السرور على قلوبهم ، والنهوض بهم ؛ حتى يصلوا إلى الكمال ، أو ما يقرب منه .

٤ — العمل بقاعدة الحرية المعقولة فى التعليم ، وعدم إرهاق المتعلم بأوامر ونواه لا حاجة إليها .

٥ — تشويق التلاميذ إلى العمل وترغيبهم فيه ، لا تنفيرهم منه ؛ حتى يعملوا برغبة ؛ فإن ما يعمل برغبة لا يُتعب .

٦ — مراعاة عالم الطفل ، والتفكير فيه قبل أى شىء آخر ، والعمل لإعداده للحياة التى تنتظره ؛ بالجمع بين التعليم النظرى والعملى .

٧ — إيجاد روح التعاون ؛ بأن يتعاون التلميذ مع المدرس ، والمدرس مع التلميذ ، والأب مع المعلم ، وبعبارة أخرى البيت مع المدرسة ؛ للنهوض بالمتعلم ، وبلوغ الغاية التى ننشدها من التربية والتعليم .

٨ — تشجيع التلاميذ على أن يتعلموا بأنفسهم ، ويعتمدوا عليها ، ويثقوا بها فى أعمالهم وبحوثهم ، وألا يستعينوا بالمدرس إلا عند الضرورة ، والشعور بالصعوبة .

٩ — الانتفاع بالحواس ؛ فإن تربيتها تربية للعقل .

طرق التدريس

أهم طرق التدريس :

الطريقة الاستقرائية ، والطريقة القياسية ، وطريقة المحاضرات ، والطريقة الحوارية (السقراطية) ،والطريقة التنقيبية ، وطريقة الإعجاب ، وطريقة التدريب أو المرانة ، وطريقة الابتكار والإنتاج ، وطريقة الدراسة الإرشادية ، والطريقة الاختبارية ، ولنشرح كلاًّ من هذه الطرق فنقول :

١ — الطريقة الاستقرائية أو الاستنباطية(١)

الغرض من هذه الطريقة أن تقود المتعلم إلى معرفة الحقائق ، والأحكام العامة ، بطريقة البحث والاستقراء والاستنباط ؛ فهى طريقة يُبحث فيها عن الجزئيات أولاً للوصول إلى قاعدة عامة ؛ كأن تناقش التلاميذ فى الأمثلة المدوَّنة على السبورة ؛ حتى تستنبط منها حكما أو قاعدة من القواعد ؛ بحيث تكون الأمثلة كثيرة يمكن الاستنباط منها . وتُعد هذه الطريقة من أحسن طرق التدريس فى تعويد التلاميذ التفكير ، ولو أنها بطيئة . وتحسن مع صغار التلاميذ إذا عودناهم التريث فى الحكم . ومن السهل أن تستعمل فى كثير من المواد ، كالقواعد ، والحساب ، والجغرافية ، والطبيعة ، والكيمياء ، والفقه ، والحديث ، والتفسير .

وقد بنيت هذه الطريقة على الخطوات التى وضعها «يُوحَنا فِرِدْرِيك هِرْبارْت(١)»

---

(١) "The Inductive Method"

(٢) هو « يوحنا فردريك هربارت » الألمانى ، ولد فى مدينة أولدنبرج سنة ١٧٧٦ م . وتوفى سنة ١٨٤١م . عنيت والدته بتربيته كل العناية ، وكان على صلة (ببستالوتزى) السويسرى. ويرى أن الطفل حين يولد لا عقل له، ويقول : (إن العقل نتيجة التربية) ، أو هو مجموعة الأفكار التى يدركها الشخص عن طريق الحواس ، وفى رأيه نظر .

المربى الألمانى الكبير، وبها يرتب الدرس إلى عدة نقط ، يسميها «هربارت» خطوات الدرس أو مراتبه. ولكل مرتبة منها غرض خاص يجب العمل لتحقيقه، لأجل الوصول إلى الغرض المقصود من الدرس ؛ وهو فهمه بطريقة منظمة .

أما الخطوات الأساسية التى ذكرها فهى أربع :

١ ـ الإيضاح . ٢ ـ تداعى المعانى أو الربط .

٣ ـ النظام أو الحكم . ٤ ـ الطريقة .

أما الخطوة الأولى : فتمثل التحليل الأول للفكرة العامة، وتُعِد أذهان التلاميذ للدرس الجديد ، وتسمى مقدمة . وبها ننتفع بمعلومات التلاميذ القديمة ، ونربطها بالمعلومات الجديدة ؛ كى يسهل عليهم تذكرها ، وليس الغرض منها استنباط كلمة أو عنوان للدرس ـ كما يظن كثير من الطلبة فى مقدمات الدروس ـ ولكن الغرض إعداد أذهان المتعلمين للدرس الجديد ، وتشويقهم إليه .

وأما الخطوة الثانية : وهى تداعى المعانى أو الخواطر ، فهى خطوة البحث والاستكشاف ،والتفكير فى العلاقات التى تربط الأمثلة بعضها ببعض،والعناصر بعضها ببعض ،وتمثل مرحلتى العرض والربط ، حيث تعرض الحقائق الجديدة فى الدرس مرتبة، ويناقش التلاميذ فيها حتى يفهموها،ثم تربط تلك الحقائق والنقط بعضها ببعض، وتربط المعلومات الجديدة بالقديمة ، بالموازنة بين الأشياء المتشابهة أو المتضادة ؛ كأن توازن بين الفاعل ونائب الفاعل ، وبين الفاعل والمفعول به ، وبين كانَ وإنَّ ، وبين الجملة الاسمية والجملة الفعلية ، وبين عمليتى الجمع والطرح ، أو الضرب والقسمة .

وأما الخطوة الثالثة : وهى خطوة النظام أو الحكم فيراد بها ترتيب العناصر ترتيباً منظماً بعد ربط بعضها ببعض ؛ لتكوين حكم من الأحكام ، أو استنباط قاعدة من

القواعد، وهى التى تعرف بمرحلة الاستنباط، بعد المناقشة فى أمثلة كافية مختارة. ففيها ينتقل العقل من أمر محس إلى أمر معنوى ؛ كنظرية من النظريات ، أو تعريف من التعريفات .

وأما الخطوة الرابعة : وهى الطريقة ـ فالمراد بها خطوة التطبيق أو المراجعة ؛ فبعد معرفة القاعدة الجديدة يجب تثبيتها بإعطاء تمرينات أو أسئلة عليها ؛ كأن تطالب بعض التلاميذ بذكر ملخص الدرس فى حصة تاريخ ، أو تعطيهم تمرينات هندسية ، أو حسابية ، أو تطبيقات عربية ، أو إنكليزية على القاعدة الجديدة التى أخذوها حتى تثبت فى أذهانهم .

وقد أدخل عليها بعض أتباعه مثل « زِيلَر : ١٨١٧ ـ ١٨٨٢ م . » و « رِينْ » المولود سنة ١٨٤٧م . ـ كثيرًا من التنقيحات، وجعلوها خمس مراتب وهى :

(١) المقدمة . (٢) العرض . (٣) الربط .

(٤) الاستنباط . (٥) التطبيق أو المراجعة .

فخطوات « هربارت » وصف دقيق للطريقة التى بها يسير العقل لتكوين حكم من الأحكام ، أو قاعدة من القواعد. وتتضمن هذه الطريقة العقلية تحليل الشىء ، ثم الموازنة بينه وبين غيره، ومعرفة أوجه الشبه أو الخلاف بينه وبين غيره ، ثم استخلاص حكم عام بعد هذا البحث ، ثم تثبيت الحكم العام ، أو القاعدة الجديدة فى أذهان التلاميذ بالتمرينات ، والتطبيقات ، والإعادة ، والمراجعة .

وقد أثرت طريقة «هربارت» الألمانى فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر تأثيرًا كبيرًا فى التعليم المدرسى . وقد انتقلت هذه الطريقة إلى كليات المعلمين بانجلترة حوالى سنة ١٨٩٠ م ، وأخذ المدرسون يفكرون فى مراتب الدرس ، والخطوات الأربع أو الخمس التى وضعها «هربارت» فى كل درس يعدونه .

نقد خطوات (هربارت) :

في الوقت الذى نذكر فيه أن تلك الطريقة غير طبيعية ، ولا تصلح لجميع المواد ، لا يمكننا أن ننكر ما قام به (هربارت) الألمانى من خدمة كبيرة بطريقته فى التعليم؛ فالهربار تيون كانوا أول من حاول تجربة علم النفس بطريقة عملية فى الحجرة الدراسية. ومنذ ذلك الوقت عنى المربون بالبحث عن الطريقة . وإذا أمكن تنفيذ خطوات (هربارت) فى الدروس التى يراد بها كسب المعرفة ؛ كالجغرافية ، والقواعد، والأدب، والحساب ، والطبيعة ، والكيمياء ، فمن الصعب تنفيذها فى الدروس التى يقصد بها كسب المهارة ؛ وهى تلك الدروس التى يراعى فيها تربية اليد ، والقلب ، والوجدان ، والذوق ؛ كدروس الخط والرسم والأشغال اليدوية والموسيقا ؛ فإن هذه الدروس لاتتحقق فيها الخطوات الخمس من : مقدمة ، وعرض ، وربط ، واستنباط ، وتطبيق، ولا تحتاج إلى أكثر من ثلاث خطوات وهى : المقدمة ، والعرض ، والتمرن أو التدريب . .

ففى درس الخط مثلا يكتب المدرس الحروف الصعبة وأجزاءها أمام التلاميذ ــ وهذه مقدمة للدرس ــ ثم يكتب النموذج أمامهم على السبورة وهذا عرض له ، ثم يكلفهم محاكاة هذا النموذج وإعادته وتكراره ؛ حتى يجيدوا كتابته . فليس هنا غير مقدمة ، وعرض ، ومحاكاة وتمرن .

وفى درس الرسم يمكن رسم خطوط تتصل بالدرس فى المقدمة ، ثم يرسم الشكل ويطالب التلاميذ بمحاكاته ، وتكبيره أو تصغيره ، والتمرن عليه حتى يجيدوا رسمه .

وفى درس الموسيقا تشرح المدرِّسة أجزاء القطعة الموسيقية للتلميذة ، ثم تعزف

القطعة أمامها على المعزف وهى تلاحظها ، ثم تـكلفها محاكاتها والتمرن على عزفها حتى تجيدها .

فالخطوات الخمس لا يمكن أن تتحقق إلا فى دروس كسب المعرفة ؛ تلك الدروس التى تحتاج إلى عرض أمثلة ، واستقراء ، ومناقشة ، وانتقال من الأمثلة إلى القاعدة ، ومن الجزئيات إلى الـكليات ، ومن التجربة إلى النتيجة ، ومن المحس إلى المعقول ، ومن غير المحدود إلى المحدود ، ومن السهل إلى الصعب ؛ كما فى القواعد ، والحساب ، والطبيعة . أما غيرها من الدروس فلا يحتاج إلى هذه الخطوات وترتيبها ؛ كدروس كسب المهارة ؛ فإنها تحتاج لإعداد أذهان التلاميذ للدرس ، ومحاكاتهم للنموذج ، وتمرنهم عليـه ، وتـكرارهم له . وهناك دروس يغلب فيها العرض كالتاريخ ، وأخرى يغلب فيها التطبيق كالتمرينات الهندسية ، والمسائل الحسابية . وقد يختلط العرض بالربط ؛ كما فى درس القواعد حيث تعرض الأمثـلة ، وتربط أنواعها . وقد تذكر حكاية فى درس تاريخ ، ثم تستنبط منها خلقا من أخلاق الشخص ، أو صفة من صفاته ، من غير احتياج للربط ، فيكون الاستنباط بعد مرحلة العرض . وليس معنى هذا أنه ليس من الممكن تحقق هذه الخطوات الخمس؛ فتحققها سهل فى الدروس التى يراد منها استنباط قاعدة من القواعد ، أو حقيقة من الحقائق العامة .

وقد غلا تلاميذ (هربارت) وأتباعه فى تطبيق هـذه الطريقة غلوا شـديدًا ؛ فحاولوا استعمالها فى الدروس العملية والوجدانية، فأخفقوا، ولم ينجحوا إلا فى استخدامها فى الدروس الاستقرائية .

وباتباع خطوات (هربارت) يجد المدرس كثيرًا من التـكلف والصعوبة ، ولا يعطى التلميذ فرصة كبيرة للتفـكير ؛ فالمدرس هو الذى يُعد له مقدمة الدرس، وهو الذى يعرض المـادة عليه ، وهو الذى يناقش ويشرح ويسأل ، ويطالب بالموازنة

وذكر الحقائق التى يمكن استنباطها من الأمثلة ، فلا يترك التلميذ يعتمد على نفسه فى التفكير ، ولا يسمح له بالبحث عن المشكلة بنفسه ؛ حتى يشعر بصعوبتها ويحددها ، ويعرفها حق المعرفة ، ويعمل للتغلب عليها ؛ بفرض الحلول الممكنة ، والتفكير فى كل حل ، وقبول الحل الذى يمكن تنفيذه ، والعمل بإرادة قوية للتنفيذ .

فطريقة (هربارت) استقرائية ، وفيها تربية للعقل إلى حدما ، ومراعاة للترتيب المنطقى ، ولكنها لا تربى العقل تربية استقلالية ، وهى تتجاهل الترتيب النفسى الذى نادى به « جُونْ دِيوى » الفيلسوف الأمريكى . وجدير بالمدرس ألا يتقيد بطريقة من الطرق ، وأن يكون طبيعيا فى تدريسه ، ويختار الطريقة المثمرة التى تلائم درسه وتلاميذه ؛ فيخبر حيث يجمل الإخبار ، ويستقرئ حيث يحسن الاستقراء ، ويحاور حيث يحسن الحوار ، ويدرِّب حيث يحسن التدريب ، ويرشد حيث يجب الإرشاد ، ويختبر حيث ينبغى الاختبار .

وعلى مبدأ (هربارت) فى هذه الخطوات الخمس أهملت النواحى الخلقية ، كما أهملت تربية الشخصية، مع أنها من الأغراض الهامة فى التربية . وقد عنى بالحواس والأمور المحسة أكثر من عنايته بتربية الخيال والتفكير المستقل . وهو بهذه الخطوات والمراتب يتحكم فى المدرسين وتفكيرهم ، ولا يترك لهم فرصة للإبداع والابتكار . ومع هذا النقد لا يمكننا أن ننسى أو ننكر أنها قد أفادت المدرسين المبتدئين فائدة كبيرة فى إعداد دروسهم ، وترتيب خططهم ؛ فبالمقدمة يشوق التلاميذ إلى الدرس الجديد، فينتبهون إليه ، ويربطونه بالقديم. وبالعرض يفهمون المادة الجديدة بطريقة واضحة منظمة ، فلا ينتقل المدرس من فكرة إلى أخرى حتى يثق تمام الثقة بوضوح الفكرة الأولى فى نفوس التلاميذ . وبالربط تربط أجزاء الدرس بعضها ببعض ربطاً تامًّا ، ويعرف ما بينها من تشابه أو تضاد ؛ كى يسهل فهمها وتذكرها . وبالاستنباط

يصل التلاميذ إلى القاعدة أو الحكم أو النتيجة أو التعريف بعبارة سهلة واضحة . وبالتطبيق تثبت المعلومات فى أذهانهم ، كى ينتفعوا بها عند الحاجة ؛ فالمدرس بعد انتهاء الدرس يسأل تلاميذه فيما عرفوه ؛ ليتحقق فهمهم له ، ثم يعطيهم تمريناً شفوياً على القاعدة ، ثم تطبيقاً كتابيا ؛ حتى يرسخ الدرس فى أذهانهم تمام الرسوخ .

وبهذه الخطة (الهربارتية) يربط الدرس الجديد بالقديم ، وترتب الأفكار ، ويسير المدرس مع تلاميذه نقطة نقطة على حسب قواهم ، ويعودهم الملاحظة والموازنة والحكم ، ويشركهم معه فى العمل ، ويدربهم على التعبير عما لديهم من الأفكار بعبارة صحيحة ، ويكون التعليم شائقا فى نفوسهم ، وتثبت المواد فى أذهانهم. ولكننا لا ننكر أن هناك تدخلا كثيرًا من المدرس ، واتكالاً عليه فى كثير من الأمور ؛ فهو الذى يُعد المادة كما قلنا ، وهو الذى يرتبها وينظمها ، ويوجه نظر التلاميذ إلى هذه الحقيقة أو تلك ، ولا يترك لهم فرصة كبيرة للاعتماد على أنفسهم فى البحث والتفكير ، والاستقلال فى العمل .

٢ — الطريقة القياسية (١)

هى عكس الطريقة الاستقرائية ؛ تذكر فيها القاعدة أو التعريف أولاً ، ثم تشرح بالأمثلة . وهى لا تصلح لصغار التلاميذ ؛ ولكنها تصلح لكبار الطلبة .وهى ــ وإن كانت توفر كثيرًا من الزمن بأخذ الأحكام قضايا مسلمة ــ لا تدعو المتعلم إلى التفكير والاعتماد على النفس ؛ بل تعوده الاتكال على المدرس ، فهى ضد التربية العقلية . ومن الممكن استخدامها فى دروس التاريخ ، وأدبيات اللغة ، والعلوم الرياضية ؛ كأن تذكر القاعدة أو النظرية ، ثم توضحها بالحكايات والتمرينات والأمثلة . ومن المستحسن الجمع بين الطريقتين : الاستقرائية والقياسية فى الدرس

(١) The Deductive Method

الواحد ؛ بأن يذكر المدرس الأمثلة ، ثم يناقش التلاميذ فيها ؛ حتى يستنبطوا منهـا القاعدة ، ثم يعيدها لهم ، ويعطيهم تطبيقا عليها قياسًا على ما عرفوا من القاعدة حتى تثبت فى أذهانهم .

ولم يتفق علماء التربيـــة وفلاسفتها قديمهم ومحدثهم اتفاقهم على تعليم النفس بالنفس ؛ فمن الحكمة ألا يكتفى المدرس باستعمال الطريقة القياسية فى تعليم الأطفال. وإن من العيوب الشائعة فى طريقة التدريس حب المدرسين لكثرة الإخبار والشرح فى الوقت الذى لا يطلب منهم شرح ؛ فقد يضيعون كثيرًا من الوقت فى توضيح أشياء واضحة ، حتى لدى الضعفاء من التلاميذ .

موازنة بين الطريقتين : الاستقرائية والقياسية :

مما تقدم نعلم أن الطريقة الاستقرائية ينتقل فيها المدرس مع تلاميذه من الخاص إلى العام ، ومن الأمثلة إلى القاعدة ، ومن الجزئيات إلى الكليات ؛ للوصول إلى قاعدة عامة ، أو حقيقة من الحقائق الجديدة . فيها يعتمد المدرس على تلاميذه فى البحث عن القاعدة والحقيقة ، والعمل للوصول إلى تلك الحقيقة بصبر وتمهل ، فهى تتفق مع طبيعة الأطفال فى البحث وحب الاطلاع ، وتصلح لصغار التلاميذ . أما الطريقة القياسية فعلى العكس ؛ ينتقل فيها المدرس من العام إلى الخاص ، ومن القاعدة إلى الأمثلة ، ومن الكليات إلى الجزئيات ؛ لتوضيح تلك القاعدة الجديدة ، والبرهنة على صحتها ، وتثبيتها فى أذهان التلاميذ . فيها لا يعتمد المدرس على التلاميذ فى العمل والبحث ؛ بل قد يذكر القاعدة والتلاميذ يصغون ، ويعتمدون على مدرسهم فى معرفة الحقائق ، فموقفهم فى الطريقة الأولى إيجابى ، وفى الثانية سلبى . ومن الخطأ الاكتفاء بطريقة واحدة من هاتين الطريقتين ؛ فالتلاميذ فى حاجة إلى الاستقراء فى المرحلة الأولى من البحث والدرس ، وإلى القياس فى المرحلة الأخيرة وهى مرحلة التطبيق ؛ حتى ترسخ

القاعدة فى الذهن . فبالاستقراء نصل إلى القاعدة ، وبالقياس نمرن التلاميذ عليها ، ونعطيهم من التمرينات والتطبيقات الشفوية والكتابية مايوضحها ويثبتها فى أذهانهم. وبهذه الوسيلة نصل إلى الطريقة الجمعية التى يجمع فيها بين الطريقتين : الاستقرائية والقياسية .

٣ — الطريقة الإخبارية أو طريقة المحاضرات

إذا كان فى تلك الطريقة اقتصاد للوقت ففى التعلم من الكتب اقتصاد للمال ؛ فالإنسان يستطيع أن يخاطب الآلاف والملايين من الناس بما ينشره فى كتبه . وقبل استعمال المذياع والآلات المكبرة للصوت كان لا يستطيع أن يخطب فى أكثر من ألف أو ألفين . ولا يستطيع أحد أن ينكر أن الكتب تعوّد الإنسان الاعتماد على نفسه فى البحث والاطلاع ، وأن طريقة المحاضرات تصلح لكبار الطلبة فى الكليات والجامعات ، لا لتلاميذ المدارس الابتدائية والثانوية .

ولقد مضى على استعمال طريقة المحاضرات فى المدارس العالية والجامعات زمن ليس بالقصير؛ فقبل اختراع الطباعة ، وقبل طبع الكتب كانت الجامعات فى القرون الوسطى تستعمل طريقة المحاضرة ، وكان يحضرها آلاف من الطلبة فى تلك القرون ؛ فالأستاذ يحاضر ، والطلبة يستمعون . وما زالت هذه الطريقة متبعة فى الجامعات الأوروبية والأمريكية والمصرية حتى وقتنا هذا .

ومن الواجب أن تكون المحاضرات لدينا باللغة العربية فى كل مادة من المواد — ماعدا اللغات الأجنبية ؛ فإن من الواجب تدريسها باللغة الأجنبية ؛ كى يستفيد الطالب الفائدة المرجوّة من دراستها . وينبغى أن يبذل المدرس جهده فى رفع مستوى تلاميذه فى اللغة العربية؛ بأن يكلمهم بلغة عربية صحيحة فى كل درس من الدروس ؛ حتى

يعتادوها فى كتاباتهم ومحادثاتهم ، ويعالج ما بهم من ضعف فى اللغة القومية ، بسبب طغيان اللغة العامية التى كسبوها من المنزل والبيئة فى طفولتهم ؛ فاللغة العامية يجب أن تحارب حتى يُقضى عليها ، وتصير لغةُ المنزل لغة المدرسة ، ولغة الكتاب، ولغة الدراسة .

ومن الخطأ استعمال الطريقة الإخبارية بشكل محاضرات مع تلاميذ المدارس الابتدائية والثانوية ؛ فإن خير وسيلة يمكن أن تتبع معهم أن يكون المدرس قائدًا ومرشدًا فى التعلم . وإن صلحت طريقة المحاضرات لتعليم الكبار فإنها لاتصلح لتعليم الأطفال . ولقد أحسن (روسو) فى محاربة الخطب الطويلة والكلام الكثير فى تعليم أطفال صغار ؛ لأنهم لا ينتبهون إليها إلا قليلاً ، ولا يفهمون منها قليلا ولا كثيراً.

ومن عيوب طريقة المحاضرات :

(١) أنها لا تترك للطالب الفرصة فى الاعتماد على نفسه ، والقيام بالعمل ؛ فهو يأخذ ولا يعطى ، ويتلقى قضايا وأحكامًا من أساتذته ، ولا يجد باعثاً يحمله على التفكير والبرهنة والحكم ، والبحث والاستقصاء .

(٢) كثيراً ما تحوّل المحاضرة إلى تمرين إملائى ؛ فالمحاضر يتلو ويشرح ما أعده بخط يده ، فى حين أن الطالب يدون مذكراته التى يسمعها تدويناً مضطرباً ، ويسىء فهم كثير من المعانى والألفاظ والعبارات التى يكتبها .

فالطالب يعتمد على المحاضر فى كل شىء ، ولا تخرج المحاضرة عن أن الأستاذ يلقى ما لديه من مذكرات ، والطلبة يكتبونها بعبارات مشوهة تارة ، وناقصة مقتضبة غامضة تارة أخرى . وليس من السهل على الطالب أن يدون كل كلمة أو عبارة يفوه بها المدرس إلا إذا كان ملمًّا بطريقة الاختزال ، وهو لا يدرى عنها شيئاً . وعلى أى حال

لا يخلو أخذ المذكرات من الفائدة ؛ فهذه الطريقة ـ وهى طريقة المحاضرات ـ تساعد فى الانتباه التام ، والإصغاء الكامل ، وتحتاج إلى حضور ذهن ، ونشاط كبير فى تلخيص الفكرة بعد فهمها ، ولكنها لا تخلو من العيوب كما ذكرنا .

وخير وسيلة يتخذها الطالب للتغلب على ما فى طريقة المحاضرات من صعوبة : أن يدون نقطاً محدودة ، أو أفكاراً معينة فى أثناء المحاضرة . وبعد أن تنتهى المحاضرة يستطيع الطالب فى وقت آخر أن يضعها فى صيغة جديدة ، بعبارة جديدة ، بأسلوبه الخاص ، ويرتبها ويهذبها مع مراعاة الجودة والإتقان ؛ فيوضح الغامض ، ويكمل الناقص فى الفكرة أو الأسلوب . وحبذا الأمر لو اطلع على كتب أخرى فى الموضوع نفسه ، واختار منهـا ما يحلو له من أفكار يضيفها إلى موضوعه ؛ حتى تتكوّن لديه مجموعة من المحاضرات الثمينة فى كل فرع من مادته ، ويعتاد حب الاطلاع ، وتكثر معلوماته وتجاربه . وهنا يمكننا أن نقول : إن الطالب المستمع قد بذل مجهوداً عقلياً فى الكتابة والتذكر ، والبحث والاطلاع ، والتجديد والاختراع ، والإجادة والإتقان . ولكن هل يستطيع ذلك الطالب أن يقوم بهذا فى كل محاضرة إذا كان لديه خمس محاضرات كل يوم ، وثلاثون محاضرة كل أسبوع ؟ اللهم لا .

وخلاصة القول أن طريقة الإخبار والمحاضرات لا تناسب الطلبة إلا فى المعاهد العالية والكليات ، ولا تصلح لأن تكون طريقة أساسية للتدريس فى المدارس الابتدائية والثانوية ؛ فإن التلاميذ فى تلك المدارس يحتاجون إلى السير معهم بالتدرج بالطريقة التى تلائمهم ؛ كى يفهموا ما يعرض عليهم من الدروس . ولا يمكننا أن ننكر أن فى طريقة المحاضرات اقتصاداً كبيراً فى الوقت ، وأنهـا منظمة مرتبة محدودة ، ولهذا التنظيم والترتيب والتحديد فائدة كبيرة فى الدراسة .

٤ — الطريقة الحوارية (السقراطية)

هى طريقة الحوار والنقاش بالأسئلة والأجوبة؛ للوصول إلى حقيقة من الحقائق. وتنسب هذه الطريقة إلى (سقراط[١]) ؛ ذلك الفيلسوف الذى كان يعيش فى العصر الذهبى لليونان . وكان يستعمل تلك الطريقة مع غيره متظاهرًا بالجهل ؛ ليرشد المتعلم حتى يصل إلى الحقيقة ، بعد الأخذ والعطاء ، والسؤال والجواب ، فى وقت بلغت فيه التربية العقلية فى (أثينا) المركز الأسمى من العناية بها ، والتفكير فيها . وقد كان غرضه بث المعلومات فى نفوس تلاميذه ، وتعويدهم البحث وراء الحقيقة ؛ حبًّا للحقيقة .

وجد (سقراط) حوله طلبة متعطشين إلى العلم ، مولعين بالتأمل والتفكير والحكمة ، كما وجد عددًا ليس بالقليل من السوفسطائيين وعلماء البلاغة ، الذين كان من همهم اللعب بالألفاظ ، وتعليم الطلبة أساليب البلاغة .

ومن الأسباب التى دعت (سقراط) إلى الحوار والنقاش ما رآه من تسرع الإنسان عادة إلى ذكر الأحكام والقواعد العامة قبل الاستقراء التام ، والفحص الكامل ، وتساهله فى استعمال الكلمات والألفاظ قبل التحقق من معرفة معناها . فكان الغرض الرئيسى لسقراط من الحوار إزالة الأوهام من عقول الرجال ، والتخلص من العقبات التى كانت تقف فى سبيل العلم والتعليم ، وإرشادهم إلى أحسن الوسائل فى التفكير والحكم والتعليل ، وكسب المعلومات والمعارف ، والانتفاع بها

---

(١) "Socrates" : ولد سنة ٤٦٩ ، وتوفى سنة ٣٩٩ ق.م ، وهو شيخ فلاسفة اليونان، ويكفيه فخرا أنه أستاذ (أفلاطون) ، وقد قال العلماء بحق : «إن (سقراط) أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض» . ومن آرائه المعروفة : «العلم فضيلة» ، و«الفضيلة تكتسب بالتلقين» ، وقد قتل ظلماً وعدواناً .

انتفاعاً حقاً . فطريقته فى الأسئلة كانت تشجع على البحث والتنقيب ، والتفكير ، وتهذيب قوى سامعيه .

نقد الطريقة الحوارية :

وهذه الطريقة ـ وإن كانت تدعو إلى التفكير العميق ـ تستغرق زمناً طويلاً للوصول إلى حقيقة من الحقائق . ومن مثالبها كثرة الاستطراد ، والخروج من موضوع إلى آخر ، وإهمال النقطة الأساسية . وليس من السهل على ضعاف المدرسين أن يستعملوها ؛ فإنها تحتاج إلى كثير من المهارة والدقة ، وتتطلب نشاطاً وانتباهاً من التلميذ والمدرس ، وهذه أهم فائدة من فوائدها . وهى تجمع بين الطريقة الإرشادية والطريقة التنقيبية ؛ لأنها تحتاج إلى الإرشاد والبحث والتفكير دائماً .

وقد بالغ بعض المربين فى ادعائهم أن الطريقة الحوارية خير طريقة للتعليم ، ونسوا أنها تستدعى وقتاً ثميناً يقضى فى محاولة تفهيم التلاميذ حقائق قليلة . وقد ظن هؤلاء المربون أن الحقيقة لا تهم مادام المتعلم يكشفها بنفسه ، ويصل إليها بنفسه ؛ فقد يقضى نصف ساعة فى السير بطريقة التشكيك للوصول إلى نتيجة يمكن أن تفهم فى لحظة ؛ ففيها مضيعة للوقت . وليس معنى هذا أن نهمل الحوار والنقاش بالأسئلة والأجوبة ؛ فمن الحكمة أن نناقش التلاميذ حينما يحسن النقاش ، ونخبرهم عندما يحسن الإخبار .

ولكى ينجح المدرس فى استعمال الطريقة (السقراطية) ، يجب أن يعد كل درس من دروسه إعداداً كاملاً ، ويعد أسئلته بكل عناية ودقة ، ويرتبها ترتيباً تاماً ؛ كى يسهل عليه بث المعلومات فى نفوس تلاميذه . ومن الممكن الانتفاع بها أحياناً فى المرحلة الأولى من التعليم ؛ وهى مرحلة التعليم الأولى أوالابتدائى . ويتوقف النجاح فى استعمالها على درجة كبيرة من مهارة المدرس .

ولزيادة الفائدة نذكر هنا محاورة بين (سقراط) وتلميذ له يدعى (يُوثِيدِيمَس) ؛

وقد كان تلميذاً محبوباً لدى (سقراط) ، مملوءًا بالأمل ، يود أن يكون مفكرًا وفيلسوفاً ؛ لذلك اعترضه (سقراط) فى طريقه ، وقال له : ياعزيزى (يُوثِيدِيمَس)؛ إنك قد اقتنيت كثيرًا من كتب الحكماء، فهل هذا صحيح؟

ج : هذا حق لا شك فيه . ولن أنقطع عن اقتناء كتب الحكمة ؛ لأنى أقدرها التقدير كله ، ولا أحب شيئاً حبى للعلم .

س : وما العلم الذى تحبه أكثر من غيره ؟ آلطب أم الهندسة ؟

ج : لا أحب الطب ولا الهندسة .

سقراط ــ ربما تميل إذًا إلى ذلك النوع من العلم الذى يكوّن السياسى القدير ، والاقتصادى الكبير ، ويُعد الرجل لأن يكون حاكماً ، ويجعله رجلاً ينفع نفسه وغيره .

فقال (يُوثِيدِيمَس) ــ وقد تأثر تأثرًا كبيرًا ــ : هذا كل ما أعناه ، وما أبحث عنه حقًّا .

وافقه (سقراط) على هذا الرأى ، ثم سأله أسئلة أخرى يستنبط منها أن الإنسان فى حاجة إلى أن يشعر شعورًا قويًّا بالعدالة . ثم أخذ يسأله عن تعريف العدل ، فأجاب : ليست هناك صعوبة عملية فى معرفة العدل والظلم فى المعاملات الإنسانية التى نتحدث عنها كل يوم .

سقراط : افرض أننا نرسم خطًّا، ونضع فى طرفه (ا) من الجهة اليمنى، و(ب) من الجهة اليسرى ، ثم نرتب الأشياء التى تتفق مع العدالة، ونضعها تحت (ا) ، والأشياء التى لا تتفق مع العدالة، ونضعها تحت (ب) .

س : هل هناك شىء يدعى كذباً ؟

ج : بكل تأكيد .

س : فى أى قسم نضعه ؟ أتحت (ا) أم تحت (ب) ؟

ج : نضعه تحت القسم الثانى طبعاً .

س : هل يغش الإنسان أخاه الإنسان ؟

ج : فى كثير من الأحيان .

س : وأين نضع الغش ؟

ج : نضعه تحت القسم الثانى .

س : هل يبيع الإنسان أخاه الإنسان ، ويتخذه عبدًا ، وقد ولد حرًّا ؟

ج : نعم إن الإنسان يستعبد أخاه الإنسان ، ولا يزال مستعبدًا له .

س : افرض أنك فى الحرب اخترت رجلاً من الرجال لقيادة جيوشك ، فاستولى على مدينة من مدن الأعداء ، ثم باع سكانها كما يباع العبيد ، فهل تقول إن هذا القائد عادل ، وقائم بالقسطاس المستقيم ؟

ج : نعم إنه عادل ، ولا شك فى أنه أقام العدالة .

س : هل نستطيع أن نقول إنه عادل ؟

ج : نعم .

س : وما ذا ترى لو ضلَّل ذلك القائد عدوه ، وغشّه فى أثناء الحرب ؟

ج : إنى أعده مصيباً فى تضليله لعدوه لو ضلَّله فى أثناء الحرب .

س : إذا خرَّب القائد بلاد العدو ، ونهب ماشيتهم وغلتهم ، فهل تقول إنه لم يرتكب جرماً ؟

ج : لا شك يا أستاذى (سقراط) أنه بتخريبه بلاد العدو ، واغتصاب ما فيها قد ارتكب جرماً .

س : أيصح هنا أن ننقل ما وضعناه تحت الحرف (ب) ، لنضعه تحت الحرف (ا) ؟

ج : نعم ، يصح .

س : أليس من الواجب أن نفرق فى المعاملة بين الأصدقاء والأعداء ؛ فمع الأصدقاء يجب أن نلتزم الصراحة والإخلاص ؟

ج : نعم يجب أن نفرق بين هؤلاء وهؤلاء يا (سقراط) .

س : إذا رأى ذلك القائد أن شجاعة جنوده أخذت فى النقص ، فأوهمهم أن هناك معونة جديدة آتية إليهم ، وبهذه الوسيلة أزال ما فى نفوسهم من المخاوف . فإلى أى قسم تنسب هذا الخداع ؟

ج : أنسبه إلى قسم العدالة على ما أظن .

س : لو رفض طفل الدواء الذى تتطلبه حالته الصحية ، فخدعه أبوه وأعطاه الدواء بشكل طعام ، فأين تضع هذا الغش يا (يُوثِيدِيمَس) ؟

ج : أظن أننا نضعه فى قسم العدالة .

س : هب رجلاً بلغ منتهى اليأس والقنوط ، فحاول أن ينتحر ويقتل نفسه بالسيف فأتى صديق له ، وأخذه منه بشدة . فإلى أى قسم ينسب هذا العنف ؟

ج : أظن أن هذا العنف ينسب إلى قسم العدالة ، ويتضح لى أن الصديق لم يخطئ فى تصرفه .

س : قد اتفقنا من قبل على أنه يجب أن نعامل أصدقاءنا بكل صراحة وإخلاص؛ ولكن يظهر من أجوبتك أنه يجب ألا نعامل أصدقاءنا دائماً بكل صدق وإخلاص .

ج : من الواضح أنه يجب ألا نخلص لهم دائماً . وإنى أعدل عن قولى السابق ، لو سمح لى بذلك .

س : بكل تأكيد ، إن الرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل . ومن الواجب أن نختبر كل شىء يعرض لنا بدقة . فقل لى أيهما يبدو لك أشد

ظلماً : الرجل الذى يغش صديقه عمداً ، أم الرجل الذى يغشه عن غير قصد؟

ج : عجبا يا أستاذى (سقراط) ، إنى لا أدرى بماذا أجيب ، ولا أعرف كيف أفكر ، فقد شككتنى فى كل ما قلت ؛ حتى أصبحت أخالف نفسى كل المخالفة ، ولا أعتقد الآن صواب ما كنت أعتقده من قبل ؛ فقد كنت أظن أنى لست بغريب عن الفلسفة ، ولكن يلوح لى الآن أنها أصعب مما كنت أظن ، وأن علمى بها أقل مما كنت أعتقد .

هذا مثل من الأسئلة (السقراطية) ، والحوار (السقراطى) . وبالحوار بهذه الطريقة كان (سقراط) يقود تلميذه ويشوقه إلى البحث والاستقصاء ؛ للوصول إلى الحقيقة ، فكان يُرِى تلميذه أن هناك صعوبات مستترة فى كثير من الأشياء التى تبدو لنا سهلة عند عرضها علينا،وأن للقضايا العامة ــ التى يمكن تصديقها والموافقة عليها ــ استثناءات وشروطًا خاصة ، وأنه ليس من الحكمة أن نحكم على تلك الأشياء حكماً عامًّا قبل أن نعرفها حق المعرفة، ونختبرها بكل عناية ودقة .

هذه المبادئ التى كان يفكر فيها (سقراط) من الأمور الضرورية للتربية العقلية .

وإذا لحظت حينما تقرأ محاورات (سقراط) وبحوثه أنها تنتهى بنتائج سلبية ، ولا تؤدى إلى حقيقة معينة ، أو نتيجة مرضية لتلاميذه وأتباعه ، فتذكر أن سقراط كان مؤمناً كل الإيمان بهذه الطريقة ؛ لأنه كان يحاول أن يظهر لتلاميذه الفرق بين ما عرفوه وما لم يعرفوه ؛ فكان يعترض على ما يقولون ، ويشككهم فيما يجيبون به ؛ كى يصلوا إلى النتائج بأنفسهم . ولذا يرى أنه أفادهم فائدة عقلية كبيرة أكثر مما لو أخبرهم بالحقائق مباشرة ، ومنحهم إياها من غير تفكير .

٥ – الطريقة التنقيبية

هى طريقة البحث والتنقيب عن موضوعات خاصة فى كتب معينة يبينها المدرس للتلاميذ ؛ ليدرسوها وينتهوا منها فى مدة محدودة . وهذه الطريقة من أحسن الطرق الحديثة التى تعود المتعلم الاعتماد على نفسه ، وكثرة القراءة والاطلاع من الصغر. ومن الممكن اتباعها من السنة الثالثة أو الرابعة من المدارس الابتدائية ، والانتفاع بها فى المدارس الثانوية والمتوسطة والمعاهد العالية لدينا .

ولنذكر كلمة موجزة عن أهم الطرق الحديثة – فى التربية – التى تشملها الطريقة التنقيبية ، مكتفين بما ذكرناه بإسهاب عنها فى كتابنا « الاتجاهات الحديثة فى التربية » .

١ – طريقة (دَلْتُون[١])

تُنسب هذه الطريقة إلى المربية الأمريكية « هيلين پارْكهرسْت[٢] » . وقد قامت بتنفيذها فى سنة ١٩١٩م ، وظن بعض المدرسين خطأً أن (دَلْتُون) صاحب هذه الطريقة . والحق أن (دَلْتُون) مدينة من المدن الأمريكية فى ولاية (مَسَّاشُوسِتْز[٣]) ، كانت قد جُربت بها هذه الطريقة ، فسميت منذ ذلك الحين باسم تلك المدينة .

(١) "Dalton Plan"

(٢) "Miss Helen Parkhurst".

(٣) "Massachusetts"

الغرض من طريقة (دَلتون) :

إن الغرض منها التخلص من تعليم الفصــل كله فى وقت واحد أية مادة من المواد ، من غــير مراعاة الفروق بين التلاميــذ الأذكياء والأغبياء والمتوسطين ، فى المستوى العلمى والعقلى ؛ وذلك بتقسيم الفرقة الواحــدة إلى فصول متقاربة بحسب الذكاء ، وتــكليف التلاميذ القيام بأعمال خاصة فى زمن معيّن ، وإعطائهم حرية فى البحث ، وتشجيعهم على القراءة والمراجعة بأنفسهم ، مع إرشاد أساتذتهم عند الحاجة، وتعويدهم الثقة بأنفسهم من الصغر ، حتى يكونوا رجالاً عمليين فى الــكبر ، وبث روح التعاون والمساعدة فيما بينهم، والسير بحسب مقدرة كل مجموعة منهم؛ فلا يُرهَق الضعيف ، ولا يُضاع وقت الذكى فى انتظار الغبى .

مبادئها :

تتفق مبادئها مع نظام التعليم الفردى. ويمــكن تطبيق هذه الطريقة فى كثير من المواد . ومن هذه المبادئ :

١ ــ أن تشرك التلاميذ معك فى العمل، وتعودهم البحث بأنفسهم والاستقلال فى التفــكير .

٢ ــ أن تُقلل الطريقــة التلقينية أو الإخبارية فى التعليم ، طريقــة القرون الوسطى .

٣ ــ أن تحول حجر الدراسة إلى معامل تعليمية ؛ ليقوم التلاميذ بالتجارب والتعلم فيها بأنفسهم .

٤ ـ أن تفكر فى الحقائق أكثر من التفكير فى المظاهر .

٥ ـ أن تربط الأفكار والتجارب بعضها ببعض ؛ كى يسهل التذكر .

٦ ـ أن تُعطىَ التلاميذ الحرية فى اختيار الطريقة التى توصلهم إلى النتيجة المنشودة ، من غير أن تتدخل فى شئونهم إلا عند الضرورة .

٧ ـ أن تعودهم الدراسة التحليلية ، والبحث عن النتائج بأنفسهم ، وتترك لهم فرصة كبيرة من الوقت ؛ بحيث يستطيعون أن يقوموا بأعمالهم ، وينتهوا منها من غير أن يقاطعهم أحد ما داموا مشتغلين بأداء الواجب ، غير مقصرين فى أى عمل .

٨ ـ أن يختص كل مدرس بمادة من المواد ، وحجرة من الحجر الدراسية .

٩ ـ أن يراعى كل نوع من التلاميذ ؛ ليعمل كل فرد بحسب مستواه العلمى والعقلى ، مشتركا مع الجماعة التى تناسبه .

مَثل من التعيينات :

ولنذكر مثلا من التعيينات التى يطالب بها التلاميذ الذين يتبعون طريقة (دلتون) فى السنة الرابعة الابتدائية . وقد ذكرنا الكثير منها فى كتاب : « الاتجاهات الحديثة فى التربية » :

١ ـ ارجع إلى كتاب كذا فى مادة كذا .

٢ ـ اقرأ الكتاب قبل أن تحاول الإجابة .

٣ ـ إذا وجدت صعوبة فى بعض المفردات فاسأل عنها أحد الكبار من إخوانك ، أو ابحث عنها فى المعجم . وإذا لم تعرفها بعد البحث فارجع إلىّ .

٤ ـ بعد أن تنتهى من قراءة الكتاب وفهمه أجب عن الأسئلة الآتية كتابيا :

ا ـ ما أحسن حكاية أعجبت بها فى الكتاب ؟ اذكر هذه الحكاية .

ب ـ أى رجل أعجبت به فى الكتاب ؟ ولمَ أعجبت به ؟ اذكر بعض أعماله .

حـ ـ اكتب رواية قصيرة ذات فصلين ، منتفعاً بأى فصل من فصول الكتاب ، أو اكتب موضوعا لا يقل عن ثلاثين سطرا عن أية حادثة تختارها ، أو أى شخص تميل إليه .

فوائد هذه الطريقة :

إن نظرة واحدة إلى هذا التعيين توضح لنا أن التلميذ يقوم بكل شىء ، معتمدا على نفسه فى البحث ، مستعملاً قواه العقلية ؛ حتى يعتاد قوة الحكم ، والثقة بالنفس ، والتغلب على الصعوبات التى تعترضه فى أثناء عمله ، وتربى لديه عادة النظام فى ترتيب الدروس وإعدادها ، وفهمها والإجابة عنها ، ويحبب إليه الاطلاع والقراءة ، والعلم لذات العلم . ومتى نجحنا فى تشويق التلميذ لعمله ، وترغيبه فيه ، سهل عليه النجاح ، لا فى الامتحان فحسب ؛ بل فى حياته العملية كذلك . وبهذه الوسيلة نشعر بأننا قمنا بإرشاده إلى أحسن الطرق فى التعلم ؛ بفتح السبل أمامه ، وتركه ليسير بنفسه فيها ، وإعطائه الفرصة فى استخدام عقله وفكره وذكائه ، وتنمية مواهبه ؛ حتى يستطيع فى المستقبل أن يقوم بعمل جليل ، أو اختراع مفيد ، أو تأليف كتاب نافع .

ب ـ طريقة (مُنْتسُورى)

(ماريا مُنتسُورى[١]) طبيبة إيطالية معاصرة وتنسب إليها هذه الطريقة ، وهى منتشرة فى بعض مدارس رياض الأطفال بانجلترة وأمريكا وإيطاليا . وقد جربت فى بعض الرياض المصرية، وهى تتفق مع نظام التعليم الفردى .

الغرض من طريقتها :

ترى (مُنْتسُورى) أن الغرض من التربية تربية الشخصية ؛ فقد أظهرت كثيرًا من الشجاعة فى محاولتها أن تشجع الطفل على أن يتعلم بنفسه ، ويعتمد على نفسه . وقللت التدخل فى تربيته وتعليمه بقدر الإمكان ؛ فتلاميذها يتعلمون كيف يعيشون مع غيرهم ، وكيف يتعاونون معهم على العمل واللعب ، وكيف يعتمدون على أنفسهم فى أعمالهم . وأظهر شىء فى طريقتها لُعَبُها التثقيفية والتعليمية التى بها يُعلِّم الأطفال أنفسهم ما يجب أن يتعلموه فى مرحلة الطفولة ؛ من استعمال قواهم وميولهم ومواهبهم بمهارة فى الحركة والعمل ، ومعرفة مبادئ القراءة والكتابة والحساب .

ويُترك الأطفال تحت مراقبة المرشدة ؛ كى يسيروا فى طريقهم وعملهم على حسب رغبتهم ، فى وقتهم الخاص بهم . ويُعطوْن الحرية فى اختيار أعمالهم ، وينقدون أنفسهم بأنفسهم .

(١) "Dr. Maria Montessori"

مبادئها :

من مبادئ (منتسورى) أن الفرد وحدة فى التعليم ، بخلاف الطرق القديمة التى تسير على نظام التعليم الجمعى الذى يعد الفصل وحدة فى التعليم . ومن الممكن تلخيص مبادئها فيما يأتى :

١ ـ استقلال التلاميذ بأعمالهم ؛ فهم يعتمدون على أنفسهم ، ولا تتدخل المرشدة فى أعمالهم إلا عند الضرورة . وتنتهز الفرصة التى يحتاج فيها الطفل إلى التعلم والإرشاد ، فتقوم بتعليمه وإرشاده .

٢ ـ ليس هناك دروس توضع ، ولا جدول لأوقات الدروس ؛ فكل طفل يدرس على حسب رغبته ، ويلعب متى شاء باللُّعَب التعليمية . وتراعى أحسن الوسائل العلمية والعملية لتربيته تربية حقة .

٣ ـ ليس هناك فصول مدرسية كالفصول العادية فى التعليم الجمعى ، تبدأ عملاً واحدًا فى وقت معين ، وتنتهى منه فى وقت محدد .

٤ ـ إن الباعث الوحيد ، والمشجع على العمل لديها السرور بالنجاح ، والقيام بالعمل كما ينبغى. فلا ثواب ولا عقابَ فى مدارسها . ولا يشعر الطفل بأنه فى سجن؛ بل فى روضة طبيعية علمية تعمل لتربية حواسه ووجدانه وعقله وجسمه وخلقه وشخصيته.

٥ ـ كل طفل يقوم بعمل ما يريده ، وما يرغب فيه من الأعمال . وحينما يُقبل بالمدرسة يرى جماعات صغيرة من الأطفال يلعبون ألعابا مختلفة سارة ، فيشترك مع الجماعة التى يحبها ويميل إليها . وحينما يتعب من لعبة من اللعب يستطيع أن يستبدل بها غيرها.

٦ ـ يجد الأطفال قماطر صغيرة تلائم أطوالهم ، ومقاعد مريحة خفيفة يمكنهم نقلها من مكان إلى آخر بسهولة، كما يجدون زرابىَّ صغيرة وضعت على الأرض ؛ ليجلسوا ويستريحوا ويتكئوا عليها ، متى شاءوا ذلك .

٧ ـ لُمنتسُورى لُعَب تعليمية خاصة ؛ بها يستمال الأطفال لتربيـة حواسهم وعقولهم . وعلى تلك اللُّعَب يتوقف جزء عظيم من الابتداع والابتـكار فى طريقتها.

فوائدها :

بهذه الطريقة يترك للأطفال الحرية فى اختيار أعمالهم ، ويشجعون على الاعتماد على أنفسهم ؛ فيصلون إلى درجة كبيرة من الابتـكار، وحب العمل، والمثابرة، والاعتماد على النفس ، ويتعلمون كيف يحترمون أنفسهم ، ويفـكرون فى غيرهم، وتنمو فيهم عادة الجد والاجتهاد ، التى قلما تظهر فى الأطفال الذين يعملون بغير رغبة ، ويساقون إلى أعمالهم بالطريقة العادية فى التعليم الجمعى فى الحجر الدراسية .

ولحسن الصلة بين المرشدة وتلاميذها ، تجد المرشدة كثيرًا من الفرص لدراسة أطفالها ، ومعرفتهم حق المعرفة ، وإصلاح عيوبهم الخلقية والاجتماعية . ومن المحال أن تعرف الطفل وبيئته ، ومواهبه وميوله ، والغرض من تربيته ، إلا إذا كنت على صلة تامة به ؛ فترشده إلى الطريقة المثلى، فى الوقت الذى تسنح فيه الفرصة للإرشاد . وبذلك تستطيع أن تنمى فيه العادات الحسنة ، وتبث فى نفسه الأخلاق الـكاملة .

واجب المدرس :

تقول (مُنتسُورى) : « إننا نحن المدرسين نبذر البذور ، وتلاميذنا يحصدون . وليس من السهل أن نعمل لتحسين مستوى الجيل المقبل ؛ فهو عمل شاق ، ومن الواجب أن نعمله برغبة وإخلاص . » وإننا نتفق معها ونقول : إن مستقبل الأمة بأيدى المدرسين ، وإن تحسين الجيل المقبل فى أيدى المعلمين . وهذا العمل شاق يجب أن يؤدوه برغبة وأمانة وإخلاص وإيمان وعقيدة ؛ فهم الذين يغرسون فى نفوس

تلاميذهم المبادئ القويمة ، ولا ينتظرون من عملهم جزاء ولا شكوراً . فلنعمل لتحسين مستوى أبنائنا وبناتنا من الوجهة الصحية ، والعقلية ، والخلقية ، والعلمية . ولنتعاون على نجاحهم فى الحياة المقبلة . ولنتكاتف للنهوض بهم . ولننتهز كل فرصة للسير بهم إلى الصراط المستقيم . ولنخلص فى أعمالنا ؛ كى يصلوا إلى الغاية التى ينشدونها. ولنكن خير مثل يقتدون به . ولنفهمهم شيئا عن الحياة وما فيها. ولنعطهم الدواء حينما تظهر أعراض المرض . وَلْنَقُدْهم خير قيادة ، ولنرشدهم أحسن إرشاد . ولنذكر أن الآباء أودعوا بين أيدينا أنفسَ وديعةٍ ، وأثمن جوهرة يمتلكونها ؛ فلنحافظ على تلك الوديعة ، وهذه الجوهرة ، ولنجتهد فى تنميتها تنمية صالحة ؛ حتى نرضى الله وضمائرنا ، ونقوم بواجبنا نحو العلم والتعليم .

حـ ـ الطريقة التمثيلية(١)

تحتاج هذه الطريقة إلى الحركة والنشاط والعمل فى الهواء الطلق ؛ لتحسين صحة التلاميذ والمدرسين . وهى لا تتقيد بحجر دراسية معينة ؛ فالدروس يمكن أن تعطى بطريقة تمثيلية فى حديقة المدرسة ، أو ملعبها، أو مكتبتها .

بها يكون التعليم شائقا ، ويكون الأطفال سعداء حينما يقومون بتمثيل أدوارهم فى دروسهم . وحينما يكونون سعداء يبذلون كل جهدهم فى عملهم . بها يكون التعليم عمليًّا ، ويكون التلاميذ عمليين ، ويشعرون بالسرور والغبطة حينما يكلفون تمثيل رواية من الروايات ؛ فتراهم يعملون بشوق ورغبة ، ويبذلون ما فى طاقتهم ، وما فى وسعهم ؛ لنجاح تلك الرواية ، والقيام بكل شىء فى إعدادها وتمثيلها إذا وجدوا تشجيعاً من أساتذتهم وإخوانهم .

(١) ارجع إلى كتاب : "The Dramatic Method of Teaching, by : H. Finlay-Johnson".

ومن الممكن جعل الدروس العادية شائقة ؛ بما يتخذه المدرس من طرق في التشويق والترغيب . ويجب ألا ننسى أن طبيعة الطفل تنافي الحكم عليه دائماً بالجلوس والسكون والإصغاء . وإنك لو نسيت كل الدروس التاريخية في المدرسة فلن تنسى درساً تاريخياً درس بطريقة التمثيل عن صلاح الدين الأيوبي، أو محمد على باشا ، وقمت بتمثيل جزء منه . وستذكر كثيراً من الحقائق والتفصيلات والتواريخ التي عرفتها عَرَضاً في أثناء إعداد الرواية واللعب والتمثيل .

يقول : « رُوبَرت لُويس سْتِيفِنْسُون[١] » ـ وقد فهم الأطفال ونفسيتهم ، ودرس طبائعهم، وكتب لهم أكثر من غيره ممن عاصره من الأدباء في القرن التاسع عشر بانجلترة : « إننا نحن الكبار نستطيع أن نقص على أصدقائنا قصة ونحن جالسون لندفأ بجانب النار . أما الطفل فلا يستطيع أن يجلس هادئاً حينما يستطيع القيام بأى عمل . فمتى سمع قصة القتال وقف في الحال ، وأمسك بالسيف ، وأخذ يمثل دوره حتى يتعب نفسه » .

فوائد الطريقة التمثيلية:

بالطريقة التمثيلية يتعلم التلاميذ البحث عن الرواية في مراجع مختلفة ، بمساعدة المدرس وإرشاده ، ثم تأليفها وكتابتها ، وإعدادها ، كما يتعلمون الإلقاء والتمثيل والرجوع إلى التاريخ في الملابس والعادات والآراء والأفكار . ويقبلون النقد ، ويعتادون الاعتماد على النفس إذا كلفوا قراءة قطعة تمثيلية ، وإعداد ما يلائمها من

(١) "Robert Louis Stevenson." : ولد سنة ١٨٥٠ ، وتوفي سنة ١٨٩٤ م . وهو كاتب إنكليزي ، كتب للأطفال كثيرا ، وقضى معظم حياته مريضا . وقد ألف كثيرا من كتبه وهو على فراش المرض . وهو خير مثل يحتذى في قوة الروح ، والمثابرة ، وقوة الإرادة .

أزياء وأثاث . وبالطريقة التمثيلية تحيا الدروس من موتها ، وتبدو فرصة كبيرة للإقدام والخطابة ، والبحث والكتابة وتحمل المسئولية .

تدريس التاريخ بالطريقة التمثيلية :

يجب أن تملأ دروس التاريخ بالحياة ، وتجعل حية بقيام التلاميذ بتمثيل الروايات التاريخية بأنفسهم ، ولا تنتظر منهم الإجادة فى البدء ، ولكن هذه فرصة تمكنهم من التفكير ، والعمل ، والتعبير عما فى أنفسهم من الأفكار بعبارة صحيحة .

ويعد التاريخ أحسن مادة يمكن أن تدرس بالطريقة التمثيلية ؛ فى تلك المادة يجد الأطفال فرصة كبيرة ، ومجالاً واسعاً لتمثيل الملوك والقادة ، والعظماء والأبطال من رجال التاريخ . وكثيراً ما يظهرون استعداداً كبيراً للتمثيل ، ورغبة شديدة فى أن يمثل كل منهم دوره فى الروايات التاريخية التمثيلية .

وليعلم المربى أن الأساس فى التمثيل الرجوع إلى الكتب الأدبية والاجتماعية ؛ لاختيار روايات أدبية تاريخية ، خلقية اجتماعية ، تلائم البيئة والمجتمع . لهذا يجب أن تكون مكتبة المدرسة أو خزانة كتبها غنية بما يحتاج إليه التلاميذ من كتب تناسب مستواهم العقلى والعلمى ، ومن مراجع يسهل عليهم الرجوع إليها ؛ بحيث يشجعون على القراءة والاستعارة وكتابة الروايات وتمثيلها .

وعلى المدرس أن يرشد التلاميذ إلى اختيار الكتب ، والموضوعات التى تصلح للتمثيل . وسيجد من المتعلمين والمتعلمات كثيراً من الرغبة وحب العمل ، إذا وجدوا تشجيعاً .

وإن الواجب الأول على المدرس أن يوقظ فى المتعلم الرغبة فى التعلم ، ويبث فى

نفسه حب العلم . وإذا وجدت هذه الرغبة ، وهذا الحب ، كان العمل مثمرًا ، وكانت الدراسة منتجة .

وقد ذكر المربون الذين استخدموا طريقة التمثيل فى تدريسهم أن الطلبة حينما بدءوا يمثلون دروسهم ظهرت فيهم رغبة شديدة فى معرفة أشياء كثيرة ، كانوا لا يكترثون لها مطلقاً ؛ فقد أخذوا يدرسون الرواية ، ويحصون حقائقها ، ويهذبون أسئلتها ، ويغيرون فيها بعض المحادثات ، ويحفظون من تلقاء أنفسهم ما يحتاج إلى حفظ ، ويبحثون عن معانى الكلمات الصعبة من المعاجم . وبهذه الوسيلة يجيدون دراسة اللغة عَرَضًا ، وتتسع معلوماتهم اللغوية ، وتكثر أفكارهم فى أثناء بحثهم ، ويعرفون كثيرا عن الأزياء القديمة ، والعادات والتقاليد ، والحرف والصناعات ؛ فتزداد تجاربهم من حيث لا يشعرون ، ويفكرون فيما يفعلون ، ويرقى أسلوبهم الخطابى والكتابى باستعمال عبارات غيرهم فى تمثيلهم ؛ حتى يصير هذا الأسلوب أسلوباً لهم . وهم الذين يقومون بإعداد ملابس التمثيل، ويتغلبون على مايعترضهم من الصعاب ، فإذا غاب أحدهم وجدت فى الحال من يتقدم ليقوم بالواجب بدلاً من أخيه . ولا تسل عن مقدار سرورهم حينما يشعرون بالنجاح فى عملهم . وإذا بدءوا تمثيل الرواية وجدت أعيناً ناظرة ، وآذاناً مصغية ، وعقولاً يقظة منتبهة ، ونفوساً مستبشرة .

فبالطريقة التمثيلية يتعلم الطلبة من التاريخ والقصص واللغة القومية وآدابها وأساليبها أكثر مما يتعلمونه بالطرق العادية والتدريس المعتاد . وأحسن طريقة للتعلم البحث والاطلاع والتنقيب عما يميل إليه المتعلم . وإن دراسة النبات فى حقله خير من دراسته من نبات جُفِّف ، ثم حفظ بعناية ، ثم درس بطريقة الإسهاب فى الشرح والوصف ، وذكر خواصه ونوعه وفصيلته .

وإذا كلفت الطلبة مساعدة إخوانهم فى إعداد مناظر خاصة بالرواية أظهروا حبهم للتعاون ، وأعدوا ما كلفوا القيام به بعد البحث عنه ، وشعروا بالمسئولية ، واعتادوا الثقة بأنفسهم ، والتعاون مع غيرهم ، والانتفاع بمواهبهم . وكثيرًا ما يتسابق الطلبة فى البحث فى التراجم والكتب التاريخية والاجتماعية عما يريدون من الحقائق التاريخية والاجتماعية والخلقية ، عن حياة عظماء الرجال .

فبالطريقة التمثيلية لا يفر التلاميذ من الكتب الجافة ؛ بل يبحثون عنها للوصول إلى حقيقة من الحقائق ، أو حكم من الأحكام . وليس لديهم كتاب واحد للرجوع إليه ، ولكنّ لديهم كثيرا من الكتب ؛ فهم يقرءون الكتب التى تتصل بموضوعهم ويختارون منها ما شاءوا ، ويجمعون ما يريدون من المذكرات ، ويقومون بترتيب المادة بعد اختيارها ، ويختارون ممثلين من بينهم ، ويختار لكل جزء من الرواية من يحسن تمثيل ذلك الجزء . وقد تدهش لما يقوم به الطلبة فى المدارس الإنكليزية من إظهار استقلال فى الرأى ، وحسن اختيار للمادة ، وترتيب للحقائق التاريخية ، ووضعها فى رواية بطريقة تمثيلية . ومن أراد منهم أن يمثل جزءًا من الأجزاء ، أو دورًا من الأدوار ، ثم حكمت الأكثرية بعدم صلاحيته لتمثيل هذا الجزء خضع لحكم الأغلبية ، وترك مكانه لزميل آخر .

يجب أن يكون المدرس مرشدًا وأخًا كبيرًا للتلاميذ ، لا حاكمًا مستبدًّا ، يأمر وينهى ، وأن تكون هناك حرية فى نقد الممثلين للرواية ، وإصلاح غلطاتهم ، وأن يبث فى نفوسهم الصراحة فى القول ، والإخلاص فى النقد .

د — طريقة المشروع (١)

هى مؤسسة على نظرية (چون ديوى(٢)) الفيلسوف الأمريكى فى التفكير . وقد اختار (ديوى) لتلك الطريقة خمس مراحل وهى :

١ — الشعور بالصعوبة أو المشكلة (٣) .

٢ — معرفة موضع الصعوبة أو المشكلة وتحديدها .

٣ — الإيحاء أو الإشارة إلى الحل الممكن .

٤ — التفكير فى هذا الحل ، وفى طرقه ، والاستدلال على صحته .

٥ — الملاحظة والتجربة للوصول إلى قبول الحل الموعز به أو رفضه .

وعلى تلك النظرية يجب أن يشعر الطفل نفسه بالصعوبة والمشكلة والحاجة إلى التفكير فيها ، ويعرف موضعها ، ويعمل للتغلب عليها بنفسه إذا أمكنه ، وإلا أوعز إليه بالحل ، ثم يترك ليفكر فيه بنفسه ، فيرسم خطة للحل ، ثم يأخذ فى اختبارها مستعيناً بتجاربه ومعلوماته السابقة ، ويستمر فى محاولته ؛ حتى يصل إلى النتيجة الأخيرة .

فعلى طريقة المشروع يُعود التلميذ الاعتماد على نفسه فى التفكير ، ويُكاف البحث بنفسه عن الجواب ، مستعيناً بتجاربه السالفة على التغلب على الصعوبات التى تعترضه ، ولا يُسمح لغيره بمساعدته إلا عند الضرورة القصوى . وهى من هذه

---

(١) "The Project Method".

(٢) "John Dewey" : هو فيلسوف أمريكى من أكبر فلاسفة التربية وعلم النفس فى القرن العشرين ، وله كثير من المؤلفات الثمينة فيهما .

(٣) ارجع إلى ما كتبناه فى الجزء الثالث من كتابنا فى « علم النفس » عن التفكير وطريقته من ص ٥ إلى ص ١٣٥ .

الوجهة تعده للحياة الاستقلالية ، ومواجهة المشاكل التى تتصل به فى هذه الحياة .
وينصح (ديوى) بأنه يجب تعويد الطفل الاعتماد على نفسه فى التخلص من الصعوبات والمشكلات ؛ حتى يعد نفسه لكل حالة من الحالات التى تفاجئه فى الحياة ، فيتصرف فيها بعقله تصرفاً مملوءاً بالحكمة وحسن التدبير ، كما ينصح بأن تحدد البيئة التى فيها الطفل ، وتحدد الأمور التى يمكنه القيام بها بحيث تكون فى مستواه ، ثم يراقب ولا يرشد إلا عند الحاجة ، ويمنح مقداراً كبيراً من الحرية فى البيئة التى يعمل فيها .

فطريقة المشروع تعد خير طريقة للتفكير المستقل، والتربية العقلية الاستقلالية. وإن القاعدة الجوهرية فيها أن أعمال الأطفال تدور حول مشروع أو مشروعات يختارونها أو تعين لهم لتنفيذها ، والقيام بها بعد البحث فى الطرق المؤدية إلى ذلك ، بدلاً من جعلها محصورة فى موضوع سطحى يطالبون به؛ كحفظ قاعدة من القواعد ، أو نظرية من النظريات .

ومن المشروعات التى يقوم بها التلاميذ فى المدارس الأمريكية المتبعة لهذه الطريقة ما يأتى : —

تربية الدجاج ، وتنظيم المكتبات المدرسية والتعهد بما فيها من كتب، والأعمال التكوينية ، والمطالعة الفنية ، والقيام بطبع المجلة المدرسية ، وكتابة تاريخ الثورة الفرنسية بشكل صحيفة يومية ، يُفرض ظهورها إبَّان تلك الثورة ، وتأليف كتاب عن جغرافية القاطعة أو البلدة التى ينتسب التلاميذ إليها ، ووضع خطة لتمثيل رواية تمثيلية ، والقيام بكتابة المصروفات المدرسية ، وأعمال المصارف ، ومعرفة الغلاَّت الزراعية فى كل فصل من فصول السنة، ودراسة الأنواع المختلفة من الأراضى؛ لمعرفة طريقة استخدامها فى الزراعة ، والنبات الذى يحسن أن يُزرع فيها ، وإعداد الملعب المدرسى وتجهيزه بأنفسهم ، والقيام بأعباء الحكم الذاتى داخل المدرسة ، وما إلى ذلك من المشروعات الأخرى التى لا عدد لها ، والتى تُعد الشبان للتفكير وتكوين الأشياء كما تُعدهم للحياة التى تنتظرهم . وفى هذه الطريقة يضطر المدرس إلى مساعدة

التلاميذ فى معرفة الأشياء الجوهرية التى يستدعيها تنفيذ المشروعات التى كلفوها تنفيذًا دقيقًا . وكل ما يتعلمه التلاميذ هنا تعلم ناشئ عن الرغبة والميل ، ولذا يستفيدون أكثر مما يستفيدونه بالطرق العادية فى التعليم .

وتحتاج طريقة الشروع إلى مهارة كبيرة من المدرس ؛ لأن عمل الأطفال هنا فردى يستدعى كثيرًا من العناية ؛ حتى يربى كل طفل تربية كاملة من كل وجهة : روحية وعقلية واجتماعية وجسمية ووجدانية . ولو اتبعت هذه الطريقة ، وسمح للتلاميذ ببعض الحرية فى اختيار أعمالهم ومشروعاتهم التى يرغبون فيها ، ويميلون إليها ، واجتهد المربى فى الانتفاع بمواهب كل تلميذ على حدة ، وتوجيهها إلى الطريق المستقيم الذى يصلح لها وتصلح له ـ لاجتهد التلاميذ فى دروسهم ، وقاموا بواجباتهم خير قيام ، وتقدموا فى أعمالهم . ولن يكون واجب المدرس حينئذ مقصورا على إعداد المادة وإلقائها على التلاميذ ، وتكليفهم حفظها ؛ بل يشمل تحويل نشاط الطفل وتسييره فى مجراه الطبعى ، وهدايته إلى الطرق الصالحة التى يمكنه الانتفاع بها علميًّا ، والسير معه بحسب مواهبه وقواه . ومن الممكن تعليمه المواد وإجادتها بالمشروعات التى يرغب فى القيام بها بدلاً من تعليمه إياها بالإكراه والتكرار قبل أن يشعر بالحاجة إليها ؛ اعتمادًا على أنه سيحتاج إليها فى المستقبل .

وكثير من المدرسين ذوى الضمائر الحية يشعرون بأن جزءًا كبيرا من مجهودهم يضيع سدى ، ولا يعرفون لذلك سببًا . وما السبب فى الحقيقة إلا اتباع الطرق العقيمة فى التعليم ؛ تلك الطرق التى يعتمد فيها على المدرس كل الاعتماد ، ويهمل التلميذ كل الإهمال ، أو يعمل لغرض معين يجتهد فى الوصول إليه ، أو يدرس أشياء ليس لها صلة به ، أو ليس لها أهمية كبيرة فى الحياة . ولو كانت محاضرات التربية وعلم النفس ناشئة عن شعور الطلبة بالحاجة إليها لاستفادوا كثيرا منها ، ولكنهم يعملون

للامتحان ، وللامتحان فقط ؛ ولذلك لايستفيدون منها الفائدة المرجوة ، ولا يشعرون بفائدتها إلا عند قيامهم بالتعليم فى إحـدى المدارس . فهنا يشعرون بالوقت الذى أضاعوه ، والدروس التى أهملوها . ولن يثمر التعليم ولن ينتج أحسن النتائج إلا إذا اتبعت نظم التعليم الفردى وطرقه فى المدارس ؛ كطريقة المشروع ، و (دَلْتُون، ومُنتسورى[١]) والتمثيل ، واللعب ، وطريقة (دِكْرُولى[٢]) المربى البلچيكى ، وطريقة (وِنِتْـكا[٣]) .

هـ ـ طريقة اللعب

تُنسب هـذه الطريقة إلى المربى الإنـكليزى (كُولْدوِلْ كُوك[٤]) ؛ وهى طريقة تشوق التلاميذ إلى العمل والتنقيب ، وتشجعهم على القيام بعمل محاضرات ومناظرات ، وتمثيل روايات ، وكتابة مقالات ، وقصائد شعرية .... وتدعوهم إلى العناية بالفنون الجميلة : من موسيقا وغناء ورسم وتصوير .

وإن المصادر التى يأخذ منها التلاميذ أعمالهم هى مكتبة المدرسة ، ومكتبات الفصول ، والبيئة المدرسية . ولاتعجب إذا قلت لك : إن تلاميذ مدرسة إنكليزية[٥] قاموا بأنفسهم بعمل أربعة رفوف ، فى ركن من أركان الفصل ، من الخشب المهمل، والقماطر القديمة فى المدرسة . ثم ملأوا هذه الرفوف بمجموعة جميلة من الـكتب

---

(١) ارجع إلى كتاب « الاتجاهات الحديثة فى التربية » للمؤلف بمكتبة عيسى البابى الحلبى بسيدنا الحسين بمصر .

(٢) "Ovide Decroly"

(٣) هى بلدة فى الولايات المتحدة بأمريكا بالقرب من (شيكاجو) . وتنسب هذه الطريقة إلى الدكتور (كارلتون واشبورن) المربى الأمريكى .

(٤) ارجع إلى كتاب : The Play Way, by H. Caldwell Cook

(٥) هى مدرسة (سمتنج) : "Sompting School" فى مقاطعة (سسكس) : (Sussex) بانجلترة .

والروايات التاريخية الثمينة[1] التى تمثل كل عصر من العصور فى تاريخ إنجلترة . وقد وضعت تلك الكتب بحيث يستطيع كل تلميذ الانتفاع بها ، وأخذ مذكراته منها فى أى وقت ، قبل اليوم المدرسى أو بعده أو فى أثنائه . ومتى وثقت بالتلاميذ برهنوا على أنهم يستحقون هذه الثقة . وفى تلك المدرسة قد يقف التلميذ بهدوء ، ثم يذهب إلى رف الكتب للبحث عن المادة التى يحتاج إليها ، فيجول بنظره فى الكتب ، ويقلب الصفحات . فإذا وجد ما شاء رفع رأسه قائلاً : « سيدى الأستاذ ! هنا كذا فى هذا الكتاب ، أو هذا ما نحن فى حاجة إليه . »

ولتطبيق هذه الطريقة نذكر على سبيل المثال كيف يقوم المدرس بتنفيذها فى دروس الطبيعة ومبادئ العلوم :

إن لدراسة الطبيعة فى بيئتها الطبيعية بطريقة اللعب أثراً كبيرا فى نفس الطفل ؛ فإنه إذا درس الطبيعة دراسة حقة بعثت فيه حب الطبيعة وجمالها ؛ فالطبيعة منبع يستقى منه الشعراء والفنيون المادة التى يهدونها إلى غيرهم . ومن السهل أن تكون تلك الدراسة قاعدة وأساساً لكل درس آخر من الدروس الأدبية والعلمية . وفى حديقة المدرسة مادة كافية لدروس فى الكتابة والقراءة ، والمحفوظات ، والقواعد، والإنشاء، والإلقاء، والحساب ، والجغرافية ، والرسم والتصوير ، والغناء. وخير للمدرس أن يعتمد على الطبيعة فى تدريس مبادئ العلوم ، لا على دراسة صور وكتب، ونماذج جافة ، واصطلاحات علمية تصب فى عقول الأطفال وهم لا يشعرون بشىء من اللذة أو السرور .

ولكى ينجح المدرس فى مساعدة الأطفال فى الدقة فى ملاحظة الظواهر الطبيعية يجب عليه :

(١) مثل كتاب : (هارولد لليتون) . والأبطال (لكنجسلى) ، وكتاب (كنلورث) (للسير وولتر سكوت) ، وقصص عن (رالف) و (دريك) من كبار القواد .

١ ـ أن يعلم الأطفال كيف يرون عالم الطبيعة الذى يحيط بهم .

٢ ـ أن يشجعهم على وصف ما لاحظوه ؛ ليعتادوا التعبير عما فى أنفسهم .

٣ ـ أن يقودهم إلى البحث عن الأسباب بالمناقشة الحرة ، والمحادثة الحرة ، التى يعبرون بها عما فى نفوسهم من الأفكار .

وإذا وجدتَ فى التلميذ رغبة فى معرفة عالم الطبيعة، والتأمل فى أسرار هذه الحياة، وفى تقدير جمال الفن فلا تمت روحه، ولا تحد من نشاطه، ولا تكن عقبة فى سبيله ، بل دعه يجرب ويفحص ؛ حتى يجد سرورا من التجربة والفحص ، وينتفع بما لديه من ميل واستعداد، وحب للبحث، ثم أمده بما يحتاج إليه من الإرشادات . وإذا رأيت فى الشبان حبا للفحص أو الاطلاع وجب أن تشجعهم على ذلك ، ولا تطفئ فيهم تلك النار المتقدة ؛ فبالشباب ينبغى أن يسير العالم ويرقى ، وقد حلم الخياليون من الشبان أحلاماً ، ثم عملوا لتحقيقها ، ولم يقتنعوا بأن يعملوا من غير تفكير كالآلات أو كالحيوان الذى لا يعقل .

و ـ طريقة (دِكْرُولِى)

تنسب هذه الطريقة إلى المربى البلجيكى « الدكتور أوفيد دِكْرولى[1] » ، وله معهد فى ضواحى (بروكسل) يدعى معهد « دِرْمِتاج[2] » ؛ نسبة إلى شارع يسمى بهذا الاسم فى (بروكسل) ، ثم نقل المعهد فى سنة ١٩٢٧ إلى ضاحية صحية هادئة قريبة من العاصمة [3] .

ويسير هذا المعهد على مبادئ التربية الحديثة ، وعلم النفس الحديث ، وقد عنى

(١) Ovide Decroly (٢) Ecole d' Hermitage

(٣) ارجع إلى مقالة للدكتور أمير بقطر : « زيارة لمعهد دكرولى » فى العدد الأول صفحة ٤٠ من السنة الثامنة من مجلة التربية الحديثة ، أكتوبر سنة ١٩٣٤، للجامعة الأمريكية بالقاهرة .

(دِكْرولى) بالناحية الجسمية ، والتربية العملية ، وتربية الحواس ، وتعويد التلاميذ الحركة والعمل برغبة ، والاعتماد على النفس ، ولم ينس الناحية العقلية والروحية والاجتماعية ؛ فالتلميذ يعنى بتربية الطيور والحيوان ، ويتمتع بكثير من الحرية ، ويتعلم فى أثناء اللعب ، وهو مملوء نشاطا وسرورا ؛ بحيث يقضى كثيرا من وقته فى الهواء الطلق ، ويدرس المواد التى تلائم مقدرته العقلية ، وميوله الطبيعية ، وسنه المدرسية . والمدرسة متصلة بالحياة كل الاتصال ؛ فالتلميذ يتعلم للحياة ، ويدرس ليكون على صلة تامة بالحياة . وينحو (دِكرولى) فى معهده إلى جعل فصول الدراسة تشبه المعامل و المصانع ، فى كل فصل منها عدد صغير من التلاميذ . وفى معهد (دِرْمتاج) روضة للأطفال ، وقسم ابتدائى ، وآخر ثانوى .

مبادئ (دكرولى) :

قد راعى (دكرولى) فى طريقته ومعهده المبادئ الآتية :

١ ـ استخدام الملاحظة ؛ بأن يلاحظ التلميذ مايحدث أمامه ، وما يحيط به فى المدرسة وخارجها ، ويستعمل حواسه ، ويشترك فى تربية الدواجن ، وتنظيم الحديقة وزراعتها ، والرحلات المدرسية .

٢ ـ الانتفاع بالمعلومات التى يكسبها التلميذ فى أثناء التجربة والعمل ، وتدوين تلك المعلومات وتنظيمها ، وتوضيحها بالرسم والتصوير .

٣ ـ العناية باللغة والتعبير : يعنى (دكرولى) باللغة كل العناية ؛ حتى يستطيع التلميذ التعبير عما فى نفسه من الأفكار بلسانه وقلمه ورسمه ، تعبيرًا لا صنعة فيه ولا تكلف . فالتلميذ يعلم الرسم ، والغناء ، والقراءة ، والطباعة ، والموسيقا ـ وكلها من وسائل التعبير عما فى النفس ـ كما يعلم الغزل والنسج ، والنجارة ،

والحياكة ، وصناعة التماثيل ؛ فهو يعنى بالناحية اللغوية عنايته بالناحية العملية .

٤ ـ مراعاة ميول الطفل وبيئته ؛ فالطفل يجد من المواد مايتصل بالبيئة والحياة ، وما يميل إليه ، وما يرغب فيه من عالم الحيوان، أوالنبات ، أوالإنسان، أو الجماد .

٥ ـ الاعتماد على النفس والتعاون : من أهم المبادئ التى يسير عليها (دكرولى) فى معهده تعويد التلميذ الاعتماد على نفسه ، والتعاون مع غيره فى البحث والفهم والعمل ؛ فهو يعطيه الفرصة فى أن يجرب ، ويعمل ، ويرسم ويصور ، ويعمل نماذج، ويقرأ ويطلع ، ويبحث حتى يصل إلى الحقيقة .

ويقبل التلاميذ فى روضة الأطفال من السنة الخامسة من العمر ، ثم ينقلون إلى القسم الابتدائى ، ومدته ست سنوات ، ثم إلى القسم الثانوى ؛ ليمكثوا ست سنوات أخرى . وفى كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة ما يلائم التلاميذ من المواد الدراسية التى يتصل بعضها ببعض كل الاتصال ، وتتعلق بالبيئة والحياة ، وتتفق مع المنطق والمبادئ الحديثة فى التربية وعلم النفس . وإذا أتم الطالب دراسته فى معهد (دكرولى) استطاع الالتحاق بأية جامعة من الجامعات (البلجيكية) .

ويعنى (دكرولى) بالتربية الخلقية ، والتربية الوجدانية ، والتربية الاجتماعية ، عنايته بالتربية الجسمية ، والعقلية ؛فهو يعمل لتربية شبان يحبون إخوانهم ،ويوقرون أساتذتهم، ويقدرون الجمال، ويتعاونون مع المجتمع. أجسامهم قوية ، وعقولهم مثقفة، وعواطفهم سامية، وأذواقهم سليمة ، وأخلاقهم كاملة؛ وبعبارةموجزة يرمى للوصول إلى المثل الأعلى فى التربية .

لم ينس (دكرولى) التعاون مع البيت للوصول بالنشء إلى التربية الكاملة ؛ فهناك تعاون دائم بين المدرسة والبيت ، وبين المعلمين والآباء . ويُدعى الآباء للبحث مع المعلمين فى شئون الأبناء من حين لآخر .

وقد راعى (دكرولى) مقاييس الذكاء ، والحالة الصحية للتلاميذ عند توزيعهم على الفصول ؛ فضعاف الأجسام أو العقول يوضعون فى معهد سمى باسمه يدعى معهد (دكرولى[١]) ، والعاديون من التلاميذ يوضعون فى فصول تلائمهم من النواحى الجسمية والعقلية والعلمية ؛ فيستفيد كل تلميذ من الدراسة ، ويوضع كل فرد فى الموضع الذى يلائمه ، ويستطيع المدرس أن يوجه انتباهه وعنايته إلى كل تلميذ ؛ فيعالج الضعيف ، ويقود القوى إلى العمل المنتج المستمر. ولا يجد المدرس صعوبة فى ذلك ؛ لأن عدد التلاميذ قليل فى الفصول . ومع ما يجد التلميذ من عناية وتربية حقة لا تقل عن التربية الإنكليزية فى مدارس الخاصة تبلغ مصروفاته المدرسية خمسة عشر جنيها أوعشرين فى السنة تقريبا . ولا عجب ؛ فقد روعيت البساطة فى المظهر وفى الأثاث ، وقلة التكاليف مع حسن الذوق والاختيار .

ولا يقتصر عمل التلميذ على الحفظ والقراءة والكتابة ؛ بل يشتغل بكثير من الرسم والتصوير ، والأشغال اليدوية ، وعمل النماذج ، وفلاحة البساتين ، والرياضة البدنية ، ودراسة الطبيعة التى تحيط به ، وإعداد الحديقة ، والبيع والشراء ، وقياس الأشياء . فدراسته نظرية عملية ؛ نظرية صباحا، وعملية بعد الظهر ؛ دراسة للبيئة والطبيعة وما فيهما من حيوان ونبات ، ومعادن ، ومبان وآثار ، وزراعة وصناعة ، وحياكة وتجارة . فالتلميذ يتعلم ويعمل ، ويلاحظ الأشياء ، ويعبر عنها بكل ما يستطيع من وسائل التعبير .

ومن المواد الإجبارية التى يجب أن يتعلمها التلميذ ، ويجيدها المعلم – فن الطباعة؛ فالكتب محدودة ، والتلميذ مطالب بوضع مذكرة له فى معظم المواد التى يدرسها ، والدروس التى يلاحظها ، والقيام بطبعها بعد أن يراجعها المدرس مراجعة دقيقة ؛ لينتفع بها التلميذ ، وينفع بها غيره فيما بعد .

(١) Institute of Decroly

وقد اهتم (دكرولى) بالرحلات والأسفار ووصفها ، وتصوير ما يستحق من المناظر فيها ، وكتابة ما يمكن أن يكتب عنها ؛ لتكون مادة للدراسة ؛ دراسة الأشياء كما هى فى عالم الطبيعة .

ولكل فصل فى المعهد ممثل من التلاميذ ، يمثلهم فى المحكمة المدرسية ؛ تلك المحكمة التى تعقد عند الضرورة ؛ للنظر فى معاقبة من يستحق العقاب من التلاميذ .

وإن نظرة عامة إلى طريقة (دكرولى) تبين لنا أنه يعتمد فى طريقته على تربية الحواس ، وتقوية الملاحظة ، وتعويد التلميذ حسن التعبير ، والاعتماد على نفسه فى دراسة الطبيعة التى تحيط به ، دراسة علمية وعملية ، متصلة بالحياة والبيئة كل الاتصال ، وإعطائه الحرية فى القول والعمل ؛ حتى تظهر ميوله ، وتقوى شخصيته ، ويستمر فى البحث وراء الحقيقة ؛ حبا للحقيقة ، فيعمل ويبتكر ، ويخترع ، ويكون عمله أكثر من قوله ، وإقدامه أكثر من تردده ، ونشاطه أكثر من خموله .

ولنذكر هنا بعض طرق التدريس التى ذكرها صديقنا الدكتور أمير بقطر رئيس قسم التربية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة فى العدد الرابع من مجلة التربية الحديثة سنة ١٩٤٢ بتصرف فى بعض المواضع .

---

٦ – طريقة الإعجاب[١]

تختلف هذه الطريقة عن بقية الطرق فى أن المتعلم يكون فيها مستمعاً أكثر منه متكلما ، وقابلا أكثر منه عاملا ، ومتأثرا أكثر منه مؤثرا . لا يبتكر ولا ينتج ، يهبط عليه المعلم فينفذ إلى أعماق قلبه ، ويصيب بسحره مواقع وجدانه . والمعلم هنا ينسى الفلسفة الواقعية[٢] التى تعنى بالحقائق العلمية مجردة عن كل هوى وعاطفة ، عارية عن

---

(١) Appreciation (٢) Realism

كل زخرف وزينة ، ويرتدى أفخر حلة من حلل الفلسفة المثالية التى تستهوى القلوب، وتستميل العواطف بما يردده المعلم من عذب الكلام ، وما ينشده من حلو النغم، وما يصوره من ألوان الجمال، وما يسمو به فى وصف الصدق والأمانة، والولاء والكمال ، والدين والوطنية ، وغيرها من المثل العليا. وتصلح هذه الطريقة لدروس الأدب ، والأخلاق ، والدين ، والاجتماع ، والفنون الجميلة.

ولست أنسى يوما جلست فيه أستمع لمدرس فى إحدى المدارس الثانوية بأمريكا؛ فقد أخذ المدرس يصف كتباً حديثة فى الأدب الإنكليزى وردت لمكتبة المدرسة، وأخذ يتدفق بأسلوب عذب بليغ ، ويشير بيديه ورأسه ، ويقطع فناء الغرفة ذهاباً وجيئة ، وينشد مقطوعات رائعة قد استظهرها من تلك الكتب . وكنت فى تلك الساعة ألقى بنظرى على التلاميذ؛ فإذا بهم قد تحركت مشاعرهم، وغلى الدم فى عروقهم، وملك سحر بلاغته أعنة نفوسهم ، فلم يكد الناقوس يدق إيذاناً بنهاية الحصة حتى هرع البنون والبنات مندفعين إلى المكتبة ، يتسابقون إلى استعارة الكتب التى رسم لها المعلم صورها بريشة الفنان الماهر.

وهذه الطريقة التى لجأ إليها هذا المعلم يستطيع اتباعها معلم التاريخ ، والمواد الطبيعية ، وجميع العلوم . والغرض من هذه الطريقة أن توجه أنظار الطلبة إلى ناحية من نواحى الذوق السليم ، أو صفة من الصفات الوجدانية القوية التى تستهوى طبيعة المتعلم ، وتلعب بعواطفه ، فتسحرها لأغراض شريفة نافعة . ولن يستطيع أستاذ الأدب تصوير الجمال فى قصيدة من القصائد لتلاميذه إلا بالعقل والإيحاء والاستهواء وإصابة مواقع الوجدان . ولا يستطيع طالب أن يتفهم الجمال فى قطعة من النظم أو النثر إلا إذا أدرك معانى مفرداتها أولاً ، والمناسبة التى وضعت من أجلها ثانياً. ولا فائدة من صور فنية جميلة صامتة معلقة على حيطان المدرسة بغير شرح وتفسير وتوجيه.

وما الفائدة من الاستماع إلى قطعة موسيقية أيا كان مقدار جمالها إذا لم يسبق ذلك شرح وتعليق وتشويق ؟

٧ – طريقة الابتكار والإنتاج[١]

فى هذه الطريقة يترك الطالب لنفسه، أو لإرشاد المعلم ليستخدم معلوماته السابقة، ويستخدم خياله وتفكيره ، وبحثه واطلاعه ، فى كتابة مقال ، أو إنشاء قصيدة ، أو ابتكار رسم من مخيلته، أو رسم مصور ، أو وصف حادث تاريخى كما يتخيله هو ، أو إجراء تجارب علمية ، أو الاشتراك فى عمل يدوى ، أو الإيقاع على آلة موسيقية أو الغناء ، أو حل مسائل رياضية . وفى الوقت الذى تعنى فيه المدرسة القديمة بالحفظ تعنى المدرسة الحديثة بالإنتاج والنشاط الذاتى .

٨ – طريقة التدريب والمرانة[٢]

من مستلزمات التعلم التكرار ، على أن التكرار لا يعلم « الحمار » إلا إذا قصد الحمار أن يتعلم حقيقة ، ورغب فى التعلم صادقًا . وكثيرا ما يدهش المعلم القليل الخبرة حينما يرى تلاميذه ينسون أمورًا سبق له ذكرها ، وهو لا يعلم أن الذهن كالعضل فى حاجة إلى التمرين المستمر المتواصل . وبغير المرانة والتدريب والتكرار تصبح عملية التعلم عقيمة ، وينطبق هذا المبدأ على كل مرحلة من مراحل التعليم من الروضة إلى الجامعة . وما يقال عن الكاتب الذى تبلغ سرعة كتابته على الآلة الكاتبة مائتى كلمة فى الدقيقة ، والموسيقى البارع ، والمؤلف الكثير الإنتاج ، والعالم ، وبطل الرياضة

---

(١) Creation   (٢) Drill

يقال عن كل متعلم ينشد الإتقان . وليس هناك مادة دراسية واحدة ، أو درس فى تلك المادة يستطاع إتقانه أو النجاح فيه بغير مرانة . ولا يعنى بذلك « التكرار الببغائى » على حد التعبير الإنكليزى؛ بل يقصد به المبدأ النفسى الذى به تتكون العادة ، ويدعم أساسها فى الجهاز العصبى ؛ فتصبح جزءًا من صاحبها يستدعيها فتلبى الدعاء . يقولون إن المرانة تفضى إلى الكمال ، ولكن بشرط أن تكون المرانة مصحوبة بالانتباه ، والرغبة ، والإرادة ، وبشرط أن تصحب عملية التعلم من أولها إلى آخرها ، لا قبل الامتحان بفترة وجيزة ، كما يحدث فى مدارسنا قبل الامتحانات العامة فى أوائل الصيف . وقد وضع أحد المربين الشروط الآتية فى المرانة : —

(١) أن يكون الباعث على التمرن واضحًا للطالب

(٢) تمييز النقط البارزة فى الدرس من غيرها .

(٣) أن تعين هذه النقط الطالب فى المواد الأخرى ؛ كالخط واللغة ، فإن إجادتهما تفيد صاحبها فى بعض المواد الأخرى أو كلها .

(٤) التكرار مع الانتباه والرغبة .

(٥) تنويع صور التدريب .

(٦) الاختصار .

(٧) العناية بالمسائل الصعبة أكثر من غيرها .

(٨) الدقة .

(٩) توزيع التدريب على فترات غير متقاربة فى الزمن .

(١٠) استعمال الطريقة الكلية فى الحفظ ؛ كدراسة التاريخ وحدات كاملة ؛ لا فقرات قائمة بذاتها .

٩ – طريقة الدراسة الإرشادية[1]

من الغريب أن هذه الطريقة غير معروفة البتة في مدارسنا الابتدائية والثانوية ؛ فلدروس اللغة الإنكليزية مثلاً ثماني ساعات في الأسبوع في الفرقة الواحدة، ولا يخطر ببال القائمين بالأمور أن يخصصوا منها حصة أو اثنتين للاستذكار تحت إرشاد المعلم ؛ فالطالب البطيء الذي يستذكر دروسه أمام المدرس يستطيع أن يضاعف سرعته إذا ما راقبه المعلم ، وكشف أسباب هذا البطء ، ووصف له العلاج ، وتتبع مراحل تحسنه ، وأبدى له الاقتراحات ، وطلب إليه الإجابة التحريرية عن أسئلة يضعها . والطلبة جميعهم ـ خصوصًا الضعفاء والمتوسطين ـ في شديد الحاجة إلى ذلك . وفي جميع المدارس الحديثة اليوم يخصص لكل فرقة ساعة على الأقل يوميًّا لهذا النوع من الدراسة التي يسمونها الإرشادية ؛ وهي جزء من الحصص الدراسية ، تتصل بكل مادة كما أسلفنا ؛ فهي حصة يدرس فيها الطالب ما يشاء . وهناك كتب كثيرة تبحث في موضوع « كيف نستذكر[2] » يستفيد بها المعلم والطالب معاً .

١٠ – طريقة الاختبار[3]

الاختبار كالدراسة الإرشادية يعد أسلوباً من أساليب التدريس ، لا عملاً قائماً بذاته . ويذكر كاتب هذه السطور أن أستاذه « توماس ألكسندر » بجامعة « كلومبيا » وصاحب المؤلفات الشهيرة عن التعليم في ألمانيا ، وكان أستاذاً هناك ، كان يقول لنا ويلح في القول :

---

(١) "Supervised study"

(٢) ارجع إلى موضوع : « كيف تستذكر دروسك » في كتاب « الاتجاهات الحديثة في التربية . » للمؤلف .

(٣) Testing

« درّس واختبر[1] ، ودرّس واختبر » . والغرض من هذا النوع من الاختبار المراجعة ، وقياس مدى نجاح الطالب والمعلم وعملية التعلم ، وكشف وجوه الضعف فى الطالب والمادة والطريقة والنظام . وكثيرا ما يذكر كاتب هذه السطور طريقة « دكتور كُولْڤِن » (توفّى) ، وهو أحد أساتذته فى علم النفس فى أمريكا ، وصاحب المؤلف الشهير (طريقة التعلم)[2] .

إذ كان يختبر الفرقة الجامعيــة التى كنت أحد أعضائها ـ وعددهم نحو ستمائة طالب ـ مرة كل أسبوع . وقد صــدمت فى أول امتحان بالإخفاق ؛ فاستدعانى إلى مكتبه ، وأخذت الآنسة مساعدته تنهال علىّ بالأسئلة ؛ حتى أدركت أن سبب إخفاقى سوء طريقة الدراسة ، فدلّتنى على بعض كتب (كيف نستذكر) . وبعدها كان كل شىء على ما يرام أو فوقه . ولا تقتصر فوائد الاختبارات الخاطئة المتكررة على تشخيص الداء ، ووصف الدواء ، وقيــاس النجاح أو المعرفة ؛ ولكنها فوق ذلك منبه سريع المفعول ، تبعث على النشاط والحماسة والدأب فى العمل . ومن أنجع الوسائل لنجاح الاختبار الامتحانات الموضوعية » .

فالمعلم الماهر يعرف كيف، ومتى، وأين يختار الطريقة الملائمة ، ولمن من التلاميذ. » هذا ما ذكره صديقنا الدكتور أمير بقطر . وخلاصة القول أن الطرق العامة للتدريس كثيرة ، منها :

(١) الطريقة الاستقرائية أوالاستنباطية. (٢) الطريقة القياسية .

(٣) طريقة المحاضرات. (٤) الطريقة الحوارية أو (السقراطية) .

---

(١) Teach & test, and teach and test.

(٢) The Learning Process.

(٥) الطريقة التنقيبية، وتشمل الطرق الست الآتية :—

(ا) طريقة « دلتون » . (ب) طريقة « منتسورى » .

(ح) الطريقة التمثيلية . (د) طريقة المشروع .

(ه) طريقة اللعب . (و) طريقة « دكرولى » .

(٦) طريقة الإعجاب . (٧) طريقة الابتكار والإنتاج .

(٨) طريقة التدريب والمرانة . (٩) طريقة الدراسة الإرشادية .

(١٠) طريقة الاختبار .

الفصل الثاني عشر

الأسئلة والأجوبة

أغراض الأسئلة :

للأسئلة أغراض كثيرة ، منها :

١ — العلم بمقدار ما عرفه التلاميذ من الدرس السابق ؛ لربطه بالدرس الجديد ، ومعرفة ما فهموه ، وما صعب عليهم فهمه .

٢ — تثبيت المعلومات والأفكار فى أذهان التلاميذ ؛ بالأسئلة ، والإعادة والتكرار .

٣ — حمل التلاميذ على التفكير والانتباه والبحث ؛ للوصول إلى الحقيقة .

٤ — تشويقهم إلى العمل ، وإرشادهم إلى الصواب ، وتشجيعهم على التقدم والسير إلى الأمام .

شروط الأسئلة :

لكى نصل إلى الأغراض السابقة من الأسئلة يجب أن تتحقق فيها الشروط الآتية :—

١ — أن تكون سهلة ، لا تستدعى تفكيراً عميقاً .

٢ — أن تكون مختصرة واضحة ، بعيدة عن الغموض والألغاز التى لا تفهم ؛ فالأسئلة الطويلة قد يُنْسِى آخرُها أولها ، والغامضة لا تجد مجيباً .

٣ — أن تدعو التلميذ إلى التفكير ، وتحمله على الانتباه والإصغاء .

٤ — أن تكون محدودة غير عامة ، لا تعطى التلميذ فرصة للحدس والتخمين ؛ بأن يكون السؤال محدداً يبحث عن حقيقة معينة ، ولا يتطلب إلا جواباً واحدا .

٥ — أن تكون طبيعية خالية من التكلف .

٦ — أن توزع توزيعاً عادلاً ، يشجع التلاميذ جميعاً على التفكير فى الإجابة ؛ بحيث ينال كل فرد نصيبه منها ، ويشعر بأنه معرَّض للسؤال .

٧ — أن تكون فى مستوى التلاميذ ؛ فلا تكون فى الأمور التافهة التى يعرفها كل تلميذ ، ولا تكون صعبة فوق مستواهم .

٨ — ألا تكون إيحائية توحى بالجواب ؛ لأن الإيحاء يعوق التلميذ عن التفكير .

ولسنا ممن يقولون بالتكلف فى الأسئلة ؛ فلا نمنع سؤالاً يجاب عنه بنعم أوْ لَا إذا كان الجواب لا يقتضى أكثر من هذه الكلمة أو تلك ، وكان بعيدا عن الحدس والتخمين ، يستدعى النظر والتفكير .

ولا نريد أن تقصر الأسئلة على طالب ذكى ، أو طائفة من الأذكياء ؛ كى ينتبه جميع التلاميذ . وللسبب عينه نرى ألا يسأل الطلبة بترتيب الأسماء أو الجلوس ؛ كى يصغى كل تلميذ . وليس هناك ما يمنع أن يُسأل طالب واحد مرتين أو أكثر فى درس واحد ــ ولو لم تكن هناك فرصة للباقين من الطلبة ــ خوفاً من أن يهمل ذلك

الطالب بعد انتهائه من الإجابة عن السؤال الأول ؛ معتمدا على أنه لن يُسأل ثانية ، أو أنه قد ذهب دوره فى الأسئلة . وإذا صعب على التلاميذ الإجابة عن سؤال من الأسئلة فمن الحكمة تحويره أو تغييره بشكل آخر ؛ حتى يستطيعوا الإجابة . ولا نود أن يفعل طالب فى درس « كان وأخواتها » ما فعله أحد الطلبة فى درس من دروس النقد ؛ فقد كلف تلميذًا يدعى عليًّا الوقوف ، ثم سأل التلاميذ أن يخبروه بما حدث فى الفصل ، فأجابه أحدهم : « وقف على » ، وأجابه آخر : « علىٌّ وقف ». فقوبل جواب كل منهما بالرفض وعدم التشجيع . وشعر السائل بالخيبة ؛ لأنه لم يجد من يجيبه الجواب المنتظر وهو «على واقف» . ولو حدد السؤال، وطالبهم بالتعبير عما حدث بجملة اسمية مكونة من اسمين لتجنب كل هذا الخلط والتشبيط للهمم . وفى درس من دروس الطبيعة قد سمع التلاميذ صوتاً مزعجاً ، هو صوت تفاعل (الأكسوجين مع الهيدروجين) ؛ فسألهم المدرس : هل سمعتم شيئاً ؟ فمثل هذا السؤال لا يدعو إلى أى مجهود عقلى ؛ فكلهم سمعوا صوتاً مزعجاً .

وهناك قاعدة ذهبية فى الأسئلة يجب أن تذكرها دائماً ، وهى : « شجع تلاميذك دائماً على الملاحظة والتفكير ؛ لتنمِّىَ فيهم قوة الملاحظة والتفكير ، وتحملهم على الإصغاء واليقظة ، وإعمال الفكر . »

فبالأسئلة الجيدة تستطيع أن تُعِدَّ أذهان التلاميذ للدرس الجديد ، وتفهمهم كل جزء منه ، وتشجعهم على إعادته ومراجعته . وبالإهمال فى الأسئلة وشروطها والتهاون فيها تعرض نفسك للإخفاق ، والنقد المر . ولا عجب ؛ فقد قيل : « حسن السؤال نصف العلم » .

فوائد الأسئلة :

للأسئلة فوائد كثيرة ؛ فهى تدعو التلميذ إلى الانتباه إلى المدرس ، والتفكير فى الجواب ، وتساعد كثيرا فى حفظ النظام ؛ فإن وجدت تلميذا يحاول أن يتكلم مع جاره فى أثناء الدرس فاسأله . وإن شعرت بأن هناك تلميذا يفكر فى الإخلال بالنظام والعبث به فاسأله ؛ لتحمله على الإصغاء إلى الدرس . ولا تترك له فرصة فى إفساد النظام . وبالأسئلة يتمكن المدرس من معرفة قوة التلميذ أو ضعفه ، واجتهاده أو كسله ، وعنايته أو إهماله ، فيعمل لتقوية الضعيف ، وإرشاد الكسلان ، وإصلاح المهمل .

وتتطلب الأسئلة من المدرس حسن الذوق فى وضعها ، والمهارة فى استعمالها ، والعلم بمقدرة التلاميذ ومستواهم . وقد اتخذها (سقراط) طريقة له فى الحوار والتثقيف والتعليم . وقد تكلمنا عن طريقته الحوارية فى الفصل الحادى عشر من هذا الكتاب فى الطرق العامة للتدريس .

أنواع الأسئلة :

إن قيمة السؤال يحكم عليها من الجواب الذى يستدعيه السؤال . وقد تكون الأسئلة فى ابتداء الدرس ليعرف المدرس مقدار ما فهمه التلاميذ من الدرس السابق قبل أن يبدأ الدرس الجديد . وقد تكون فى أثناء الدرس لينتقل بالتلميذ من جزء من الدرس إلى آخر ، ومن خطوة إلى أخرى ، فى البحث أو الملاحظة ، أو الموازنة ، أو الفهم . وقد تكون فى نهاية الدرس ليربط أجزاءه بعضها ببعض ، وليتبين ما فهمه تلاميذه ، وما لم يفهموه من درسه . وإذا قلنا : إن للأسئلة فوائد فإننا لا نقول بجعل

الدرس كله أسئلة من بدئه إلى نهايته . ولسنا ممن يقولون بأن من يجيد السؤال يجيد التدريس كما يبالغ بعض المربين ؛ فليست التربية والتعليم جودة السؤال فحسب كما يظن هؤلاء المربون . ولسنا بذلك ننكر أهمية الأسئلة فى التربية والتدريس .

أما الأسئلة فى بدء الدرس ـ وهى أسئلة المقدمة ـ فالغرض منها ربط المعلومات القديمة بالجديدة ، وتشويق التلاميذ إلى الدرس الجديد ، وحصر انتباههم فيه ، وإعداد أذهانهم له . وأما الأسئلة فى أثناء الدرس فالغرض منها المناقشة فى أجزاء الدرس ، واستنباط بعض الحقائق الجديدة . وأما الأسئلة فى نهاية الدرس فالغرض منها التلخيص ، والإعادة ، والمراجعة ، وربط نقط الدرس بعضها ببعض ؛ كى يسهل على التلاميذ فهم الدرس ، ويتثبتوا منه . وليس هناك ما يمنع مطالبة كثير من التلاميذ بإعادة الدرس مرتين أو أكثر ؛ حتى يعتادوا التعبير عما فى أنفسهم ، وترتيب الأفكار والحقائق ترتيباً منطقيًّا . ويجب على المدرس أن يساعد التلميذ فى تعبيره ، وترتيب أفكاره إذا احتاج إلى المساعدة ، ويسمح لبعض التلاميذ بإصلاح قوله إذا أخطأ ، وذكر ما تركه من المادة إذا نسى شيئا منها .

ومن واجب المدرس أن يشجع التلاميذ ـ حتى الصغار منهم ـ على التعبير عما فى أنفسهم بعبارة مرتبة ترتيباً منطقيا .

ومن الخطأ أن تسأل التلاميذ عن حقيقة تاريخية أو جغرافية يجب أن تخبرهم بها . وقد يبالغ بعض المدرسين فى الإكثار من الأسئلة ؛ فيسألون فى المواضع التى يجب فيها الإخبار . وإن قلنا بأهمية الأسئلة التى تساعد فى التفكير لا الحفظ ، فليس معنى ذلك أن تحاول استنباط كل ما تريده من التلاميذ ؛ فهم أحيانا يحتاجون إلى أن تخبرهم لا أن تسألهم . فاسأل حينما يحسن السؤال ، وأخبر حينما يحسن الإخبار . ويترك ذلك لحكمة المدرس . ولا معنى لأن تحوم حول الشيء محاولاً

الوصول إليه بطريقة الأسئلة ، فتضيع الوقت ولا تستطيع الوصول إلى الجواب إلا بصعوبة . فالتلميذ لا يمكنه أن يخبر بكل حقيقة تريدها ؛ فهناك حقائق يحتاج إلى أن يعرفها منك بذكرها له .

وليس من المستحسن فى أثناء ذكر قصة من القصص أن تقطع على التلاميذ أفكارهم ، ورغبتهم فى الاستماع ، بأسئلة قد تكون تافهة ، وقد تكون فى غنى عنها.

والأسئلة قد تكون شفوية ، وقد تكون كتابية ، أو تكون للاختبار أو للثقافة ، أو تكون للتلخيص والمراجعة .

الأجـــــوبة

كما يجب أن يعنى المدرس بأسئلته كذلك يجب أن يعنى بأجوبة التلاميـذ . وتدل أجوبتهم على مقدار فهمهم للدرس، وعنايتهم به . وكثيرا ماينشأ الخطأ فى الإجابة عن إهمال الدرس ، أو التقصير فيه ، أو عدم الفهم ، أو عدم الدقة فى التعبير .

شروط الأجوبة الجيدة :

لكى تكون الأجوبة جيدة يجب أن تكون سليمة العبارة ، خالية من الخطأ فى الفكرة أو اللغة ، بعيدة عن الحدس والتخمين ، والتكلف ، مرتبة ترتيباً منطقياً يدل على الفهم والتفكير .

وقد غلا بعض المربين فى مطالبة التلاميـذ بالإجابة دائما فى جمل تامة ، ولو لم

يستلزم الجواب أكثر من كلمة واحدة . فإذا سئل تلميذ متى كانت موقعة كذا ؟ فإنهم لا يقبلون منه فى الجواب « سنة كذا » ؛ بل يلحون عليه حتى يقول فى الإجابة : « إن موقعة كذا كانت فى سنة كذا . » وفى هذه المطالبة كثير من التكلف الذى ينافى الطبيعة ؛ فهناك أسئلة تستدعى الإجابة بجمل تامة ، وأخرى لا تتطلب أكثر من كلمة واحدة . فإذا أردنا أن نحمل التلميذ على الإجابة بجملة تامة وجب ألا نسأله أسئلة تتطلب الإجابة بكلمة واحدة . وإننا لانعارض فى تشجيع التلاميذ على الإجابة بجمل تامة إذا كانت الأسئلة تستدعيها، ولكن المطالبة بها فى كل حال من الأحوال أمر يدل على التكلف والتصنع .

وقد يكون جواب التلميذ صحيحاً ، أو يكون خطأ ، أو يكون بعضه صواباً وبعضه خطأ . و المدرس الماهر هو الذى يسير مع التلميذ بتؤدة ؛ حتى يشعر بالخطأ ، ويعرف سببه، ويدرك الصواب ، ويفهمه حق الفهم، ويكرره عدة مرات كى لا يقع فى الخطأ مرة أخرى . وفى استطاعة المدرس المجرب أن يشعر التلميذ بالخطأ بسهولة ومهارة ؛ حتى يميز الصواب من الخطأ .

وقد ينشأ خطأ التلميذ عن قلة انتباهه، أوعدم فهمه للسؤال ، أولغموض عبارته ، أو تهاون التلميذ، أوضعف ذاكرته. وليس من الصواب رفض الجواب لمجرد الخطأ فيه؛ فليس هذا بعلاج شاف ، ولكن العلاج أن تتدرج مع التلميذ ؛ حتى يدرك هفوته، والسبب فيها ، ويفهم الصواب ، ويصل إلى الحقيقة بأية طريقة من الطرق ، فى كل مادة من المواد.

ولكى يكون لكلام المدرس أثر فى نفوس تلاميذه، ولمدحه قيمة، يجب ألا يمدح تلاميذ لا يستحقون المدح ، ولا يشجع أجوبة لا تستحق التشجيع ، ولا يسمح لأحد بأن يخدعه . وقد يتعمد التلميذ الخطأ ، ومثل هذا يحتاج إلى حكمة وحذق من المدرس فى معاملته .

وبدلاً من إصغاء التلميذ طول الوقت لصوت واحد وهو صوت المدرس يرى بعض المربين أن نتيح لبعض التلاميذ الفرصة فى أن يسألوا ويجيبوا ؛ بأن يسأل أحدهم ويجيب الآخر ، مع ملاحظة المدرس وإرشاده . وبهذه الوسيلة نعوّد التلاميذ أن يسألوا ، كما نعودهم أن يجيبوا . ولكن المدرس مولع دائما بحب التكلم ؛ فهو يحب أن يكون السائل ، وأن يكون المجيب . وهو الذى يسأل ، وهو الذى يجيب فى كثير من الأحيان . وهذه عادة ضارة بالمتعلمين ، يجب التخلص منها فى جميع أنواع المدارس ، من رياض الأطفال إلى المدارس الثانوية .

وسائل الإيضاح

الإيضاح جعل المعلومات الغامضة أو الخفية والمبهمة على التلميذ واضحة معروفة جلية ؛ ويكون ذلك بالأمثلة ، أو القصص ، أو الرسم على السبورة ، كما يكون بإحضار الأشياء نفسها ، أو نماذج لها ، أو صورها . وللإيضاح وسائل حسية ولغوية ، ولنذكر كلا منها فنقول :

(ا) الوسائل الحسية :

١ — ذوات الأشياء ونماذجها وصورها :

من وسائل الإيضاح الحسية الإتيان بالشىء نفسه ، إذا كان ذلك فى الاستطاعة؛ كإحضار بعض الحبوب ، أو الطيور ، أو النبات فى درس مبادئ العلوم . فإذا صعب إحضار ذات الشىء أو شعر المدرس بأن وجود الشىء قد يؤدى إلى فساد النظام ، حسن

الاكتفاء بإحضار نموذج له ، ليس فيه غموض أو تعقيد أو خفاء ؛ كإحضار نموذج لطائرة ، أو سيارة ، أو قطار ، أو ماخرة ، أو غواصة، أو منطاد .

فإن لم تستطع إحضار نموذج للشيء ، فأحضر له صورة ، أو ارسمه على السبورة ؛ كأن تأتى بصورة لصلاح الدين ، أوصورة للشيخ محمد عبده ، أو صورة لِدِكِـنز ، إذا كان الدرس يقتضى تلك الصورة . وكأن ترسم مصوَّرًا ، فى درس جغرافى أوتاريخى، أو آلة فى درس طبيعة . ويجب أن يراعى فى الرسم الوضوح والخلو من الخطأ ، وترك التفصيلات التى لا ضرورة إليها ، ويكتفى بالضرورى منها ، فإذا احتجت إلى شىء زدته على المصوَّر بالتدريج ؛ حتى يكمل ويفهمه التلاميذ بسهولة .

ومن المستحسن أن يقوم المدرس برسم المصوَّر الجغرافى أوالتاريخى أمام التلاميذ ولو بالتقريب ؛ كى يكون لذلك أثر فى نفوسهم . وليس هناك ما يمنع الاستعانة ببعض البطاقات التى ترسم عليها الصور والمناظر الجغرافية أو التاريخية أو الطبيعية .

٢ — الخيالة (السينما) والانتفاع بها فى التعليم :

إن استعمال الخيالة فى التعليم يعد وسيلة من وسائل الإيضاح ، وقد أصبح استعمالها سهلا ممكنا . ولدى إدارة (السينما) بوزارة المعارف كثير من الأشرطة التعليمية التى تستعملها وتنشرها فى المدارس من وقت إلى آخر . وفى الجامعة الأمريكية والمعهد البريطانى بالقاهرة كثير من الأشرطة الجغرافية والعلمية والطبيعية والتاريخية ، التى يمكن استخدامها لتوضيح الدروس فى أذهان التلاميذ ؛ فبها يستطيعون أن يروا غابة من الغابات ، وكيف تقطع الأشجار ، وكيف تنشر ، والأدوار التى تمر بالخشب حتى تتكون منه أرجوحة للأطفال ، أو حصان خشبى ، أو لعبة من اللعب، أو كرسى من أثاث البيت. بها يمكنهم أن يروا النبات فى أدوار نموه من بذر الحب، وظهور النبات،

وإروائه ، وتعهده حتى ينمو ويترعرع ، ويثمر وينضج ، وأن يشاهدوا كيف يصاد الحيوان المتوحش فى الغابات ، وكيف تربى الصغار منه وتستأنس ، ويروا التلاميذ فى المدارس الأجنبية ، وكيف يتعلمون ويمثلون ويلعبون ، وكيف تكون حياتهم المدرسية من البدء إلى النهاية .

ولدى وزارة الصحة كثير من الأشرطة الصحية ؛ لمعرفة طرق الوقاية من بعض الأمراض . وفى استطاعة وزارة الوقاية أن تنتفع ببعض الأشرطة ؛ لتفهيم الجمهور طرق الوقاية من الغارات الجوية .

فمن السهل الاستعانة بالخيالة على توضيح بعض الدروس الجغرافية والتاريخية والعلمية .

أما الخيالة من حيث هى فلا تصلح لصغار الأطفال ؛ فالروايات التى تعرض فيها لاتلاحظ فيها الناحية الخلقية التى تلائم التلاميذ ؛ ولذا يحرص المربون على منعهم من رؤية كثير من الروايات التى لا تتفق والأخلاق ؛ فقد توحى إلى الشبان بأشياء لا ينبغى أن يروها ؛ خوفا من محاكاتها والوقوع فيها .

٣ — الرحلات المدرسية :

من السهل جعل الرحلات المدرسية وسيلة من وسائل الإيضاح الحسية ؛ فزيارة لحقل من الحقول ، أو مزرعة من المزارع قد توضح كثيرا من النقط الخفية فى درس مبادئ العلوم ، وزيارة أثر من الآثار توضح كثيرا من النقط في درس من دروس التاريخ .

٤ — السبورة :

تعد السبورة أهم وسيلة من وسائل الإيضاح الحسية ؛ فالمدرس الماهر يستطيع أن يستعين بالرسم أو الكتابة عليها على تسهيل ما صعب ، وتوضيح ما خفى على التلاميذ . ولكى يتمكن من استعمالها بسرعة وإتقان ، يحتاج إلى التمرن على الكتابة عليها فى الخارج . فالسبورة خير وسيلة لدى المدرس لتوضيح أى درس من الدروس ؛ فعليها تدون معانى الكلمات الصعبة ، والأمثلة ، والقاعدة، ونموذج الخط أوالرسم، والمصوَّر ، ويرسم الحيوان أو الطائر أو النبات أمام التلاميذ .

وبها يمكن الحكم عليه ، وعلى نظافته ، ودقته ، وترتيبه ونظامه ، وجودة خطه ورسمه أو رداءتهما .

وبقطع من الحكاك والسبورة يستطيع المدرس المجرب أن يوضح ما خفى على التلميذ فى أية مادة من المواد . وفى الدروس التى تستدعى رسم مصور من المصورات الجغرافية أوالتاريخية يجمل بك أن ترسمه قبل بدء الدرس ؛ حتى تتمكن منه، وتستطيع رسمه من الذاكرة على السبورة أمام التلاميذ . ولا تنس أن يكون الرسم واضحا، والكتابة واضحة ؛ ليستطيع ضعاف النظر والجالسون فى آخر حجرة الدراسة رؤية ما كتب على السبورة .

وعند الكتابة عليها يجب أن تفكر فى نظام الفصل ، وانتباه التلاميذ بالنظر إليهم — من حيث لا يشعرون — من حين لآخر ؛ حتى يشعر كل منهم بيقظتك وانتباهك لكل حركة أو كلمة تصدر من أى تلميذ منهم .

ولكى تكون السبورة مرتبة منظمة يمكن جعل جزء منها للأمثلة والتمرينات ، وجزء آخر للقواعد وما يستنبط من الأحكام والنقط .

وليس هناك ما يمنع الاستعانة بسبورة إضافية ؛ لرسم مصور جغرافى أو تاريخى أو كتابة قطعة إملائية، إذا احتجت إلى هذه السبورة، بشرط أن تظهرها عند الحاجة، وتكتفى بكتابة الضرورى عليها .

الملخص السبورى :

الملخص السبورى مايدونه المدرس على قسم من السبورة، مما يستنبطه ويستخلصه من التلاميذ من تعريفات وقواعد وأحكام ، ويعد خلاصة للدرس . وينبغى أن يراعى فى الملخص الاختصار والوضوح والترتيب والنظام ؛ ليذكّر التلاميذ بدروسهم عند إعادتها ومراجعتها ، ويكون مفتاحا لكل درس ؛ فالنقطة الواحدة قد تذكر بقصة ، والجملة الواحدة قد تذكر بقاعدة . وليس الغرض من الملخص السبورى تشجيع التلاميذ على حفظه واستظهاره ، ولكن الغرض تشجيعهم على الانتفاع به عند الرجوع إلى الكتاب ، أو عند كتابة الدرس من الذاكرة بالتفصيل .

(ب) وسائل الإيضاح اللغوية

١ — التوضيح بالعبارة :

ويكون بذكر الأمثال والقواعد ، والنظريات المألوفة للتلاميذ ؛ فإذا صعب على الطالب فهم شىء من الألفاظ والمفردات والتركيبات شرحتها له ، وضربت له الأمثال التى توضح ما غمض عليه . وإذا أخطأ فى قراءة عبارة عربية ، أو كتابة كلمة إملائية ذكرت له القاعدة التى توضح تلك العبارة أو الكلمة. وإذا وجد صعوبة فى حل تمرين حسابى

أو هندسى ذكّرته بما أخذ من القواعد الحسابية والنظريات الهندسية وهكذا .

وكما يكون التوضيح بذكر الأمثال والقواعد والحِكَم كذلك يكون بذكر التشبيه ؛ كأن تشبه بورسعيد بمرسيليا ، والقاهرة بباريس ، وحديقة الحيوان بالجيزة بحديقة الحيوان بلندن.

٢ — القصة :

إن لدى الأطفال ميلا طبعيا لاستماع القصص والحكايات الخرافية والواقعية ، والأدبية والعلمية ، والجغرافية والتاريخية . وفى استطاعة المدرس الحازم أن ينتفع بهذا الميل فيهم . فيختار لهم من القصص مايلائمهم ، ويوضح ما خفى عليهم من درسه .

فالقصة المختارة، وحسن إلقائها من أحسن الوسائل لتوضيح أى درس من الدروس فى أذهان التلاميذ . وإلقاء القصة فن يحتاج إلى عناية من المدرس . والمدرس الماهر يستطيع أن يضع القصة ، أو يحسن اختيارها ، ويجيد إلقاءها . ويتطلب عرض القصة حسن التمثيل من المدرس؛ حتى يظهر مافيها من الأشخاص والأفكار والبواعث؛ فيدركها السامع ، ويصغى إليها كل الإصغاء ، ويشعر بما فيها من روعة وعذوبة وموسيقا ، أوجمال فى الفكرة أو الأسلوب .

وقد عنى الغربيون بهذه الناحية القصصية عناية كبيرة ؛ فتجد من القصص مايلائم كل سن فى كل مادة من المواد. وفى الأدب العربى كثير من القصص المنثورة فى الأغانى والأمالى، والعقد الفريد وغيرها من كتب الأدب القديم، ولكنها تحتاج إلى من يخرجها من بطون هذه الكتب ، ويصقلها ويهذبها ، ويقدمها طعاماً سائغاً للتلاميذ . وفى قصص عنترة ، وألف ليلة وليلة ، وأبى زيد الهلالى ، وكليلة ودمنة ذخيرة قصصية ، ولكننا لا ننتفع بها، ولا ينتفع بها أبناؤنا كما ينبغى؛ فكتاب ألف ليلة وليلة مثلا يحتاج إلى كثير من التهذيب؛ حتى نستطيع أن نقدمه لتلاميذنا وتلميذاتنا . وقد انتفع به الغربيون،

وترجم إلى معظم اللغات الحية، وطبع طبعات مختلفة: مختصرة ومطولة، مصورة وغير مصورة ؛ لتلائم كل سن من الأسنان .

والأطفال فى مصر فى حاجة إلى كثير من القصص العذبة اللغة، الجيدة الاختيار، الحسنة المغزى من الشرق ومن الغرب . وقد ألفنا لهم بعض الكتب القصصية ؛ منها « أحسن القصص[1] »، و« أروع القصص » (لشارلز دِكِنز) ، و « قصص فى البطولة والوطنية » ، و « مكتبة الأطفال [2] » . ولكنهم لا يزالون فى حاجة إلى مئات من الكتب القصصية حتى نشبع رغباتهم، ونهذب خيالهم، ونصقل لغتهم، ونسليهم فى أوقات فراغهم ، ونكسبهم كثيرا من الآراء والأفكار ، فتصفو عقولهم ، ويتسع خيالهم ، ويقوى أسلوبهم ، وتهذب لغتهم ، وتكثر معلوماتهم ، وينتبهون لدروسهم ، ويحتذون ما فى تلك القصص من المثل العليا فى الأخلاق والوطنية .

ومن الممكن وضع المعلومات الجافة بشكل قصصى يستثير انتباه التلاميذ ، ويشوقهم إلى الدرس . وينبغى أن يسير المدرس فى قصته بطريقة طبيعية ، فلا يقطع ما فيها من الأفكار ببعض الأسئلة أو المناقشة ؛ كى لا تقطع على التلاميذ لذة الاستماع ، وتكون الأفكار مرتبطة بعضها ببعض؛ بحيث تكون القصة واضحة عذبة اللغة ، جيدة الأسلوب ، موسيقية ، بعيدة عن التعقيد ، ملاءمة للبيئة ، مرتبة ترتيباً منطقيًّا ، خالية مما يخيف التلاميذ ، أو ينافى الناحية الدينية أو الخلقية أو الاجتماعية . فإذا أُلقيت بطريقة مؤثرة ، وروعى فيها حسن تمثيل المعنى من فرح أو حزن، أو تهكم أو شجاعة ، كان لها وقع حسن فى نفوس التلاميذ ، وتأثروا بها ، ووجدوا لذة فى استماعها ، وكانت خير وسيلة للإيضاح .

---

(١) فى ثلاثة أجزاء،وهى : «خليفة فى الخيال»و«الحصان المسحور» ، و«فى سبيل الوطن» بالاشتراك مع الأستاذين (حسن محمد جوهر ، ومحمود السيد عبد اللطيف) ، بمكتبة المعارف .

(٢) ستظهر قريباً إن شاء الله .

٣ — الوصف :

بالقدرة على الوصف تستطيع أن توضح الشيء فى نفوس التلاميذ ؛ كأن تصف معركة حربية بين فريقين متحاربين وصفًا دقيقًا ، يتبين منه المستمعون كل صغيرة وكبيرة حول المعركة ، ويشعرون كأنهم يرون المعركة بعيونهم ، ويسمعون حوادثها بآذانهم . وكأن تصف حادثة تاريخية بذكر كل شيء يتعلق بهـا ، بعبارة واضحة جلية ، تشرح بها الحادثة وأسبابهـا ونتائجها ؛ حتى يشعر المستمع بدقائقها ، وبكل صغيرة وكبيرة فيها .

وليس فى استطاعة المدرس أن ينتفع بالوصف ويجعله وسيلة من وسائل الإيضاح إلا إذا كان مالـكاً ناصية اللغة ، قادرا على التعبير والوصف ، جيد الإلقاء ، عالماً بما يريد أن يصفه حق العلم ، مدركاً له كل الإدراك ؛ ليستطيع أن يصور الشيء تصويرا يكسبه الحياة والوضوح ، ويسير فى درسـه بطريقة طبيعية منطقية ، خالية من الخفاء والغموض والإبهام .

وكثيرا ما يحتاج المدرس إلى وصف الشيء إذا عجز عن إحضاره ، أو إحضار نموذج أو صورة له . فهنا يستطيع أن يعتمد على مقدرته على الوصف ، وينتفع بخيال التلاميذ فى دروس الجغرافيـة والتاريخ ومبادئ العلوم والطبيعة والـكيمياء ؛ حتى تتضح صورة الشيء فى نفوس التلاميذ .

٤ — الشرح والتفسير :

كثيرًا ما يجد التلميـذ مفردات صعبة ، أو عبارات غامضة فى قطعة المطالعة أو المحفوظات أو الإملاء ، أو فى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية من دروس الدين ، أو

فى دروس الجغرافية والتاريخ، فيشعر بصعوبتها، ويطلب من المدرس توضيحها بالشرح والتفسير ، فيناقشه المدرس فى المفردات والعبارات ؛ حتى يعرفَ المعنى المراد منها ، أو يكلفه الرجوع إلى المعجم للبحث عن المعنى المقصود ، واختيار ما يلائم الكلمة أو العبارة . ويعد هذا الشرح والتفسير وسيلة من وسائل الإيضاح اللغوية .

وكثيرًا ما يسأل الطفل أمه وأباه ومربيته أسئلة تحتاج إلى الشرح والتوضيح ، مثل : لِمَ كانت السماء زرقاء ؟ ولم تتحرك الأشجار والقطار سائر ؟ ولِمَ ينكسر الكوب إذا وضع فيه ماء ساخن ؟

ويتطلب كل سؤال من هذه الأسئلة الصعبة شرحًا أو تفسيرًا يلائم هذا الطفل المحب للاطلاع . وقد يجد المربى صعوبة فى الإجابة عن مثل هذه الأسئلة التى تتطلب بحثًا وتنزلاً إلى مستوى الطفل ؛ حتى تشرح له الأشياء التى خفيت عليه . فالشرح والتفسير من أهم الوسائل التى يمكن الاعتماد عليها فى توضيح ما خفى على التلاميذ بلغة سهلة يفهمونها .

والخلاصة أننا إذا نصحنا للمدرس باستعمال وسائل الإيضاح ، فإننا لا ننصح له بالمبالغة والمغالاة فى استعمالها ، والإكثار منها ؛ حتى يكون لها الأثر الحسن فى نفوس تلاميذه . ومن الواجب أن نترك للتلميذ الفرصة أحيانًا فى أن يستعمل خياله فى بعض الأشياء التى نذكرها له ، ولا نبالغ فى وسائل الإيضاح ؛ بل نحاول أن يكون الدرس طبيعيًّا لا تكلف فيه . وإن المدرس الماهر يستطيع أن يستعمل حكمته فى توضيح ما غمض من نقط الدرس بالرسم على السبورة ، أو التوضيح بالكلام ، من غير مغالاة حتى تتضح الأشياء الخفية فى نفس التلميذ .

الفصل الثالث عشر

أنواع الدروس

قد يكون الغرض من مواد الدراسة كسب العلوم والمعارف ؛ كما في دروس الحساب والقواعد والتاريخ والجغرافية وغيرها من المواد العلمية والأدبية . وقد يكون الغرض كسب الحذق والمهارة ؛ كما في دروس الخط والرسم ، والأشغال اليدوية ، والكتابة على الآلة الكاتبة . وقد يكون الغرض تربية الذوق أو الوجدان تربية جمالية ؛ لتقدير ما في الحياة من جمال ؛ كما في دروس الشعر والموسيقا والفنون الجميلة ، ومشاهد الطبيعة . فأنواع الدروس ثلاثة :

١ — دروس المعلومات . ٢ — دروس المهارة .

٣ — دروس الذوق والوجدان . ولنتكلم عن كل منها فنقول :

١ — دروس المعلومات :

هي تلك الدروس التي يكون الغرض منها الوصول إلى حقائق جديدة كانت غير معروفة للتلاميذ من قبل، سواءاً كانت علمية أم أدبية؛ بدراسة المواد التي تحتاج إلى بحث ونقاش ، وتفكير ؛ للوصول إلى قاعدة عامة ، أو حقيقة جديدة ؛ كالمواد التي يكون الغرض من دراستها التزود بالمعلومات والأفكار ، وكسب العلوم والمعارف ؛ كالطبيعة والكيمياء ، والحساب والقواعد ، والجغرافية والتاريخ .

وتحتاج هذه الدروس إلى استخدام الحواس ، والمناقشة والأسئلة ؛ حتى تصل إلى العقل ، وتتضح فى نفوس التلاميذ .

ولكى يصل المدرس إلى الغرض من هذه الدروس - وهو كسب العلوم - يستطيع أن يختار من طرق التدريس ما يلائم مادته ودرسه ؛ كأن يستعمل الطريقة الاستقرائية فى تدريس القاعدة ، ثم يعمل لتثبيتها بإعطاء تطبيقات عليها بالطريقة القياسية ، ثم يسأل فيها من حين لآخر ، ويطالب التلاميذ بإعادتها ومراجعتها ؛ حتى ترسخ فى أذهانهم .

٢ — دروس المهارة :

هى تلك الدروس الفنية العملية التى تتطلب محاكاة ، وتمرنًا وتدريبًا ، وتكرارًا بطريقة معينة ؛ للوصول إلى الحذق والمهارة فى العمل ؛ كدروس الخط والرسم والتصوير والأشغال اليدوية والموسيقا ؛ فإنها تحتاج إلى رؤية نموذج ، ومحاكاته ، والتمرن عليه وتكراره ؛ حتى يستطيع المتعلم أداء العمل بسرعة ودقة ، مع الحذق والمهارة ، والجودة والإتقان . فالغرض منها كسب المهارة الفنية فى أى فن من الفنون .

٣ — دروس ترقية الذوق والوجدان :

هى تلك الدروس التى يراد بها تربية الذوق والعاطفة ، والقلب تربية جمالية . والغرض من هذه الدروس أن نربى فى الطفل حب الجمال ، وتقديره ، والإعجاب به ؛ ففى دروس الموسيقا والأغانى والأناشيد والتمثيل والشعر يجب أن تراعى تربية الذوق والوجدان تربية جمالية ؛ حتى يشعر المتعلم بجمال التعبير ، ورقة الأسلوب ، وحسن الإيقاع والصوت ، وما فى الشعر من روعة وموسيقا وعذوبة . وقد كانت التربية قديمًا تعنى

بالعقل وحده ، والتربية العقلية وحدها ؛ فكانت توجه عنايتها إلى الدروس العلمية والأدبية لكسب العلوم والمعارف ، أما اليوم فلا تتطلب التربيـة العناية بالعقل أو التفكير وحده ، ولكنها تتطلب أيضًا العناية باليد أى التربية العملية ، والقلب أى التربيةالوجدانية . فكما أن للإنسان عقلاً يفكر به فلهيد يعمل بها ، وقلب يشعر به. فليس الغرض من التربية اليوم كسب المعرفة وحدها ، أو ترقيـة الوجدان وحده ، ولكن الغرض تحققها جميعها بتربيـة العقل والحواس واليد والوجدان تربية كاملة .

وللوصول إلى التربية الوجدانية وترقية الوجدان ينبغى أن يعنى المربى بكل مافيه ترقية للذوق ، وتهذيب للعاطفة والوجدان ؛ كالموسيقا ؛ فهى لغة القلوب والعواطف، تؤثر فيها تأثير السحر فى النفوس التى تشعر بالجمال فتقدره التقدير كله ؛ وكالشعر الذى يعنى فيه بالعاطفة ، وعذوبة اللغة ، وجمال الأسلوب ، وسمو الخلق والفكرة ؛ وكالتمثيل فهو لغة العاطفة والوجدان ، يظهر المثل العليا ويصورها للإنسان حتى تظهر له هـذه المثل بمظهر الكمال والجلال ؛ وكالرسم ؛ فإنه لغة المصورين الذين يقدرون الفن وجماله ، وأثره فى النفوس التى تقدر ذلك الجمـال ؛ وكالطبيعة ؛ فإنها مملوءة بالجمـال ، ولا يقدرها إلا الرجل المثقف المهذب الوجدان ؛ فقد يمر الرجل العادى بحقل من الحقول ، فإذا سألته عما يرى فى هذا الحقل ، أجابك بأن فيه فولاً وبرسيماً وقمحًا وشعيرًا ليس غير. أما الرجل المهذب الذى وجد عناية بتربية ذوقه ووجدانه فى البيت والمدرسة فقد يجيبك بأنه يرى فى الحقل حيـاة تدل على قدرة الخالق ، ويشاهد فيه جمالاً دونه كل جمال ، ويشرح لك حياة النبات وأطوار نموه ، ووظائف الجذر والساق والأوراق ، ويستمر معك فى الحديث حتى تشعر بمـا فى الطبيعة من حياة وجمال ، لا يقدرهما إلا شعراء الطبيعة، مثل ابن خفاجة وصّاف الطبيعة الأندلسى، و(وِرْدِسْوِرْث) شاعر الطبيعة والإنسانية من الإنكليز فى القرن التاسع عشر .

وتعد دروس ترقية الوجدان من أحسن الوسائل لترويح النفس والعقل ، والانتفاع بأوقات الفراغ . وقد تجد فى أوروبة وأمريكا من يشترى الصورة الفنية لكبار الرسامين والمصورين المعروفين القدماء بآلاف الجنيهات ؛ فالمثقفون من الأغنياء هناك لهم ذوق فنى ، يقدرون به الفن ورجاله ، والطبيعة وجمالها ، ولهم أعين يبصرون بها ، وآذان يسمعون بها . يشعرون بما فى الحياة من ذوق وجمال .

طرق التدريس فى كل نوع من هذه الدروس :

تختلف طرق التدريس فى كل نوع من هذه الدروس باختلاف المواد والدروس ؛ فالطريقة التى تناسب درس الحساب لا تلائم درس الخط أو درس الموسيقا أو الشعر . وليس من السهل أن نعين طريقة خاصة لتدريس مواد كسب المعرفة ، أو المهارة ، أو ترقية الوجدان . ولكننا نترك لحكمة المدرس اختيار الطريقة التى تلائم المادة والدرس والتلاميذ ، ويراعى فيها ميول المتعلمين ، واستغلال نشاطهم ، والانتفاع بمواهبهم ، وتشويقهم إلى العمل ، فيستعمل الطريقة الاستقرائية حيث يحسن الاستقراء ، والقياسية حيث يحسن القياس ، والحوارية حيث يبدو الحوار حسناً ، ويرشدهم إلى كتابة مقال ، أو وصف حادثة ، أو إجراء تجربة ، أو الإعادة والتكرار ، أو المراجعة والاستعداد للاختبار ؛ حتى تثبت المعلومات فى نفوسهم ، وترسخ فى أذهانهم ، ويعطيهم الفرصة فى التدرج والمرانة — كما فى الموسيقا والكتابة على الآلة الكاتبة — ويتركهم يبحثون وينقبون حيث يحسن البحث والتنقيب ، ويمثلون حيث يحسن التمثيل .

ومن السهل تطبيق خطوات (هربارت) من مقدمة ، وعرض ، وربط ، واستنباط ، وتطبيق ، أو تلخيص ، وإعادة ومراجعة ، على دروس كسب المعرفة .

وفى دروس كسب المهارة يستطيع المدرس أن يعطى التلاميذ الفرصة فى محاكاة ما يكتبه من نموذج ، والتدريب والمرانة والتكرار ، ويستعمل من خطوات (هربارت) بعض المراتب ، كالمقدمة والعرض بشرح طريقة العمل ، ثم الموازنة بين ما قام به التلميذ ، وما قام به المدرس ، ثم التمرن للوصول إلى المهارة والإجادة .

وفى دروس ترقية الوجدان يستطيع المدرس أن يلجأ إلى طريقة الإعجاب[1] ؛ بأن يستمع المتعلم ، ويتأثر بما يسمع ويرى ، فينفذ المدرس إلى قلبه ، ويستميل عاطفته بلغته العذبة ، وإلقائه الجميل ، وتصويره الخلاب ، ووصفه الدقيق ، فى دروس الأدب والأخلاق والدين والموسيقا والفنون الجميلة ، فيوحى إليهم بكثير من المثل العليا ، ويريهم ما فى القطعة أو الصورة أو الطبيعة من جمال ، فيربى ذوقهم وعاطفتهم ووجدانهم .

دروس النقد وأهميتها

دروس النقد :

هى تلك الدروس التى يقوم بها أحد طلبة المعلمين أمام زملائه وأساتذته ، كى ينتفع عمليًّا بما عرف من نظريات وقواعد ، وطرق فى التربية وعلم النفس ، وينتفع زملاؤه باحتذائهم حذوه إذا أجاد ، وتجنبهم خطأه إذا أخطأ. ولهذه الدروس أهمية كبيرة فى إعداد الطلبة بطريقة عملية لمهنة التدريس ؛ ففيها يجتهدون كل الاجتهاد فى إعداد دروسهم ، واختيار المادة التى تلائم التلاميذ ، والتفكير فى الطريقة التى بها

(١) Appreciation

يدرسون هذه المادة ، وذلك الدرس ، ويفكرون فى الأسئلة التى يسألونها ، والمناقشة التى يناقشونها ، والوسائل التى يستعينون بها على توضيح الغامض ، والربط الذى يربطونه ، والاستنباط الذى يستنبطونه ، وبعبارة موجزة يعرفون كل صغيرة وكبيرة عن الدرس وطريقته ، من بدايته إلى نهايته . وفى هذه الدروس تمرين للناقد على ملاحظة غيره ، وقوة الحكم عليه ، واستحسان طريقته أو استقباحها ، ومعرفة ما لديه من حسنات أو سيئات . ولا يجيد النقد إلا من يضع نفسه موضع المدرس ، فيحكم له أو عليه ، حكما نزيهاً بعيدا عن الهوى والغرض .

مواطن النقد فى الدروس :

يجب أن يفكر الناقد فى مادة الدرس وملاءمتها للتلاميذ ، والزمن ؛ بحيث لا تكون فوق مستواهم أو أقل ، ولا يكون فيها مضيعة لوقتهم ، كما يجب أن يسأل نفسه : أ كان الطالب ماهراً ، نشيطاً ، منظَّما ، مرتب الفكر والأسئلة ؟ وهل وصل إلى الغرض من درسه ؟ وكيف كانت مقدمة الدرس ؟ وكيف كانت الطريقة ؟ وكيف كانت الأسئلة وأجوبة التلاميذ ؟ وكيف كانت وسائل الإيضاح ؟ وكيف كانت سبورة المكتب ؟ وكيف كان التلاميذ ؟ وكيف كان النظام ؟ وهل استفاد التلاميذ من الدرس ؟ فإذا راعى الناقد هذه الأشياء فى نقده ، استطاع أن يحكم على المدرس حكما دقيقاً ، يتتبع فيه ما درس من نظريات ومبادئ عن كل نقطة من نقط الدرس ، وكل خطوة من خطواته .

الدرس الجيد ومميزاته :

من مميزات الدرس الجيد أن يكون ملائماً لمدارك التلاميذ ، يستفيدون منه أكبر فائدة ، ويصغون إليه كل الإصغاء ، وينتبهون إليه كل الانتباه ؛ بأن تكون المادة جذابة مشوقة ، مرتبة ترتيبا محكما ، ويكون الطالب ماهرا فى عرضها على التلاميذ ، وإشراكهم معه فى كل عمل يقوم به ، وإعطائهم فرصة للتفكير والعمل ، ويكون النظام سائدا بما لدى الطالب من شخصية ونفوذ وجاذبية ، فلا يحتاج إلى تهديد أو وعيد ، أو عقاب أو تخويف بحيث يصل إلى الغرض الذى يرمى إليه من الدرس ، من فهم قاعدة أو حفظ قطعة مع جودة فهمها وإلقائها ، أو كتابة قطعة إملائية بنظام مع فهم لمعناها ومفرداتها . . .

وفى الدرس الجيد ننتظر من المدرس المهارة فى الأسئلة ، وفى الكتابة على السبورة بسرعة ووضوح ونظام ؛ ليكون الملخص السبورى خلاصة موجزة منطقية للدرس ، تُذكِّر التلاميذ بما أخذوه وما درسوه . ننتظر منه أن يتخذ الطريقة التى تلائم مادته ودرسه وتلاميذه ، فلا يتقيد بطريقة واحدة ؛ بل يسير بحسب ما تقتضيه الحال ؛ فينتفع بالطريقة الاستقرائية متى حسنت ، وبالقياسية متى وجد الحاجة إليها ، وينتفع بالحوار والنقاش إذا اقتضاها الحال ، ويقوم بعمل التجربة فى الوقت الملائم ، ولا يعرض شيئا قبل أوانه ، ولا يقدم وسيلة من وسائل الإيضاح إلا فى الوقت الذى يحتاج فيه التلاميذ إلى التوضيح .

فى الدرس الجيد من دروس اللغة العربية ، والمواد الاجتماعية والعلمية ننتظر من المدرس أن يتكلم باللغة العربية السهلة ، ويتجنب العامية ، ويشجع التلاميذ على التكلم والإجابة بالعربية ؛ فلا يشرح درسه باللغة العامية ؛ بل يراعى اللغة العربية فى كل

درس من الدروس ، وفى كل مادة من المواد ؛ حتى نقضى على العامية ، ونعالج ما لدى التلاميذ من ضعف فى اللغة أو الأسلوب . وإذا أهملت اللغة العربية فى المنزل وجب ألا تهمل فى المدرسة . وفى دروس اللغة الإنكليزية أو الفرنسية يجب أن يكون الشرح والمحادثة والأسئلة والمناقشة بالإنكليزية أو الفرنسية؛ حتى يجيد الطالب اللغة الأجنبية أو اللغات التى يتعلمها ـ قراءة وكتابة ومحادثة .

ولا يمكننا أن نحكم على درس بالجودة إذا كان فى المادة أو فى مذكرة إعداد الدرس أو على السبورة بعض الغلطات العلمية أو التاريخية أو اللغوية أو النحوية أو الإملائية .

وربما يفقد المدرس منزلته إذا أهمل الإملاء أو النحو فى كتابته على السبورة ، أو فى مذكرته ، أو فى النموذج الذى يعرضه على التلاميذ ، أو فى القطعة التى يمليها عليهم ، أو التمرينات التى يكلفهم حلها ؛ فخلو المادة من الخطأ من أهم النقط التى يجب أن تراعى فى دروس النقد وغيرها .

وقد يكون الطالب قوى الشخصية ، جيد الطريقة ، حسن الأسلوب فى التدريس ، ثم يفقد درسه ونفسه حينما يظهر أمام أستاذه وتلاميذه بالضعف : كأن يقول لأستاذه فى أثناء الدرس : « إننى قد انتهيت من المادة التى أعددتها » . فالطالب الذى لا يستطيع أن يستمر مع التلاميذ إلى نهاية الدرس ضعيف المادة ، لم يعد درسه كما ينبغى . وإن الدرس الذى تسود فيه الفوضى ، ويكثر فيه الإخلال بالنظام ، ويحتاج فيه الطالب إلى كثير من التحذير والتوبيخ ـ درس ليس بجيد .

فلو كانت المادة جذابة ، مختارة اختيارا حسناً ، وكان فى الدرس حياة ونشاط ، وكانت الطريقة جيدة ، لا نتبه إليه التلاميذ ، وما عبثوا بالدرس أو النظام .

فسوء النظام قد يكون ناشئاً عن معرفة التلاميذ المادة ، أو ضعف شخصية المدرس ، أو سوء طريقته ، أو تعقد لغته وتفكيره ، أو رداءة كتابته أو إلقائه ، أو قبح مظهره .

نصائح للطلبة فى دروس النقد ، وللمدرسين فى تدريس المواد المختلفة

١ — اعتن بإعداد درسك ، واجعل أسئلتك واضحة محدودة مختصرة ، واكتب ما تستنبطه من القواعد الهامة على السبورة ، ثم اربط النقط بعضها ببعض. ولا تجعل أسئلتك مقصورة على الأذكياء من التلاميذ ، واستعمل الحزم والعدل فى توزيعها.

٢ — كثيرا ما يتعسف الطلبة فى مقدمات دروسهم ؛ ظانّين أن الغرض من المقدمة استنباط كلمة أو عنوان للدرس . والحق أن الغرض من المقدمة إعداد أذهان التلاميذ للدرس الجديد ، وتشويقهم إليه ، والاستفادة من معلوماتهم القديمة ، وربطها بالجديدة ؛ حتى تثبت فى أذهانهم ، ويسهل عليهم تذكرها . فى مقدمة على « كان وأخواتها » لا يكفى أن تسأل : ما مرفوعات الأسماء؟ فيذكر أحد التلاميذ : «الفاعل ونائب الفاعل والمبتدأ والخبر واسم كان» ، فتسكته ثم تقول : « درسنا اليوم كان وأخواتها » .

٣ — لا تكون القصة شائقة إلا إذا ألقيت إلى النهاية . وتذكر أن الأسئلة فى وسط القصة تقطع سلسلة الأفكار ، وتحرم التلاميذ لذة الاستماع .

٤ — لا تغال فى استعمال وسائل الايضاح ، واعلم أن الإيضاح جعل الخفى على التلميذ جليًّا ، والصعب سهلاً ، بأية وسيلة من الوسائل اللغوية أو الحسية . ولا تستعمل وسائل الإيضاح إلا إذا شعرت بالحاجة إليها . واجتهد أن تكون وسيلة الإيضاح واضحة ؛ كى لا تحتاج هى نفسها إلى توضيح؛ فإذا رسمت مصوّرًا جغرافيًّا أو تاريخيًّا أمام التلاميذ فحاول أن يكون جليًّا واضحًا كل الوضوح ؛ ليستطيع كل

تلميذ فى الفصل أن يراه . ويجب أن تعد نفسك بحيث تستطيع أن ترسم المصوَّر الجغرافى أو التاريخى فى الحصة أمام التلاميذ . ولا تنس أن يكون الرسم واضحًا يراه كل تلميذ . ولا تكتب الأسماء إلا عند الحاجة إليها .

٥ — لا حاجة لأن تخبر التلاميذ بالخطة التى وضعتها لنفسك ؛ كأن تقول لهم : سأناقشكم فى القطعة ، وسأشرح لكم الكلمات الصعبة ، وسأقرأ القطعة أمامكم و . . . الخ .

٦ — حاول أن تكون أفكارك مرتبة ترتيبًا منطقيًّا ، وأن تكون أعمالك منظمة ، وأسئلتك واضحة ، وكتابتك جيدة .

٧ — فى شرح الكلمات الصعبة يجب أن تشرح المفردات بألفاظ أسهل منها ، فلا تفسر الصفة بالنعت ، والزهر بالنَّوْر ؛ فإن الصفة والزهر أسهل من النعت والنَّوْر .

٨ — إن سرد الحقائق التاريخية الجافة لا يحسن مع صغار الأطفال ؛ بل ينبغى أن تُعطى هذه الحقائق بشكل قصصى ؛ كى يكون الدرس شائقًا .

٩ — لا تسأل شفويًّا سؤالين فى وقت واحد ؛ كأن تقول : ما الأسماء المذكرة فى هذه الجمل ؟ وما الجموع فيها ؟

١٠ — فى أثناء الكتابة يجب أن تعود التلاميذ الجلسة الصحية ، بحيث يبعدون أعينهم عن الأوراق ؛ كى لا يضعف نظرهم ، وتقوَّس ظهورهم .

١١ — يجب أن تعمل لإصلاح غلطات التلاميذ فى أجوبتهم الشفوية .

١٢ — لا تترك صورة الخطأ على السبورة ؛ لئلا تترك أثرا فى نفوس التلاميذ .

١٣ — لا تلق كثيرًا من الأوامر فى وقت واحد ، ولا تكثر الإشارة بيديك

فى أثناء التكلم ، ولا تترك التلاميذ واقفين بعد الإجابة من غير أن تشير إليهم بالجلوس .

١٤ — يجب أن تكون فى مادتك مستعداً، بحيث تستغرق زمن الدرس على الأقل . ويجب أن تستمر فى درسك حتى يخبرك الأستاذ بانتهاء الدرس . ولا تعجب إذا سمعت أن من الطلبة من تنتهى معلوماته قبل انتهاء زمن الدرس ، ويخبر أستاذه بأن المادة التى أعدها قد انتهت . ومثل هذا الطالب يعد ضعيف المادة مقصرا فى إعداد دروسه .

١٥ — اجتهد أن تكون طبعياً بعيداً عن التكلف ، ولا تضع يديك فى جيبك .

١٦ — انتفع بالبيئة الطبعية وبالحوادث اليومية بقدر الاستطاعة ؛ ففى درس جغرافية على طريقة تكوين الأمطار وتوزيعها فى يوم ممطر يمكنك أن تنتفع بما فى الجو من سحاب أو مطر ، وبالمظاهر الطبعية التى تساعد فى نزول المطر . وفى أيام الانتخابات يمكنك فى دروس التربية الوطنية أن تجعل موضوع الانتخابات درساً من دروسها .

١٧ — يجب أن تكون لديك الأدوات الضرورية للدرس من أقلام رصاص فى درس الرسم ، وأقلام حبر فى درس الخط ، وكتب فى درس المطالعة ، وهكذا . . وتيقن وجود الأدوات لدى كل تلميذ قبل البدء فى الدرس ؛ كى لا يسوء النظام ، ولا يمكث أحد بغير عمل .

١٨ — لا تسأل التلاميذ والأجوبة مكتوبة على السبورة؛ بل امح ما عليها أولاً، ثم اسأل بعد ذلك كيف شئت . ولا يكفى أن تقول الشىء ، ثم تسأل عنه بعد ذلك فى الحال ؛ ظاناً بأن هذا استنباط . واجعل أسئلتك دائماً عامة . ولا تحكم على الطفل بأنه أخطأ إلا إذا أخطأ حقاً .

١٩ — لا تترك السبورة طول الدرس من غير أن تكتب شيئًا عليها مما تستنبطه من التلاميذ . وحينما تنتهى من نقطة دونها بعد استنباطها ، ثم كلف أحد التلاميذ قراءتها ، واكتف بالإيجاز مع الوضوح ، ولا تطل فى الملخص السبورى . ولا تترك التلاميذ إلى نهاية الحصة لتستنبط منهم ما تريد استنباطه من الآية أو الحديث ، أو القاعدة ، أو التاريخ ؛ بل استنبط كل فكرة فى حينها ، ولا تؤخر الكتابة على السبورة إلى نهاية الدرس .

٢٠ — فى أثناء قيام التلاميذ بعمل كتابى ينبغى أن يمر المدرس بينهم ؛ ليرشد من يحتاج منهم إلى الإرشاد ، ويساعد من يحتاج إلى المساعدة .

٢١ — يجب أن يبذل المدرس جهده ؛ حتى يصل بالتلاميذ فى اللغة العربية فى نهاية مرحلة التعليم الابتدائى إلى الدرجة التى يستطيعون فيها الكتابة الصحيحة ، والقراءة بسهولة .

٢٢ — يجب أن يكلف التلاميذ كتابة صواب الخطأ فى كل مادة من المواد ؛ فإن كان الخطأ إملائيًا أو لغويًا كتبت الكلمة عدة مرات . وإن كان نحويًّا أعيدت الكلمة فى جملتها مرتين أو ثلاثًا ، على أن توضع الجملة بين قوسين ؛ ليعرفها التلميذ. وإن كان فى مسألة حسابية أعيدت العملية التى حدث فيها الخطأ .

٢٣ — يجب أن يكون المدرس على صلة دائمة بالمنهج ، ويعمل لتنفيذه ، وينتفع بما فيه من توجيهات وإرشادات .

٢٤ — ينبغى أن يفكر المدرس دائمًا فى مستوى تلاميذه ، وفى بيئتهم ، ويعمل لإفادتهم ، ويحرص على أوقاتهم .

٢٥ — يجب أن يعد المدرس واجبًا لمن ينتهى قبل غيره من التلاميذ ؛ كى لا يمكث أحد مطلقاً بغير عمل ، ولينتفع كل تلميذ بكل لحظة من الدرس .

٢٦ — ينبغى أن يعنى المدرس بالضعفاء من تلاميذه عناية خاصة ؛ للنهوض بهم ورفع مستواهم .

٢٧ — يجب أن تدوّن الكلمات الصعبة ومعانيها على السبورة بعد المناقشة فيها ، ويُعَوَّدَ التلاميذ كتابتها فى مذكراتهم ، واستعمالها فى جمل مفيدة .

٢٨ — يجب أن تعطى القطع والموضوعات فى أوقاتها المناسبة ؛ فالصوم مثلاً يعطى فى رمضان ، ووصف المطر يعطى فى الشتاء لا فى الصيف .

٢٩ — لا تنس أن أثر المدرس الماهر يظهر حتى مع الضعفاء من التلاميذ .

٣٠ — أشرك التلاميذ معك فى كل عمل تقوم به ، واعتمد عليهم بقدر الاستطاعة . واترك لهم فرصة يفكرون فيها ؛ بأن تدعهم يعملون ، وتكون مرشداً لهم عند الحاجة إلى الإرشاد .

٣١ — اجعل النصف الأول من النهار للمواد التى تحتاج إلى كثير من التفكير ؛ كالفقه والقواعد والإنشاء والحساب والهندسة والجبر واللغة الأجنبية . واجعل النصف الثانى للمواد العملية : كالخط والإملاء والرسم والأشغال اليدوية .

٣٢ — إذا أخطأ معظم التلاميذ ، فأعد شرح القاعدة أو النظرية .

٣٣ — إذا طبعت أوراقاً لتلاميذك فحاول أن يكون الطبع حسناً ، والكتابة واضحة ، والعدد كافياً . وفى أثناء التوزيع يجب أن تراعى النظام فى توزيع الأوراق .

٣٤ — فى تدريس القرآن الكريم :

يراعى فى تدريس القرآن الكريم أن تكون القراءة طبيعية لا تكلف فيها . ويجب ألا يكلف التلاميذ الحفظ قبل إجادة الإلقاء وفهم المعنى . وفى الآيات القرآنية ينبغى أن يقرأ المدرس الآية أو السورة الصغيرة قراءة جيدة مرة أو مرتين ؛ ليكون نموذجاً

للتلاميذ ، ثم يكلف أحد التلاميذ المجيدين القراءة مرة أو أكثر ؛ ليكون قدوة لإخوانه . وبعد المناقشة فى معانى الكلمات الصعبة والعبارات والآيات وفهمها يبدأ بتحفيظهم .

٣٥ — فى الحديث والتفسير :

فى الحديث والتفسير من دروس الدين يجب ضبط الآيات القرآنية والأحاديث النبوية بوضوح ؛ كى لا يكثر الخطأ فى التلاوة . ويجب أن يقرأ المدرس الحديث أو الآية مرة أو مرتين قراءة جيدة ، ثم يكلف أحد التلاميذ المجيدين القراءة ، ثم يناقش التلاميذ فى معانى الكلمات الصعبة ، وفى عبارات الحديث أو الآية ؛ حتى يفهموا المعنى ، وما يرمى إليه كل منهما من عظة ، أو حكمة ، أو خلق حسن .

٣٦ — فى دروس الدين :

يجب أن تكون الدروس قصصا خلقية دينية ، يراعى فيها مستوى التلاميذ من الناحيتين : العقلية والعلمية . ويجب أن يكون التدريس الدينى عمليًّا بقدر الاستطاعة وبخاصة الوضوء والصلاة . وفى القصص التهذيبية يجب أن يفكر المدرس فى بث الفضيلة فى نفوس التلاميذ . وفى دراسة السيرة النبوية يجب أن يصوِّرَ المدرس الحقائق بطريقة تمثيلية تولد فى نفوس الأطفال حب الاقتداء بالعظماء والأبطال من المسلمين .

٣٧ — فى دروس المطالعة :

أعط التلاميذ فرصة فى أن يجيدوا القراءة ، وشوقهم للمطالعة فى الخارج ، ولا تشرح كل الكلمات الصعبة مرة واحدة ؛ بل أعط الدواء عند الشعور بالمرض .

وبعبارة أخرى ناقش التلاميذ فى معانى الكلمات الصعبة حينما يشعرون بصعوبتها . والحاجة إلى شرحها . وإذا وجد الأطفال صعوبة فى قراءة القطعة بسهولة ، فاقرأها لهم مرة أخرى. ولا تسأل عن المعنى العام للقطعة إلا بعد إجادة قراءتها والانتهاء منها، وخاصة إذا كانت قصة ؛ كى لا تنقطع سلسلة الأفكار على التلاميذ . ولا تكلف تلميذا أن يقرأ قبل أن ينتهى السابق من الفقرة . وإذا كانت هناك صورة فناقش التلاميذ فيها عند بدء الدرس لا عند نهايته. ولا تستعر كتاباً من التلميذ ، ثم تتركه بغير كتاب. وعند قراءتك للقطعة قراءة نموذجية لا تسرع ولا تبطئ ؛ بل راع حسن الإلقاء ، وتمثيل المعنى ، وإخراج الحروف من مخارجها ، والوقوف حيث يجب الوقف ؛ بحيث تكون القراءة طبيعية خالية من التكلف . وينبغى ألا يكثر المدرس أسئلة الإعراب فى درس المطالعة . ولا مانع من السؤال فى الإعراب إذا كانت هناك مناسبة ؛ كأن يخطئ التلميذ ، فيرفع المنصوب ، أو ينصب المرفوع .

٣٨ — فى القواعد والتطبيق :

لا تستعمل مع التلاميذ تلك الأمور الفلسفية التى يصعب عليهم فهمها ؛ كأن تقول لهم فى درس على « لام التعليل ولام الجحود » : « إن لام التعليل هى التى يكون ما بعدها سبباً فى حصول ما قبلها »، أو « الجحود شدة الإنكار والنفى » ؛ فالتلميذ الصغير لا يستطيع أن يفهم العلة والمعلول ، والسبب والمسبب . وتفسير الجحود بشدة الإنكار تفسير لأمر خفى بشىء أشد خفاء ، فينبغى أن تلاحظ فى الشرح العمل لتوضيح الغامض وتسهيل الصعب . وليس من الضرورى إعطاء التمرينات كلها مرة واحدة فى السنوات الصغيرة ؛ بل يحسن التدرج مع التلاميذ ؛ فإذا انتهوا من تمرين انتقل بهم المدرس إلى آخر . ولا تحاول أن تستنبط قاعدة من مثال واحد . واجتهد أن تكون الأمثلة مختارة اختياراً حسناً ، منوعة متصلة بالحياة ؛ فلا تقل

فى التمييز (أكلت أقة عنبا) . ومن المستحسن ضبط أواخر الكلمات التى تناقش فيها . ولا تطالب التلاميذ إلا بما عرفوه ؛ فلا تسأل : من يستطيع منكم أن يجعل هذه الأفعال منصوبة قبل أن يعرفوا أدوات النصب ؟ ولا تذكر القاعدة بنفسك ؛ بل انتظر حتى تستنبطها من التلاميذ بعد المناقشة. ولا تنتقل إلى النقطة الثانية قبل أن يفهم التلاميذ النقطة الأولى . ولا تنتقل إلى مرتبة التطبيق قبل فهم القواعد والانتهاء منها . وفى الجمل التكوينية يجب أن تراعى صحة المعنى كما تراعى صحة الجمل النحوية ؛ فلا تقل : أدخل « ليس » على جملة : « السبورة سوداء » ؛ كى لا يكون التركيب مخالفاً للواقع . ويجب الإكثار من التطبيق ؛ حتى تثبت القواعد فى أذهان التلاميذ. وبعد استنباط القاعدة اختر من التلاميذ من يملى عليك ما تكتبه على السبورة ، ومن يقرأ ما تكتب ، بدلا من أن تكتب أنت وتقرأ ما تكتب . وإذا أخطأ كثير من التلاميذ فى التطبيق أو التمرينات ، فهذا دليل على أنهم لم يفهموا القاعدة حق الفهم ، ومن الواجب إعادة شرح القاعدة مرة أخرى .

وقد أساء بعض المدرسين فهم الغرض من تدريس القواعد ؛ فالتلاميذ فى كثير من الأحيان يستظهرونها، وأجوبتهم تدل على الحفظ . وقد سئل أحد التلاميذ مرة هذا السؤال ــ وهو سؤال لا نرتضيه لأنه سؤال يشجع على الحفظ ــ (متى يبنى الفعل المضارع ؟) فكان الجواب : (يبنى المضارع فيما عدا ذلك) . وإذا طولب باستعمال أداة من الأدوات فى جملة وقف حائراً لا يدرى ماذا يقول ، وأجاب بما يدل على الخبط والخلط . وقد نسى المدرسون أنه لا فائدة من دراسة القواعد إذا لم يستطع التلاميذ استعمالها ، والانتفاع بها فى قراءتهم وكتابتهم ومحادثتهم . ولكى ينتفعوا بما عرفوه من القواعد يجب تشجيعهم على الإتيان بكثير من الأمثلة لكل قاعدة؛ حتى تثبت فى أذهانهم، ويعرفوا طريقة استعمالها، ويستفيدوا من دراستها . وإن الإكثار من التطبيق الشفوى والكتابى خير وسيلة لهضم القواعد وفهمها . ولكى يستفيد

التلاميذ من إصلاح الخطأ فى التطبيق يجب أن يدركوا الصواب ويكتبوه عدة مرات؛ كى لا يقعوا فى الخطأ مرة أخرى . وينبغى الاعتماد على التلاميذ فى التفكير والإجابة، وأن يكون المدرس بمثابة المرشد الناصح عند الحاجة إلى الإرشاد أو النصيحة ليس غير . وإن إعطاء تطبيق عام من حين لآخر خير وسيلة للاستذكار والإعادة والمراجعة .

٣٩ — فى الإملاء :

بدلا من أن تحفظ قطعة الإملاء عن ظهر قلب اكتبها فى ورقة أو فى كراسة التحضير ، وأملها على التلاميذ . ولا تكتف بتهجية الكلمات الصعبة ؛ بل يجب أن تشرح معانيها أولاً ؛ ليسهل على التلاميذ كتابتها . ويجب أن تكون القطعة طبعية خالية من التكلف . ولا تملأها بالكلمات المهموزة أو المشتملة على ألف لينة . وإذا أردت إعطاء التلاميذ شيئا منها فاجعلها فى مفردات بعد الانتهاء من القطعة . وفى الألفاظ المتجانسة مثل « يحيا » يحسن فى أثناء المناقشة وضع الكلمة فى جملة ؛ حتى يسلم الكلام من اللبس ؛ كأن تقول « يحيا الملك »، أو اسمه « يحيى » . وإذا بقى بعض الوقت بعد الانتهاء من إملاء القطعة فكلف التلاميذ الموازنة بين ما كتبوه وما كتبته على سبورة إضافية ؛ حتى يعرف كل فرد ما لديه من الصواب أو الخطأ . وإذا بقى شىء من الزمن بعد كتابة القطعة والموازنة فكلفهم كتابة صواب الخطأ . ولا تخرج عن الدرس بإعطائهم واجباً نحويًّا مثلا ؛ بل أعطهم واجبا إملائيا .

وينبغى أن تختار القطع الإملائية بحيث تصلح لأن تكون نماذج إنشائية ؛ حتى يقرأها التلاميذ فى بعض حصص المطالعة ليستفيدوا منها فى المطالعة والإملاء والإنشاء معًا .

ولا يزال بعض المدرسين يتكلفون كثيرًا فى عبارة الإملاء ؛ فيحشون القطع

الإملائية بالمفردات الصعبة، والكلمات المهموزة ولا يفكرون في مستوى الطفل، أو فيما يناسب الزمن - تفكيرهم في عدد القطع؛ ظانين أن العبرة بالكم والعدد، لا بالنوع وحسن الاختيار .

وفى كتابة الصواب وإعادته كثيرًا ما يخطئ التلاميذ فيما أخطئوا فيه من قبل، وهذا برهان واضح على أنهم لم يستفيدوا شيئًا من إصلاح الخطأ ، ويرجع ذلك إلى عدم تفهيمهم سبب الخطأ ووجه الصواب . وللتأكد من استفادتهم من إصلاح غلطاتهم الإملائية السابقة ينبغى السؤال فيها من حين لآخر ، وإعطاء مفردات منها أحيانًا .

ويجب ألا يكتفى فى الإملاء بإعطاء مفردات ؛ بل ينبغى أن تعطى المفردات بعد القطع الإملائية . وعلى المدرس أن يعد واجبًا إملائيًّا لمن لم يخطئ من التلاميذ .

٤٠ — فى المحادثة :

يحسن أن يدون المدرس ما يختاره من الجمل على السبورة ، وفى الجزء الأخير من الحصة يطالب التلاميذ بقراءة الملخص ، ثم كتابته فى مذكراتهم ؛ كى يستفيدوا من المحادثة والقراءة والكتابة . ويجب أن يلتزم المدرس التكلم باللغة العربية ليشجع التلاميذ على التكلم بها .

٤١ — فى الإنشاء الشفوى :

لا تنتظر من التلاميذ أن يتكلموا باللغة العربية إلا إذا حافظت أنتَ على التكلم بها . وإننا لا نريد من المدرس أن يتكلم معظم الوقت مهما كان كلامه عذبًا ؛ بل نريد أن

نشجع التلاميذ على التكلم ، ونعطيهم الفرصة فى التعبير عما لديهم من الأفكار بعبارة عربية صحيحة . وإذا ورد فى الدرس بعض كلمات عامية وجب تفهيم التلاميذ مايقابلها من اللغة العربية ، وتشجيعهم على وضعها فى جمل مفيدة ؛ حتى تثبت فى أذهانهم .

٤٢ — فى دروس المحفوظات :

يحسن أن تحفظ القطع القصيرة مرة واحدة من غير تجزئة ؛ فإن هـذه الطريقة أسهل فى الحفظ ، وأكثر اقتصادا فى الوقت ، وأدعى إلى معرفة المعنى ، من غير أن تقطع سلسلة الأفكار على التلاميـذ . وليس هناك ما يمنع التجزئة إذا كانت القطعة طويلة . ولا تحاول تحفيظ التلاميذ القطعة إلا بعد أن يفهموا معانى المفردات والعبارات الصعبة ، ومعنى كل بيت على حدة ؛ حتى يسهل عليهم الحفظ والتذكر . وإذا سألت عن معنى بيت من القطعة ، ولم تجد مجيبا سوى واحد من التلاميذ ، فاشرح المعنى مرة أخرى .

ويختار المدرسون أحياناً قطعاً للحفظ فوق مستوى التلاميذ ، وآونة يكلفونهم الحفظ قبل فهم المعنى ؛ فيصيرون كالببغاوات ، يرددون أشياء لا يدركون لها معنى . وجدير بالمدرسين أن يعنوا بحسن الاختيار ، وحسن الإلقاء والتمثيل ، وفهم المعنى عنايتهم بالحفظ . وكثيرا ما يلجأ بعضهم إلى طبع قطع للحفظ ، ولا يراعون جودة الطبع ووضوحه ، فيكثر الخطأ . وقد اعتاد كثير منهم كتابة الكلمات الصعبـة ومعانيها تحت القطعة ، ناسين أن هذه الطريقة تعطل تفكير التلاميذ فى المعانى . فإذا كتبت الكلمات الصعبة فمن المستحسن ترك معانيها ؛ حتى يكتبها التلاميـذ أنفسهم بعد المناقشة فيها وفهمها .

وليس هنـاك ما يمنع الحفظ بطريقة الجماعة إذا كان الصوت منخفضا جميلا ، لا إزعاج فيه للفصول الأخرى .

٤٣ — فى شرح الـكلمات الصعبة :

ليس من الضرورى أن يأتى التلميذ باللفظ الذى تقصده ، فإذا أجاب إجابة صحيحة كأن يقول (هنيهة : لحظة . وَارَاهُ : خبأه) فلا ترفض الإجابة؛ بل تقبل هذا المعنى. ولا تترك كلمات صعبة من غير تفسير مثل «الأسَى ، وكظم الغيظ»، ولا تترك عبارة صعبة من غير شرح ، مثـل : « ما كنت لأخفر ذمتى وأنقض عهدى ». ولا تتعب نفسك فى شرح الـكلمات السهلة التى لا يشعر التلاميذ بالحاجة إلى شرحها .

وفى أثناء تفسير الـكلمات طالب التلاميذ بوضع الـكتب مقلوبة على الأدراج ؛ كى ينتبهوا إلى مناقشتك . وبعد الانتهاء من الشرح كلفهم أخذها ثانية . ولا تسأل عن معـانى الـكلمات مفردة ؛ كأن تقول : ما البال ؟ وما البديهة ؟ بل ضع الـكلمة الصعبة فى جملة ؛ كأن تقول : « إذا قلت : خطر ببالى كذا » فمـا معنى البال هنا ؟ أو تقول : « إذا قلت فلان حاضر البديهة » فما معنى البديهة فى هـذه الجملة ؟ إذ من الصعب الإجابة عن المعنويات إذا سئل التلاميذ عنها مجردة، وقد يكون للـكلمة الواحدة عدة معان ، ولهذا يجب أن توضع الكلمة فى جملة ؛ كى يُعرف المعنى المقصود منها .

٤٤ — فى دروس الحساب :

لا ضرورة لإثبات الحل على السبورة إلا إذا أخطأ معظم التلاميذ . وإن من ينتهى من الأقوياء من العمل ويأتى بالجواب الصحيح يجب أن يعطى تمرينات أخرى

يشتغل بها؛ كى لا يضيع وقته . أما الضعفاء فيجب أن يعطوا فرصة للتفكير فى الحل والقيام بالعمل ، مع إرشاد المدرس ليستفيد الجميع من الدرس .

٤٥ — فى الدروس العملية كالخط والرسم :

لا تضع الوقت بكثرة الكلام ؛ بل كلف التلاميذ التمرن على الكتابة والرسم ومحاكاة النموذج ، ثم مر بينهم ؛ لتبين لهم الصواب من الخطأ . وفى الخط لا ضرورة إلى التقيد بأسطر معينة ؛ فإذا انتهى التلاميذ من كتابة الصفحة فى كراسة الخط وجب تكليفهم التحسين فى كراسة الأعمال اليومية ؛ للمحافظة على أوقاتهم .

ولا يعنى المدرسون بالجلسة الصحية للتلاميذ إلا عند حضور المفتش ، ويكتفون بكتابة صفحة من الصفحات فى الحصة . وكثيرا ما يترك التلاميذ بغير عمل بعد الانتهاء من تلك الصفحة . وللمحافظة على أوقات التلاميذ يجب تكليفهم التحسين فى كراسة الأعمال اليومية . ويجدر بالمدرس أن يشرح الحروف الصعبة أمام التلاميذ ، ثم يكتب نموذجا على السبورة ، ثم يكلفهم محاكاته ، ويمر بينهم لإرشادهم . وإذا كان هناك خطأ عام شرحه على السبورة .

٤٦ — فى اللغة الأجنبية :

لا تكلف التلاميذ حفظ الكلمات ومعانيها مجردة ؛ فهذا التكرار الببغائى ليس بوسيلة ناجحة فى معرفة اللغة؛ بل كلفهم كثرة القراءة ، وحفظ المفردات فى الجمل التى وردت فى القطعة، وشجعهم على استعمالها فى كتابتهم ومحادثتهم؛ حتى تثبت الكلمات الجديدة فى أذهانهم .

وقد اعتاد التلاميذ فى الإملاء تكرير الحروف فى كل كلمة ليعرفوا تهجيتها ، وفى هذه الطريقة الآلية إجهاد للتلميذ ، وتشويش على ذهنه . فينبغى إرشاده إلى كتابة الكلمة الجديدة عدة مرات؛ حتى تثبت صورتها وحروفها فى ذهنه ؛ ففى أثناء تكريره لكتابة الكلمة يكتب ويقرأ وينظر ، ويستعمل أكثر من حاسة فى التعليم ؛ فتثبت الكلمات فى نفسه من غير إجهاد ، ويسهل عليه تذكرها . فاللغة تعلم بكثرة القراءة والكتابة والمحادثة ، لا بهذا النوع من التكرار الآلى للألفاظ ومعانيها ، والكلمات وحروفها .

ولا نبالغ إذا قلنا: إن التلاميذ الذين يتعلمون فى المدارس الإنكليزية والأمريكية يجيدون اللغة الإنكليزية ، والذين يتعلمون بالمدارس الفرنسية يجيدون اللغة الفرنسية . وإننا نرجو أن يأتى اليوم الذى يجيد فيه الطالب المصرى اللغة العربية أولاً ، ثم لغة أو لغتين على الأقل من اللغات الأجنبية . وإذا كان هناك ضعف فى دراسة اللغات بمدارسنا فهو ناشئ عن خطأ فى أساليب التدريس ، أو إهمال من التلميذ ، أو تراخ من المدرس ، أو عدم ملاءمة الكتب الدراسية ، أو منها مجتمعة .

٤٧ — فى الجغرافية :

اعتمد فى تدريسك على الملاحظة والمشاهدة ، واستخدم ما تستطيع من وسائل الإيضاح من المصورات الجغرافية الواضحة ؛ حتى تشوق التلاميذ إلى دروسهم ، وتتضح المادة بطريقة حسية فى نفوسهم .

ويجب ألا تدرس الجغرافية بحفظ المصطلحات الجغرافية وما فى المملكة من أنهار وبحار وبحيرات وجبال وجزائر ؛ بل يجب الرجوع إلى البيئة الجغرافية للتعلم بوسائل

حسية . وربما تعجب كل العجب إذا عرفت أن المصورات الجغرافية التى تعرض على تلاميــذ المدارس الابتدائية هى المصورات التى تعرض فى فصول الدراسة على طلبة المدارس الثانوية والعالية من غير مافرق . فالمصورات الجغرافية واحدة فى جميع مراحل التعليم،وهذا خطأ واضح يجب أن نتداركه؛ فإن مايلائم صغار التلاميذ من المصورات لا يلائم كبارهم .

ومن الواجب وضع مصورات خاصة تراعى فيهــا السهولة والوضوح ، ويلاحظ فيها مستوى التلاميذ . وإياك وحشو المصورات الجغرافية بالأسماء والمصطلحات التى يصعب على التلاميذ إدراكها إدراكا تاما . ولا تــكتب عليها إلا ما تحتاج إليه فى أثنــاء الدرس .

٤٨ — فى التاريخ :

لتوضيح دروس التاريخ يجب أن تستعين بالمصورات التاريخية السهلة الواضحة؛ كى يسهل على التلاميذ فهم دروسهم . ولا تذكر الحقائق التاريخية للتلاميذ بطريقة جافة ؛ بل راع مستواهم ، وضعها فى أسلوب قصصى يجتذب انتباههم ، ويشوقهم إلى درسك . وتذكر أن الطفل لا يستطيع أن يدرك أن فلانا ولد سنة كذا ق . م. أو ب . م . أى قبل الميلاد أو بعــده . ولا تنس ماذكر فى منهج الدراسة الابتدائية سنة ١٩٣٥م من أنه : « يحسن بالمدرسين أن يقرءوا على تلاميذهم مقتبسات سهلة من المصادر الأصلية ؛ كالقرآن الــكريم فى قصة يوسف .... لتحبيب المطالعة والدرس إليهم .وينبغى أن يتجنب المدرسون إملاء مذكرات تاريخية بأى حال من الأحوال.»

٤٩ — فى مبادئ العلوم :

يجب الرجوع إلى الطبيعة ، وإلى ذوات الأشياء ونماذجها ورسومها وصورها فى

دراسة مبادئ العلوم ؛ حتى تثبت المادة فى أذهان التلاميذ ، وتكون شائقة جذابة . وليعلم المدرس أن دراسة الشيء فى بيئته الطبيعية خير من دراسته فى الكتب المدرسية. وفى استطاعته الانتفاع بما فى المدرسة من حديقة ودواجن وصور للطيور والحيوان والنبات فى دراسة مبادئ العلوم . وليتذكر أن الغرض من دراستها التأمل فى الطبيعة ليقدر التلاميذ ما فيها من جمال، ويعتادوا من الطفولة دقة الملاحظة .

٥٠ — فى تدبير الصحة :

يجب أن تكون الدروس الصحية عملية بطريقة حسية . وليذكر المدرس أن الغرض من دراسة تدبير الصحة : « تعويد التلاميذ النظافة والعناية بأجسامهم ، وتعويدهم كذلك العادات الصحية بالممارسة؛ حتى تصبح هذه الدروس عملا يؤدونه، ومنهاجا يسيرون عليه ، وتظهر آثارها فى صحتهم ونظافتهم وعاداتهم فى المأكل والمشرب، وفى اللعب وفى أثناء العمل . وتتجلى فى عنايتهم بأعينهم وأسنانهم وكل ما يتصل بسلامة أبدانهم والحرص على سلامة الآخرين[١] » .

---

(١) ارجع إلى منهج الدراسة الابتدائية سنة ١٩٣٥ م .

الفصل الرابع عشر

العيوب الشائعة فى أساليب التدريس بالمدارس المصرية وعلاجها

لا يمكننا أن ننكر أن بمصر نهضة فى التعليم ، وتقدمًا فى أساليب التدريس ، وتأثرًا بالتربية الحديثة وطرقها ، وعلم النفس ونظرياته . يشعر بهذه النهضة وهذا التقدم من رأى المدرسين اليوم ورآهم منذ عشرين سنة أو أكثر . وليس معنى هذا أننا وصلنا إلى الكمال الذى نرجوه ونفكر فيه ؛ فالكمال لله وحده . ولكى نصل إلى ما يقرب من الكمال نذكر ما يبدو لنا من العيوب الهامة الشائعة فى طرق التدريس بمدارسنا، آملين العمل لإصلاحها؛ حتى يتحقق المثل الأعلى الذى نرمى إليه فى التربية والتعليم .

١ — التفتيش موجه إلى الامتحانات

إن التفتيش لدينا يوجه كثيرًا من العناية إلى الامتحان ، ونتائج الامتحان ؛ فالمفتش الذى ينتظر منه أن يكون المرشد الناصح للمدرس والمدرسة صار الممتحن المفزع للمدرسة والمدرسين . وقد كان من واجبه أن يمتحن جميع التلاميذ ، بدلاً من أن يشجع الحسن ، ويعنى بتعرف مواطن الضعف، والإرشاد إلى الصواب .

فالمفتش لا يفكر إلا فى الامتحان ، والمدرس لا يعلّم إلا للامتحان ؛ فهو يحفّظ التلاميذ أسئلة وأجوبة للامتحان ، ويضع نماذج للامتحان . وربما كان هذا من أهم العيوب الشائعة فى أساليب التدريس بالمدارس . ولهذا يعنى التلاميذ بالحفظ ويهملون فهم المادة كل الإهمال .

والطريقة المثلى للتفتيش أن يتعاون المفتش مع المدرس وناظر المدرسة على النهوض بالتعليم ؛ يسأل التلاميذ إذا شاء ، ويرشد من يحتاج إلى الإرشاد ، ويعمل لإصلاح كل ما يراه من عيوب ، ويقوم بكتابة إرشادات للمدرسين فى تدريس كل مادة من المواد التى تخصه ، ويعنى بالحقائق أكثر من العناية بالأمور الشكلية ؛ كأن يعنى بالتأكد من أن ما فى الكراسات من أعمال التلاميذ أكثر من عنايته بشكل الكراسات ، وعدد الموضوعات .

ويجب ألا يكون التفتيش مدعاة إلى الحدس والتخمين ؛ كأن يدخل المفتش المدرسة ويزورها حجرة بعد أخرى ، ويختبر بعض التلاميذ على غير هداية ؛ فإن صادفت الأسئلة المجيدين من التلاميذ فذلك من حسن حظ المدرس ، وإن صادفت الضعفاء أو المهملين فذلك من سوء جده وحظه . كل هذا من غير تفكير فى أحوال التلاميذ الذين يأتون من بيئة فقيرة ، ويكون ضعفهم أحيانًا ناشئًا عن المرض ، أو سوء التغذية ، أو قلة النوم ، أو سوء الحالة المنزلية . ويجب أن يعمل المفتش لإحياء روح الابتكار والبحث وراء الحقيقة ، وينقل كل فكرة جديدة من مدرسة إلى أخرى ، ويزود المدارس بكل تجربة حديثة رآها .

وقد جاء بتقرير «مستر مان[1]» ما يأتى : « إن الفكرة السائدة الآن بمصر عن التعليم الابتدائى والثانوى أنه وسيلة لتمكين التلاميذ من اجتياز الامتحانات » .

---

(١) « مستر مان » : مفتش المدارس وكليات المعلمين بإدارة المعارف بانجلترة ، استدعته وزارة المعارف المصرية لبحث شئون التعليم فى مصر سنة ١٩٢٨ ، فكتب تقريرا ثمينا وضح فيه كثيرا من عيوب التعليم بمصر سنة ١٩٢٩ .

مشكلة الامتحان

لحضرة صاحب العزة زعيم النهضة الأدبية بمصر والشرق
الدكتور طه حسين بك

إننا فى بحث هذه المشكلة نرجو أن يسمح لنا زعيم الأدب العربى بمصر والشرق المصلح الكبير الذى يكتب للإصلاح ، ويعمل للوطن ، بهمة عالية ، وعزيمة لا تعرف التردد، وشجاعة دونها كل شجاعة « الدكتور طه حسين بك » المستشار الفنى لوزارة المعارف- بذكر مقالة من مقالاته الثمينة التى كتبها فى كتابه « مستقبل الثقافة فى مصر » صفحة (٢٠٥-٢١٥) عن الامتحانات [١]؛ فهى بحث مستفيض عن الامتحانات وما يتعلق بها ، بصورة واضحة رائعة :

«وهناك مشكلة عسيرة إلى أبعد حدود العسر، سخيفة إلى أقصى غايات السخف، يتأثر بها تعليمنا كله على اختلاف أنواعه وألوانه أشد التأثر ، فيفسد بها أعظم الفساد ، وهى لا تفسد التعليم وحده ، ولكنها تفسد معها الأخلاق ، وتكاد تجعل بعض المصريين لبعض عدوًّا. وهى لاتفسد التعليم والأخلاق فحسب ، ولكنها تفسد السياسة أيضًا ، وتكاد تجعل التعليم خطرًا على النظام الاجتماعى نفسه . وأظنك قد عرفت هذه المشكلة ، ولم تحتج إلى أن أسميها لك ؛ فهى مشكلة الامتحان .

وكل ما أرجوه منك ألاّ تظن بى الغلو والإسراف ، وأن تفكر معى مستأنيًا متمهلاً ، وأنا واثق بأنك ستشعر بما أشعر به ، وستؤمن معى بأن مشكلة الامتحان فى مصر قد أصبحت خطرًا على التعليم،وعلى الأخلاق، وعلى السياسة، وعلى أشياء أخرى قد تستبين أثناء هذا الحديث .

---

(١) ارجع إلى كتاب « مستقبل الثقافة فى مصر » لحضرة صاحب العزة الدكتور طه حسين بك بمكتبة المعارف بالفجالة بالقاهرة .

الأصل فى الامتحان أنه وسيلة لا غاية ، وأنه مقياس تعتمد عليه الدولة لتجيز للشاب أن ينتقل من طور إلى طور من أطوار التعليم ، وهو مستعد لهذا الانتقال استعدادًا صحيحًا أو مقاربًا . هذا هو الأصل ، ولكن أخلاقنا التعليمية جرت على ما يناقض هذا أشد المناقضة ؛ ففهمنا الامتحان على أنه غاية لا وسيلة ، وأجرينا أمور التعليم كلها على هذا الفهم الخاطئ السخيف ، وأذعنا ذلك فى نفوس الصبية والشباب ، وفى نفوس الأسر ؛ حتى أصبح ذلك جزءًا من عقليتنا ، وأصلاً من أصول تصورنا للأشياء وحكمنا عليها . فالأسرة حين ترسل ابنها إلى المدرسة تفكر فى تعليمه من غير شك ، ولكنها لا تفهم هذا التعليم إلا مقرونًا بالامتحان الذى يدل على انتفاع الصبى به ونجاحه فيه . وهى من أجل ذلك تعيش معلقة بآخر العام ، وبهذه الورقة التى ستأتيها من المدرسة أو من الوزارة لتنبئها بأن الصبى أو الفتى قد جاز الامتحان فنجح أو أخفق فيه .

ولا يكاد الصبى يبلغ المدرسة ويستقر فيها أيامًا حتى يشعر بأن أمامه غاية يجب أن يبلغها ؛ وهى أن يؤدى الامتحان وينجح فيه .

يشعر بهذا فى المدرسة من معلمه ومن أترابه ، ويشعر بهذا فى البيت من أبويه اللذين قد يجهلان من أمور التعليم كل شىء إلا أنه ينتهى إلى الامتحان .

وإذن فالصبي منذ يدخل المدرسة موجه إلى الامتحان أكثر مما هو موجه إلى العلم ، مهيأ للامتحان أكثر مما هو مهيأ للحياة . وإذن فليس المهم عند الصبى أن ينتفع بالدرس ، وأن يجد فيه اللذة والمتعة ، وأن يستزيد منهما ، وإنما المهم أن يستعد للامتحان وللنجاح فيه ليتفوق على أترابه ، أو ليحتفظ بمكانته بينهم ، وليرضى أبويه ويسرهما ، ويحقق ما يعقدان به من أمل ، وينوطان من رجاء ، وليظفر بما يمنيانه من مكافأة وجزاء .

والصبي ليس مبالغا فى شىء من هذا ، وإنما هو صورة لرأى الأسرة ورأى المعلمين ورأى الأتراب ، ورأى وزارة المعارف بنوع خاص . وإذن فقد استحالت المدرسة إلى مصنع بغيض يهيئ التلاميذ للامتحان ليس غير . وقد يجوز أن يجنى التلاميذ من هذا المصنع شيئا آخر غير الاستعداد للامتحان ، ولكنى أؤكد لك أن هذا ليس من عمل المدرسة ، وإنما هو نتيجة لطبيعة الأشياء ؛ فطبيعة العقل الإنسانى والملكات الإنسانية كلها أنها تتأثر بما تزاول من الأشياء ، وطبيعة العلم مهما يكن ممسوخا جافا مشوها أنه يفيد الملكات الإنسانية إذا اتصل بها .

فالتلاميذ يتعلمون فى المدرسة أحيانا ، ولكنهم يتعلمون برغمهم ، وبرغم المدرسة ، وبرغم المعلمين .

وعلى هذا النحو تمضى حياة التلميذ منذ يدخل المدرسة الابتدائية إلى أن يخرج من المدرسة الثانوية . أما التعليم العالى فله قصة أخرى .

وأظنك توافقنى على أن هذا كله شىء ، وأن التعليم شىء آخر . وأظنك توافقنى أيضا على أن تصور الامتحان على هذا النحو قلب للأوضاع ، وجعل التعليم وسيلة بعد أن كان غاية ، وجعل الامتحان غاية بعد أن كان وسيلة . وحسبك بهذا فسادا للتعليم ، ولكن هذا لا يفسد التعليم وحده كما قلت ؛ بل هو يفسد العقل والخلق أيضا . وما رأيك فى الصبي الذى ينشأ على اعتبار الوسائل غايات والغايات وسائل ؟ فيفهم الأشياء فهما مقلوبا ، ويحكم عليها حكما معكوسا ! أتظنه يستطيع أن يفهم أموره الدراسية هذا الفهم المقلوب ، ويحكم عليها هذا الحكم المعكوس ، ثم يفهم أمور الحياة فهما صحيحا ، ويحكم عليها حكما مستقيما ؟ كلا ! لأن الله لم يجعل لرجل قلبين فى جوفه ، ولا عقلين فى رأسه ، وإنما جعل له قلبا واحدا ، وعقلا واحدا . فإذا أفسدت المدرسة هذا العقل وذلك القلب فقد أفسدت التلميذ كله ، وقضت عليه بأن

يفكر تفكيرا معوجا ، وأن يشعر شعورا مختلطا ، وأن يسير فى الحياة سيرة ملائمة لهذا الاختلاط وذلك الاعوجاج .

ومن هنا لا ينبغى أن ننكر ما نراه من عناية شبابنا بالتافه من الأمر ، وإكبارهم للسخيف ، وإعراضهم عن عظائم الأمور ؛ بل عجزهم عن الشعور بعظائم الأمور والأشياء ذات الخطر . لا ينبغى أن ننكر ذلك لأن هؤلاء الشباب ينشئون على العناية بالامتحان وهو تافه ، وعلى إكبار الشهادة وهى سخيفة ، وعلى الإعراض عن العلم وهو لب الحياة وخلاصتها .

ثم لا يقف الأمر عند هذا الحد ؛ فما دام الامتحان غاية فالنجاح فيه هو غاية الغايات . إذن فموسم الامتحانات هو من أهم المواسم الوطنية أثرا فى حياتنا ، وتغلغلا فى أعماق هذه الحياة . وهو من هـذه الناحية يمس السياسة من قريب جدا ، فأين الحكومة التى لا تحفل بإرضاء الجمهور ، ولا تسلك إلى هذه الغاية كل سبيل ؟ وأين الحكومة التى لا تتجنب إسخاط الجمهور ، ولا تبتغى إلى ذلك ما وسعها من الوسائل؟ فإذا ظهرت نتيجة الامتحان رديئة غير مرضيَّة لكثرة التلاميذ وكثرة الأسر بالطبع شاع السخط ، وعمت الشكوى ، واشتد الضغط على الحكومة ، واضطرت الحكومة إلى أن تفكر فى الأمر ، وتلتمس له علاجا ، وعلاجا (ديماجوجيا) ، يتملق شهوة الأسر فى نجاح أبنائها بالحق وبغير الحق. وأنواع العلاج كثيرة ؛ منها المقبول المحتمل، ومنها الذى يقبل على كره وبشىء من المضض ، ومنها الذى لا يطاق .

أنواع العلاج كثيرة ؛ فقد يجوز أن يعاد الامتحان فى أول العام الدراسى المقبل للذين رسبوا فى آخر هذا العام؛ حتى لا تضيع عليهم سنة من حياتهم .

وقد يجوز أن يعاد الامتحان للراسبين فى بعض المواد دون بعضها الآخر فى المواد التى رسبوا فيها مثلا ، أو فى المواد التى يختارونها إن كانوا قد رسبوا فى المجموع

ولم يرسبوا فى مادة بعينها . وهناك طريقة أخرى أيسر وأهون وأحب إلى التلاميذ والأسر ؛ وهى تخفيض الدرجات التى ينجح بها الطلاب فى الامتحان .

وهناك طريقة أخرى أيسر وأهون من هذه ، وأحب إلى التلاميذ والأسر أيضا ؛ وهى تخفيض درجات النجاح بعد أن يتم الامتحان بحيث ينجح الراسبون بأمر من الحكومة لا بقرار من لجنة الامتحان . وكل هذه الطرق قد جربناه ، وبلونا حلوه ومره ، وعرفنا نتائجه فى قيمة التعليم والتربية، وفى الأخلاق ، وفيما يكون بين المعلمين والمتعلمين من صلة ، ثم فى السياسة والنظام آخر الأمر .

والغريب ــ بل لا غرابة فى ذلك ــ أننا أخذنا نجرب هذه الطرق الخطرة على التعليم والأخلاق والسياسة منذ منّ الله علينا بالنظام الديمقراطى وبالحياة النيابية التى نحبها ونفتديها بالمهج والنفوس ! وتعليل ذلك يسير ؛ فالسياسة فى الحياة الديمقراطية محتاجة إلى الجمهور ، وهى مضطرة إلى أن ترضيه ، فإذا كانت حاجتها إلى الشباب ، وإلى الشباب الذى يختلف إلى المدارس بنوع خاص كان الأمر أظهر من أن يحتاج إلى بيان . ولكن ذلك لا يمنعه أن يكون شنيعا منكرا ، مفسدا للتعليم ، مفسدا للأخلاق ، مفسدا للسياسة ، مسيئا للسمعة الوطنية فى الخارج أيضا .

وكل هذا يأتى من أننا أكبرنا الامتحان أكثر مما ينبغى ، وجعلناه غاية وحقه أن يكون وسيلة ؛ وسيلة هينة ضئيلة الشأن .

وليس هذا كل ما فى الامتحان من شر ؛ فللامتحان آثار سيئة تصل إلى الأخلاق من طريق قريبة يسيرة جدا ، أظهرها الغش الذى يأتى من حرص التلميذ على أن ينجح بأى حال من الأحوال .

وليس الغش هو الذى يقترف ويضبط أثناء الامتحان فحسب ؛ بل هناك غش آخر لعله أشد من هذا خطرا ؛ غش خفى نحسه ولا نكاد ندل عليه ، ولعل أخلاقنا

الدراسيـة أن تبيحه أحيانا ؛ غش يشترك فيه المعلمون والمتعلمون حين يهيء المعلمون تلاميذهم تهيئة خاصة لأداء الامتحان ، وحين يقفون بهم فيطيلون الوقوف عند هذا الجزء أو ذاك من أجزاء البرنامج ، وحين يعيدون معهم المقرر فيلحون عليهم فى استذكار هـذه المسألة أو تلك ، وحين يخضعونهم لامتحان التجربة أو الامتحان الأبيض كما يقول الفرنسيون قبـل الامتحان النهائى ، وحين ينشرون لهم الكتب التى تشتمل على نماذج للأسئلة التى يمكن أن تعرض فى الامتحان .

كل هـذا غش يختلف قوة وضعفا ، ولـكنه مفسد للتعليم ، ومفسد للأخلاق أيضا .

وأنا أعلم أن الامتحان شر لا بد منه ، ولـكن الغريب أننا لا نتخفف من هذا الشر ، ولا نكتفى منه بأقل قدر ممكن ، وإنما نتزيد منه ونثقل به المعلمين والمتعلمين، فنضطرهم إلى الشر ما وسعنا ذلك .

وهناك شر آخر ليس أقل من هـذا كله خطرا ؛ لأنه يفسد رأى المعلم فى نفسه وفى تلاميذه، وفى الوزارة وفى التعليم قبل كل شىء . وهذا الشر يأتى من تصور وزارة المعارف للامتحان ، ومن هذه العناية الهائلة التى تهيها له وتقفها عليه . فالامتحان فى وزارة المعارف عمل خطير يوشك أن يكون مقدسا ، قوامه الحـذر الذى لا يوصف ، والحرج الذى لا حد له ، والشك فى كل شىء وفى كل إنسان . فـكيف تريد من المعلم أن يثق بنفسه إذا شكت فيه الوزارة إلى الحد الذى يعرفه كل من مارس شئون الامتحان فى مصر ؟

وقد تسألنى عن هذه المشكلة بعد أن صورتها هذا التصوير البشع المخيف : كيف السبيل إلى حلها ؟ فأجيبك بأن الامتحان شر لا بد منه ، فلنتخفف من هـذا الشر ما وجدنا إلى ذلك سبيلا ، ولنردَّه إلى أصله ، ونجعله وسيلة لا غاية ، ولنصطنع بعض

الجراءة ، ولنردَّ إلى المعلمين ماهم أهـل له من الثقة ، ولنقدُر آراءهم فى تلاميذهم كما نقدر الامتحان أو أكثر مما نقدر الامتحان . ومعنى ذلك أن نلغى امتحان النقل فى مدارس التعليم العام إلا أن تقضى به الضرورة ؛ والمدرسة وحـدها هى التى تقرر هذه الضرورة .

وأنا أعلم أن هذا الاقتراح قد يقع من وزارة المعارف موقعا غريبا ، وقد ينكره بعض الفنيين فيها أشـد الإنكار ، ولـكني مع ذلك لا أبتكره ولا أخترعه من عند نفسي، وإنما هو نظام شائع فى كثير من البلاد التى سبقتنا إلى التعليم الحديث ، وهو النظام المقرر فى فرنسا ، وفى المدارس الفرنسية القائمة بمصر . ومن المحقق أننا نكون سعداء حقا يوم ينتج تعليمنا العام ما ينتجه التعليم العام فى أوروبة وفى فرنسا خاصة .

إذا ائتمنت المعلم على التلميذ فامنحه ما يلائم هذه الأمانة من الثقة ، واطلب إليـه أن يختبر تلاميذه فى المادة التى يدرسها لهم بين حين وحين مرة على الأقل كل ثلاثة أشهر ، وأن يمنحهم درجات على هذا الاختبار ؛ فإذا كان آخر العام فليراجع هـذه الدرجات ليرى أيستحق التلميذ بحكمها أن ينتقل إلى الفرقة الأخرى أم لا يستحق ؟ فإن كانت الأولى أقبل التلميذ فرحا مبتهجا على إجازته الصيفية ، ثم على عامه الدراسى الجـديد . وإن كانت الثانية امتحن التلميذ امتحان النقل فى المواد التى لا بد من أن يمتحن فيها ، فإن نجح فذاك ، وإن رسب أعاد عامه الدراسى .

وأظن أن هذا الاقتراح إن أخـذت به الوزارة يريحها ويريح المعلمين والتلاميذ والأسر من عبء ثقيل بغيض ، ويتيح للوزارة وللمدارس أن تفرغ للتعليم الذى هو أهم من الامتحان ، ويتيح للتلاميذ أن يفرغوا للتحصيل الذى هو أهم من أداء الامتحان .

وحسب الوزارة أن تعنى وحدها ، أو مشتركة مع الجامعة بالامتحانات العـامة التى يظفر الناجحون فيها بالإجازات .

وهذه الامتحانات نفسها كما هى الآن عسيرة معقدة تحتاج وتحتمل كثيرا من التيسير والتسهيل إن نظرت الوزارة إلى الامتحان على أنه وسيلة ؛ وسيلة يسيرة لا غاية . وإن أخذت الحكومة بالقاعدة التى أخذت بها البلاد الأوروبية من قبل ، والتى جعلنا نفكر فيها منذ أعوام ؛ وهى أن الإجازات الدراسية لا تمنح أصحابها حقوقا مالية ، ولا تؤهلهم للمناصب ، وإنما تكتسب المناصب بالمسابقات » .

بهذه المقالة الثمينة وصف الأستاذ المحقق الدكتور طه حسين بك مشكلة الامتحان وعلاجها وصفا مسهبا . وهى واضحة الوضوح كله ، وليست فى حاجة إلى تعليق ؛ فهى خير وصف للداء والدواء فى وقت واحد . ونرجو مخلصين أن يوفقه الله لإصلاح التعليم فى مصر فى كل مرحلة من مراحله .

٢ — قلة القراءة والبحث والاطلاع

يذهب الطفل إلى المدرسة الابتدائية ؛ فلا يجد من يشوقه إلى القراءة فى المنزل أو المدرسة ، ثم يلحق بالمدرسة الثانوية وينتهى منها وهو لا يستطيع أن يكتب مقالة أو يقرأ رسالة من غير أن يخطئ . ولا عجب؛ فإنه لم يشجع على القراءة والكتابة ، ولم يجد فيهما لذة . وإذا لحق بمدرسة عالية كانت كل آماله أن ينتهى من المدرسة ومن الدراسة؛ لأنه يعمل للامتحان، ولا يفكر إلا فى الامتحان ، فلم تَنبُت فى نفسه الرغبة فى العلم، وحب العلم للعلم . فإذا نجح ونال شهادته العالية حاول أن يجد لنفسه وظيفة يرتزق منها . فإذا تحققت غايته قضى أوقات عمله فى مكتبه ، فإذا ما انتهت ساعات العمل خرج لا يفكر فى قضاء أوقات فراغه فى ألعاب رياضية ، أو قراءة أدبية، أو علمية ، أو حضور لمحاضرة ، أو ذهاب إلى دار للكتب ، أو تعلم موسيقا ، أو

اشتغال برسم أو تصوير ؛ بل يقضى أوقات فراغه فى المقاهى والملاهى حيث يلهو ويقتل الوقت كما يقولون ، ويتحدث فى أعراض الناس . ولكن من نلوم ؟ إننا نلوم المدرسة وأساليب التعليم التى نتبعها فى تدريسنا ، ونحملها تبعة انصراف الشباب بعد الحياة المدرسية إلى اللهو والركود العلمى ، وقلة الاطلاع ، وعدم الانتفاع بأوقات الفراغ .

وفى معظم المدارس لدينا مكتبة خاصة بها كثير من الكتب ، ولكنها لا تجد من يقرؤها ؛ فالتلميذ لا يشجع على الاستعارة والقراءة فى أى مرحلة من مراحل التعليم . فلا عجب إذا نفر من الكتب، وباع ما لديه منها بعد انتهائه من الحياة المدرسية . والمدرس لا يستعير منها فى الغالب إلا الكتب الدراسية .

تشترى وزارة المعارف بعض الكتب الجديدة كل سنة ، وترسل إلى كل مدرسة حظها منها ؛ رغبة فى إفادة التلاميذ والمدرسين ، فتزود المكتبة ببعض الكتب والمجلات ، ولكن الطلبة لا يعرفون عنها شيئاً ، ولا ينتفعون بها ؛ لأن أيديهم لا تصل إليها؛ فالكتبة فى المدارس يأخذون الكتب ويسجلونها فى دفتر المكتبة، ولا يفكر المدرس منا فى البحث عن الكتب الجديدة ، وإخبار الطلبة بها ، وحثهم على استعارتها ، وتشويقهم إلى قراءتها . لا يفكر فى أخذهم إلى المكتبة ، وتشجيعهم على الاطلاع ، وتفهيمهم طريقة البحث ولو ساعة كل أسبوع . إننى لا أعد المدرسة ناجحة فى عملها ، أو قامت بواجبها ــ ولو حصلت على نتيجة مائة فى المائة فى جميع امتحاناتها ــ إلا إذا بثت فى نفوس تلاميذها حب القراءة والاطلاع . فإذا استطاعت الوصول إلى تحقيق تلك الغاية فقد وفقت فى عملها كل التوفيق ، وخرجت شباناً يدأبون فى القراءة بعد الانتهاء من المدرسة ؛ فتزداد معلوماتهم ، وتتسع مداركهم ، وتكثر تجاربهم . وإنى أرجو أن يأتى اليوم الذى يتسابق فيه الطلاب إلى المكتبات

المدرسية ، ودور الكتب العامة ؛ حتى لا يجد المتأخر فى الحضور إليها مكاناً يجلس فيه .

ولكى يتيسر البحث والاطلاع يجب أن تكون المكتبة فى أوسع حجرة بالمدرسة ، وأن يكون بها مكاتب ومقاعد كافية ؛ ليستطيع التلاميذ استعمالها ، وإعداد بعض الدروس فيها ، والاطلاع على ما يريدونه من الكتب .

وحبذا الأمر لو أنشئت خزانة للكتب فى كل فصل من فصول المدرسة ، يقوم بتنظيمها طالب ينتخبه تلاميذ الفصل من بينهم تحت إرشاد المدرس ؛ بحيث يكون فيها كثير من الكتب الدراسية المختارة ، يقرأ منها التلميذ ما شاء ، ويستعير منها ما أراد لمدة معينة . فإذا أخر الكتاب عن الموعد المعين عوقب بدفع نصف قرش فى اليوم الأول ، وقرش فى اليوم الثانى وهكذا . وتشترى كتب بما يجمع من النقود وتضاف إلى خزانة الفصل . وعلى المدرس أن يسأل عن عدد الكتب المستعارة، وعمن استعار من التلاميذ ومن لم يستعر ، ويسأل الطلبة الذين لم يستعيروا عن السبب فى عدم الاستعارة ، ويحثهم عليها وعلى القراءة فى الخارج فى أثناء أوقات الفراغ ؛ بحيث يقرأ التلميذ كتابين على الأقل كل شهر ، فيقرأ فى السنة المدرسية كثيراً من الكتب والمجلات الأدبية والعلمية والاجتماعية . وللطلبة وأولياء أمورهم أن يهدوا إلى المدرسة من الكتب ما تسمح به نفوسهم ؛ لتكون تذكاراً لهم ولأبنائهم .

وإذا بعثنا فى نفوس الطلبة حب البحث فى المدرسة ، وفتحنا الطريق أمامهم كان من السهل أن يتمموا بحوثهم ، ويستزيدوا من العلم بعد ترك المدرسة . وهنا يمكن أن نفخر بأننا نجحنا فى عملنا المدرسى .

وفى دروس المطالعة كثيراً ما يقضى المدرس حصتين أو أكثر فى قطعة لا تستغرق أكثر من درس واحد . ولا عجب ؛ فمعظم الوقت يقضى فى مناقشات حول إعراب بعض الجمل ، لا فى القراءة والاطلاع . ولا نبالغ إذا قلنا إن

مجموع ما يقرأ فى السنوات المدرسية لا يزيد على الكتب المقررة . ولو كان المدرس حريصًا على منفعة تلاميذه ، لحبب إليهم المطالعة ، وشجعهم على القراءة فى الخارج ؛ حتى تزداد ثروتهم اللغوية والفكرية ، ويعتادوا حب الاطلاع .

فالأساليب المتبعة فى تدريس المطالعة عقيمة ، لا تحبب القراءة إلى التلاميذ ؛ فإنها لا تخرج عن تكرار آلى لفقر خاصة طول الحصة بطريقة مملة . ولا يعد المدرس ناجحاً فى مهنته إلا إذا عود تلاميذه حب الاطلاع ؛ بتشجيعهم على القراءة فى المدرسة وخارجها ، والانتفاع بما فى مكتبة التلميذ من كتب ملائمة . وينبغى أن يعنى المدرس بالقراءة الجهرية فى بعض الحصص ، والسرية فى بعضها الآخر ؛ حتى يشجع التلاميذ على القراءة ، ولا يضحى بالمطالعة فى سبيل القواعد والتطبيق .

يقول (المستر مان) فى تقريره بصفحتى ٤٤ — ٤٥ : « لا يسعنا أن نغض الطرف عن قلة ما تزود به المدارس من كتب المطالعة العربية ، وهذا نقص معيب فى ذاته ، ومما يزيده سوءًا أن معظم التلاميذ والطلبة ليس لديهم مكتبات خاصة بهم يرجعون إليها فى المطالعة ؛ فتلميذ المدرسة الأولية لا يقرأ على ما يظهر فى خلال حياته المدرسية سوى كتابين أو ثلاثة كتب صغيرة ، يسهل عليه أن يحفظها عن ظهر قلب . كما أن حالة المدارس الابتدائية والثانوية ليست من هذه الناحية أرقى كثيرًا من حالة المدارس الأولية . وليس من شك فى أنه إذا أريد تدريب التلاميذ بوجه عام على أن يطالعوا الكتب العربية بسهولة ، ويستفيدوا منها ، فلابد من الإكثار فى المدارس من الكتب العربية الصالحة للمطالعة . ويجب إيجاد مجموعة كبيرة متنوعة من الكتب المناسبة للأحداث ؛ لأنه إذا أريد تعويد التلاميذ القراءة بشغف وتدبر فلابد من استمالتهم إلى ذلك بإعطائهم مؤلفات تجتذب مادتها عقل الطفل ؛ أى أنها تشتمل على قصص مفعمة بالوقائع الرائعة ، وحسن الوصف ، ولا سيما نوع القصص

المثلة فى الأدب القومى لكل أمة تقريبا . وهذه هى المادة التى تفتقر إليها مصر أشد الافتقار ؛ إذ أنه لا يكاد يوجد بين كتب المطالعة العربية فى المدارس المصرية العادية كتاب واحد يضارع مئات الكتب القصصية الممتعة بل ألوفها التى تتكون منها المعدات الأولية للتعليم المختص بالطفل الإنكليزى . ولهذا يستحسن كل الاستحسان أن تعمل وزارة المعارف العمومية على تدارك هذا النقص من غير ما توان ؛ لأنه إذا لم يعالج هذا العيب فإن معظم التلاميذ المصريين يظلون محرومين إلى حد كبير كسب عادة المطالعة المثمرة فى الصغر ، وما يترتب عليها بطبيعة الحال من تنمية المواهب العقلية ، وتعزيز المعلومات ؛ لأنى أعتقد أن كتاب ألف ليلة وليلة يصح أن يكون موردًا يؤخذ منه كثير من القصص الملائمة، أو التى يمكن جعلها ملائمة لهذا الغرض . وإذا رئى أن هذا الكتاب لا يفى بالحاجة ففى استطاعة المترجمين أن يقتبسوا بسهولة من كنوز الأدب الأوروبى المختص بالأحداث ، وهى كنوز واسعة النطاق » .

وربما كانت دعوى «المسترمان» فى قلة الكتب القصصية صحيحة فى الوقت الذى كتب فيه تقريره سنة ١٩٢٩ . أما اليوم فلدينا كثير من الكتب الملائمة للأطفال؛ منها: « أروع القصص » ، و « قصص فى البطولة والوطنية » ، و « فى سبيل الوطن » ، و« خليفة فى الخيال » ، و «الحصان المسحور[١] » ، وغيرها كثير. وليس من الحق أن ندعى أن الطفل المصرى يجد من كتب الطفولة ما يجده الطفل الإنكليزى .

المطالعة وأهميتها فى التربية الحديثة[٢]

لا نبالغ إذا قلنا إن الغرض الجوهرى من التربية والتعليم القدرة على القراءة بسهولة، ومعرفة الطريقة التى بها نصل إلى المادة التى نرغب فيها . ولا يشك أحد فى أن

(١) كلها بمكتبة المعارف بالفجالة بالقاهرة .

(٢) ارجع إلى كتاب : The Mother Tongue, by Ballard

الكتب خير غذاء للعقل، وخير وسيلة لقضاء بعض أوقات الفراغ وكسب الأفكار. والطفل الفقير لا يجد فى بيته من الكتب ما يشجعه على القراءة ، أو ما يحبب إليه الاطلاع. ولذا يجب على المدرسة أن تمد الفقراء من الأطفال بما يحتاجون إليه من الكتب ، وتبث فى نفوسهم حب القراءة والاطلاع، وتعلمهم كيف يستعملونها، وكيف يبحثون عن الحقيقة فيها، وكيف ينتفعون بما فيها من ألفاظ وعبارات وآراء وأفكار. ويجب أن يشعر الأطفال بأن الغرض من القراءة الفهم وحسن التعبير ومعرفة ما يرمى إليه الكاتب من حقيقة أو فكرة .

وفى المدارس الإنكليزية والأمريكية يستطيع الأطفال فى المدارس الابتدائية أن يقرءوا فى السنة الدراسية الواحدة خمسة كتب أو ستة ، ويزودون بالكتب حينما يكون لديهم استعداد لقراءتها . ومن الممكن إعطاء الأطفال فى السنة الأولى من مدارسنا الابتدائية كتبًا للمطالعة من بدء السنة الدراسية ، وتشويقهم إلى القراءة بتمثيل بعض القصص والحكايات؛ بأن يقرأها الأطفال عدة مرات حتى يفهموها، ويستطيعوا تمثيلها من الكتب ومن الذاكرة . وإذا أظهر بعضهم خجلاً فى البدء عند الاشتراك فى تمثيل القصة أمكن بالتدريج إزالة هذا الخجل؛ حتى يلحوا فيما بعد فى الاشتراك فى التمثيل .

وفى كتب المطالعة العربية للمدارس الابتدائية والثانوية اخترنا قصصًا عربية وغربية يمكن تمثيلها بسهولة؛ حتى يجد التلاميذ لذة فى دروس المطالعة، ولا تكون آلية.

وإذا وجد المدرس من التلاميذ صعوبة فى القراءة وجب أن يقرأ القطعة أمامهم مرة أو مرتين قراءة نموذجية؛ ليقتدوا به ويحاكوه فى الإلقاء .

وبالقراءة الجهرية نستطيع أن ننمى فيهم القدرة على التعبير ، مع مراعاة الدقة فى القراءة والفهم . ومن المستحسن استدعاء بعضهم للوقوف أمام الفصل للتكلم عن الحكاية التى قرأها وذكر ما فهمه منها . وإذا أبدى التلميذ ترددًا فى الابتداء وجب

على المدرس أن يشجعه على التفكير ثم التعبير . وقد سمع أحد المربين طفلاً عصبيًّا عمره ست سنوات كان يتردد فى نطقه يعيد الحكاية أمام إخوانه من غير أى تردد أو تلعثم ؛ فقد تمرن على الإلقاء حتى اعتاده .

ولا يستطيع التلاميذ القراءة بسهولة إلا إذا كانت اللغة سهلة ، والأفكار فى مستوى التلاميذ، تلائم ميولهم ومداركهم فى المراحل المختلفة من التعليم . وإذا حسنت القراءة جماعة مع صغار الأطفال فإنها لا تحسن مع كبارهم .

وفى القراءة السرية يجب أن يقرءوا الموضوعات والحكايات بأنفسهم لأنفسهم، ثم يكلفوا ذكرها شفويًّا أمام إخوانهم؛ للتأكد من قراءتهم وفهمهم. وقد يقرأ المدرس الموضوع كله أو القصة كلها أمام التلاميذ وهم يتتبعون قراءته وكتبهم مفتوحة أمامهم، ثم يقرؤها من بعده بعض التلاميذ ، مع مراعاة حسن الإلقاء وتمثيل المعنى فى الحصة الواحدة . وينبغى أن تكون القصة ملائمة للزمن، تشجع التلاميذ على القراءة ، بحيث يكون فيها ما يستميلهم ويرغبهم فى المطالعة والاستفادة .

ويجب أن يكون كل كتاب مدرسى فى كل مادة من المواد سهل اللغة والعبارة ، ملائمًا لمدارك التلاميذ ، خاليًا من الخطأ اللغوى والنحوى ، والتعقيد اللفظى والمعنوى ؛ كى ينتفع التلاميذ بالقراءة فى أثناء دراسة المواد الأخرى ، ولا يجدوا صعوبة فى الفهم والإدراك .

وكلما تقدم التلاميذ فى دراستهم وجب أن تزداد رغبتهم فى المطالعة، وتكثر ثروتهم اللغوية والفكرية؛ حتى يجدوا لذة فى القراءة، ويظهروا ميلاً لكسب المعلومات. وإن التلاميذ الذين لا يستطيعون القراءة إلا بصعوبة لا يمكننا أن ندعى أنهم استفادوا كثيرا من دروس المطالعة، أو وجدوا لذة فيها، أو انتفعوا بها كما انتفع التلاميذ الذين يقرءون برغبة، ويعبرون ويفهمون بسهولة .

وليس من الضرورى فى القراءة السرية أن يقرأ الفصل كله كتابا واحدا فى

وقت واحد ؛ فالتلاميذ يختلفون فى رغباتهم وميولهم. ومن المستحسن فى ذلك النوع من القراءة أن نترك لهم الحرية فى اختيار مايقرءون من الكتب الثمينة؛ حتى نرغبهم فى القراءة والاطلاع ، ونشوقهم إلى الأدب . ويجب أن يكون فى مكتبة المدرسة مع الكتب المقررة كثير من الكتب الإضافية الأخرى؛ كى ينتفع بها التلاميذ فى بعض الأحيان . وليس هناك ما يمنع قراءة الموضوع الواحد فى كتابين مختلفين أو فى كتب مختلفة ؛ كأن يقرأ جزء من الفصل موضوعًا عن مصطفى كامل أو سعد زغلول فى كتاب، ويقرأ الباقون من الفصل عنهما فى كتاب آخر أو أكثر فى أثناء المطالعة السرية. وعند الانتهاء من القراءة يكلف بعض التلاميذ التكلم شفويًّا عن الموضوع، فيتبادلون الأفكار، ويستفيد هؤلاء من أولئك، وأولئك من هؤلاء كثيرا من الآراء والتعبيرات المختلفة. ويستطيع المدرس أن يحكم على مقدار ما استفاده التلاميذ من قراءتهم لذلك الموضوع فى هذا الكتاب أو ذاك .

وفى دروس المطالعة السرية والجهرية يجب على المدرس أن يعلم التلاميذ كيف يستعملون فهرس الكتاب، وكيف يبحثون عن معانى الكلمات الصعبة فى المعاجم، ويختارون منها المعنى الملائم للقطعة . وكيف يرجعون إلى المعانى التى تطبع فى أواخر الكتب؛ حتى يستطيعوا فيما بعد الاعتماد على أنفسهم فى البحث عن معانى المفردات الصعبة التى تعترضهم فى أثناء قراءتهم أى كتاب من الكتب. وإذا كان فى الفصل مكتبة صغيرة أو رفوف للكتب وجب أن يعود التلاميذ إحضارها من المكتبة أو الرفوف، وإعادتها إلى أمكنتها بعد الانتهاء من البحث فيها . ولا يفوتنا أن نشجع المدرسين على أن يختاروا ويقدموا لتلاميذهم بعض المقالات التى تنال تقديرهم وإعجابهم فى أثناء قراءتهم للصحف اليومية ، والمجلات الأسبوعية أو الشهرية التى يجدها التلميذ فى بيته مع أبيه أو أمه أو أخته .

وينبغى أن يشجع التلاميذ على اختيار بعض الموضوعات من الصحف أو المجلات التى يقرءونها إذا كانت ملائمة متصلة بدراستهم . ويحسن أن يعير المدرس كتبه

ومجلاته لتلاميذه، ويشجعهم على أن يعير كل منهم الآخر ما لديه من كتب ليقرأها فى الخارج فى بعض أوقات الفراغ؛ كى نعودهم القراءة والاطلاع والتعاون والأمانة والأخذ والعطاء وحسن المعاملة .

ويجب أن يدرك التلاميذ أن الكتب مفيدة لسببين :

١ — أن يبحث المتعلم عما يريد أن يعرفه ؛ كى يفهم درسه .

٢ — أن يسر نفسه ويغذى عقله بما يجده من لذة وغذاء فى الكتب فى أثناء قراءتها .

وفى استطاعتنا أن نعود التلاميذ حسن اختيار الكتب التى تغذى عقولهم وأذواقهم وتخيلاتهم . وإذا استطعنا أن نعود التلاميذ حتى الريفيين منهم القراءة فى أوقات الفراغ ، وحسن اختيار ما يقرءون ـ نجحنا كل النجاح فى أداء واجبنا، وإرضاء ضمائرنا .

ومن المؤلم أن نقول إن القراءة تكاد تكون معدومة بين معظم المتعلمين وأنصاف المتعلمين من المصريين . ولا نبالغ إذا قلنا إنها لا تتعدى الصحف اليومية ، والمجلات الهزلية . فإذا أمكننا أن نبث فى نفوس النشء حب القراءة فى (الترام) والقطار والسيارة فى أوقات الفراغ قمنا بعمل جليل، وخدمة كبيرة للأمة من الناحية الثقافية. فليس من واجب المدرسة أن تحبب القراءة إلى التلاميذ فحسب؛ بل من واجبها أن تعودهم القراءة، وحسن اختيار الكتب التى يقرءونها .

ومن المستحسن تشجيع المتعلمين على اقتناء بعض المجلات والكتب الأدبية والعلمية ، والاحتفاظ ببعض الموضوعات التى تختار من الصحف اليومية . ونرجو مخلصين أن يأتى اليوم الذى يعمم فيه التعليم إلى مستوى كبير، وتعم فيه الثقافة بين أفراد الشعب فى المدن والريف ؛ حتى نجد مكتبة فى كل بيت من البيوت الفنية

والفقيرة، الرفيعة والوضيعة ، ونجد للدولة دارا للكتب فى كل قرية للقراءة والإعارة والاستعارة ؛ فإن الفلاح الفقير إذا تعلم لا يستطيع أن يشترى كتابا ، ولا تسمح له موارده المحدودة بشراء كتب فى يوم من الأيام .

وإذا وجدت الرغبة فى القراءة لدى التلميذ كان من السهل أن يكوّن لنفسه مكتبة صغيرة بالتدريج إذا اشترى له فى كل شهر كتابا . وعلى المدرس أن يزود تلاميذه بما ينبغى أن يقرءوا من كتب فى الأدب والأخلاق والوطنية والبطولة والعلم والفن والاجتماع والتاريخ؛ حتى يجد كل تلميذ ما يشاء من الكتب، وما يريد أن يقرأ .

ومن السهل على المجالس المحلية والقروية – إن وجدت وعمم التعليم – أن تنشئ مكتبات متنقلة فى الريف ؛ حتى تستطيع المدارس الريفية الانتفاع بما فيها من كتب تلائم حاجات التلاميذ وتغذى ميولهم ورغباتهم .

ويميل التلاميذ بطبيعتهم إلى الكتب القصصية فى البطولة والشجاعة والوطنية والمغامرات، وحياة العظماء من الرجال ، والكتب الخاصة بالناحية الإنسانية . وإذا وجدت مكتبة فى القرية فمن السهل تعويد النجباء من التلاميذ القيام بإعارة الكتب لمن يشاء، وتدوينها فى الدفاتر، وردها إلى المكتبة بعد أسبوع أو أسبوعين؛ بأن تجعل الإعارة فى يوم من الأيام بعد الظهر، ويسمح لأى متعلم بالاستعارة ، فيستعير التلاميذ لأنفسهم وآبائهم وأمهاتهم ، ويعيدون الكتب بعد قراءتها فى مواعيدها . وفى هذا العمل درس ثمين فى الحياة العملية ، وتثقيف لأبناء الشعب .

ومن النادر أن يرى الإنسان كلمة أدب عربى فى جدول أوقات الدروس فى أى مدرسة ابتدائية، وهذا من العار. ولا يشك أحد أن الأدب السهل للأطفال روح الحياة الغالية التى يجب أن نحافظ عليها إلى الأبد . ومن الأمور التى يجب أن نفكر فيها ونعمل للوصول إليها جعل التلاميذ فى المنازل يعيشون فى عالم أدبى وهو عالم الكتب . فالكتب وراثة

ورثناها عن الأجيال السابقة . ومن الواجب أن نقدمها إلى الجيل الحاضر، ونعلم ذلك الجيل حسن القراءة، وحب الاطلاع، وحب الأدب. فإذا أعطينا التلميذ كتابا أمكنه أن يميز غثه من سمينه، وقبيحه من حسنه، ويختار منه أحسن الشعر وأحسن النثر .

ولا يمكننا هنا أن نترك كلمة ثمينة عن القراءة الحرة لحضرة صاحب العزة الدكتور طه حسين بك زعيم النهضة الأدبية فى مصر والشرق من كتابه «مستقبل الثقافة بمصر » ص (٢١٦ـ٢٢١) الجزء الأول

القراءة الحرة

لحضرة صاحب العزة عميد الأدب العربى المصلح الكبير
الدكتور طه حسين بك

«إلغاء امتحان النقل ، وتيسير امتحان الإجازات العامة، ومنح المعلم ماهو أهل له من الثقة ، ومنح التلميذ ما هو فى حاجة إليه من الراحة والفراغ ، كل ذلك سيعين على حل مشكلة أخرى نشكو منها ، ونضيق بها ، ولا نعرف كيف نجد لها حلا . وهى مشكلة الإعراض عن القراءة الحرة السمحة التى لا تتقيد بمنهاج الدرس وبرنامجه ، ولا تقتصر على الكتب المقررة ، والمذكرات التى يمليها المعلمون . هذه القراءة الحرة هى نصف التعليم العام ، ولعلها أن تكون أقصر من نصفه ، ولعلها أن تفيد المتعلمين أكثر مما تفيدهم الدروس والكتب التى يكرهون على قراءتها إكراها؛ ذلك لأن الإنسان ينتفع بما يقبل عليه عن رغبة وميل أكثر جدا مما ينتفع بما يقبل عليه عن إكراه وقسر ؛ لأن الإنسان قد خلق كذلك يؤثر الحركة الحرة على الحركة التى تفرض عليه فرضا ، ويخيل إليه حين يعمل حرا مختارا أنه حر مختار حقا ، وأنه يأتى من الأمر ما كان يستطيع أن يدع لولا أن إرادته قد تعلقت به ، ودعت إليه . ولو أنك امتحنت التلاميذ الذين يتعلمون فى المدارس الأجنبية فى مصر ، والتلاميذ

الذين يتعلمون فى المدارس الأوروبية بوجه عام ، وأتيح لك أن ترد ما فى نفوسهم من العلم ، وما فى عقولهم من المعرفة ، وما فى قلوبهم من الشعور والحس إلى أصوله ومصادره ، لتبينت فى غير مشقة ولا جهد أنهم مدينون بهذا كله ، أو بأكثر هذا كله على الأقل للكتب التى يقرءونها ، والنظرات الحرة التى يلقونها على ماحولهم من الحوادث والأشياء ، وللأحاديث المختلفة التى يسمعونها ، ويشاركون فيها أكثر مما هم مدينون به لما يلقى عليهم المعلمون من الدروس ، ومايملون عليهم من المذكرات.

والواقع أن دروس المعلمين فى المدرسة التى تستحق هذا الاسم يجب أن تكون إرشادا لا تلقينا ، ودفعا إلى استكشاف الحقائق واستنباطها لا فرضا لهذه الحقائق على عقول الصبية والشباب . ولن يستطيع المعلم أن يرشد التلميذ ، وينمى فيه ملكة البحث والحاجة إلى الاستطلاع ، ويقوم ما يعرض له من الخطأ فى هذا كله إذا كان مضطرا إلى أن يعد التلميذ للنجاح فى الامتحان . فأنت لا تستطيع أن تكلفه أمرين متناقضين هما : أن يعد لك أداة تؤدى الامتحان ، وتنجح فيه ، وأن يعد لك فى الوقت نفسه إنسانا حرا مفكرا يبحث ويستكشف ، ويدرس ويستنبط ، ويكوّن لنفسه رأيا فيما حوله من الأشياء .

ولو أن المعلم كان من القوة والبراعة والامتياز بحيث يستطيع أن يحدث المعجزات ، ويخلق المتناقضات ، وينشئ لك هذا الكائن الغريب الذى هو آلة قابلة من أحد وجهيه ، وقوة فاعلة من وجهه الآخر ، ما استطاع التلميذ أن يستجيب له ، ولا أن يقبل منه ، ولا أن يتهيأ فى وقت واحد للامتحان الذى يفنى القوة ، وللاستكشاف الذى يوجدهاوينميها ، فلابد إذن من أن تختار بين أن تكون المدرسة مصنعا تشتغل فيه آلات لتصنع آلات مثلها ، وبين أن تكون المدرسة دارا تفتح فيها عقول التلاميذ وقلوبهم لإدراك الحياة وفهمها، ولإدراك الطبيعة وفهمها . فإن

اخترت الأولى فدع المدارس كما هى الآن ، ولا تـكلف نفسك تجديدا ولا إصلاحا ؛ فإنها تحقق هذا الغرض على أحسن وجه ممـكن . وإن اخترت الثانية فلا أقل من أن تمـكن المدارس من تحقيقها ، ومن أن تزيل العقبات التى تعترض دون هـذه الغاية الـكريمة .

ولست أدرى أيشعر الناس وتشعر الوزارة نفسها بما أشعر به وأجد فى الشعور به ألما ممضا ؟ وهو أن التلاميذ لا يُعرضون وحدهم عن القراءة ، وإنما يشاركهم المعلمون فى هذا الإعراض . ولعلى لا أُخطئ إذا قدرت أن إعراض التلاميذ عن القراءة ربما كان نتيجة لإعراض المعلمين عنها ؛ فالمعلمون فى مصر لا يقرءون .

هذه حقيقة ثابتة من إضاعة الوقت أن نتكلف إقامة الدليل عليها . هم لا يقرءون لأنهم لا يجدون الوقت للقراءة ؛ فالمدرسة تستنفد ما يملـكون من الوقت الخصب فى جهود، ولا تخلو من سخف . وهم لا يقرءون لأنهم لا يجـدون النشاط للقراءة ؛ فالوزارة قد اضطرتهم إلى وضع مادى ومعنوى يضيقون فيه بـكل شىء ، ويضيقون فيه بأنفسهم قبل كل شىء . حياتهم المادية ضيقة محدودة ، قوامها العسر ، وربما كان قوامها البؤس فى كثير من الأحيان . فهم إذا فرغوا من جهدهم الدراسى فكروا فى تدبير حياتهم هـذه الضيقة العسيرة ، وفى التماس المخرج مما فرض عليهم من الضيق والعسر . وما رأيك فى معلم لا تريحه الدولة حتى من هـذه النفقات التى يحتاج إليها ليعلم أبناءه، مع أنه ينفق جهده وحياته فى تعليم أبناء الأمة ؟ ولا تستحى الدولة آخر الأمر مع ضآلة مرتبه من أن تطلب إليه أجور ما يحتاج إليه أبناؤه من التعليم . ولقد رأيت معلمين يشقون أشد الشقاء وأمضه؛ لأنهم لا يجدون ما ينفقون على تعليم أبنائهم؛ فهم مخيرون بين أن يعلموهم ويحرموهم من أجل ذلك ماهم فى حاجة إليه من ضرورات الحياة، وبين أن يحرموهم التعليم ليمنحوهم اللباس والغذاء . فـكيف تريد من رجل يقسم وقته بين جهود الدرس ومحاربة البؤس أن يفرغ للقراءة والتزيد من الثقافة ؟

وحياتهم المعنوية مظلمة قاتمة ، قوامها الذل والرق ، والشعور بأنهم قد حرموا أشد الأشياء اتصالا بمهنتهم ؛ وهو الثقة بهم ، والكرامة فى نفوسهم ، وفى نفوس الذين يشرفون عليهم من الرؤساء . كل هذا يصد المعلم عن العلم ، ويزهده فى القراءة ، ويرغبه عن الثقافة ، ويضطره إلى هذه الحياة الجامدة التى يحياها .

وكثيرا ما كنت أضيق باختلاف المعلمين إلى القهوات والأندية ، وإضاعتهم الوقت فى هذه الأحاديث الفارغة عن الدرجات والمرتبات ، وعن المفتشين وكبار الموظفين ، ولكنى مضطر بعد أن داخلتهم وبلوت أمورهم من قرب إلى أن أرحمهم ، وأعتذر عنهم ، وألوم الدولة التى تضطرهم إلى هذا الجمود .

ومهما يكن الملوم فى ذلك فالمحقق هو أن المعلمين فى مصر لا يقرءون ، وهم من أجل ذلك لا يقفون عندما حصلوا فى المدارس حين كانوا طلابا فحسب ، بل ينسون أكثره ، ويقفون عند المناهج والبرامج التى يكلفون تعليمها فى المدارس ؛ يرددونها إذا أصبحوا ، ويرددونها إذا أمسوا ؛ حتى يصبحوا منـاهج وبرامج تأكل الطعام وتمشى فى الأسواق ، وتختلف إلى المدارس وجه النهار ، وإلى الأندية والقهوات آخره وأول الليل . فكيف تريد من هذا المعلم الذى لا يقرأ أن يدفع التلميذ إلى القراءة ، ويرغبه فيها ، ويزينها فى قلبه ، ويحاسبه عليهـا آخر الشهر أو آخر العام ؟ ستقول فهبنا رفهنا على المعلم والتلميـذ ، وحططنا عنهما عبء الامتحان الثانوى ، وهيأنا لهم الفرض للقراءة فماذا يقرءون ؟ فأجيبك بأن هذه قصة أخرى كما يقول « كيبْلنْج » ولكننى سأعرض لها فى موضع آخر من هذا الحديث .

فأما الآن فحسبى أن توافقنى على أن من أوجب الواجبـات أن نبرئ المدرسة من الركود الذى اضطررناها إليـه اضطرارا ، وأن نردها إلى الحياة . ولا سبيل إلى ذلك إلا إذا هيأنا المعلم والتلميذ لتجديد أنفسهما بهـذه القراءة الحرة التى لا يحتملها البرنامج ، ولا يفرضها القانون . »

هذا ماذكره صاحب العزة الدكتور طه حسين بك عن القراءة الحرة، وقلة اطلاع التلاميذ والمدرسين . وإننا نشارك الدكتور فى رأيه أن من الواجب أن يشجع التلميذ على القراءة ، ويعمل المدرس لتجديد معلوماته ، ويتصل بالعالم العلمى أو الأدبى أو الفنى ؛ لأن مهنة التعليم تتطلب من المدرس أن يكون طالبا من المهد إلى اللحد ، يطلع على كل ما كتب باللغة العربية فى مادته ، وفى التربية وعلم النفس ؛ كى لاتقل معلوماته ، ولا ينضب معينه ، ولا تكون مادته محدودة .

٣ – فى المحادثة والإنشاء

هناك فجوة كبيرة بين المحادثة فى السنتين : الأولى والثانية من المدارس الابتدائية ، والإنشاء فى السنة الثالثة . ويرجع ذلك إلى حاجة المدرسين إلى من يرشدهم إلى الطريقة المثلى فى تدريس المحادثة . ومن السهل تكليف التلاميذ فى الابتداء كتابة بعض جمل حول موضوع معين يكون فى مستواهم ؛ فإذا ماانتقلوا من السنة الأولى إلى الثانية أمكن تمرينهم على كتابة قصص سهلة ، أو وصف موضوعات محسة ؛ حتى يسهل تعويدهم الاعتماد على أنفسهم فى الكتابة الإنشائية فى السنتين : الثالثة والرابعة . ومع كثرة الموضوعات المحسة التى يمكن التحادث فيها عن الحيوان ، والطيور ، والنبات، والصور المدرسية يلجأ بعض المدرسين أحياناً إلى مطالبة التلاميذ بكتابة جمل عن مفردات لاصلة بينها، ولا ارتباط فيها؛ كالشمس، والكتاب،والحصان، والتفاح .وإن هذا النوع من تكوين الجمل يصلح تمرينا للتطبيق لاللمحادثة الكتابية.

وفى الموضوعات الإنشائية لا يُجيد بعض المدرسين اختيار موضوعات فى مستوى التلاميذ ؛ فأحيانا يكلفونهم مالاطاقة لهم به ، ناسين أنهم أطفال ، فينتقلون بهم إلى

عالم الفلسفة والعقل قبل أن يروا عالم الحس والمحسات ؛ فقد يطالبون بالكتابة فى « وصف الحكومة وذكر فوائدها »،أو« الفرد والمجتمع وعلاقة كل منهما بالآخر»، أو« وصف الحالة النفسية التى يشعر بها الإنسان عند مقابلة صديق له بعد غياب طويل » ، وغيرها من الموضوعات الفلسفية والاجتماعية التى لا يستطيع أن يفهمها صغار التلاميذ . وقد نسى بعض المدرسين أن التلميذ الذى لا يزيد عمره على إحدى عشرة سنة لا يستطيع أن يصف الحكومة ، ولا يعرف فوائدها ، ولا يدرك أثر الفرد فى المجتمع،أوأثر المجتمع فى الفرد ، وعلاقة كل منهما بالآخر . ولا يمكنه أن يصف الحالة النفسية التى يشعر بها الإنسان عند اللقاء بعد طول الفراق ؛ فهذه كلها موضوعات فلسفية فوق مستوى التلاميذ فى المدارس الابتدائية . وما كان أغناهم عن هذا بالرجوع إلى بيئة التلميذ فى المنزل والمدرسة والمجتمع ؛ ففيها كثير من الموضوعات التى تلائمهم من القصص والرسائل والوصف .

وفى إصلاح الكراسات الإنشائية يكتفى بعض المدرسين بإصلاح الغلطات الإملائية واللغوية والنحوية والفكرية ، وإعطاء الكراسات للتلاميذ ، ظانين أنهم قد قاموا بواجبهم ، وهو لا يخرج عن معرفة التلميذ الدرجة التى نالها ، مذيلة بعبارات تثبط الهمم ، وتدخل اليأس فى نفوس التلاميذ ، مثل : «غبي جدا جدا»،أو«مهمل جدا جدا ولا يرجى نجاحك » ، أو« كسلان ولا أمل فى إصلاحك » . وهم يزعمون أنهم قد عالجوه، وانتهوا من علاجه ، وما دروا أنهم بهذه الطريقة قد قضوا على التلميذ ، وأماتوا فيه النشاط والأمل ، والرغبة فى العمل ، وقتلوه بهذا النوع من الإيحاء بشىء يدل على عدم مراعاتهم أصول التربية وعلم النفس ؛ من استعمال التشجيع والترغيب لا التقنيط والتثبيط ، والانتفاع بالإيحاء الخارجى بطريقة مثمرة؛ كأن تقول للتلميذ الذى أخذ صفرا : « لقد أخذت صفرا ؛ لأنك لم تحسن الإصغاء إلىّ . فأصغ جيدا فى الدرس الآتى ؛ لتتقدم فى الموضوع التالي ». أو « لقد نلت اليوم

ثلاث درجات من عشر ، وأرجو أن تنـال غدا خمسا لو اجتهدت » . أو « أنت اليوم أحسن منك بالأمس ، وأرجو أن تكون غدا أحسن منك اليوم » . أو « أنت فى هذا الأسبوع خير منك فى الأسبوع الماضى ، وأرجو أن تكون فى الأسبوع المقبل خيرا منك فى هذا الأسبوع ؛ » باستعمال عبارات التشجيع التى تولد فى نفوس النشء الرغبة فى العمل ، والجد والمثابرة للوصول إلى الأمل .

ولا يكتفى بعض المدرسين بتزويد التلاميذ بالألفاظ والعبارات والأفكار شفويا فى الإنشاء ؛ بل يكلفونهم كتابة الخلاصة فى مذكراتهم ؛ كى ينقلوها فى كراساتهم فى الإنشاء الكتابى . فإذا نظرت إلى كراسات التلاميذ وجدتها متحدة فى المقدمة والخاتمة ، متحدة فى العبارة والأسلوب والأفكار . وبهذه الوسيلة نقتل شخصية الطفل ، ونعوده الاتكال على غيره . وينبغى أن يترك التلاميذ يعتمدون على أنفسهم فى كتابة الموضوعات الإنشائية ؛ كى تظهر شخصية كل تلميذ فى كتابته ، ونعودهم الاعتماد على أنفسهم فى التفكير والكتابة والعمل .

ويزعم بعض المدرسين أنه لا ضرورة إلى تكليف التلاميذ كتابة صواب الخطأ فى الإنشاء الكتابى ، وهذا الزعم خطأ ؛ فليس الغرض من إصلاح الكراسات تحميرها ؛ ولكن الغرض أن يفهم التلاميذ غلطاتهم ، ويدركوا سبب الخطأ ، والصواب ، ووجه الصواب . وينبغى أن يطالبوا بكتابة صواب الخطأ ؛ كى لا يقعوا فيه مرة أخرى ؛ فإن كان إملائيا كرر الصواب مرات كافية حتى يثبت فى ذهن المخطئ ؛ وإن كان لغويا كتب ثلاث مرات مثلا ، وإن كان نحويا أو صرفيا كتب الصواب فى الجملة تامة ، وأعيدت الجملة عدة مرات حتى يثبت الصواب فى نفس التلميذ .

٤ – التربية الاتكالية

إن التربية لدينا تربية اتكالية ؛ فقد أهملنا فى تعليمنا تعويد التلاميذ الاعتماد على النفس ، والاستقلال فى التفكير . ومن الأسباب التى أدت إلى إخفاق كثيرين فى الحياة أنهم لا يستقلون بأنفسهم فى تفكيرهم ؛ بل يعتمدون على غيرهم ، ويتشبهون بهم فى كل شىء ؛ فيفقدون استقلالهم الذاتى ، وتندمج شخصيتهم فى شخصية سواهم حتى تضعف ؛ فالأطفال فى الرياض تقدم لهم الأدوات والأجهزة ، ولا يعودون البحث عنها والعمل بأنفسهم . والتلاميذ فى المدارس الابتدائية والثانوية يلقنون المواد تلقيناً ، أو يدونون ما يمليه عليهم المدرس من مذكرات ، أو ينقلون ما يحل من تمرينات ، ولا تتاح لهم الفرصة فى أن يعملوا مستقلين ، ويبحثوا معتمدين على أنفسهم . فينبغى أن نعود التلاميذ الثقة بأنفسهم ، والاستقلال فى عملهم وتفكيرهم ؛ حتى نربيهم تربية استقلالية ؛ فالأشياء التى يصلون إليها بأنفسهم خير من الأشياء التى يحاكون فيها غيرهم . ولكى نبث فيهم روح الثقة بالنفس ، والشعور بالواجب ، والشعور بالشخصية يجب أن نعودهم من الصغر تحمل التبعة ، والاستقلال فى العمل ؛ بأن نتيح لهم أكبر فرصة ممكنة للاشتراك فى الأعمال المدرسية ، والألعاب الرياضية ، وإدارة المقاصف ، وعمل المنتجات الزراعية ، وتنظيم معارض الأشغال ، وفلاحة البساتين والرسم ، وإنبات الأزهار وتنسيقها ، والاعتماد عليهم فى كل عمل يكون فى مقدورهم ؛ بأن يكون المدرس والمدرسة مرشدين عند الحاجة .

ولا نبالغ إذا قلنا إن المدرس يعتمد على نفسه أكثر من اعتماده على تلاميذه . وهذا عيب شائع فى أساليب التدريس لدينا ؛ فهو يتكلم كثيراً ، ويقول كثيرا ،

ولا يفهم التلاميذ كل ما يقول ، ولا يشرك التلاميذ معه فى العمل ، والبحث ، والتنقيب ، والتفكير .

٥ — الملخصات

يقوم بعض المدرسين فى تدريس الجغرافية والتاريخ والقواعد والأدب والبلاغة وعلم النفس والمنطق بإعطاء ملخصات تذكر فيها الحقائق بإيجاز ، فتصبح المادة جافة . ويشجع التلاميذ على حفظ هذه الملخصات عن ظهر قلب للانتفاع بها فى الامتحان . وبهذه الوسيلة تترك الكتب الدراسية ، ويستبدل بها كتب تسمى ملخصات ؛ فمن ملخص فى الجغرافية إلى ملخص فى التاريخ ، ومن مذكرة فى القواعد إلى مذكرة فى الأدب والبلاغة ، ومن موجز فى علم النفس إلى موجز فى المنطق؛ فهناك ملخصات فى كل مادة من المواد تسرد فيها الحقائق سردا بطريقة جافة، ويحمل التلاميذ على شرائها وحفظها . وليتهم يكتفون بإرشاد التلاميذ إلى الرجوع إليها عند الضرورة قرب الامتحان ، ولكنهم يضيعون أوقات التلاميذ ؛ فبدلاً من أن تدرس المادة بطريقة شائقة جذابة ، وتصاغ الحقائق الجافة فى أسلوب يجتذب قلوب التلاميذ يملون عليهم فى بعض الدروس — فى كراسات خاصة — النقط والعناصر فى المادة التى يقومون بتدريسها ؛ فبدلاً من أن يدرس التلاميذ كتباً متنوعة مشوقة فى كل مادة من المواد يكتبون سطورا فى كل درس، وصفحات فى كل مادة؛ ليحفظوها ويستخدموها فى الإجابة فى الامتحانات ؛ فأوقات التلاميذ ضائعة ، ومعلوماتهم محدودة .ولا غرابة إذا ضعف مستوى التعليم . ولا عجب إذا نفر التلاميذ من الدراسة ، وسئموا العلم والتعليم ؛ لأنهم لم يجدوا من يرغبهم فى البحث، أو يستميلهم إلى الاطلاع ؛ فكأن الدروس دروس إملائية ، فالجغرافية أحيانا تملى على التلاميذ ،

والتاريخ قد يملى، والقواعدقد تملى، والأدب ربما يلقّن، والفلسفة ربما تلقّن، والحصص حصص إملائية أو تلقينية. أما طرق الترغيب والتشويق، والابتداع والابتكار، والبحث والاستقراء، والحوار والنقاش، والفحص والتنقيب، والإرشاد والإعجاب - فمهملة الإهمال كله. وإذا كنت فى شك مما نقول فاطلع على بعض كراسات التلاميذ فى المدارس الابتدائية والثانوية تجدها ملخصات أمليت عليهم فى أثناء التدريس. لهذا كثر التأليف فى هذا النوع من الكتب الدراسية التى يعمد المؤلفون فى تأليفها للإيجاز؛ كى يستطيع التلاميذ وعيها عن ظهر قلب. وليس لدينا ما يمنع أن يسير المدرس فى درسه بالطريقة التى يختارها، والتى تلائم مادته ودرسه، ثم يكلف التلاميذ قبيل انتهاء الدرس كتابة الخلاصة أو الملخص السبورى فى مذكراتهم الخاصة؛ للرجوع إليها عند الحاجة. ولكن الإكثار من الإملاء لا نقره ولا نقول به؛ لأن فى هذه الطريقة مضيعة لأوقات التلاميذ، وتنفيرا لهم من البحث والتنقيب للوصول إلى الأدب والعلم والحكمة، وترغيبهم فى القراءة والاطلاع فى أوقات الفراغ فى المدرسة وخارجها.

٦ — الضغط على التلميذ وإهمال التربية الحقة

إن المدرس يستخدم فى تدريسه ما له من سيطرة ونفوذ؛ فيضغط على حرية المتعلم، ويهمل مواهبه، ويضعف شخصيته، ولا يمنحه الحرية التى تساعده فى تربيته وإظهار ميوله، لتهذيب ما يحتاج منها إلى التهذيب؛ فهو الذى يأمر وينهى، وهو الذى يحكم، وهو الذى يثيب ويعاقب، والتلاميذ خاضعون، يطيعون أشياء ربما لا يقنعون بصحتها، ولا يثقون بها. وينفذون أوامر تبرأ التربية منها؛ فالصلة بين

المعلم والمتعلم المسطرة والعصا ، والضغط والإرهاب ، والوعيد والتهديد ، لا الترغيب والتشويق والتشجيع .

وهناك عزلة كبيرة ونفور أحيانًا بين المدرس والتلاميذ ؛ فالمدرس فى جهة ، والتلاميذ فى أخرى ؛ فهو لا يتصل بهم إلا فى أثناء الدرس ، ولا يدرى شيئا عنهم خارجه . وكثيرًا ما تخفى عليه رغباتهم وميولهم وغلطاتهم ؛ لبعده عنهم ، وبعدهم عنه ، وقلة الصلة بهم . ولو وجدت الصلة الروحية بينه وبينهم لاستطاع أن يهذب ميولهم ، ويقوم معوجّهم ، ويصلح هفواتهم .

إن المدرس لا يفكر إلا فى مادته ونجاح التلاميذ فيها - إن كان ممن يفكرون فى نتائج الامتحانات ، ونسبة النجاح - أما التربية البدنية، والتربية الخلقية ، والتربية الاجتماعية ، والتربية الوجدانية ، والتربية العملية ، والتربية العقلية ، والتربية الجمالية فمهملة الإهمال كله . ومثل هذا المدرس يعد معلما لا مربيا ؛ فهو يفكر فى العلم والتعليم ، ولا يفكر فى تربية الخلق ، والوجدان ، واليد ، والذوق ، والقلب ، والعقل ، والحواس .

ومن الحكمة ألا تقيِّد إرادة المتعلم بكثرة النواهى ؛ كقولك له : « لا تتكلم ، لا تتحرك ، لا تلتفت ، لا تنظر ، لا تسأل ، لا تفعل هذا ، ولا تفعل ذاك » . ومن الحزم أن نتعلم كيف نُعطيه الحرية ، وكيف نربى إرادته، وكيف نقضى على السلاسل والأغلال ، وكيف نمنحه أحسن نوع من الحرية المنظمة . وإن المدرس الذى يكثر الأوامر والنواهى قد نسى أن الطفل روح صغيرة تريد أن تشعر بنفسها ، وتبغى أن تعيش فى عالم الطفولة ؛ فأخذ يقسو فى معاملته ، ويكلفه مالا يطيق ، ويحرمه الحرية ، مع أنها شرط ضرورى لنمو الطفل إذا أحسن استعمالها .

٧ — التربية الخلقية والتهذيبية

لقد عالج حضرة صاحب المعالى الوطنى القدير، والمصلح الكبير الأستاذ أحمد نجيب الهلالى باشا « الناحية الخلقية والتهذيبية » فى تقريره الثمين عن التعليم الثانوى بمصر وعيوبه ووسائل إصلاحه حينما كان وزيرا المعارف فى المحرم سنة ١٣٥٤هـ، وإبريل سنة ١٩٣٥ م . ويسرنا أن نورد هنا هذه الكلمة التى وصف بها معاليه تلك الناحية فى مدارسنا .

« لقد اتضح أن المدارس فى نظر الوزارة ، والنظار ، والمعلمين ، والطلاب معسكرات علمية : تبعث إليها القيادة العليا بالأوامر ، فيتلقاها النظار والمدرسون بالطاعة ، وينفذونها بصرامة ، وينصاع لها الطلاب بذلة . فأدى ذلك إلى إهمال ناحية من أهم نواحى التربية ، وهى الناحية الخلقية .

أما النظار فقد أصبحوا أشبه برؤساء مصالح إدارية مع أنهم رؤساء روحيون ، لهم — أو ينبغى أن يكون لهم — أعمق الأثر فى بناء أخلاق الطلاب . ولكن الوزارة كلفتهم أعمالا يستحيل عليهم تنفيذها ، وإذا نفذت فنتيجتها مشكوك فى قيمتها . وبينما تكلف الوزارة النظار تلك الأعمال المرهقة ، تكف أيديهم عن العمل الفنى الذى يجب أن يزاولوه بأنفسهم لصلتهم الوثيقة به .

وأما المدرسون فقد أصبحوا ملقنين ، ومن الغريب أن يعهد إلى الأساتذة بإصلاح الكراسات ، وتكف أيديهم عن إصلاح الأخلاق . إن هذا النظام قد أوشك أن يجعل المدرس حاكيا فى الفصل ، أو كتابا متحركا ؛ مع أن مهمة المعلم ، أو المربى بتعبير أصح ، هى تكوين الشخصية ، وتقويم الخلق . وهذا يستدعى اتصاله بالطلاب فى حجرة الدراسة، وخارج حجرة الدراسة . وقد صرح بذلك المؤتمر الدولى السادس

عشر للتعليم الثانوى ، المنعقد فى (رومة) سنة ١٩٣٤ ، إذ جاء فى القرار الثانى له : « لما كانت الحياة التى يجب أن تقوم المدرسة بإعداد الشباب لها ، ليست إلا مجموعة علاقات بين الفرد ، والأسرة ، والأمة ، والإنسانيـة — فإن المؤتمر يوافق على أن الغرض الأساسى من المدرسة هو تـكوين شعور خلق ووطنى عال » . وزاد المؤتمر هـذه الفكرة وضوحا وقوة بقراره الثالث الذى يقول : « ليس من الممكن تصور التربية مقصورة على المواد المدونة فى المناهج ، ولهذا كان لاشتراك التلميذ فى الحيـاة الاجتماعية أثره الفعال فى تـكوينه . وعلى ذلك فإن الطرق الواجب اتباعها فى التربية يجب أن تستمد من النظم القائمة ومن التقاليد الحية لـكل شعب ؛ يضاف إليها تلك التى يسلـكها كل مدرس مسوقا بمواهبه الخاصة، واتجاهه الشخصى» .

لهـذا نرى أن تتوثق العلاقات بين المدرسين والطلاب وأولياء أمور الطلاب ، يتعاون فى ذلك الناظر والمدرسون . وبما أن النظار يستحيل عليهم الإشراف الروحى على جميع الطلاب ، كان من الواجب أن يقسم التلاميذ إلى مجموعات يشرف على كل مجموعة أحد المدرسين . ولقد أصبح من المتفق عليه أن علاقة المدرسة بآباء التلاميذ وأولياء أمورهم عامل لا يمكن إغفاله . فكما أن الآباء فى حاجة إلى المدرسة لترشدهم إلى خير ما يتبع مع أبنائهم ، كذلك المدرسة — وهى وكيلة عن الآباء فى تربيـة الأبناء — فى حاجة إلى الاسترشاد بآرائهم فى كثير من شؤون التلاميذ . فإن التعليم لا يستطيع أن ينظر إلى الطالب على اعتبار أنه وحدة منعزلة عن أهله ، وإنمـا الطفل عضو فى أسرتين : أسرته الأهلية وهى المنزل ، وأسرته العلمية وهى المدرسة ، ولابد من اتصالهما إحداهما بالأخرى اتصالا وثيقا .

ولدى المدرسة فرص كثيرة تستطيع أن تنتهزها لتحقيق هذه الغاية ، كحسن استقبال الآباء ، والإصغاء إليهم ، ودعوتهم لزيارة المدارس ، ومشاهدة الحفلات التى تقيمها للألعاب ، ولتوزيع جوائز الفائقين .

ولهـذا العمل فائدة أخرى ؛ إذ يخفف عن الوزارة عبء مقابلة الآباء وأولياء الأمور الذين يحضرون إلى الديوان العام بصدد مسائل تقضى طبيعتها أن يتولى دراستها والفصل فيها نظار المدارس ومدرسوها .

ومما ينبغى أن تعنى به المدارس : الجمعيات المدرسية من علمية ، ورياضية ، وفنية ، وأدبية ؛ وكذلك الرحلات العلمية التى تقوى الثقافة الاجتماعيـة ، وتربط الدراسة المدرسية بمظاهر الحياة العملية . ولقد آسفنى ما أحسست من أن الروح التى أوحت الاهتمام بهذه الضروب من النشاط المدرسى فى سنة ١٩٢٥ قد فترت الآن فتورا كبيرا .

كذلك ينبغى أن تتجه عناية المدارس إلى تنظيم المحاضرات الخارجة عن المنهج الدراسى ؛ ليتسع الأفق العلمى للتلاميـذ ، ويتشوقوا للاطلاع والقراءة ، ويتبينوا أن المدرسة ليست آخر محطة فى طريق الثقافة .

ويتصل بذلك عمل الطلاب فى المـكتبات . وهذا يقتضى إصلاح المـكتبات نفسها وما تحتويه من كتب ؛ فقد أصبحت مكتبات المدارس مكتظة بمؤلفات يراعى فيها مجاملات المؤلفين ، أكثر مما يراعى فيها مصلحة التلاميذ والمدرسين . وقد رأيت بنفسى أن بعض المدارس لم يستعر فيها تلميذ واحد كتابا من كتب المـكتبة » .

هذا ما ذكره حضرة صاحب المعالى الأستاذ المصلح الـكبير أحمد نجيب الهلالى باشا سنة ١٩٣٥ . وهذا ما نكرره اليوم ؛ راجين أن يفكر النظار والمعلمون فى الناحيتين : الخلقية والاجتماعية ، ويعنوا بهما عنايتهم بالناحية العلمية . ورحم الله الزعيم الخالد الذكر سعد زغلول باشا حيث قال : « لسنا فى حاجة إلى كثير من العلم ، ولـكننا فى حاجة إلى كثير من الأخلاق الفاضلة » .

٨ - التربية القومية

هل تجد التربية القومية نصيبها اللائق بهـا فى مدارسنا ؟ إن التلميذ المصرى قد يعرف عن جغرافية أوروبة أكثر مما يعرف عن جغرافية بلاده ، وربما يعلم عن تاريخ أوروبة أكثر مما يعلم عن تاريخ مصر قديمًا وحديثًا . وقد يعرف من اللغة الإنكليزية أو الفرنسية أكثر مما يعرف من اللغة العربيـة . أما حقوق الوطن ، وما يجب عليه نحوه، والتربية الوطنية وما يتعلق بهـا فلا تدرس إلا فى السنة الثالثة من المدارس الثانوية . وجدير بنا أن نعنى بالناحية القومية والتربية الوطنية فى كل سنة من سنى الدراسة، وفى كل مرحلة من مراحل التعليم ؛ حتى نربى التلاميذ من الصغر تربية قومية ، ونبث فيهم الروح المصرية من المهد، والعادات المصرية والعربية من الطفولة ؛ كى يدركوا ما لهم من حقوق، وما عليهم من واجبات .

وإن ما نراه من تهاون فى الناحية القومية فى المجتمع ناشئ عن الإهمال فى البيت والمدرسة لهذه الناحية. انظر نظرة واحدة إلى الملابس والأزياء، وإلى ما كتب على الحوانيت التجارية من أسماء ــ تجد الناس فى أزياء متباينة ، واللوحات المعلقة على الحوانيت قد كتبت بلغات متنوعة ؛ من فرنسية ، وإيطالية ، وإنـكليزية ، ويونانية ، وعربية . وإن بلدًا تشعر بنفسها وتعتز بقوميتها يجب أن تفـكر فى لغتها وعاداتها ؛ ففى انجلترة جو إنـكليزى، وأزياء إنـكليزية ، وإعلانات إنـكليزية، ووحدة فى القومية واللغة . وفى فرنسا وألمانيا وإيطاليا تجد الروح القومية سائدة . وإننا نرجو أن يأتى اليوم الذى نعتز فيه باللغة العربية، والوحدة القومية؛ حتى نعيد مجد مصر القديم، وحضارتها الخالدة.

٩ — العناية بالمظاهر أكثر من العناية بالحقائق

إن العناية بالمظاهر أكثر من العناية بالحقائق فى أساليب التدريس ؛ فالمدرس لا يفكر إلا فى الأمور الشكلية ، ولا يعنى إلا بعدد الموضوعات ؛ لأن هناك من المفتشين من يهتمون كثيرًا بهذا العدد ، ويغفلون حسن اختيار الموضوعات ، وملاءمتها للتلاميذ ، واستفادتهم من الإصلاح . فالمدرس يأخذ الكراسات ويصلحها فى الخارج ، ثم يوزعها على التلاميذ ، ويكلفهم كتابة صواب الخطأ الإملائى أو النحوى أو اللغوى أو الحسابى أو الهندسى . كل هذا والتلميذ لا يعرف سبب الخطأ ، فلا عجب إذا تكرر الخطأ مرة أخرى أو مرارًا . وهذا يدل على أن التلميذ لم يستفد من إصلاح الخطأ . ولو قام التلميذ بإصلاحه بنفسه ، وعرف السبب ، وأدرك الصواب ، وكرره عدة مرات ، ما وقع فيه مرة أخرى . وفى استطاعة بعض المدرسين القيام بتدريس درس جيد أمام ناظر المدرسة أو المفتش ، فيملك هذا وذاك بجودة أسئلته ومناقشته ، وحسن طريقته ، وتنظيم كتابته على السبورة ، وإعداده لدرسه . ولكن إذا أخذت تسأل تلاميذه فيما درسوه من بدء السنة إلى يوم التفتيش وجدتهم أحيانًا لا يعرفون شيئًا مما أخذوه فى كراساتهم ، ودوّنوه بأيديهم من المسائل والتمرينات والتطبيقات . وهذا أكبر دليل على أن المدرس كان يكتب الحل على السبورة ، والتلاميذ ينقلونه ، ولا يفقهون شيئًا مما يكتبون . وقد تجد من هذه التمرينات أكثر من كراسة ؛ فالكراسات منظمة نظيفة ، والتمرينات كثيرة ، ولكن ما الفائدة من إعطاء ثلاثين تمرينًا أو أكثر إذا كان التلاميذ لا يفهمونها جيدًا ؟

١٠ - شعور المدرس نحو تلاميذه

هناك مدرسون لا يشعرون نحو تلاميذهم شعورهم نحو أبنائهم ، ولا يعملون لإفادتهم والنهوض بهم ؛ يدخلون الفصول ، ويعطون الدروس ، ولا يبالون أفهم التلاميذ أم لم يفهموا ؟ وهل استفادوا أم لم يستفيدوا ؟ وهل انتفعوا بوقتهم أم لم ينتفعوا ؟ وقد يخرج المدرس عن الدرس ويضيع الحصة لأقل سبب. ومثل هذا المدرس غير مخلص فى عمله ، لا يعرف معنى إرضاء الله أو الضمير . وهذا النوع من المدرسين قليل ، ولله الحمد .

١١ - معاملة التلاميذ معاملة واحدة

إن المدرس يعامل التلاميذ معاملة واحدة ، ولا يفكر فيما بينهم من فروق فى الميول والذكاء؛ فيعطيهم مادة واحدة فى وقت واحد، من غير تفرقة بين الذكى والغبى والمتوسط ؛ فيضيع وقت الذكى ، ويرهق الغبى . وجدير به أن يعطى كلاً منهم ما يلائمه ؛ كى ينتفع الذكى بذكائه ، ولا يرهق الضعيف . وفى المدارس الصغيرة التى لا تتعدد فيها الفصول فى الفرقة الواحدة يمكن تقسيم الفصل إلى ثلاث جماعات : ا - للأذكياء ، ب - للمتوسطين ، جـ - للضعفاء . وفى المدارس الكبيرة ينبغى أن يجمع الأذكياء فى فصل ، والمتوسطون فى آخر ، والمتأخرون فى ثالث ؛ حتى يوضع كل تلميذ فى الموضع الذى يناسب مستواه العقلى والعلمى ، فيستطيع كل تلميذ أن يعمل بحسب مواهبه وقواه العقلية ؛ فلا يتأخر القوى فى انتظار الضعيف ، ولا يشعر هذا بضعفه بين الأقوياء .

١٢ — من الخطأ مخاطبة الطفل بلغة لا يفهمها

إننا فى تدريسنا نخاطب التلميذ بلغة لا يفهمها ؛ كأنه رجل ، ونعطيه طعاماً لا يمكنه هضمه ، ونقدم إليه مواد منفرة ، ولا نحاول جعلها محبوبة لديه بما ندخله من اللعب والتمثيل والتشويق ، وقيامه بنصيبه فى إعداد مناظرة ، وإعطاء محاضرة قصيرة ، وتمثيل جزء من رواية ، وكتابة قطعة شعرية أو نثرية . ومن الواجب أن نخاطب الطفل باللغة التى يفهمها ، ونعمل لنكوّن منه رجلاً كاملاً ، وعضواً نافعاً فى الحياة ، يعمل برغبة ، ويشعر بالواجب ، ويتحمل المسئولية ، ويضبط شعوره ، ويثابر حتى يصل إلى الغاية التى يرمى إليها .

١٣ — المتعلم والحياة العالمية والعملية

إننا فى أسلوبنا فى التعليم لا نفكر فى إعداد المتعلم للحياة العالمية بإيجاد صلة مباشرة بين المدرسة والعالم الخارجى ؛ بأن نجعل المدرسة مكاناً للحياة العملية ، يستطيع فيه التلميذ القيام بكثير من الأعمال ، ويشعر فيه بأنه عضو عامل فى مجتمع صغير . وإن علم الاجتماع فى العصر الحاضر لا يتطلب منا أن نسأل أنفسنا هذا السؤال فحسب ، وهو : كيف أجيد تعليم القراءة والكتابة والحساب والجغرافية ؛ بل كيف أجعل هذا التلميذ صالحا لأن يعيش فى العالم الذى يعرفه ، وأجعله يساعد بعمل ما يستطيع لتحسين العالم الذى نحن فيه ؛ عالم السعادة والسلم ، والأخلاق والكمال ، والصحة ، والعلم ، والاختراع والإبداع . ففى درس المطالعة الأدبية يجب ألا يكون الغرض أن يختبر التلميذ فى الأشياء التى عرفها من الحكاية أو القطعة

الشعرية ؛ بل الغرض أن تبث فى التلميذ رغبة شديدة فى الأدب ، ولذة كبيرة من الحكاية التى قرئت ، أو القطعة التى حفظت ؛ حتى يعرف كثيراً عن الصلة بين المدرسة والحياة الخارجية[١] .

إننا لا نريد أن يعتمد المدرس على الكتب أكثر من اعتماده على الحياة ؛ فقد تكون الكتب بعيدة عن الحياة ، وتكون الحياة بعيدة عنها ، كما لا نريد أن يعتمد التلاميذ فى دراستهم على الكتب وحدها ، وينسوا الحياة ومافيها . وجدير بنا أن نجعل المدرسة ممثلة للحياة ، متصلة بها كل الاتصال ؛ فندرس الشىء فى بيئته إذا أمكن ، ونرجع إلى الكتاب إذا تعذرت دراسته فى البيئة .

وفى دروس مبادئ العلوم والجغرافية والتاريخ يستطيع المدرس الماهر أن يعتمد على الطبيعة ومظاهرها ، وعلى البيئة الجغرافية والآثار التاريخية أكثر من اعتماده على الكتب وحدها ؛ كى تكون مادته حية ، ويكون فى درسه حياة .

وإننا فى مدارسنا نعنى بالناحية العلمية أكثر من الناحية العملية ؛ فنحن دائما نبحث عن مقدار ما يعرفه التلميذ ، ونهمل التفكير فيما فعل ، وماذا يستطيع أن يفعل ، وما مقدار ما يفعل ؛ فمدارسنا لم تعن بالجانب العملى من الحياة ، ولم تعمل التربية رجال ليعملوا . ولذا أهملت الأعمال اليدوية ، وجعلت الصناعات خاصة بالطبقة الفقيرة التى تدعى الطبقة العاملة . ولسنا فى شك مطلقا من أن العلم قوة ، لا ، بل أكبر قوة فى يد الإنسان ، وهو قوة اليوم كما كان قوة بالأمس ، وسيكون قوة إلى الأبد . ولكننا فى حاجة إلى العلم الذى يؤدى إلى العمل ؛ العلم الذى يمكن تنفيذه والانتفاع به عمليا ؛ بتحويله إلى عمل ؛ فالعلم بلا عمل لا خير فيه مثله مثل شجرة بغير ثمر[٢] .

والغريب أن خريجى المدارس الزراعية والصناعية والتجارية يفكرون دائما فى

---

(١) ارجع إلى ما كتبناه فى كتاب « الاتجاهات الحديثة فى التربية » عن طريقة «دلتون» وإعداد الطفل للحياة العالمية .

(٢) ارجع إلى كتاب : « الشخصية » للمؤلف .

التوظف، و يُقبلون على الأعمال الكتابية ، ويهملون الناحية التى أعدوا أنفسهم لها ؛ فخريجو الزراعة لايفكرون فيها، وخريجو المدارس الصناعية لايفكرون فى الاعتماد على أنفسهم فى إنشاء معمل أو مصنع صغير ، وخريجو المعاهد التجارية لا ينتفعون بدراستهم بطريقة عملية ، ولا يقدمون على إنشاء محال تجارية .

وأغلب الظن أن هذا النقص ناشئ عن عنايتنا بالناحية النظرية أكثر من عنايتنا بالناحية العملية . ولا علاج لهذا إلا الإكثار من الناحية العملية فى المدرسة ؛ حتى يعتاد الطالب الاعتماد على نفسه ، ويفكر فى العمل الحر المنتج ، ويفضله على الوظيفة ، ويعمل ليكون زارعا أو صانعا أو تاجرا بعد انتهائه من الحياة المدرسية ، وتستطيع الأمة أن تنتفع بثروة مصر الزراعية والصناعية والتجارية كما ينبغى .



الفصل الخامس عشر

التعليم الحرّ في مصر وكيف نصلحه

إن نظرة واحدة إلى المدارس الحرة الآن تدل على أن هناك نهضة فى التعليم الحر ؛ نهضة فى المدارس ، ونهضة فى التعليم ، ونهضة فى مستوى التلاميذ ؛ وذلك بفضل ما بذلته الوزارة وما تبذله من مجهود فى سبيل ترقية معاهد التعليم الحر ، والعمل لتحسين مستوى المدرسين وإنصافهم . ورغم ما قامت به الوزارة من العمل لترقية المدارس الحرة ، والنهوض بها ، ما زلنا نقول إن بها عيوبًا تحتاج إلى إصلاح وعناية . وإن تعليما يضم أضعاف ما فى المدارس الأميرية من التلاميذ لجدير بكل عناية . وأرجو فى الكلمة التالية أن أوفق إلى ذكر ما فى هذا النوع من التعليم من عيوب ، وما يتطلبه من وجوه الإصلاح .

إن التعليم الحر فى مصر يذكرنى بالمدارس الحرة التى كانت بانجلترة فى القرن التاسع عشر ؛ تلك المدارس التى كان يبدو فيها الروح التجارى ، ويهمل روح التعليم ، وتُنسى مصالح التلاميذ والآباء والمجتمع ، ويبخس فيها المدرسون حقوقهم . وكان أصحابها يعلنون عنها حيثما ذهبوا ، وأينما كانوا ، بتوزيع بطاقات وإعلانات لهم ، تذكر فيها : « مدرسة كذا : للبنين والبنات ، داخلية ، ونصف داخلية ، وخارجية . للروضة والابتدائى والثانوى . مدرسون أكفاء . بناء صحى . موقع جميل . غذاء جيد . للفقراء بالمجان » . وما إلى ذلك من أوصاف ذكرها الكاتب الاجتماعى

(شَارْلز دِكِنْز) فى رواية من رواياته الخالدة تدعى « نِيقُولاَس نِيقُلْبى[1] » عن مدرسة حرة من المدارس الإنكليزية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . فتلك المدرسة التى قد يحكم عليها من هذا الوصف بأنها المثل الأعلى للمدارس لم يكن بها من المدرسين إلا ذلك الشاب (نِيقُولاَس) ؛ وهو شاب لم يعرف عن التدريس قليلاً أو كثيرا ، اضطرته الحاجة بعد أن أوصد كل باب فى وجهه إلى الالتجاء إلى مهنة التعليم ؛ تلك المهنة التى كانت تعد لسوء الحظ ملجأ لمن يشاء العمل من المتعطلين . وكانت هذه المدارس لا تصلح فى الواقع إلا لتكون سجونا أو قبورا للأحياء ؛ فلا نور ولا هواء ، أما الأدوات فكانت معدومة ، وأما الغذاء فلم يكن بغذاء ، وأما الأطفال فكانوا يتضورون جوعا ، بعيدين عن أمهاتهم وآبائهم الذين لا يعرفون شيئًا مما يقاسيه أبناؤهم فى هذه المدارس ، أو هذه السجون . ولعدم استكمال الشروط الصحية ولسوء التغذية كانت الأمراض تفتك بهم فتكاً ذريعًا .

وليس من العدالة أن نقسو فى الحكم على مدارسنا الحرة اليوم ؛ فهناك مدارس لبعض الأفراد والجماعات لا تقل عن مدارس الوزارة فى مدرسيها ، وتعليمها ونتائجها ومبانيها ومظاهرها ، ولكن من العدل أن نقول : إن هناك مدارس حرة تحتاج إلى كثير من الإصلاح ، وكثيرين من الغيورين على العلم والتعليم .

إن هناك مدارس حرة لا تفكر فى التلميذ ومستقبله ، ولا فى الأب وما يقاسيه من التقتير على نفسه وأسرته فى سبيل تعليم أبنائه ، ولا تفكر فى الأمة التى ينسب إليها كل هؤلاء التلاميذ . إنها لا تفكر فى كل هذا ، ولا تفكر فى إنصاف المدرسين لديها ، وترقية مستوى التعليم بها ، ولكنها تفكر فى المال ، فتتاجر فى الأدوات ، ولا تصرف كل الكتب المقررة لتلاميذها كما تفعل الوزارة ، وتعمل مناقصات بين

---

(١) اقرأ كتاب « أروع القصص » لشارلز دكنز بقلم المؤلف ، ورواية :
Nicholas Nickleby, by Charles Dickens.

المبتدئين من المدرسين فى المرتبات ، وكانت تحرمهم فرق المرتب مدة الصيف . إنها تفكر فى الإعانات التى تتسلمها من الوزارة ، وفى مقدار ما توفره من مصروفات التلاميذ ، وما تربحه من غذاء هؤلاء الأطفال المساكين ، ومن الحفلات الخيرية التى تقام لسد العجز كما يدَّعى بعض أصحاب هذه المدارس .

وقد نجد إعلانات عن بعض المدارس فى الصحف والطرق بأن نتيجتها مائة فى المائة ، ولو تتبعنا الحقيقة لوجدنا أن المتقدم أحيانًا تلميذ واحد ، وقد نجح هذا التلميذ، ولو رسب لكانت النتيجة صفرا فى المائة . وليت أصحاب هذه المدارس يتحاشون الخطأ العلمى فى إعلانهم عن أنفسهم . وبجانب المدارس الحرة التى لا ينجح فيها أحد مدارس لا تزيد نتيجتها على عشرين فى المائة ، ومعنى ذلك أنها أضاعت سنة من حياة ثمانين فى المائة من تلاميذها . وسنة من الحياة أو الحياة كلها ربما لا تكون لها قيمة فى نظر بعض أصحاب هذه المدارس . وما ذا يهمهم ما داموا مهرة فى الإعلان عن أنفسهم بكل وسيلة من الوسائل ، وما دام الآباء مساكين يضطرون إلى تعليم أبنائهم بها، ويخدعون بالإعلان بأنها خاضعة لتفتيش وزارة المعارف ؟

الأسباب التى تدعو إلى إصلاح المدارس الحرة :

وإنى أرجو إصلاح هذا النوع من المدارس للأسباب الآتية :

١ — المحافظة على أوقات الأطفال والتلاميذ من الضياع ؛ فالوقت هو الحياة كما يقول الأمريكيون . وبالتفكير فى هؤلاء الأطفال نحمى الشعب ، ونصون ثروته العلمية والعقلية ، ثروته المنتظرة من تلاميذ اليوم رجال الغد .

٢ — حماية المدرسين الذين يقومون بالتدريس فى تلك المدارس ؛ لأننا لا ننتظر من المدرس بالمدارس الحرة أن يكون المثل الأعلى فى أداء الواجب إلا إذا شعر بالراحة ، وكان غير مهضوم الحقوق ، وعومل بكل عدالة وإنصاف .

ومع الأسف نجد كثيرين من مدرسى هذه المدارس يشكون كل عام مر الشكوى ؛ يشكون سوء المعاملة ، وقلة المرتبات ، وكثرة عدد التلاميذ فى الفصول ، وكثرة الحصص مع تحديد الوزارة لعدد التلاميذ فى الفصول وعدد الحصص ، مما يؤدى إلى الإهمال وسوء النتائج .

٣ — حماية الآباء من أن ينفقوا على أبنائهم سدًى من غير نتيجة .

عيوب المدارس الحرة :

وتنحصر عيوب المدارس الحرة فيما يلى :

١ — نقل التلاميذ فى المدارس الابتدائية من سنة إلى أخرى بغير استحقاق .

٢ — قبول التلاميذ الجدد فى المدرسة فى السنة التى يرغبون فيها ، لا فى السنة التى يستحقونها .

٣ — كثرة عدد التلاميذ فى الفصول، مع اختلافهم فى المقدرة العقلية والمعلومات، مما يؤدى إلى وجود قوًى غير متجانسة أو غير متقاربة فى فصل واحد ، قوًى يصعب التوفيق بينها .

٤ — عدم وجود الأدوات المدرسية الكافية ، والنقص الكبير فى معامل الطبيعة والكيمياء ، مما يجعل التدريس النافع عسيرا .

٥ — تمرد بعض الطلبة الكبار فى المدارس الثانوية على المدرسين ، وبخاصة غير الأكفاء منهم ، وإهمال بعض النظار إصلاحهم ؛ مخافة أن يتركوا المدرسة . وبذلك يكثر الإهمال ، وتعم الفوضى ، ويقل احترام المعلمين ، ويسوء النظام .

٦ — المكتبات فقيرة ، وخالية من الكتب التى تشجع التلاميذ على القراءة والاستعارة والبحث والاطلاع . ولا نبالغ إذا قلنا إن المكتبات معدومة فى كثير من الأحيان .

طرق الإصلاح

وإليك طرق الإصلاح التي يجب أن تتبع في المدارس الحرة :

١ — أن يكون نظار المدارس الحرة من الفنيين المعروفين بالمقدرة العلمية .

٢ — أن تتولى الوزارة تعيين المدرسين ؛ كي تقفل أبواب المساومة والمناقصة معهم، على أن تقوم كل مدرسة بتوريد فرق المرتبات لخزينة وزارة المعارف؛ لتتمكن الوزارة من إعطاء المدرسين مرتباتهم كاملة في أول كل شهر . وبهذه الوسيلة تضمن الوزارة وجود مدرسين أكفاء في المدارس، وتخدم التعليم من جهة، والمدرسين وأولياء الأمور من جهة أخرى ، وتعطى كل ذي حق حقه .

٣ — أن تنشأ المعامل الكافية للطبيعة والكيمياء ؛ كي لا يحرم الطلبة التجارب والاختبارات العملية بأنفسهم ، مع إرشاد أساتذتهم ؛ لأن التعليم النظرى وحده لا يكفي ، وبخاصة المواد التي تحتاج في فهمها إلى التجارب . وأن تكثر المدارس من المصورات التاريخية والجغرافية والعلمية ووسائل الإيضاح .

٤ — أن تعنى المدارس بالمكتبات ؛ بحيث يُختار لها من الكتب ما يشجع التلاميذ على القراءة والاطلاع في المدرسة ، وفي أوقات الفراغ ، ويكون بها من المراجع ما يساعد المدرسين في البحث وإعداد الدروس والاستعارة .

٥ — أن تعمل الوزارة على أن تكون الكتب والكراسات والأدوات بأيدى التلاميذ في بدء السنة الدراسية .

٦ — أن يقبل التلاميذ الجدد في المدرسة في السنة التي يستحقونها ، لا في السنة التي يرغبون فيها . وألا ينقلوا في المدارس الابتدائية من سنة إلى أخرى إلا باستحقاق ؛ بأن يتبع في امتحانهم ما يتبع مع تلاميذ المدارس الثانوية الحرة في امتحانات النقل .

٧ — أن تفتش المدرسة ثلاث مرات فى السنة على الأقل ؛ بحيث يكون التفتيش النهائى فى أواخر السنة الدراسية ؛ كى لا يحدث تقصير فى الدراسة ، ويعمل المفتشون للعناية بالحقائق والتربية الحقة أكثر من العنـاية بالمظاهر ، وإصلاح عيوب المدرسين بالنصح والإرشاد .

٨ — ألا تعطى المدرسة حق الإعانة إلا بعد ظهور النتيجة فى الامتحانات العامة ؛ بحيث لا تقل عن خمسين فى المـائة من مجموع التلاميذ المقيدين فى السنة الدراسية ، لا من مجموع المتقدمين للامتحان .

٩ — أن تعنى المدرسة بوجود قُوًى متجانسة متقاربة فى المستوى العقلى والمستوى العلمى فى الفصل الواحد ؛ كى يمكن التوفيق بين هذه القُوَى المختلفة. ولـكى تستطيع المدرسة إيجـاد فصول متوازية أو متقاربة فى المستوى العقلى والعلمى يجب أن يكون النظار والمدرسون على صلة بالاتجاهات الحديثة فى التربية ، ولهم دراية تامة بالاختبارات العقلية أى مقاييس الذكاء .

هذا ما عنّ لى من آراء فى التعليم الحر أرجو أن تجد فيها الوزارة بعض ما تنشده من وسائل الإصلاح ؛ لرفع مستوى المدارس الحرة إلى المثل الأعلى الذى نبغيه دائما . وفى الختام أسأل الله كل هداية وتوفيق .

(أ) أهم المراجع العربيـــــة

(١) مقدمة ابن خلدون .

(٢) إحياء علوم الدين للإمام الغزالى

(٣) التعليم الثانوى : عيوبه ووسائل إصلاحه سنة ١٩٣٥ لحضرة صاحب المعالى الأستاذ أحمد نجيب الهلالى باشا .

(٤) مستقبل الثقافة فى مصر . فى جزأين ، للدكتور طه حسين بك ، بمكتبة المعارف بالقاهرة والإسكندرية .

(٥) أصول التربية وفن التدريس ، للأستاذ أمين مرسى قنديل .

(٦) قياس الذكاء، للأستاذ إسماعيل محمود القبانى . طبعة الوزارة .

(٧) تاريخ التربية ، للأستاذ مصطفى أمين .

(٨) «فى علم النفس» ، الجزء الأول ، للأساتذة حامد عبد القادر ، ومحمد عطية الإبراشى ، ومحمد مظهر سعيد .

(٩) «فى علم النفس»، ج ٢ وج ٣ للأستاذين حامد عبد القادر ومحمد عطية الإبراشى.

(١٠) تقرير عن بعض نواحى التعليم فى مصر سنة ١٩٢٩ للمستر مان .

(١١) مجلة التربية الحديثة للجامعة الأمريكية بالقاهرة ج ١ سنة ١٩٣٤ و ج ٤ سنة ١٩٤٢ .

(١٢) التربية الإنكليزية، للمؤلف . بمكتبة المعارف بالقاهرة والإسكندرية .

(١٣) الشخصية ، للمؤلف « « « «

(ب) – أهم المراجع الإنكليزية

(1) On Education, by Bertrand Russell.
(2) The Nursery Years, by Susan Isaacs.
(3) What is & What Might be, byH olmes.
(4) The Tragedy of Education, by. Holmes.
(5) The Changing School, by Ballard.
(6) Democracy & Education, by Dewey.
(7) Psychology of Early Childhood,by William Stern.
(8) The Teacher's Encyclopaedia.
(9) The Measurement of Intelligence, by Terman.
(10) Handbook of Tests, by Cyril Burt.
(11) School & Child, by John Dewey.
(12) The Educative Process, by Bagley.
(13) Principles of Teaching, by Welton.
(14) Mental Tests, by P.B. Ballard.
(15) Education: Its Data & First Principles, by T. Percy Nunn.
(16) New Schools For Old, by Evelyn Dewey.
(17) The Adolescence, by Stanley Hall.
(18) The Dramatic Method of Teaching, by H. Finlay-Johnson.
(19) The Play Way, by H.Coldwell Cook.
(20) The Teacher & The School, by C.P. Colgrove.
(21) Principles of Class Teaching, by Findlay.
(22) The Principles of Education, by Raymont.
(23) Psychological Principles of Education, by Horne.
(24) Schools of To-Morrow, by John Dewey.

(25) Text-Book in the Principles of Education, by Henderson.
(26) The Foundations of Education, by Findlay.
(27) The Improvement of Teaching, by Freeland.
(28) Education, by Campagnac.
(29) Errors in School, by John Adams.
(30) The Montessori Principles & Practice, by Culverwell.
(31) Educational Movements & Methods, by John Adams.
(32) Modern Elementary School Practice, by Freeland.
(33) Modern Developments in Educational Practice, by John Adams.
(34) Emile or Education, by J.J. Rousseau.
(35) Education on the Dalton Plan, by Helen Parkhurst.

فهرس الأعلام

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

فهرس الموضوعات



الفصل الأول

الفصل الثانى

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادى عشر

الفصل الثانى عشر

الفصل الثالث عشر

الفصل الرابع عشر

الفصل الخامس عشر

كتب للمؤلف

(١)	الشخصية .	ص ١٢
(٢)	التربية الإنكليزية .	٢٠
(٣)	روح التربية والتعليم .	٥٠
(٤)	الاتجاهات الحديثة فى التربية .	٥٠
(٥)	التربية والحياة ، أو تعميم التعليم .	٤٠
(٦)	أروع القصص لشارلز دكنز .	١٠
(٧)	قصص فى البطولة والوطنية.	١٠
(٨)	فى علم النفس ، جـ ١ ، بالاشتراك مع الأستاذين عبد القادر ومظهر	ص ٤٠
(٩)	« « جـ ٢ « « الأستاذ حامد عبد القادر	٣٠
(١٠)	« « جـ ٣ « « « « «	٦٠
(١١)	خليفة فى الخيال ، بالاشتراك مع الأستاذين جوهر وعبد اللطيف	٦
(١٢)	الحصان المسحور ، « « « « «	٦
(١٣)	فى سبيل الوطن « « « « «	٧

(١٤) المفصل فى اللغة السريانية وآدابها ، طبعة الوزارة .

(١٥) الأساس فى اللغة العبرية وآدابها ، طبعة الوزارة بالاشتراك مع الأستاذين : المرحوم الدكتور علي العناني والأستاذ ليون محرز .

ظهر حديثاً للمؤلف

الكتابان الآتيان :

(١) الاتجاهات الحديثة فى التربية

(٢) التربية والحياة

ويطلبان من :

مكتبة عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر